خريطة الشخصيات

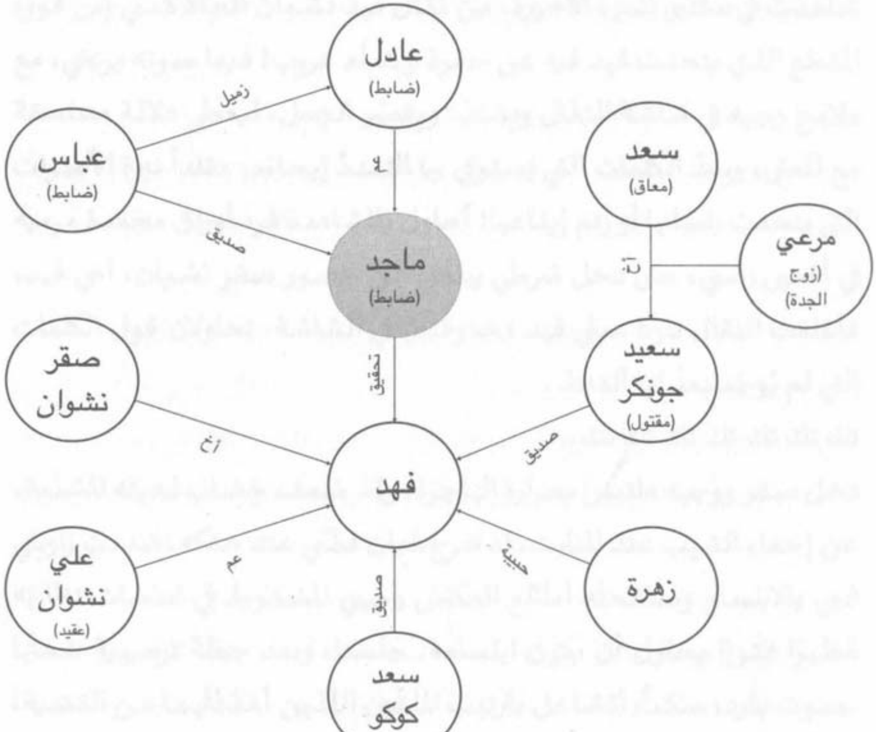

فكرة الساعة

شاهدتُ في مكتبي للمرة الأخيرة، من نقّال فهد نشوان الجالاكسي إس فور، المقطع الذي يتحدث فهد فيه عن حفرة بيت أم غريب؛ فيما صوته يرتخي، مع ملامح وجهه في شاشة النقّال ويشتدّ؛ ويقصِّر الجمل، ليعطي دلالة متناسقة مع المعنى، ويمدّ الكلمات التي يستوفي بها التمددُ إيحاءَه، مقلداً نبرة الأصوات التي يتحدث بلسانها أو رتمَ إيقاعها؛ أحاول بالمشاهدة فرد أوراق مجعدة مرمية في أقصى رأسي، حتى دخل شرطي يبلغني عن حضور صقر نشوان، أخي فهد، فأغلقت النقال تاركا عينَي فهد مخنوقتَين في الشاشة، تحاولان قول الكلمات التي لم يُوجَد بعدُ لها ألفاظ .

تك تك تك تك تك تك..

دخل صقر ووجهه ملتبس بحرارة الهاجرة، وقد ضعف خِضاب لحيته المشذّبة، عن إخفاء الشيب عند المنابت، إذ خرج لمعان فضّي عند حنكه. شددت زاويتي فمي بالابتسام وصافحتُه أطالع انعكاسَ وجهي المضغوط في عدسات نظارته مُظهرًا فتورًا يحاول أن يكون ابتسامة. جلسنا، وبعد جملة ترحيبية نفختُها بصوت بارد، سكتُّ أتشاغل بترتيب الملفّين اللذين أعدَدْتُهما عن القضية، تاركاً صوت تكتكة ساعة الجدار قبالتي يقطّع الفراغ الذي بيننا ويحيله عوائق وعقبات.

تك تك تك تك تك تك..

كنت ما أزال مُجهَداً من التنازع مع نفسي منذ ليلة البارحة، وترددي المتجاذَب حول خاطرَين: إمّا أن أعطي مدير التحقيقات مازن فواز الملفين؛ ملف «قضية اختفاء سعيد جونكر»، الذي دوّنتُ به ملحوظاتي وما اكتشفته بعد ذلك مع

الأوراق التي وجدتُها، وملف: «ما رواه فهد نشوان» الذي أفرغتُ فيه الستةَ والثلاثين مقطعاً، التي سجل بها فهد نفسه وهو يتحدث عن قضية اختفاء سعيد جونكر، ثم أترك له القرار.. وإما أن أوقد بهما النار ليصنع الدخان منهما «طيرٍ طار لا له ريش ولا منقار».

تك تك تك تك تك تك تك..

كان الملفان يضمان الأوراق بين ذراعيهما أمامي على الطاولة، وأشعر بهما يتململان من تردّدي.

قطَع صقر صمتي مُعدِّلاً وضع نظارته، موجهاً عينَيه إلى النافذة، عن يميني: «أتمنى أنك صدَّقْتَ».

«صدقّتُ ماذا بالضبط؟».

«.. أنّه لا دخلَ لنا بما حصل».

سكتُّ أمسح على غلافَي الملفَّين، أنظر إلى حركة عقرب ثواني الساعة وهو يسارع في تكتيل القلق في المكان.

صوبت عيني على صقر، وراحت كثافة المكان تتزايد، لم يكن لدي ما أقوله، ليس لأنني لا أعرف الإجابة بل لأن الكلام، منذ ليلة البارحة، صار خيوطًا من دخان أبيض لا يمكن وضعها في قالب.

أنقذني دخول الرقيب أول عباس من انقباضات شرعت تختنق في حنجرتي، صافحني مبتهجاً كعادته، ثم احتفى بصقر. تركتُهما يتحدثان عن أشياء لم أنتبه لها، واستدرتُ بكرسيي إلى نافذة مكتبي، أنظر إلى لهيب شمس أغسطس وهي تسعى إلى مزج الأشياء ببعضها، وتكتكة عقارب الساعة تروح في رأسي.. تك تك تك تك.. رحت معها إلى تلك الذكرى مع عمي عادل يرحمه الله، قبل أربع عشرة سنة. كنت في الصف الرابع المتوسط، عندما قال لي: «هنالك أشياء يعطينا جهلنا التام بها معنى كافياً لفهمها، وهنالك أشياء معرفتنا بها تسبّب جهلاً كاملاً بما تعنيه».

تك تك تك تك تك تك...

تحرك لساني رغماً عني، باتراً الحركة الموقوتة للثواني، فقطعتُ حديث صقر وعباس أقول، على الرغم من أني أعلم أنه لا فكرة لديهما عمّا قاله لي عمي عادل:

«الآن فهمت ما قاله عمي عادل، فهمته وعرفته».

تك تك تك تك تك تك..

توقفا عن الكلام ينتظرانني أكمل، تركتهما أسير في ذاكرتي خلف تكتكة ساعة عمي عندما نزعها من يده - حينذاك - ورفعها أمامي: «طيب.. المعرفة غير الفهم يا ماجد، أنت تعرف أن هذه الساعة تحدد الوقت، لكنك لا تفهم معنى أن يكون هناك وقت». لم أستوعب حينها شيئاً مما قاله، فسألته: «لماذا يكون هناك وقت؟». قرَّب ساعته من أذني وأجاب: «لأن الوقت يمر، هل تسمع، تك تك تك تك، هذا يعني أن كل لحظة تذهب، تنتهي.. هناك شيء لا نراه يمضي ولا يعود، يمضي بنا إلى نهاية، إلى النقطة التي تأتي آخر سطر في كتاب حياتنا، والساعة تشير إلى ذلك دائماً.. هل فهمت؟». هززت رأسي نافياً. «طيب.. لا عليك، احفظ هذا الآن، وإذا كبرتَ اكتبْه، اكتبْه كما علَّمْتُك، وتخيّلْه وأنت تقرؤه، وستفهمه، أم نسيت حيلة الكتابة؟». هززتُ رأسي وأجبته: «لا لم أنسَها».

تك تك تك تك تك تك تك..

عدت إلى صقر وعباس، وجدتُهما ينظران إليّ باستغراب، فأعطيتُ صقر نقال أخيه فهد.

ثم قلتُ أُخرجُ نفسي من الموضوع:

«تستطيع أن تتفضل، وأعتذر على إزعاجك».

وقفنا، وتصافحنا. عدَّلَ صقر نظارته وخرج يرافقه عباس.

رجعت إلى الشُّبّاك أطالع الحرارة على الأرض تغدو وهجاً، وأفكّر في الشعور

بالذنب. كيف نستطيع تجاوزه؟ أخذت ورقة وقلماً، كتبت عنواناً: «الشعور بالذنب».

تك تك تك تك تك تك تك..

ورحت أكتبُ، كما علّمني عمي عادل أن أفعل كلّما أشكل عليَّ شيء. «حيلة الكتابة»، فالعالم، كما كان يقول، مكوَّن في معناه من كلمات، وفي شكله من صور، والعقل والمخيلة يتبادلان حقيقة الأشياء فيه، والكتابة والقراءة تجعلان الأمر سهلاً.

اكتشفتُ لحظتها أنَّ ساعة عمي تُتكتِكُ في رأسي منذ ذلك اليوم، وتدور حول تفكيري بأن كل شيء له معنى سيمضي ولن يعود، والأشياء التي ليس لها معنى لن تتأثر، لأن الزمن لا يلقي لها بالاً. ربما كان هذا سبب شغفي بفهم كل شيء في الحياة، قبل أن أمضي أنا أيضاً، كشيء له معنى. وربّما كانت هذه غلطتي أو غلطة عمي عادل، لأنني لم أفهم ولأنه لم يخبرني أنّ المعرفة شقاء؛ خصوصاً عندما يكون رأس الإنسان، في مثل وضع رأسي الآن، واقعًا تحت منشار يُمسك قلبُه أحدَ طرفيه، والطرفُ الآخر بيد ضميره.

تك تك تك تك تك تك تك...

كتاب الفهم والإيهام

واحد

ظلت القضية تائهة إحدى وعشرين سنة حتى دلّت طريقها إليّ في يوم ثلاثاء، كان يوماً من أشد أيام شهر أغسطس حرارة.

وقفت بكأس ماء بارد، بعد انقضاء وقت العمل، أمام شبَّاك مكتبي في المخفر، أشاهد التّموّج الهلامي للحرارة، المنبعث من القاع، وهو يرقص بالأشياء؛ كما لو كانت الأرض تطهو الهواء.

كان قد أُعلن أمس في الأخبار أنّ الحرارة بلغت في الكويت الأعلى في قارة آسيا. قدّرت أنها اليوم أعلى درجة أو درجتين من أمس. أفرغت الكأس في جوفي، وعدت إلى مكتبي. كنت قد قضيت ساعتين أنتقي من أوراق عمي عادل يرحمه الله ما أراه يصلح للنشر، واخترت خمس عشرة ورقة من الأوراق السبعين التي أحضرتها معي، تدور حول الوهم والواقع والحقيقة؛ رأيتها جديرة بأن تأخذ فرصتها في الخلود. دسست الخمس والخمسين المتبقية في الحقيبة، ثم خرمت المنتقاة لأضيفها إلى المئة والثمانين ورقة التي كنت أنتقيها طوال أسبوعين، في ملفٍّ كتبتُ عليه: «كتاب الفهم والإيهام»، الاسم الذي افترضتُه عنواناً للكتاب. أتممت فرز الأكياس الثلاثة، وكرتون زيت العافية، الذي حفظتْ جدتي فيه الأوراق، وبقي كرتون زيت عافية آخر. فكرت وأنا أعلّق الأوراق في الملف: أمامي أسبوع من الفرز والانتقاء.

في بداية سكني غرفة عمي عادل بعد وفاته، قبل ست سنوات، كنت أجد أوراقاً هنا وهناك، في أحد أدراج مكتبه، أو مطويّة بين كتبه.

أما هذه الكمّية الدسمة، فقد دفعتْها المصادفة إليّ قبل ثلاثة أسابيع. كنت جالساً مع جدتي على سريرها في الصالة أستمع إلى شكواها من برد التكييف الذي يمتصُّ ماء المفاصل. شَكَرَتْ فعل والدتي التي أخرجت سريرها من غرفة جدي إلى هنا. لم تعد تطيق المكث هناك، تقول إنها صارت تحشرها، تريد أن ترانا نذهب ونأتي طيلة الوقت.

أردتُ أن ألطّف مزاجها فذكّرتها بذلك اليوم الذي دخلت فيه علينا غرفة عمي عادل فوجدَتْني منكباً أكتبُ أمامه، يومها طلبتُ منه أن يتركني ألعب قليلاً وأرى الناس. التفت عمي مبتسماً إليَّ يقول: «ها هو يلعب الآن، ولا حاجة لرؤية الناس، أليس كذلك ماجد؟». قلت حينها دون أن أرفع عينيّ عن الورقة التي أمامي: «أنا ألعب جدتي، ألعب».

تبسّمتْ جدتي لتلك الذكرى، فتذكّرنا ولعَه بالكتابة والقراءة. تشعر جدتي بالدفء إذا تذكرَتْه، يعيد اسمُه الماءَ إلى مفاصلها ويطردُ عنها الشعور بالتجمُّد. تركتُها تُمسّد روحها بالحديث عنه، حتى زلَّ لسانُها بـ: «ضاقت خزانتي من أوراقه». استدرتُ ببصري حول عينَيها المجعّدتين: «آه منك آه.. ألم تقولي إنك رميتِها في القمامة». تعمّقتْ تجاعيدُها أكثر في ابتسامة طفل أتلف شيئاً ثميناً: «تركتُ القليل، أشمُّ بها رائحته».. تابعت وهي تدلّك ركبتيها: «كنتَ مراهقاً حينها يا مجيدان، خشيتُ أن تتلفها». دلّتني على خزانة في غرفة جدّي وهي توصيني: «احرص عليها».

وجدت كرتونَي زيت عافية، وثلاثة أكياس متوسطة الحجم، معبّأة بأوراق مترعة بالكلمات. قرفصتُ أمام الخزانة، وأخرجت بضع أوراق من أحد الأكياس. التقطت أول ورقة، كما لو أنها كُتبت بالأمس، على الرغم من مرور ست سنوات على وفاته. عرفت خطه الذي يتميز بانسحاب ذيل حبري رفيع من آخر حروف الكلمات في نهاية الجُمل. منظم الفقرات كما لو أن هناك من يختبره. تذكرت ما قرأته مرة في ورقة صغيرة وجدتها مطوية في درج المكتب:

تستمدُّ الكلمات قوتها من كونها تجعل المعنى صورة، والمخيلة تبعث بها الروح

فتتحرك؛ هذا ما يجعلنا في كثير من الأحيان نرى حياة كاملة تحدث في سطر. قرأت الورقة، وجدتها تحليلاً لسلوك أحدهم، ربما من زملائه، أو أحد المتّهمين، يرجّح فيها أن قوة رفضه لشيء حدث في الواقع هي ما دعاه لأن يستدعي من ذاكرته تحويراً يسوّغ ما حدث، فلما لم يكن لديه غير مشاهد رآها في التلفزيون، خلعَتْها نفسُه على الحدث أمامه، فانصاع العقل يُمنطقها بما يتوافق مع محصلته الحياتية؛ كما يفعل الطفل حين يرى الجبل، ويعجز عن تفسير وجوده بهذا الشكل، فيجنح إلى ذاكرته، ليرى نفسه أو غيره من الأطفال يلعبون بالرمل، فيتخيل أن طفلاً عملاقاً راكمه.

داهمتني رغبة البكاء، أحسست أنه يقف في مكان قريب مني. كانت نبرة صوته هي التي تقرأ الكلمات بذهني. انتهت الورقة دون أن ينتهي مما يريد قوله، علمت أن علي أن أبحث عن التكملة في بقية الأوراق.

أخذت أخرى ينتقد بها الأسلوب التربوي في المدارس عنوانها: «الدهشة».. وورقة ثالثة عنوانها: «دوافع الأفعال» عن تأثير المجتمع والدين في الأفراد.. ورابعة عن فضيلة التخلي وشهوة التملك عنوانها: «النّفس الأولى والثانية، والثالثة».. يقسم بها النفس إلى ثلاث حالات.. ورقة خامسة.. وسادسة.. وعاشرة.. وعشرون، حتى وجدت الأوراق ترتفع متكوّمة بجانبي، فتمتمت وأنا أسحب الأكياس والكرتونين خارج الخزانة: حرام ترمى مثل هذه الأوراق.

اجتاز الرقيب أول عباس من أمام باب مكتبي ثم عاد ووقف مبتسماً يقول: «ألم ينته عملك؟». أغلقت الملف وتبسّمت: «بلى انتهيت، تعال».

وقف في منتصف المكتب داساً يديه في جيبي بنطاله. «اجلس» قلت. جلس وأخرج جهازه النقال ينظر إلى الساعة.

«بقي كرتون» تمطيت وأضفت: «كان يرحمه الله غزير الكتابة».

ألقيت نظرة أخيرة على الملف قبل أن أضعه في الحقيبة، وقلت: «يبدو أنني سآخذ إجازة لأتفرّغ له».

«الورقة التي قرأتها يوم أمس» قال عباس «التي عن السجون.. يالله.. عمك كان فاهماً». أغلقت سحّاب الحقيبة وتبسّمت: «عمي ليس فاهماً فقط، كان يفهم ويشعر أيضاً بما يكتبه، ليس مديحا له، ويمكن أن نلمس ما يكتبه في طريقة حياته».

وطرأ علي فجأة: الفهم والشعور.. هذا عنوان آخر للكتاب.

«يرحمه الله، تمنيت أن أراه».

قلت في نفسي: «وأنا أيضاً أتمنى أن أراه».

قلت لعباس: «هل سبق وقلت لك إنه أُوقِف عن العمل، ونُقِل إلى عمل إداري في الوزارة لأنه كان يطلق سراح المتّهمين، الشباب خصوصاً؟».

رفع حاجبَيه مستغرباً: «قلت لي فقط إنه كان يعمل في هذا المخفر.. ولماذا كان يطلق سراحهم؟».

شبّكت يدي على مكتبي واتخذت وضعية الجد «كان يؤمن أن الخطأ هو سبيل البشر الوحيد للترقّي على صعيد الأخلاق والأفكار.. لولا الخطأ لكانت كل الأشياء على صواب، وهذا ما سيجعل الحياة تسير بطريقة ميكانيكية؛ لهذا كان يجلس معهم قليلاً، شباباً أو أولاداً ارتكبوا جرائم صغيرة، يتحدث معهم إلى أن يصل بهم إلى نقطة معينة، يفهمون عندها أن الأفعال السيئة لا تعني أن فاعلها سيئ.. يزرع فيهم القناعة بأن الإنسان الصالح هو الإنسان الذي يؤمن أنه ليس سيّئاً، ثم يوصلهم إلى الباب».

«هذا فعل غريب».

«فلنقل إنه فِعل مَن يحترم نظام الحياة».

نظر إلى الشباك بجانبي فغيّر الحديث إلى المستوى الرهيب للحرارة هذا اليوم: «أمس وصلت إلى خمسين، أتوقّع اليوم اثنتين وخمسين». مدّ نقاله وأكمل: «شاهد، شاهد هذا. يقولون إنه قبل يومين». أراني تسجيلاً لضبّ يزحف مسرعاً إلى ظل سيارة، في مكان صحراوي، وما إن وصل إلى الظل حتى انهار تحته. تبسّمتُ مجاملة: «هذا ضب ترف». ضحكنا.

رغم أنه يعرف أنني لم أتكيّف مع الهواتف الذكية، إلا أنه لا يتردد بوضع نقاله أمام عيني كلما جاءه شيء غريب. قبل يومين، باغتني بتسجيل يصرخ فيه فتى يقول إن الشيء الذي يصوّره الآن هو رجل ينزل من السماء، وكان التصوير يُخفي تلاعباً فنياً متقناً، طلبت من عباس أن يكتم الصوت ويعيد المشاهدة، لأن صراخ الفتى هو الذي يحمل النفس على التصديق، فلمّا فعل، وأنهى المقطع، نظر إلي وقال يضحك: «والله أنا لم أصدقه منذ البداية». مازحته أقلد طريقته في الكلام: «والله أنا لا أحب مشاهدتها».

تفقدني هذه الأجهزة استقلاليتي، لا أحب طريقتها في إهدار الوقت وامتلاك الذهن. تجعل الحياة مزدحمة، وتربطنا بالآخرين على مدار اليوم، دون فسحة لأخذ نفس. يعرف الناس فيها أحوال بعضهم أربعاً وعشرين ساعة، فتتلاشى معها حدود الخصوصية، ثم تتاح الأسرار. حياة بلا أسرار مثل قصة بلا تشويق. وهي السبب وراء ضمور الحس الإنساني في التعاطف مع مآسي الآخرين؛ أحب أن أكون معتدلاً في العزلة والاختلاط، لست قريباً ولا بعيداً عن الناس. أرى أننا نحتاج النقال فقط لنعرف كيف نصل للآخر وليس لنتواصل معه؛ لهذا ما زلت أستعمل أجهزة نوكيا المحايدة.

أعاد إليّ نقّالَه مجدداً، وراحت شاشته تعرض رجلاً في الصحراء يفتح ربع نافذة سيارته ويصب الماء من قنينة إلى ذئب منهك، بلغ به الظمأ حداً جعله يعبّ الماء مُصدِراً صوت لهاث.

أعجبني تصرُّف الرجل، فأخرجت الملف من الحقيبة أبحث عن إحدى أوراق عمي كتبها عن تكامل الكون، يقول فيها إن كل شيء في العالم مرتبط بوجود غيره، وهكذا حتى نكون كلنا، من النملة إلى الجبل، سلسلة من الوظائف التي تؤدي دورها السببي في تهيئة الحياة على الأرض لمخلوق آخر. مددتها أقول: «خذ، اقرأ».

عندما حملت الكرتونين والأكياس الثلاثة إلى غرفة عمي عادل ذلك اليوم، أعطيت نفسي مهمة واحدة: فرز الأوراق. قسمتهن ثلاث فئات، كل فئة

وضعتها في مكان بعيد عن الأخرى: فئة «الأفكار»، وهي مادة الكتاب الذي سأنشره، وضعتها تحت الشباك.. «القصص» -حيث كان يكتب قصصاً قصيرة للعبرة، أو يصقل بها فكرة ما- راكمتها صفّين أمام الأريكة.. «الأحداث» -إذ كان يكتب بعض الأحداث التي تمر عليه ليحللها أو ليحيط بكل جوانبها- وضعتها في ثلاثة أعمدة أمام أرفف الكتب. ورحت طوال ثلاثة أسابيع أقرأ، وأفرز، وأدبّس الأوراق المتصلة ببعض، وأهتف: «الله الله الله» على جملة أو فكرة تبلغ مقصدها، أو قصة قصيرة يقول فيها أشياء كبيرة.

أعاد عباس الورقة يقول: «يصعب فهم هذا الكلام».

عباس طيب، في آخر الثلاثين من عمره. أصلع، وذراعاه مُشعران بشكل لافت. يفتخر دائماً بأنه أتى إلى هذا المخفر قبل ثلاث سنوات بقرار من وزير الداخلية نفسه، توسط له أحد أعضاء مجلس الأمة، ويرفع أربع أصابع لمن يسأله لماذا هذا المخفر بالذات، ليشير إلى عدد الدقائق التي يحتاج إليها لقطع المسافة إلى بيته. لا تتوقف يده عن مد العون للآخرين، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، يأتيني أحياناً بأحد أصحابه يطلب مني استمارة إذن إصلاح، فأعطيه مستمتعاً بطريقة تعبير وجهه عن الامتنان، يحمرّ وتنزل لحيته المحددة كالمسطرة عن منتصف حنكه، ويمتد أنفه أطول من العادة.

كان أول شرطي قابلته عندما بدأت عملي قبل سنة، مازحني وقتها بأن المحقق يجب أن يكون ضخماً مثلي حتى يعترف المجرم بسرعة. لكن طوال سنة لم يقع مجرمٌ بيدي، كل ما يأتينا هنا هو حوادث، مرتين كل أسبوع على الأكثر، أو بلاغات تغيّب أولاد سرعان ما يعثر عليهم بعد يومين في بيت أحد الأقارب، شجارات صِبْية تتسبب بجرح سطحي أحرص على أن تنتهي بالمصالحة، وسرقة سيارة قبل خمسة أشهر، بغير هذا كل الأيام عبارة عن وقت طويل من الجلوس المحاط بالضجر. رغم أن هذا ما يعجب زملائي في هذا المخفر، إلا أنه أكثر ما يزعجني، لدرجة أنني قمت آخذ عنهم كل الشغل لأزجي به الوقت. في دمي غليان يمنع ذهني من الاستلقاء في الفراغ. ربما لو اخترت مخفراً آخر لكان لدي من

الشغل ما ينقضي اليوم كله بالانهماك فيه؛ اختياري لهذا المخفر بالذات لأمر واحد فقط؛ لأنه المخفر الذي كان عمي عادل يعمل به.

أحبّ أن أقلده.. منذ صغري وأنا أحب هذا.

أخذتُ الورقة من عباس أقول: «بالتأكيد لن تفهمه، لأنك لا تقرأ» وأضفت ممازحاً: «ودائماً تنحني على شاشة نقالك».

ضحك وقال: «على ذكر النقال، صديقي في تركيا الآن، يقول إن الحرارة هناك مرتفعة عن العادة». عبث في نقاله ثم أعطاني تسجيلاً لصديقه يصور فيه شلالاً في تركيا. «ما شاء الله» تظاهرت بالانبهار، ومازحته: «هذا المكان حلم كل ضبّ بالعالم».

خرجنا إلى الاستقبال، وجدنا ثلاثة من الشرطة جالسين، وقفنا نتحدث عن الحرارة، ولأن عباس أكبرنا سناً، قارن بين الحرارة الآن وما قبل عشرين سنة، عندما كان وأولاد شارعهم يخرجون في مثل هذا الوقت من السنة ظهراً دون أن يشتكوا من الحر، يجوبون الشوارع تحت شمس عصر أغسطس دون الإحساس بالاحتراق؛ أما الآن، فحتى فتيان الضب لا يستطيعون احتمال الحر في الليل. استعرض الأشهر التي يدخل بها الشتاء والتي يشتد بها البرد والأشهر التي تمتاز بجو معتدل ومتى يقترب الصيف ومتى يعلن دخوله.

اثنان

رنّ هاتف المخفر وعباس يعد علينا ملحوظاته عن تغيُّر المناخ.. الرطوبة أسبوعان في آخر شهر ثمانية، الآن ثلاثة أيام أو خمسة على الأكثر.. نلبس الملابس الشتوية أواخر شهر تسعة، الآن يدخل شهر أحد عشر ونحن بملابس الصيف.. كان شهر أربعة برداً، الآن يأتي الحر آخر شهر اثنين..

بمجرد أن رفعت يدي بإشارة الوداع، أشار لي شرطي، يمسك سمّاعة هاتف المخفر، بالانتظار وهمس: «بلاغ وفاة، منزلية». أنزلت يدي وأمسك عباس عن انتقاد المناخ يخمّن: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ربما ضربة شمس».

سرَتْ نبضة مدغدغة في عروقي. لم يكن زميلي المناوب موجوداً، فاتصلت أخبره -فيما كان الشرطي يأخذ العنوان من العمليات- بأنني سأذهب إلى الموقع لأكتب تقريراً عن الحالة.

تغير وجه عباس وهو يقرأ العنوان، وضع نقاله على الطاولة ثم قال، وحاجباه يعتصران، إنه يعرف صاحب البيت.

عدت إلى مكتبي وأخذت قفازين مطاطيّين وأكياساً أحتاج إليها إذا ما وجدت آثاراً لبصمات. خرجت دورية قبلنا تؤمّن المكان، وخرجت مصطحباً عباس في سيارتي الخاصة، متحمساً لتجربة نفسي بقضيّة جادّة مثل هذه.

أعطى مؤشر الحرارة في سيارتي قراءة أنها تبلغ خمسين درجة. تذكرت جملة قرأتها في إحدى أوراق عمي عادل يقول فيها: الذي يلوم إنساناً على خطئه، دون أن ينظر إلى ظروفه، كمن يلوم مقياس الحرارة على ارتفاع درجة الحرارة.

جعلت الشوارع تلتهب. رفعت تبريد مكيف سيارتي إلى الحد الأقصى، وخرج الهواء بصوت فحيح، وانطلقت.

بعد مئة متر من المخفر يجيء الدوار؛ قبله، على بداية المنعطف الذاهب لليمين، حفرة تكشّر عن أنيابها دائماً لتعض الإطارات، إطاراتي خصوصاً، ولا أتذكّرها إلا عندما يستحيل تلافيها. تلك المرة خضّتنا أنا وعباس.

«هذه الحفرة ستصيبني بكسر يوماً ما، دائماً أقع بها.. تخيل.. لا أذكرها إلا عندما يكون الوقوع بها محتماً».

استمرّ عباس يدير عينيه خارج النافذة كأنه ليس معي في السيارة. قصصت عليه وقوفي يوم أمس عليها والتصرف الغريب الذي قام به رجل توقّف بسيارته في حين كنت أهمّ بالنظر إلى الحفرة:

«.. فذهبت يميناً ودخلت من الجمعية ثم خرجت من المواقف الرئيسة

والتففت لأعود إليها؛ كنت أفكّر جدياً أن أغمرها بالإسمنت وأخلّص نفسي والمارّة من أنيابها. أوقفت سيارتي أمامها ونزلت. مرت بي عدة سيارات التفت إلي ركابها وهم يتابعون طريقهم. أحدها، كان سائقها يصوّر نفسه وهو يتحدث -ربما أنستغرام- أبطأ السرعة لمّا اقترب مني ثم توقف وأدار الكاميرا عليّ وراح يصوّرني، عديم الذوق، ويقول شيئاً لمتابعيه دون حياء أو احترام لخصوصية الآخرين.. هه.. أصبحنا متاحين للجميع بسبب هذه التكنولوجيا السيئة.. أشحت له بيدي، فأبعد الكاميرا واستمر يحدث متابعيه ربما عن غرابة رجل ضخم مثلي يطل في حفرة، وقد يكون يضحكهم بأنني وقعت بها وانفجر إطاري وها أنا أريد الانتقام.. تصور.. لم أطل بالحفرة، استجبت للحياء وصعدت سيارتي حاساً أنني أقوم بفعل مخالف للآداب العامة».

لم يزل عباس شارداً، نبهته: «عباس». «نعم». «هل صاحب البيت قريبك؟». «لا لا. صديق من أصدقاء الطفولة، قريب من شارعنا». «لا تنزعج. هل في البيت كبار سن؟». أشار بيده على الاتجاه، وأجاب: «ربما والدته، أبو صقر توفي قبل إحدى عشرة سنة تقريباً في حادث سيارة». وقعت عجلات سيارتي في حفرة أخرى. «كيف تحتمل سياراتكم هذه الشوارع المخرّمة» سألته أحاول تلطيف مزاجه. أجاب يمد يده إلى حفرة أمامنا: «نعرف مكان كل حفرة من تكرار الوقوع بها، فنتحاشاها». أشار علي بالمخرج الثالث من الدوار التالي يقول: «انتبه هنالك حفرة أيضاً عند المنحنى». كانت حفرة مكونة من مجموعة حفر مجتمعة من تآكل الشارع. تَوَقّيتُها ودخلت إحدى قطع المنطقة.

تابعت يده تشير إلى منعطفات الشوارع الداخلية حتى وقفنا أمام بيت من واجهة الشارع الداخلي، وكان ذا واجهتين، والواجهة الأخرى كانت على ساحة ترابية واسعة استغلت كحديقة، وتنتهي بفسحة ترابية من خمسة عشر متراً تقريباً، أمام سور مسجد. وصلت الدورية قبلنا وبدأت إجراءات تأمين الموقع. لفحني هجير مع صوت نواح نساء. رأيت ثلاثة أولاد عند الباب، تطل من خلفهم امرأة كبيرة في السن تغطي وجهها ببرقع. حاصرتني الشمس، فازداد تعرُّقي. استقبلني

الشرطي بحالة متوترة وخلفه رجل ذو لحية مشذبة، خمّنت مِن طريقة تجمّع الشيب على حنكه وسوالفه أنه في منتصف الأربعينات. يرتدي نظارات طبية، وقد بدا عليه تأثير الفقد. سلّم عليه عباس وعرّفه: «صقر نشوان». صافحته، وعزّيته. أخذه عباس جانباً، وسألتُ الشرطي المتوتر: «ما الذي جرى لك؟». «المعذرة.. هذه أول مرة أرى جثة». أتاني عباس محتشداً وجهُه، يقول إن المتوفى هو فهد صديق طفولته. طرد أخو المتوفى الأولادَ من أمام الباب إلى الداخل، وأخذني إلى آخر باب من جهة الحديقة.

كان الباب لغرفة متوسطة الحجم، وملحَق بها حمَّام صغير، معزولة عن البيت. رأيت الجثة مسجاة على السرير كما لو أنها حالة نوم طبيعية. اقتربت منها. كانت لرجل في أواخر الثلاثينات من عمره، يرتدي فانيلة بيضاء مقلّمة بخطوط بنّية في العرض، وسروال أبيضَ من النوع الذي نرتديه تحت الثوب. «هل أزلت الغطاء عنه؟» سألتُ أخاه. أجاب يمسح أنفه بمنديل: «لا، وجدته هكذا، (نشقَ أنفه) أمي فقط، أبعدت الوسادة من.. من تحت رأسه».

طلبت من الجميع الخروج، بقيت في الغرفة مع شرطي آخر، أبحث عن أثر قد يدلُّ على جريمة أو انتحار، أو أدوات تعاطٍ تقول إنها سبب لجرعة زائدة. كانت الغرفة مكوّنة من سرير مفرد، وخزانة ملابس مفتوح أحدُ بابَيها، بجانبها أرفف كتب، توقّفت أقرأ العناوين: الذين عادوا إلى السماء. أليس في بلاد العجائب. المسخ. مئة عام من العزلة. نهاية السيد واي. الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قباني. ألف ليلة وليلة، للأطفال.. أخذته، كان كتاباً سميكاً، أذكر أنّ عمي أتى لي بواحد مثله يوم كنت في الابتدائي، فتحت أول صفحة، مقطوع جزؤها الأخير، وجدت بها إهداء:

الأستاذ فهد..

اقرأ، وشاهد، وتمتَّعْ، وقلْ لنفسك كل يوم: أنا في أمسّ الحاجة لهذا اليوم، واقرأ، واقرأ. أريدك أن تعرف شيئاً واحداً فقط: أنك مميز ليس لأنك رأيت شيئاً لم يره أحد من قبلك، بل لأنك الوحيد في هذا العالم الذي يكون أنت.

ملحوظة: بعد الخروج من المدرسة، ستجده...

استغربت: رأى شيئاً لم يره أحد من قبل.. ما هذا الإطراء الغريب!

أعدته، وأكملت قراءة العناوين: اللحظة الأخيرة. ما ينقش العصفور في تمرة العذق. زرتك قصب فلّيت ناي. كافكا على الشاطئ. بيدرو برّامو. المغالطات المنطقية. عالمنا الواسع، كتاب مصور. تركت عناوين الكتب والتفتُّ إلى الجهة المحاذية للباب حيث يتربع تلفزيون على طاولة صغيرة تحمل في جوفها فيديو من الموديلات القديمة، ويرتفع بجانبه ثلاثة أعمده من الأشرطة، وأمامه، على الأرض، أُلقي بجهاز دي ڤي دي ماركة سوني بطريقة غير مكترثة. كان المكيف الجنرال يكافح ليدفع الهواء البارد إلى أريكة حمراء، ثلاثية المقاعد، تستلقي أمام التلفاز، بجانبها على الجدار ثلاجة صغيرة، وجدت بها قناني ماء صغيرة وعلب بيبسي وأصابع كاكاو سنيكرز وبونتي وصحن فيه بضع حبات عنب أخضر. تكوم بجانبها كيس قمامة أسود وجدت بداخله أوراقًا. سحبت منها مجموعة، ألقيت عليها نظرة عجلى. كتبت بأقلام مختلفة كما تدل أحبارها، لكن الخط السيء واحد ولم يتناسب مع حسن استعماله لعلامات الترقيم. قرأت منها ما وقعت عليه عيني، لم أحفظ منها إلا جملة غريبة واحدة:

كنت متأكدًا أنه سيأتي لكنني قلت إنه يحتاج إلى وقت، أو ربما إلى غيوم لكي لا ترى مركبته، فلا يترك مجيئه أثرًا له في السماء.

أعدتها، ومِلْتُ نحو الخزانة، في داخلها ملابس مصفّفة تفوح منها رائحة لطيفة. الحمّام كان نظيفاً ومرتّباً بعناية، مغسلته عليها صابون يد سائل، وعدة فرش أسنان وعبوتا معجون، وأمواس حلاقة في علبة، بجانبها عبوة رغوة الحلاقة. شعرت بفتور الخيبة يرخي زاويتَي فمي، والنبضة التي دغدغتني تتراجع إلى انقباض. كنت متحمساً لوجود شبهة يهيم ذهني في نقض حبكتها، ولم أجد ما يدل على جريمة.

سرعان ما لمتُ نفسي، متظاهراً بالنظر مجدداً إلى عناوين الكتب، على هذا الاندفاع الأناني نحو جعل حياة الآخرين ملعباً لتسليتي، وعزمت على الكتابة عن هذا الاندفاع لتمحيص أسبابه ومن ثم التخلص منه.

كان بعض الجيران قد تجمعوا في الحديقة، أعطيت المسعفين الإذن بالدخول، وعدت لألقي نظرة أخيرة على وجه الميت، متذكراً وجه عمي في مغسلة الموتى؛ بالتأكيد لا تشابُه بينهما، وجه عمي طويل وعليه ندبة تمتد من عينه اليمنى إلى منتصف صدغه، وجه هذا الرجل عريض، وحاجباه رفيعان، لكن شكل الموت واحد.

«بخصوص تقرير الوفاة» قلت للمسعفين الذين دخلوا بالنقالة «سلموه اليوم عصراً للاستقبال، إذا تكرمتم». وخرجت إلى الحريق في الخارج. لقيت عباس جالساً في الديوانية مع أخي فهد وبعض الرجال من الجيران، أعدت عبارة العزاء على الجميع، وعدت بعباس إلى المخفر.

ثلاثة

تركت عباس يتحدث في الطريق عن فهد وأيام شقاوته، ليزيل عن صدره حزن رؤية جثة صديق من الأيام الجميلة، ريثما نصل إلى المخفر. أعرف معنى الصداقة، كتبت عنها كثيراً حتى استقرّ لديَّ أنها طريقة النفس البشرية في إثبات أن لها قيمة اعتبارية في تحقيق ذاتها من خلال التفاعل مع من تراهم مكافئين لها. رغم أنني لم أعش تجربة أن يكون لدي صديق حقيقي، لأنني كنت أضع الحواجز بيني وبين الأولاد في صغري -يمكن القول إن لدي معارف فقط- إلا أنني أعي أن علاقة الصداقة، خصوصاً في سن مبكرة، لا تنتهي بمجرد انقطاع الوصل، بل كلما كبر الإنسان تكبر معه وتتحول إلى أشكال أخرى أقرب ما تكون إلى الحنين الذي يربِّت على كتف النفس كلما مرّت ذكرى. تحدث عباس بلوعة

عن المتوفى. كانوا ينادونه: «أبو أذاني» لأن أذنيه كبيرتان وبارزتان. حوقل ونحن نخرج من شارعهم، واستذكر آخر مرة رآه بها: «كنت خارجاً من الجمعية فرأيته في سيارته، سلمت عليه فلم يرد كالعادة». «ربما لم يعرفك». « بلى عرفني». «هل كان بينكما خصام». «لا، لا. فهد تغير ونحن أولاد، ترك صحبتنا فجأة، وصار دائم الوحدة». مازحته: «تريد أن تقول إنه زهد بكم». «لا.. لا أعرف، لكن.. لا أعرف حقاً ماذا حدث له».

أومأ إلى بيت ذي ثلاثة أدوار مررنا بجانبه، وقال إنه كان بيتاً ذا طابقين قبل أن يهدم ويبنى بهذا الشكل، وكان مهجوراً، تركه أهله بشكل غامض بعد التحرير، فصاروا، هو وفهد وبقية أصدقائهم، يجلسون فيه. «كان له حوش طويل في آخره غرفة كنا نجلس بها وندخن بعيداً عن الأعين». قدت السيارة بتأنٍّ كي لا يرى أحد وجهه بهذا الشكل الذي يستشفُّ منه بسهولة أن البكاء يغالبه. فالبكاء مُحرِجٌ لدينا رغم أنه أنقى مشاعرنا الإنسانية. إنه التعبير الوحيد الذي يصدر من الروح.

تحدثنا عن الغزو. أخبرته أنني من مواليد سنة تسعين، ولم أشهد تلك الفترة. فحدثني عن حرارة مشاعرهم عندما عادوا بعد التحرير، عدَّ عليَّ الأسلحة العراقية التي وجدوها، آثار الدمار، وقال إنهم وجدوا في البيت المهجور، الذي مررنا به قبل قليل، جثث خمسة رجال، أخرجها الشرطة من تحت الحوش فيما كانوا يبحثون عن أثر لسعيد جونكر.

توَقّيت مطبة قبل مدخل المخفر، وسألته: «لمن هذه الجثث؟».

«قالوا أولاً إنها لكويتيين قُتِلوا أثناء الغزو، ثم بعد ذلك قالوا إنها لجنود عراقيين».

«وما قصة سعد جونكر؟».

«سعيد، سعيد جونكر. فتى مجنون كان يسكن مع جدته في البيت المقابل للبيت المهجور، ضخم ووجهه يشبه وجه جونكر بطل الرسوم المتحركة. قُتِل فجأة ولم يُعثَر على جثته؛ حققوا معنا ذلك الحين، لأننا كنا نجلس مقابل بيت

جدته. وجدوا فردة نعله في الحوش، فحسبوا أنه دفن فيه، ولما حفروا الأرض وجدوا الجثث».

ركنتُ سيارتي في المظلة داخل المخفر، كان كل شيء سيمر بسلام لولا أن حاسة البحث التي بداخلي جرّت انتباهي إلى ما قاله، وسألته قبل أن أطفئ المحرك:

«وكيف عرفتَ أنه قُتل طالما أنهم لم يعثروا عليه؟».

«كانت هناك إشاعة بأن فهد قتله».

«فهد، فهد نشوان؟».

«نعم».

نزلنا، فتحرك رأسي بطريقة الاستدراج ونحن نسير إلى المخفر:

«هل كنت متّهماً؟».

« لا لا. كنت في بيت خالي ذلك اليوم، حققوا معي فقط إذا ما كنت أعرف أي معلومة تساعد».

«وهل تظن الإشاعة صحيحة؟».

صمت ينظر إلى مبنى المخفر وشفتاه تمطّان حيرة، ثمّ هز رأسه: «لا أعرف. لكن.. كان لنا صديق اسمه بشار، هو أول من قال هذا الكلام، حسبته في البداية يريد إخافة الأولاد من فهد ليهددهم فيه، لكن، بعد ذلك حدث لفهد ذلك الأمر الغريب».

هبّ علينا الهواء البارد ونحن نلج الباب الداخلي للمخفر فاستزدته: «ماذا حدث؟».

أجاب فيما ننعطف إلى ممر الاستقبال: «قطع علاقته مع الجميع، لم أسأل بشار حينها عن صحة كلامه، لكن أحياناً لمّا تراجع ذكرياتك القديمة تكتشف أشياء لم تكن منتبهاً لها، أذكر أنني فكّرت مرة في فهد، لا أذكر متى، عشر سنوات ربما من بعد ما تركنا، جمعت كل الأمور التي فعلها، و.. رأيت أنه قد.. ربما كان هناك شيء خطأ.. فلماذا تغير فجأة في نفس اليوم الذي اختفى فيه سعيد، ولماذا بعد اختفاء سعيد راح يفكّ صداقته معنا واحداً وراء الآخر حتى

كنتُ أنا الأخير».

تلوّى شيء ما بداخل رأسي. توقفت عند منعطف الممر المؤدي إلى مكتبي: «ماذا كانت الإشاعة بالضبط؟».

حكّ لحيته المحددة بعناية: «كان ذلك بعد التحرير بسنتين تقريباً أو ثلاث .. قيل إن فهداً قتل سعيداً ودفنه، وإن عمه أغلق القضية».

انقبض قلبي وانبسط بقوة، أدرت له أذني كي لا تفوتني كلمة، عادة اكتسبتُها من جدتي ربما: «ما دخل عمه؟».

«عم فهد كان رئيس المخفر وكان هو من يدير التحقيق».

شعرت بحفرة هائلة أوقعت صدري بنفس عميق وزفرت أخرجه منها: «طيب طيب.. نكمل غداً».

حيلة الكتابة

واحد

في الصف الأول الابتدائي، كنت في الخامسة من عمري، العمر الذي نلحظ فيه الأشياء تحدث أول مرة، بدأ عقلي يحبو على حواف الأسئلة، وينعصر بها رأسي، فأحتاج إلى من يسرّي عني إلحاحها النابض. جعل أبي يتململ من أسئلتي الراصدة للاتساع الذي يقوم به العالم، والاكتشافات التي أتحسس تحديها في مواجهتي، فيأمرني، بعدما أُقلِقُ اضطجاعه على الأريكة، أو انشغاله في إذكاء جمرة على مبخر، بأن أذهب إلى أمي لأن رأسه يؤلمه من العمل أو لأتركه يقيس جودة كسرة بخور. أجد أمي عادة إمّا أمام المرآة تستعد لزوار سيأتون، أو أجدها تعد وصفة طعام في المطبخ، أو تتحدث مع جدّتي في الصالة، تخط الكحل، أو

ترش البهارات، أو تمد فنجان قهوة إلى جدتي، فتقول: اذهب إلى أختك.
أختي منيرة أكبر مني بست سنوات، تحب مشاهدة التلفزيون، إذا ما كانت تشاهد أحد المسلسلات فمن الخطأ مقاطعتها؛ وهي غالبًا لا تعرف، فأعود إلى أبي مصرًا على المعرفة أقول: أمي تقول اسأل أباك، فيعتدل، أو يهز رأسه وشفتاه المتكورتان تنفخان على جمرة في المبخرة، ثم يقول: اذهب إلى عمك عادل. أحمل رأسي إلى عمي. عادة ما يكون جالسًا في غرفته أو مع جدتي، فأضع رأسي أمامه وأسأله، فيأخذني إلى غرفته، ثم يجيبني بكل سهولة عن: أين تذهب الشمس بالليل؟ وعن: لماذا لون الشجر أخضر؟ وكيف يكبر الإنسان؟ ومتى نستطيع الطيران؟ فأشعر معه أن العمر لا يكون حائلا بيني وبين أن أصبح رجلا له مكانة خاصة بين الناس.

اثنان

أذكر كيف كنت أنتظر عمي يعود ويبدل ملابسه العسكرية، فأدخل غرفته المكتظة بالأوراق والكتب ورائحة السجائر، لأقول له أسئلة لم أفهمها، وليقول لي أجوبة لا أفهمها، حتى العصر. من ثم يأخذني إلى فرع الجمعية مشيًا على الأقدام، وأحيانا في سيارته، وعندما نعود يتركني ألعب في مكتبته، مستمتعًا ببناء بيت من الكتب، أو بتبليط زاوية من زوايا غرفته بالمجلدات، فيما يستلقي هو على الأريكة مقربًا كتابًا سميكا إلى وجهه، حتى يصرفني أول المساء لزعيق أمي المعتاد في وجهي بزاوية الصالة عندما أتأخر في استيعاب مسألة حسابية.
تدريجيًا، جعل عمي يتابعني في الدراسة، وصار أبي عندي مثل شيء يحتاج لأن يكون في مكانه الصحيح حتى يكون أبي. أرادني عمي أن أكون محاميًا، رغم أنني كنت أريد أن أصبح مدرس لغة عربية.

ثلاثة

كان عمري يتخطى عتبة سنتي الثامنة لمّا علمني حيلة الكتابة أول مرة، يوم لا ينسى، لأنه اليوم الذي شعرت به أنني أمتلك سلاحًا أستطيع به مواجهة العالم وحدي.

كان عائدًا للتو من عمله، ركضت إليه، فيما كان أبي في الصالة يأخذ رأي أمي وجدتي في رائحة دهن عود:

«عمي، جدتي تقول إذا حللت اللغز أعطيك خمسة دنانير، ما هو: طير طار، ليس له ريش، ولا منقار». قرص أذني صوت جدتي من زاوية الصالة: «لن تأخذ المكافأة إذا حله غيرك مجيدان». عاد من غرفته بعد قليل ومعه ورقة وقلم، وفي زاوية الصالة الأخرى جلستُ بجانبه.

«طيب» قال: «لن أحله لك، لكن سأعلمك كيف تحله.. اكتب اللغز».

أخذتُ الورقة والقلم وكتبته بخط يشبه أثر حبو طفل على الرمل. «حسنًا، ركّز على الكلمات. طير طار، ريش، منقار، ليس له.. ركز على شكل الكلمات.. لا تفكر بشيء، الكلمات وحسب. ستسمع صوتك في داخلك يقولها».

همست: «حمامة».

قال: «اكتب كلمة حمامة». كتبت.

«طيب»، قال يضع إصبعه تحت كلمة حمامة: «ركز على شكل الكلمة وأنت تقرأ كلمات اللغز في سرّك». ركزت، فخفق ريش بكلمة حمامة في مخيلتي.

«ريش؟» قلت.

«اكتب ريش» وأضاف، بعدما عرجت بالقلم بكلمة ريش: «تأمل الكلمتين».

لم تكن كلمة تأمل تعني لي إلا الإطالة في النظر. استمررت والريش يخفق بكلمة حمامة. بعد وهلة من التحديق، شاهدت شيئا غريبًا يرتفع في مخيلتي، وأنا مثبّت عيني فوق كلمة حمامة وريش، حيث راح شكل كلمة حمامة يتفكك عن

دخان من بين الأحرف وتنفخها أحرف كلمة ريش، تحوَّل الدخان إلى طائر ليس له ريش ولا منقار. هتفت: «الدخاااان.. الدخاااان».

ضحكوا جميعًا.. ركضت بالورقة إلى جدتي:

«خمسة خمسة، ورقة واحدة لا أريدها دنانير».

ثم راحت الأيام تفعل الذي تفعله دائمًا، تحمل كل اللحظات وتمضي.

أربعة

يوم توفي، سنة ألفين وثمانية، كنت في الثامنة عشرة، وكان قد مر عليه خمسة أشهر خارج الكويت يعالج مرض السرطان الذي مضغ رأسه. أحتفظ بآخر صورة التقطها أبي له في لندن بعدسة كاميرا نقال واهنة، نحيلا يجلس على كرسي في حديقة الهايد بارك، يرتدي معطفا أسود طويلا، ويضع يديه داخل قفازات حمراء، شعره مسرَّح إلى جنب، تظهر بوضوح الندبة التي تمتد من عينه اليمنى إلى منتصف صدغه، تُظهر عينيه وهما تنظران إلى الكاميرا رفضًا لشيء ما، فاقدة ملامحه ذلك التعبير الذي يُفصح عن استعداده للعناد، صورة تشبه شكل كلمة: غروب، وإيحاء حرف الواو في لفظ كلمة: خلود.

خمسة

في كل أسبوع يُجلسني على كرسي بجانب طاولة ويضع لي جائزة كريمة، بادئا بما يسميه «أدوات التشريح»:

«مثل أدوات الطبيب، سنفصل بين مقاصد الكلام بما يقتضيه فهمنا ونعيد قراءته حتى نتبيّن حقيقة المعنى». كتب على أول الورقة كلمة: «العنوان»..

وقال: «العنوان أولا، فهو يساعد على تركيز تيار الفكر بالاتجاه الذي تريده». تحته كتب: «النقطة».. وتابع: «النقطة بعد اكتمال الجملة تعزل الفكرة عن الانسياق خلف الأفكار الأخرى، هذا يجردها من أي تأثير». وضع بين قوسين كلمة: «الفاصلة». وأكمل: «الفاصلة مهمّتها وصل الروابط بين الأفكار». وضع تحتها: «؛»، وقال: «الفاصلة المنقوطة لتحويل الذهن إلى فكرة متصلة بفكرة أخرى دون الابتعاد عن السياق. و(« »)هذه اسمها علامة التنصيص، لتحديد حديث ليس لك، ستساعدك على فهم الفحوى. أما الأقواس فهي للوصف الذي يطرأ على الجملة، حتى لا تربك الفكر، واحذر من الإفراط في استخدامها، ويمكنك استخدامها للحد من إيحاء أي كلمة».

ثم راح يطلب مني أن أكتب عن أشياء كثيرة، كأن أكتب عن: ماذا يعني الشعور بالعطش؟ وأن أفسر في صفحتين سرّ طعم الكاكاو؛ ومرة طلب مني تحديد العلاقة بين بيتنا والنخلة التي أمام الباب. وفور ما أنتهي يعد كم سطرًا أنهيت ثم يلقي نظرة سريعة على الشكل ويعلق: «أين العنوان؟ كيف تريد أن توجّه ذهنك».. «هناك جملة تحتاج نقطة، إذا وجدتها قل إنك انتهيت». «الفاصلة يا ماجد لا تستعمل هكذا، كم مرة قلنا هذا الكلام». «إياك والأقواس في استرسال الأفكار، فهي تقيّدها، والكتابة فعل تحرير».

كنت أحصل عادة على نصف الجائزة، إلا مرات قليلة، أعرف عندما يبتسم بها وهو يقرأ ما كتبته أن الجائزة كاملة، كالتي استنتجتُ بها أن شعورنا بالعطش هو الذي يدفعنا لسقي النخلة التي أمام بيتنا، فلو لم يكن هذا الشعور لما عرفنا أن النخلة تعطش ولماتت، فالعلاقة بين بيتنا والنخلة هي أننا نعطش مثلها. أما تفسيري لسر طعم الكاكاو لم أحصل به على جائزة، لأنني كتبت أن سر طعم الكاكاو في أنه كاكاو، أمسك أذني ولواها بلطف:

«أكبر خطأ أن تفسر الشيء بنفسه».

ومرة أعطاني الجائزة ضعفين، لأنني سألته، فيما كان يتحدث عن أن أسماء الأشياء لها من صفاتها نصيب:

«عمي.. هل يمكننا القول إن أسماء الأشياء هي مجرد عناوين؟».

بعد ذلك وجدتني، لا إراديًا، أوزّع الفواصل أثناء تفكيري، وأضع النقاط إذا ما انتهيتُ من حديثي مع نفسي. أحكر الكلمات النابية التي أسمعها من بعض أولاد صفي في المدرسة بين قوسين. صرت أقرأ كتبه دون أن أفهم ما تقول، مقلدًا طريقته وهو يفعل ذلك، مضطجعًا على سريره أقرّب كتابًا من وجهي، ومستعيرًا تعبير وجهه عندما يتأمل الصفحات. وفقرة وراء فقرة، مضيت أكتب عن الأشياء التي أريد أن أفهمها، مشرّحًا الجمل حسب ما أراه مناسبًا لها، حتى أصبحت متعتي الكاملة أن أفهم شيئا جديدًا، بالشكل الذي تسمح لي سني أن أفهمه. لم يكن يعني لي التلفاز والرسوم المتحركة، التي كان الأولاد يتحدثون عنها في الفرصة، شيئا ذا شأن أمام قيمة إيجاد معنى جديد يسهم عقلي في إيجاده بتوسيع العالم.

لعمي يد في عدم حبي للتلفاز، وللأجهزة النقالة الحديثة. يقول إنها مدمّرة للعقل، لأنها تستعبد الذهن؛ عندما تشاهد نشرات الأخبار التي كتبت بأسلوب إرشادي وراء خلفية موسيقية رسمية، ومذيعًا تتصنّع ملامحُه البلاستيكية الجدَّ، سيعجز الذهن أمام هذا كله عن التفكير بحقيقة ما يعطى إليه من معلومات، وسيستسلم بخزي لكل حرف يتفوّه به المذيع. أما المسلسلات الكرتونية فهي أنجح أسلوب لتعليم الأطفال عدم أخذ الحياة بجدّية. يقول إن الحكومات تزرع بها الأفكار التي تحد من إرادة الأطفال ليسهل عليها استخدامهم في المستقبل كآلات، لهذا لم أستسغها، وهذا ما جعلني أبدو غريبًا أمام الأولاد، غريبًا وضخمًا لا يحمل وجهُه أيَّ نوع من تعابير المودة.

عوضًا عن ذلك أعطاني قصص الأطفال، وقال إنها تعطي عقلك مجالا للمناقشة، لأنها مكونة من الكلمات؛ مفاتيح أقفال القيود.

ستة

حاول عمي بعد ذلك، حين أصبحتُ قريبًا من سن الخامسة عشرة، لا أذكر بالضبط، ربما كنت حينها في الصف الثاني الثانوي، حاول تبسيط طريقة عمل «حيلة الكتابة»؛ كنّا جالسَين في غرفته، أنا على الأريكة وهو على كرسي مكتبته نتحدث عن كتاب ألف ليلة وليلة الذي أُحِبُّه، أُخبِره بإعجاب عن قوة خيال شهرزاد في خلق القصص، خصوصًا القصة التي يتحول بها ابن التاجر إلى كلب. طلب مني أن أسحب الكرسي الآخر وأجلس بجانبه، فقال وهو يرسم عصفورًا على ورقة كتب أسفلها كلمة «سماء»:

«طيب.. انتبه معي.. انظر.. وعي الإنسان يا ماجد يعتمد على مصدرين فقط: العقل والمخيّلة. العقل مكون من كلمات، والمخيّلة مكونة من صور. انتبه لما سأقوله الآن: التفكير هو عملية تحويل الكلمات إلى صور أو تحويل الصور إلى كلمات، والفهم هو إيجاد علاقة بين الكلمة التي في العقل مع الصورة التي في المخيلة، وهذا ما تفعله عندما تكتب ما تفكّر، فأنت تحاول إيجاد روابط مشتركة».

ركّزتُ نظري على رسمة العصفور وعلى كلمة سماء. فأضاف يلفّ إصبعه السبابة:

«العالم كله أتى من كلمة».

اتّسعت كلمة سماء في مخيلتي وحلّق العصفور فيها. أتبع:

«كل الكتب السماوية يا ماجد أتت على شكل كتابة، لتسهّل لنا مهمة البحث، ونقدر من خلال كلماتها تصوّر حقيقة الحياة».

أشعل سيجارة ونفخ دخانها إلى السقف. بقيت أنظر إلى كلمة عصفور وهي ترفرف، حتى قال:

«القصص، ألف ليلة وليلة تحديدًا، الجمال فيها أن الكلمات تُحدِث -ونحن نقرؤها- تناغمًا عجيبًا بين العقل والمخيلة، فنرى هذا يحدث واقعيًا في المخيلة،

تتحول الكلمات إلى صور، الصورة موجودة مسبقا لدينا، نكيّفها فقط، فنشعر كما لو أنّ ما نقرؤه حقيقةٌ رأيناها بالعين، وهذا ما يجعلنا نتألم مع مشاهد الألم، ونشتاق في قصص الاشتياق، نتوتر، ونبحث عن مخرج مع الأبطال في المآزق. إنه التعاطف، والتعاطف هو الوسيلة الأسهل للتأثر، والتأثر يخلق التغيير».

أخذ نفَسًا آخرَ من سيجارته وتابع يخرج الدخان من فمه أثناء الحديث:

«علمتْ شهرزاد، بفطنتها كأنثى، أن الملك ذو عقل صغير ومخيلة كبيرة، وللعلم (رفع سبّابته في حركة التنبيه) هذه صفة غالبة على المبدعين والمجرمين، تجدهم ضعفاء في المسائل العقلية وجهابذة في المسائل التي تتطلب الخيال كالرسم والاختراعات، والحِرَف اليدوية، (نقر السيجارة في المنفضة). استغلتْ شهرزاد مخيلة الملك واستعبدَتْه بقصصها الغرائبية؛ لأن الملك شهريار يظهر مستسلمًا، أثناء ما كانت تقصّ عليه، لا يسأل ولا يستفسر».

سبعة

منحتني حيلة الكتابة إحساسًا نقيًا بالسلام مع الأشياء التي أكرهها، وثقة عميقة أن باستطاعتي بناء علاقة مودة بيني وبين أي خطأ؛ ذلك لأن الفهم يزيل شعور الكراهية المتولدة أساسًا من الجهل، وأيضًا يُبْطِل مفعول الإعجاب، فالإعجاب ناتج عن عدم فهمنا للأشياء التي تثير فينا الانبهار، وما إن نفهم كيف تحدث هذه الأشياء حتى يتلاشى الانبهار وتدخل إلى العالم الجامد للمألوف.

ثمانية

آخر مرة رأيت عمي كانت في مغسلة المقبرة، بدا لي عندها أنه ليس هو، شعرت بأن الجسد الذي كان مسجّى بين يدي لم يعد مسكونا به؛ مكثت في غرفته ثلاثة أيام أبكي وأكتب عن الموت أوراقا كثيرة لم تُمكِنّي من الوصول إلّا إلى أن الزمن توقف في ساعة كانت تُتَكْتِكُ في روحه.

لماذا أريد فتح قضية سعيد جونكر

واحد

عجزت في الليل عن الاستمرار في فرز أوراق الكرتون الأخير. فتوقفت عن التنقل بين الأماكن التي خصصتها لفئات المواضيع. كانت الكلمات، في كل ورقة، ترسم في مخيلتي صورة فتى يقف على جثة قتيل ويده تقطر دمًا. أخذت ورقة وقلمًا وشرعت بالكتابة. راحت قضية سعيد، تمتص ذهني، سطرًا وراء سطر، ورقة تلو ورقة، وتأخذ مساحة نصف مكتب عمي حتى منتصف الليل، إلى أن توقفتُ عن الكتابة وأغمضتُ عينيَّ في السرير على حلم يُحدّثني فيه رجل عرَّفَ نفسه بأنه قاتل سعيد يريد الاعتراف بما حدث.

اثنان

صحوتُ في الصباح مبكرًا آخُذ حمّامًا باردًا، وتحت الدوش لمستُ إصرار نفسي على فتح ملف القضية. تنشّفت، وجمعت الأوراق التي كتبتها. أعدت قراءتها، بعد فطور خفيف، أشرب فنجان قهوة. خمس عشرة صفحة يرقص فيها خيط دخان رئيس المخفر «عم فهد» بجانب لسان نار كلمة «إغلاق القضية». وكان وجه فهد نشوان يخرج لي من بين الكلمات التي كتبتُها عنه بتعبير مبهم، تختلط فيه مشاعر الندم مع الشعور بالأسف على النفس، ما ضاعف شكّي بأن هناك حقًّا ضاع، وقضية لم تكتمل لأسباب كثيرة، أهمّها أنها حدثت في وقت كانت

البلاد مشغولة فيه بمعالجة جراحها.

فتحت الكرتون الأخير من أوراق عمي، أخذتُ منه قبضة، ووضعتُها مع الملف في الحقيبة. وخرجتُ إلى العمل.

كانت أمي في المطبخ تشاهد مقطعًا بعثه لها أبي من كمبوديا. نادتني: «تعال شاهد أباك». كان أبي يركب فيلا في غابة ويرتدي قبعة قش، ويقول: «انظري إلى الطبيعة، ستأتين معي المرة القادمة، نركب هذا الفيل الطيب». ضحكت أمي وقالت: «الله يستر عليه، الغابة بعيدة عن المدن».

«البخور أخذ عقله» قلت.

«إي والله. أدمن أدمن».

لمستْ أمي زر الكاميرا وصورتني، تقول: «سيأخذني ابني إلى فرنسا أركب السيارات الفارهة والقوارب، ابقَ أنت على الفيلة، انتبه لا تسقط فتصبح عبئا علينا». لوحتُ له بيدي: «استمتع، ولا يهمُّك كلامها، أمي تحسدك على ركوب الفيل فقط».

ثلاثة

وجدتُ على مكتبي في المخفر تقرير الوفاة. يشير إلى أن وفاة فهد طبيعية نتيجة لتوقف مفاجئ للقلب. «نوبة قلبية».

كتبت تقريري وأرفقت معه تقرير الطب الشرعي. سلّمته إلى موظف الصادر والوارد، وعدتُ إلى مكتبي أشاهد الساعة تتكتك أمامي على الحائط، تحاول إخباري بأن هناك شيئا لا نراه يمضي.

لم أستطع فتح الحقيبة وانتقاء الأوراق. مثل الشعور بالعطش، كانت رغبتي لفتح القضية. كان المخفر يتمطى بالحركة الخفيفة المعتادة لكل صباح. أخذت ورقة بيضاء لأكتب عن دوافعي في فتح القضية، لماذا أريد فتح قضية قديمة؟

ربما الملل هو السبب، أعرف أسلوب كذب النفس واختلاجاتها لتصديق كذبها، كتبت العنوان: «الملل». هو شعورٌ مكثفٌ في مواجهة الوقت، والوقت يمضي، عليه فإن الملل سيمضي أيضًا مثل نزع غراء ملتصق بالجلد.

مزّقتُها وأخذت ورقة أخرى وكتبت العنوان: «لماذا أريد فتح قضية سعيد جونكر؟». سأفتح القضية لأن.. لأنني أريد أن.. أرغب في.. طيب طيب.. هناك شيء غير مفهوم من أشياء القدر غير المفهومة يدفع بهذه القضية أمامي، ربما ارتفاع الحرارة كان من هذه الأشياء، لو لم أعمل على كتاب عمي عادل، لو لم أتأخر، لو لم يأتِني عباس بنقّاله.. خيوط يربط بعضُها بعضًا وتُعقَد حول يدي، وتجرّني. أعلم أن سنوات طويلة مرّت على القضية، وأنّ فتحها الآن ربما لن يؤثر، لكن.. لكن الحقّ لا يُلغى بمرور الزمن.

وضعت القلم وقرأتُ الأسطر التي كتبتُها. بدا لي واضحًا، رغم أن وضوحه يحتاج إلى إيضاح أيضًا، أنني سأفتح قضية سعيد لأن الذي سيكون، بكل بساطة: سيكون.

سألتُ نفسي: «بأي حجة يمكنني طلب إعادة فتح ملف أغلق منذ إحدى وعشرين سنة؟ إذا فتحته كيف سأثبت أن هناك جريمة قتل؟». أخذت ملفا من الدرج، كتبتُ على عقبه: ملف قضية سعيد جونكر، خرمتُ الأوراق التي كتبتها في البيت، مع ورقة «لماذا أريد فتح قضية سعيد جونكر؟» وعلّقتها داخله. هكذا يصير الأمر واقعًا بالنسبة لي.

خرجت أبحث عن عباس. رأيته يدل مراجعًا على مكان قسم المباحث. أشرت إليه أن يأتي. «صباح الخير» قال يصافحني. ابتسمت:

«صباح النور. سأعيد فتح ملف قضية اختفاء سعيد جونكر، وأريد مساعدتك».

ظهر على وجهه جمود الصدمة. وضع يديه في بنطاله: «أنا، أنا حاضر، لكن.. القضية قديمة.. انتهت وليس هناك داع لـ..».

«لا لم تنتهِ» وضعتُ عينيه في ذهني بين قوسين وتابعت: «ليس قبل أن يُعرف

ما هو مصير سعيد، الزمن يأتي على الأشياء إلّا على الحق. هناك قضية قتل لم يأخذ الجاني فيها حقه، لا أظنه يخفى عليك أن ما حدث لفهد، بعد اختفاء سعيد، ربما يكون ردة فعل ذاتية نتجت من تأنيب الضمير لتكفير النفس عن ذنب كبير، قد يكون فهد قتل سعيد فعلا، واعتزل بسبب عدم تحمله لضغط الندم، فلنقل إنه عاقب نفسه».

صمت عباس يأخذ نفَسًا. شعرت أنني أرعن بأسلوبي هذا. كان يجب علي أن أتحدث معه قبلها عن أي شيء ثم أتدرج. خفّفتُ عليه: «كل ما أريده منك هو معلومات فقط». أخذ يمسح بيديه على ذراعَي الكرسي حتى قال: «سأساعدك بما أستطيعه».

«طيب طيب» قلت، وحاولت تشجيعه: «أنت رجل أمن، ودورك لا يقتصر على الحفاظ على الأمن، بل وعلى إرجاع الحقوق، قد يكون كلامي مثاليًا، لكن صدقني، لن تعرف روحك الراحة إذا كنت تستطيع إرجاع حق ولم تفعل، وأنت الآن، بمساعدتك لي، تقوم بواجبك الفعلي».

«سأساعدك بما أستطيعه». وقف يقول: «يجب أن أستأذن الآن، أريد أن أرتاح قليلا في البيت، اليوم العصر سندفن فهد».

«طيب طيب، لا تجعل الموضوع يشغلك، آسف إذا ضايقتُك أو سبّبتُ لك حرجًا، اذهب واسترح الآن».

أربعة

دخلت صباح الخميس مكتب مدير التحقيقات «مازن فواز» في مبنى تحقيقات المحافظة. مكتب واسع تشرف واجهته الزجاجية على حديقة زهور أمام المبنى. مازحني وأنا أقترب منه لأصافحه: «لا يبدو أنك تعاني من الحر، أنتم لا تشعرون بما يمر به أهل السمنة في الصيف، كأنك ترتدي لحافا تحت جلدك». ضحكت.

تحشرج جسده من خلف الطاولة لمصافحتي، وأضاف يهز يدي: «يجب أن نطلب من الوزارة إلزامكم بارتداء لحاف أثناء العمل في الصيف حتى تحسوا بتعبنا». ضحكنا.

جلست وتحدثنا عن الروتين الممل في مخفر المنطقة، أغلب القضايا لا تثير حماسة المحقق التي تبتلع أوقات العمل بسرعة، ثم كعادته حدّثني عن أغرب القضايا التي وقف عليها وحلها بعد عناء طويل، دخلت من هذه الزاوية وسألته عن مصير القضايا التي تركت مفتوحة دون حلّ. أخبرته بما لدي عن قضية سعيد جونكر. عارضني بأن هناك ملفات فُتحت السنة الماضية وأغلقت دون حلّ، فإن كان لدينا نشاط زائد فالأولوية لها بكل تأكيد.

أعرف أنه ليس من السهل الاقتناع بفتح ملف أُغلِق منذ إحدى وعشرين سنة، لهذا مرّت الساعتان اللتان تجادلت فيهما معه بسرعة، لأنني قدّرت أنها ستكون سبع ساعات حتى يقتنع أو أيأس؛ اشترط علي في النهاية أن أفتحه بشكل غير رسمي، لمدة أسبوعين، إلى أن آتيه بدليل بيّن على وقوع جريمة، عندها سيعطيني الصلاحية لفتح ملف إسرائيل النووي، وإذا لم أجد ما يعزز ادعائي فعليّ ارتداء لحاف في ما تبقى من الصيف.

كان الإذن الموقّع منه يعطيني فقط صلاحية «اطّلاع»، وهذا ما كنت أريده، أما صلاحية الاستدعاء والتحقيق فأعرف كيف أقوم بها وحدي.

خمسة

خرجت منه متحمسًا إلى أرشيف الجنايات في الوزارة، حيث كانت الموظفة ضائقة من شيء ما في شاشة نقالها وهي تحدّق بها دون أن تردّ عليّ السلام. استشفَفْتُ من طريقتها أنها تفتقد اهتمام من حولها. لم أخبرها أنني محقّق، كلمة محقّق تريك الناس، تصطنع التصرفات نحوي، وهذا ما أكرهه، قلت إنني

باحث قانوني، وأعطيتُها الإذن بالاطلاع على الملف وتاريخ سنة القضية. ألقت نظرة على الإذن وقالت ماسحة على شاشة نقالها بإصبعها:

«تعال الاثنين، هذا ملف قديم، يحتاج إلى وقت».

«لو تكرمتِ، لديك ساعتان حتى ينتهي العمل، يمكن أن تحـ..». قاطعتني من خلف النقال:

«أقول لك: ملف قديم، تقول لي: ساعتان، تعلمني شغلي؟».

«لا أقصد، لكن القضية مستعجلة، وأنا أريـ..».

«قضية أغلقت سنة ثلاث وتسعين مستعجلة! أتمزح معي، أنت لا تعرف كيف نُخرج هذا النوع من الملفات، هذه ملفات غير موجودة في النظام، مسجلة في دفاتر التسجيل القديمة، ربما تأخذ أسبوعًا كاملا، أتعرف ماذا، ما رأيك أن تأتي بعد أسبوع».

«دعينا على يوم الاثنين أرجوك، أنا آسف، وحقّك علي». تراجعتُ جامعًا على وجهي ابتسامة تفرّقت ما إن ابتعدتُ من أمامها.

رفعتُ الإذن أمام عباس، عدّل من وضع بنطلونه، وحيادُ تعبير وجهه يقول إنني أكلّفه حملًا ثقيلا.

«لن أطلب منك غير معلومات». قلت مغلقا الباب خلفنا.

أعددتُ معه قائمة أوّلية بثلاثة أسماء:

أولها عمّه العقيد المتقاعد «علي نشوان».

ثانيها أخوه «صقر نشوان».

«وسعيد جونكر، أليس له أحد؟» سألتُه. فهزّ عباس رأسه نافيًا يقول:

«يقال إن أمه تخلت عنهما وإنـ..».. ثم تذكّر فجأة «آه، مهلاً، مرعي.. مرعي.. نسيته، زوج جدة سعيد».

ثالثها زوج جدته «مرعي».

ستة

صرفت بقية يوم الخميس، ويوم الجمعة، على نقل ملف كتاب الفهم والإيهام على ملف وورد. وأفردت يوم السبت لوضع تصور للاستجواب، وأسئلة كلها مبنية على تقنية الاستجواب الاعترافي، أضع الجواب في السؤال ليقول المتهم نعم أو لا. أخرج من الغرفة للطعام أو للجلوس مع أمي وجدتي في الصالة أشاركهما مشاهدة تسجيل لأبي أرسله للتو، من كمبوديا، يقول فيه أشياء عن الجو، أو أتابع التلفزيون وهو يعرض تصويرًا حيًا لمكة؛ ترتاح جدتي لرؤية الكعبة والناس يطوفون حولها.. ثم أعود أكتب.

لمّا فرغت من وضع أسئلة الاستجواب لمرعي خرجت إلى الصالة فوجدت جدتي تحدّث أمي عن أول مرة اصطحبتْ عمي عادل إلى مكة مع جدي، كان في السابعة من عمره، ويحب الشقاوة، قصت علينا كيف كان يُلح على جدي بأن يطرق باب الكعبة، ضحكتْ بعدها ثم قالت: «يعتقد أن الله يسكن فيـ.. (وضعت يدها على فمها تكبت الضحك) أستغفرُ اللهَ العظيم. الصغار تفكيرهم غريب». استغفرتْ أمي معها تضحك، وأشارت إليّ بعينها: «وبعض الناس، عندما كانوا صغارًا، يقولون إن الله يطفئ الشمس وقت النوم. أستغفر الله». ضحكنا.

لمّا رجعتُ إلى غرفة عمي عادل، عدت إلى ورقة في الملف مُعنوَنة بـ «الدهشة» ذكر في منتصفها أن الأطفال لديهم ميلٌ فطري لتفسير أي ظاهرة بحسب ما رأوه في الحياة، فربما رأى طفل أنّ الجبل ركام ترابي تركه ولد ضخم كان يلعب، لأنه فعل هذا أو رأى أحدًا يفعله، وقد يرى آخر أن البحر مسبحُ عمالقةٍ، لأنه شاهد بعينه مسبحًا.

وتحدث في آخر فقرتين عن شعوره عندما ينظر إلى لفظ الجلالة «الله»، شعور بأن كل الكلمات عاجزة وجميع الأشياء صغيرة. وعن لفظه يقول: نطق ألف لام التعريف يعزز الهواء في الرئة، حتى تضغطه اللام المشددة -وهي تعلّق طرف اللسان قليلا بمقدمة سقف الحلق- لتنفّسَ عنه بمقدار، ثم تأتي الهاء الشاسعة

تفكّه عن الصدر، فتحدث الانطلاقة التي تشبه التنهيدة.

وجدت أيضًا أوراقا أخرى يتحدث بها عن الأثر الذي تتركه الحروف في فهمه للكلمات؛ يقول إن حرف الحاء دافئ، الكاف ولفظه الذي يشبه السعال، وحرف السين له وقع حاد، النون معه تمضي: سكين.

السين الحادة، مع اللام المطمئنة إذا ما كانت موشومة بحميمية الميم تعطي انطباعًا للسَكِينة، كما في كلمة: سلام.

الحاء مع الراء المختالة توحيان بمحيط ما كاسم وكصفة، حر، حُر، تجيء السين تضع فيهما سلاحًا: حَرَسْ. أو تضغط الميم الشفتين لتحمي: حرم حرام..

الواو منتظرة غالبًا، القاف حرف بليد في أكثر حالاته، الفاء تلقي بظلالها في آخر الكلمات الواصفة للثبات: وقف.. حركة الشفاه أثناء النطق كذلك لها يد في تخليق معنى الكلمة، استدارتها مع الواو، وانضمامها في الميم، الصوت الحاد للسين، ونغمة الشين الخشنة، انفجار الطاء، الطابع الهوائي للهاء، كل حرف له صفة وأثر لنطقه باللسان يماثل معناه -إيحائيًا- في النفس، حسب مكانه في الكلمة؛ لا يمكن فصل إيحاء الكلمة عن معناها، هذا الأمر ليس مصادفة، لا يأتي حرف الشين والراء بخير مهما حاولنا تزيين كلمة «شر»، «شرار» «منشار».. حتى الذي لا يعرف اللغة العربية يشعر بهذا الانطباع؛ ولا يمكن تجاهل انتفاش لفظ الراء في كلمة «وردة».. ولا اللفظ المثبط لزاي ونون كلمة «حزن».. ولا الانفراجة في حاء كلمة «فرح».. ولا الاضطراب عند الثاء المشددة في كلمة «تعثّر». وفي الورقة الثانية يقول إنه يجب أخذ التشكيل بعين الاعتبار فكلمة حَر وحُر يختلفان بالمعنى بسبب الفتحة والضمة؛ فكل حرف مكون من ثلاث حالات، المفتوح والمكسور والمضموم، لدينا في الحقيقة أربعة وثمانون حرفًا، التشكيل أبعد المعنى نهائيًا وغيّر وجهة الإيحاء، ضمّ الحاء في كلمة «حُر»، يبث شعورًا بالاندفاع والتحرر، بينما فتحها في كلمة «حَر» شبه الصوت الذي نصدره عندما نلمس شيئا ساخنًا. النحو منطق اللغة.

سبعة

حوّلت يوم الأحد إلى زملائي قضية حادث تصادم عدّة سيارات، سببها سيارة متعطلة عند إشارة كانت خضراء. وجلست أدوّن كل ما يعرفه عباس عن فهد. وانتبهت إلى قرب وقت انتهاء العمل. «ها قد بدأ الوقت بالركض» حدثت نفسي أمام جهاز البصمة، ولوحت للشرطة عند باب الخروج.

ورحت أتمعّن بما كتبته عن فهد على مكتب عمي عادل. بدت لي تصوراتي لما جرى متضاربة. سعيد جونكر، فتى ضخم مضطرب، في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره، فهد كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة عندما اختفى سعيد، وهو صديق سعيد الوحيد، سعيد له أخ معاق اسمه سعد، اختفى سعد أيضًا يوم اختفى سعيد.. القضية عن اختفاء سعيد.. إذن مصير سعد معلوم.. هيا أيتها الخيوط.. اقتربي بنفسك.. هيّا.. مرعي زوج الجدة.. الجدة توفيت قبل عدة شهور من اختفاء سعيد.. مرعي يملك البيت الآن.. لو أن سعيد وسعد هنا لما كان له ذلك.

خرجت جثة فتى ضخم من الأوراق، أشارت في مخيلتي إلى ثلاث نقاط:

واحد: الجدة لا يرثها إلا سعد وسعيد.

اثنان: مرعي زوجها..!

ثلاثة: فهد وحده يعلم ما حصل.

«لن أطلق أحكاماً الآن»، قلت في نفسي ودخان يرتفع باسم مرعي ويتجمع بشكل كلمة «القاتل».

تركت بقية الورقة بيضاء إلى أن أقرأ الملف يوم غد.

فهد نشوان

ذكر عباس عن فهد أشياء يمكن أن تنطبق على أي ولد اسمه فهد في العالم. ولد نحيف، كان كلاهما في الرابعة عشر عندما تعرّفا على بعضهما، أذناه بارزتان قليلاً، وشفتاه الرفيعتان إذا ما ضحك تكشفان عن لثة طويلة، وأسنان قصيرة. يسرّح شعره على جانبه الأيمن، وكان سريعًا في الجري، ما جعله مميزًا في كرة القدم. رفع عباس كتفيه يقول: «هذا كل ما يميزه».

أما عن حسّ الشقاوة الذي يتسارع الأولاد في إبرازه وقت المراهقة -العمر الذي يشعر به الإنسان أنه مخلّد ولا داع للخوف فيه من المخاطر- قال عباس إن فهد كان يسعى جاهدًا إلى التميز بين أقرانه، حتى أصبح سنة ثلاث وتسعين مهابًا بين أولاد المنطقة، واكتسب سمعة جعلت الأولاد يتوددون إليه. تعرّف عباس عليه بعد التحرير بسنة، جاءه عصرًا مع ولد آخر يريدانه أن ينضم إلى شلّتهم ليواجهوا شلة أخرى أكبر عددًا منهم، وكان فهد متحمسًا للمواجهة.

أخبرني عباس عن العراكات التي بينهم وبين شلل الأولاد في القطع المجاورة، حيث كان فهد يتجنبها قدر الإمكان، أو يهرب في بدايتها أحيانا. لكن عندما صعد نجمه بحادثة غريبة، صار لا يفوّت فرصة يتظاهر بها أنه قادر على الأذى، رغم أنه لم يكن يأتي بأي شيء يدل أنه مؤذٍ؛ بل إنه كان يتألم إذا ضرب ولدًا بمكان مؤلم. «كل ما كان يفعله تمثيل» قال عباس. وذكر أن فهد حاول مرة إنقاذ كلب من الموت.

بعد اختفاء سعيد مباشرة حبس فهد نفسه عدة أيام في البيت. كان أصدقاؤه يطرقون عليه الباب فتجيبهم أمه أو إحدى أختيه بأن في بطنه مرضًا.

وجده عباس في أحد تلك الأيام في بيت أم غريب صباحًا، وكان وحده، فأظهر

وجهه علامات تدل على أنه كاره للقائهم. حاول التملص منهم ذلك اليوم بعلاج بطنه، لولا أن أصرّ عليه صديقه المقرب «سعد كوكو» وبقي معهم بضع دقائق، تظاهر أمامهم أنه صار ولدًا طيبًا، ثم غادر متعجلا. ثم لما بدأت التحقيقات، حققوا مع فهد مرتين، الأولى خرج بعد خمس دقائق، لكن في المرة الثانية بات في النظارة يومين.

قام الأولاد يبتعدون عن فهد بسبب إشاعة تقول إنه قتل سعيد. انتشرت الإشاعة في المدرسة بسرعة غريبة، جعلت الأولاد يشعرون بأن مجرد تحديقه بهم إشارة إلى أنه يشتهي شقّ بطونهم. هذا ما جعل عباس يبتعد عنه أيضًا بعدما رأى أن الأولاد يتحاشونه لأنه يمشي معه، فقد توهّموا أنه يستدرجهم إليه. يريد عباس أن يكون محبوبًا لدى الجميع، لذلك تدرّج في ترك صحبة فهد في المدرسة. بعد ذلك راح فهد يرمي الجميع وراءه، واحدًا تلو الآخر، كأنه يتخفف من عبء معرفتهم.

وأخبر «سعد كوكو» عباس، في تلك الأيام، أن فهد قال له أمرًا غير معقول بخصوص اختفاء سعيد، لم يفصح كوكو ما هو لأن فهد حلّفه ألا يقوله لأحد. فقطع فهد علاقته بسعد كوكو لأنه لم يصدّقه. حتى جاء يوم أنهى فهد فيه علاقته مع عباس فجأة وبلا مقدمات، ثم انعزل بنفسه انعزالا منع الآخرين الاقتراب منه.

وبعدها صار يقضي أوقات الصباح، في أيام العطل، وحيدًا في حديقة جدة سعيد، كما لو أنه ينتظر قدوم أحد. استمر هكذا لمدة سنة تقريبًا، حتى لاحظ الجميع ظهور عظم وجنتيه وانبراء عوده. وفي السنة التالية بقي في المتوسطة وحده، حيث رسب ونجح البقية. تلك السنة سمع عباس أن فهد يتسلق السور كل يوم ليقضي بقية النهار في حديقة جدة سعيد. فلمّا أتى آخر السنة انفتح على الآخرين فجأة، وصار يسمح لهم بأن يتكلموا معه، دون أن يقرّبهم منه أكثر؛ وقد سمع كذلك أن المدرسة كرّمته لتفوقه.

رآه عباس كثيرًا في السنوات التالية: «لم يكن يريد معرفتنا، كما لو أننا قتلنا

أحد إخوته، يمرّ بسيارته أمامي، أرفع يدي أسلّم عليه فيتظاهر أنه ينظر إلى شيء في الجانب الآخر، و.. آه.. كيف نسيت هذه»، هز عباس رأسه مستدركا: «كان هناك فتاة، اسمها وردة أو ريحانة، شيء من هذه الأسماء، يحبّها فهد، وكانا يلتقيان كل ليلة، بعد صلاة العشاء أمام شبّاكها».

خمّن عباس في النهاية بأن فهد لم يكبر كما كبروا هم؛ استنتج هذا من طريقة فهد في المشي عندما كان يصادفه في الجمعية، أو في المستوصف، أو في محطة البانزين، ومرة في مطعم الجمعية، مشية ولد لا يأبه بمن حوله، وحتى إيماءاته، ظلّت كما هي، تعبّر عن أخذه الحياة بدرجة أقل من الأهمية المطلوبة.

«طيب طيب» همست وأنا أضع كل هذا في ملف «قضية سعيد جونكر»، مستنتجًا على آخر الورقة:

«فهد كان يعاقب نفسه في انعزاله، ربّما يدل هذا على أنه خذل سعيد في لحظة مصيرية، هل تخاذل فهد بموضع كانت حياة سعيد فيه على المحك؟».

الصيدة صقر

واحد

يوم الاثنين يعج عادة بالحركة في كل الدوائر الحكومية، هذا ما دعاني لأن أعطي زميلي قضية حادث تصادم سيارتين حدث أمام فرع الغاز، وأخرج مبكرًا لأرشيف الوزارة. غلت سماء الساعة التاسعة فوقي وأنا أستقل الشارع السريع. استقبلني وجه الموظفة ذاتها فاترًا فيما كانت تمسح بإصبعها على شاشة نقالها، خمّنتُ أن حدة افتقادها للاهتمام انخفضت قليلا، أعطتني الملف، وأشارت إلى طاولة في زاوية الغرفة: «الخروج بالملف ممنوع، نادِني إذا احتجت إلى تصوير أي ورقة».

«لماذا الملف بهذه الحالة». سألتُها وأنا أتلمّس أطراف الملف المتيبسة: «هل كان منقوعًا في بركة».

«اشتكِ في الوزارة، الأرشيف في شاليه خارجي، ثم احمدْ ربك أنّنا وجدناه».

انسحبتُ إلى الطاولة أقول: «الحمد لله أنكم وجدتموه».

جعلتْ أوراق الملف تأنُّ وأنا أفتحه برفق. أوراق مصفرّة الحواف، وقد بهت لون قلم الحبر الأزرق الذي كتب تفاصيل الموجودات والأسماء وأسئلة التحقيق، حتى إن لون ختم إغلاق القضية على الورقة الأولى باهت «خرج ولم يعد»، موقّع ومختوم بختم رئيس المخفر المقدم «علي نشوان». تصفّحت الملف بتأنٍّ، أغلب الأسماء لصبية صغار، عدا اسم «مرعي محمود» حدد في الثالثة والخمسين. بحثت عن تحقيق فهد نشوان، وجدته أول اسم، صفحته جيدة مقارنة بباقي الصفحات.

كان التحقيق معه باردًا ومكونًا من سؤال واحد سطحي:

سؤال: هل تعرف أين سعيد مرزوق الذي تسمّونه سعيد جونكر؟

جواب: لا.

ثارت شكوكي، وعزّزتها بعلامة استفهام كبيرة وضعتها في ذهني.. أين سؤال إذا ما كانت لديه معلومة تساعد في التحقيق؟ أين أسئلة علاقته بسعيد؟ لا يحتاج أحد أن يكون محققا ليعرف أن هذا التحقيق لا يستوفي الشروط المأخوذ بها في مثل هذه القضايا. ثم أين أوراق التحقيق الثاني الذي أخبرني عباس عنه! دعتني مهنتي إلى أخذ هذا القصور على محمل الشك. لو كنت أريد تبرئة متّهم لما فعلتُ أفضل من هذه الطريقة.

كانت صفحة «مرعي محمود» باهتة مليئة بالأسئلة القصيرة والأجوبة الطويلة. أمر محير. كثرة الأسئلة تدل على كثرة الشكوك.. هذا يحتمل أحد أمرين، إما أن العم يريد تلبيس مرعي التهمة، وإما أنه يشتبه فعلا بمرعي. كانت الأسئلة والأجوبة مطموسة، إلا بعض الكلمات التي يفهم منها أن عراكا نشب بينه وبين سعيد قبل اختفائه بساعات. وكلمات باهتة تصف كيف هجم سعيد عليه، وأن سعيد خرج بعدها مباشرة ولم يعد، وأنه أبلغ المخفر عن غيابه في الساعة الثامنة مساء ذلك اليوم.

«طيب طيب» همست. المصدر الأول للمعرفة هو البحث عن المعرفة. سأبدأ التحقيق من الغد مع صقر أخي فهد. أغلقت الملف، ولمّا قمت لأعطيه الموظفة، سقط منه شيء صغير على الطاولة، التقطتُه: كانت صورة من النوع المستعمل في الأوراق الرسمية، لشاب ذي وجه سميك، بخلفية زرقاء، كُتب عليها من الخلف «سعيد مرزوق»، كان وجهه من ذلك النوع الذي تخشى الاقتراب منه، تاركا أسنانه الأمامية تخرج من بين شفتيه دون اكتراث، ينبتُّ على خديه حب الشباب، وعيناه واضحتان مثل كلمتين لا تحتملان تأويلا، يحدّق بالكاميرا، دون تعبير معيّن على ملامحه، وشعر رأسه خشن ومجعّد. قدّرت أنها ربما صورة لإثبات الجنسية؛ لأن عمره يبدو في الثامنة عشرة، قد تكون التُقطت

قبل شهر من اختفائه، لذعني ذلك الشعور المبهم عند رؤيتي صور الأشخاص بتيار كهربائي بحلقومي؛ أشعر أن الصورة فيها شيء من روح صاحبها؛ ورؤية شيء من الروح، متمثلا في هيئة صورة للجسد، يبعث تناقضًا صارخًا للفكرة السماوية بعدم تجسيد الروح ولا رؤية شيء منها.

«تُرى أين أنت الآن» همست داسًا الصورة في جيب ثوبي.

وضعت الملف أمام الموظفة.

«أشكرك، وأعتذر على الإزعاج الذي تسبّبتُه لك» قلت.

هزّت رأسها دون أن ترفع وجهها عن جهازها النقال، فأضفت: «وأتمنى أن تجدي ما تبحثين عنه».

«عمّاذا تتحدث؟».

«عن الحـ.. عن الملفات طبعًا».

وتراجعتُ أجمع علامات التعجب التي نثرتْها حولها.

اثنان

قضيت أغلب الليل في قراءة الملف الخاص بي لقضية اختفاء سعيد، وأقرِّبُ صورة سعيد أمام عيني وأبعدها، وأكتب بعض الملحوظات الجانبية عن احتمالات أخرى يمكن أن تكون قد تسببت في اختفائه. تلك كانت فترة ملتبسة فعلا، عدد ليس قليلا من الناس اختفى ولم تزل أفواه ملقّاتهم مفتوحة.

تعرّف عباس على صورة سعيد، أول ما رآها في الصباح، حدّق بها ملياً وقال: «يا الله، سنوات طويلة مرّت».

أخبرني بأن سعيد لديه جسد دُبّ وقلب عصفور، فقد كان يهرب من الأولاد ويغلق خلفه الباب. كانوا أحيانا يهوّشون له فقط ليروا هروبه المضحك.

«أتعرف يا عباس لماذا سنّ الطفولة هو الأجمل في عمر الإنسان؟».

«لماذا».
«لأن فهمنا للحياة فيها يكون محصورًا في الأشياء التي تُسعِدُنا فقط، ونترك فهم الأشياء التي تزعجنا لأنها لا تعنينا، وكلما كبرنا أصبحنا نريد أن نفهم الأشياء التي تزعجنا في الحياة؛ لنعالجها، ونتجنب فهم الأشياء التي تسعدنا لأننا نقلل من أهميتها. حالتنا يا عباس لا تكون انعكاسًا لظروفنا، بل نتيجة لما نفكر به؛ لهذا تميل وجوه الأطفال إلى ملامح السعادة، وتميل وجوهنا إلى تعبيرات الانزعاج».
كان هذا مما كتبته يومًا عن الفرق بين الطفولة والكهولة.
قال ممازحًا: «وأنت مواليد تسعين ورأسك أشيب».
ضحكت: «مشكلتي أنني لقيت الفهم لعبتي منذ طفولتي، كما أخبرتك، عمي -يرحمه الله- علمني هذه اللعبة، أستمتع بفهم شيء جديد، ربما لهذا السبب شِبْتُ بسرعة، لكن قل لي أنت هل كانت لديك لعبة معينة جعلتك تُصلّع بسرعة». ضحك، ودخل علينا شرطي من الاستقبال:
«حضر صقر نشوان».
«دعه يدخل» وقلت لعباس «تستطيع أن تبقى».
«لا.. لا.. لا أريد أن يشعر أن لي دورًا في هذا».
«طيب طيب. كما تريد».
دخل صقر يرتدي شماغًا أحمر وعقالا، خرجت من وراء طاولة مكتبي وصافحته. بعد السلام الروتيني جلسنا وطلبت له شايًا. اعتذرت منه لأنني طلبته في وقت غير مناسب: «أنا فعلا محرج منك، للتو دفنتَ أخاك وأنـ..» قاطعني يهزّ يده: «لا عليك لا عليك». تحدثتُ عن درجة الحرارة اليوم لأسحب منه الشعور السيء الذي ينتاب زوار المخفر. بادلني الحديث، وقصّ علي انزلاق إطارات سيارته أثناء تجنّبه قطّا قفز أمامه في الشارع قبل قليل. تحدثنا عن شوارع الفردوس التي لم تعد الحكومة تلقي لوضعها التالف بالا، أخذتُه في الحديث إلى شارعهم وسكانه، اشتكى من بيع جيرانهم بيوتهم لمشترين يبحثون عن تأجيرها للعزاب: «العزّاب يجعلون الشارع عارياً». أيّدتُه، فوقفتُ معه

بالحديث أمام بيت جدة سعيد جونكر: «هل تعرف ما مصير حفيدها؟». عدّل من وضع نظارته، التي كانت في وضعها الصحيح: «لا أذكر ماذا حدث بالضبط، القضية قديمة». لاحظت ارتباكه: «أخوك يرحمه الله كان مشتبهاً به». «أبدًا، كانوا يحققون معه ليعرفوا أي معلومة قد تدل على مكانه». «أنا قرأتُ الملف قبل يومين»، سكتُّ أنظر إلى الباب ثم تابعتُ كذبي: «كانت أسئلة اتهام». ابتلع ريقه، خمّنت أنه عرف أنني طلبتُه لهذا الأمر، ثم هجمتُ: «بصراحة، أخ صقر، قررت أن أعيد فتح ملف قضية اختفاء سعيد.. هناك شيء لم يحل.. طبعًا أنت لستَ هنا بشكل رسمي لأنني أردت الجلوس معك قبل ذلك، قلتُ ربما هناك أسماء تعرفها تفيدنا قبل أن نبدأ التحقيق.. ولأكون صادقا معك أنا أشك في شخصين؛ أخيك فهد ومرعي، ولدي شك أن عمّك علي نشوان أخفى الكثير من الأدلة على تورط أخيك في جريمة قتل». جمد وجهُه. شعرت أنني أكثر شخص وقح في الكون، دفعت نفسي لأكمل: «ومن الممكن أن تكون أنت مذنبًا أيضًا، ربما تستّرت على جريمة، وهذه عقوبتها ليست سهلة كما تعلم». كمن لديه خبيئة يخشى انكشافها، أخذ صقر نفسًا عميقا من أنفه زامًّا فمه، ثم أشاح بوجهه إلى الباب وزفر الهواء من أنفه، فقررتُ التوقف عند هذا الحد: «إذا كانت لديك أي معلومات أرجوك أفدني، التعاون مع الأمن دائمًا يُؤخذ بعين الاعتبار في المحكمة.. اشرب اشرب شايك». وشَتْ يدُه بارتباكه وهو يأخذ رشفة من كوب الشاي، رعشة خفيفة اعترتْها ما لبث أن سيطر عليها، مرّر عينه على الجدار قبالته، ثم أنزل الكوب يقول: «القضية قديمة، قديمة كما أخبرتك، لم أتستّر على شيء، هذا غريب أن تفتح ملفا أُغلق منذ أكثر من عشرين سنة، و.. وفهد لم يكن متهمًا، لا أذكر شيئا غير هذا». ناورتُه: «لكنك ذكرتَ قبل قليل أن هناك بيتا كان مهجورًا قبل أن يبنى مكانه ثلاثة أدوار للإيجار، هذه معلومة تفيدني في التحقيق، إذا ما كان لديك معلومة أخرى كهذه فأرجوك لا تتردد في إخباري، ثم إن هناك قضايا نفتحها حتى بعد مرور أربعين عامًا، الأهم هو أن تعرف الحقيقة، أليس كذلك؟». هزّ رأسه وهو يسند يده على ذراع الأريكة

لينهض: «الآن ليس في بالي شيء». «طيّب طيّب.. لست مستعجلا، ربما نبدأ التحقيق بعد ثلاثة أسابيع، حتى ذلك الحين حاول أن تتذكر، أرجوك». وقف يقول: «حسنًا، أستأذنك الآن». «طبعًا طبعًا» قمت وصافحته، وقبل أن نصل إلى الباب طلبتُ منه: «بالمناسبة، أعطني رقم عمّك علي نشوان، سيكون معنا في التحقيق». «مَنْ.. عمي علي!.. لا.. أقصد عمي عليّ في رحلة علاج». «أوه، أتمنى له الشفاء، متى سيعود؟». «قبل ثلاثة أسابيع أخبرني ابنه أنهم وجدوا له كلية، ولم أتصل عليه بعدها، اليوم سأفعل». «طيّب طيّب، هذا كرتي». أعطيته كرت العمل: «أرجو أن تبلغني بتاريخ عودته».

ودّعته عند الباب، واضعًا أمامه علامة استفهام بعدها نقطتان، وعدت إلى مكتبي. ثوان ودخل عباس.

«لا تقلق عباس، وضعت الطعم، إذا كان يعرف شيئا فسيعترف أو سيعطينا معلومات خطأ، وفي الحالتين سنكتشف الحقيقة».

«هل تشتبه به؟».

«نعم، على الأقل يعرف شيئا ما».

اتّفقت مع عباس على زيارة بيت جدة سعيد، أريد أن أسمع من مرعي، بدا لي مما قاله عنه عباس أنه سهل الاستنطاق.

انتهى العمل ذلك اليوم بسرعة. منذ جاءتني قضية سعيد وساعات العمل لا تكفيني، ولا حتى ساعات اليوم كله. دردشت مع الشرطة في الاستقبال، رفعت يدي بإشارة الوداع. تجاوزت الساعة الثانية ظهرًا. أخرج مكيف سيارتي لسانه من الإجهاد وهو يدفع الهواء الحار عن وجهي، مؤشر الحرارة يقول إنها خمسون درجة، وتعرُّقي يقول إنها مئة وخمسون. قدت سيارتي إلى البيت، آخذا حفرة الدوار في طريقي.

ثلاثة

وجدت جدتي جالسة على سريرها في الصالة. كانت أختي منيرة وزوجها هاني عندها، معهما أبناؤهما الثلاثة: عادل وسعود منكفئان على قفاهما فوق سرير جدتي، يقربان إلى وجهيهما نقالا يشاهدان مقطعًا لشاب يلعب مع أطفال. لا ينفكان يفعلان ذلك كل مرة أراهما هنا أو في بيتهما، رغم أنني نصحتها وزوجها أن يجدا حلا لهذا السلوك المدمّر للمخيلة وللعقل. تقول منيرة إنه يعطيها فرصة لتأخذ أنفاسها من صراعهما الدائم حولها، ويقول هاني إنه لا خوف من الجوال طالما أن المقاطع لا تخرج عن الأدب. نقاشات كثيرة دارت بيننا في هذا الشأن، وكتبتُ عن تساهلهما في هذا الجانب حتى توصلتُ إلى أن أختي وزوجها لديهما اطمئنان مَرَضي بخصوص المستقبل، يضمنان لا شعوريًا رغد الحياة، فهي لا تحتاج لنجاح حتى ينعم أولادهما بعيش طيّب، الحكومة والبترول يكفلان الغد للأولاد، فلا يوجد داع لعناء الاجتهاد بإعدادهم.

رفعت رضيعَها «زيد» إليّ: «يشبهك» قالت. قبّلتُ رأسه أقول: «إذا لم يشاهد هذا الجهاز المُفسِد». ضحكا هي وزوجها.

للإيجار

واحد

كان بيتا ترك عليه الزمن أثره، بيت جدة سعيد، لا يزال على حال بنيان الحكومة منذ سنة ألف وتسعمئة وتسع وسبعين. لون طوبه بُنّي. له بابان، يفتح أحدهما على الشارع والآخر على سكة تسلك إلى ساحة ترابية فسيحة تنتهي بشارع على زاويته مبنى فرع الجمعية التعاونية. أوقفت سيارتي أمامه، أرتدي لباسًا رياضيًا ونظارة شمسية، وعباس بزيّه الرسمي خلفي بالدورية؛ رأيت أن زيّ الشرطة ومنظر دورية سيسهلان خروج اعترافات رجل مثل مرعي. نزل عباس معي وطرقنا الباب. أمالت شمس العصر ظلال البيوت المقابلة علينا، لكن الهواء الحار ظلّ يحرقنا كما لو أن تنّينًا متعبًا يتنفّس حولنا. «المعذرة عباس» قلت ناظرًا إلى العرَق وهو يتفصد من جبينه وأنفه: «أزعجتك بطلب حضورك خارج وقت عملك، أقدّر لك ذلك». أزال العرَق عن جبينه بسبّابته ونثره على الأرض: «لا لا، لا عليك، تستحق أن أحضر من أجلك». ثم استدار إلى البيت المواجه وقال: «هذا هو البيت الذي وجدوا فيه الجثث». كان البيت مكونا من ثلاثة أدوار، لواجهته الوحيدة أربعة أبواب، وتتزاحم أمامها خمس سيارات. سألت: «هل كله للإيجار؟». «أظن، للعوائل فقط». طرقنا الباب ثانية. طالعت الشارع الذي يفصل بين البيوت، تبرز منه الرؤوس الصغيرة والمدببة للصخور، ومتآكل في عدة أماكن. كانت السيارات تتزاحم أيضًا تحت المظلات أمام البيوت طوال الشارع وتخنق الرؤية. تحيطنا الأصوات الخافتة لتأوّهات مكائن وحدات التكييف على واجهات البيوت. فَتح الباب ولد في سن

البلوغ يمسك «آيباد». ارتبك لدى رؤية عباس، سألته: «أين مرعي محمود؟»، أشار إلى السكة: «الباب الآخر». «هل أنت ابنه؟» سأله عباس. «لا، أجّرنا البيت، مرعي يسكن وزوجته في الملحق». التفّ عباس إلى باب السكة. تبعتُه إلى حديقة جانبية مهملة في منتصفها شجرة سدرة عظيمة، على بعد مترين منها يوجد باب جانبي صدئت حوافه وبقي وسطه متمسكا بلونه الأبيض.

اجتزنا سورًا واطئا من طوب إسمنتي متآكل، وطرَق عباس الباب، ثم ابتعد عنه خطوتين. نظر إلى السدرة وقال: «هذه هنا منذ عرفت هذا الشارع». وقبل أن يطرق الباب ثانية تحرّك أحد مصراعيه وأصدر صوتا معدنيًا ثم اهتز وانفتح عن وجه رجل يشبه شجرة قديمة، يلفّ رأسه بغترة مصفرّة، له لحية بيضاء واهنة، محدودب الظهر، عليه بيجامة نوم، وكانت تقاسيم وجهه تقول إنه لا يريد أن يرى المزيد من الأشياء التعيسة. تراجعتُ عمّا كنت قد خطّطتُ له في الانقضاض عليه باتهام: «أنت متّهم بقتل سعيد»، رأيت أنّ قلبه سيتوقف من قوة الصدمة. أدار نظرة مضطربة حول عباس، بعينين استدارت هالة الشيخوخة البيضاء حول نونيهما، ثم التفّ بهما حولي، فلطّفتُ صوتي: «مرحباً يا عم، لا بد أنك العم مرعي محمود». ابتسمتُ وأنزلتُ نظارتي. التفتَ إلى عباس وعاد إليّ يهز رأسه، وبصوت يشبه محاولة النهوض قال: «نعم، أنا مرعي، ما الأمر؟». «سلامتك، لا شيء، فقط نريد أن نسألك بعض الأسئلة العادية ونذهب ولن نعود». حكّ لحيته: «أسئلة عن ماذا؟». سالت حبات العرَق على ظهري: «عن موضوع قديم، نريد مساعدتك كي ننهيَه، عن اختفاء سعيد مرزوق، حفيد المرحومة زوجتك». صمت لحظة يتطلع بي وبعباس، ثم أغلق الباب بقوة. قذفتُ يدي على الباب، لم أعد بحاجة إلى التلطّف، قرعتُه، شعرتُ به واقفا وراءه دون حراك، غمزتُ لعباس، الذي راحت بقعة عرق تَدْكُن تحت إبطيه، ورفعت صوتي: «اطلبْ مساندة، عشر دوريات، سنقتحم البيت ونأخذه إلى السجن». ثوانٍ ورفع صوته من الداخل: «دعوني، ماذا تريدون، اذهبوا، لا تريدونني أموت بسلام». «افتح الباب يا عم، أنت هكذا تعقّد الأمور»

تابعت بصوت هادئ: «جئنا إليك لنتحدث معك أمام بيتك كي لا نتعبك، أتريد أن تأتي معنا إلى المخفر، حسنا، سنذهب الآن ونترك الباقي لعشر دوريات تنتظر منا الأوامر لاقتحام بيتك». اهتزّ الباب وأخرج وجهًا مشدودًا، وأسنانا صفراء تطلّ من فم مجعّد تحيط به رؤوس شعرات بيضاء: «ماذا تريدون؟ قل قل، سعيد اختفى قبل عشرين سنة، بل أكثر.. هذا كل ما أعرفه، مع السلامة، هيا اذهبوا من هنا ولا تأتوا مرة أخرى، هيا». سال العرق على جبيني، مسحتُه بسبابتي ونثرته على الأرض.

«يا عم» قال عباس ووجه محمرّ من الحر : «نريد أن نعرف منك الذي جرى فقط، هنا أمام الباب، ونعدك أننا لن نطلب أن تأتي إلى المخفر، لكن إذا لم تخبرنا هنا، فأنت تعلم أن المخافر هذه الأيام مكان لا يحبّ الرجل الطيب مثلك أن يكون فيه».

وسّع فتحة الباب وخرج إلينا بخطوتين ثقيلتين، ظهرت وراءه امرأة شرق آسيوية تسأله عمّا يجري، أشاح لها بيده أن ادخلي، ثم نزل إلينا من عتبة الباب: «ماذا تريدون؟ شيخ كبير عمري ثمانون عامًا».. عدّلتُ له: «أربعة وسبعون». جلس على عتبة الباب: «معي سكري وضغط.. لا أعرف ما حلّ بسعيد، قلت هذا من قبل في التحقيق، الآن ماذا تريدون؟». أجابه عبّاس: «نريد أن نعرف لماذا كنت متّهمًا في التحقيق». سعل: «لم أكن متّهمًا، كانوا يسألونني عن أي معلومة قد تدل على مكانه». «أنا قرأت الملف، وأنتَ كنتَ متهمًا» قلت وتقدمت بضع خطوات، وأكملت كذبي لأستدرجه: «قرأت التقرير الذي كتبوه لاحقا عنك ولا أريد أن أخبرك ماذا جاء فيه، لكن الآن أخبرني ماذا كنت متهمًا به بالضبط». مسحت جبيني.

«إذا كنتَ قرأت الملف فأنت تعرف، لماذا أقول؟». «لأعرف هل ظلموك بما كتبوه لاحقا أم لا». صمت يبتلع ريقه. سعل. راحت تجاعيده تغور أكثر في جانبي وجهه: «اتهموني أنني قتلته حتى أرث البيت وحدي من العجوز، مقدَّم لعين اسمُه علي، بيت أخيه في الشارع الذي وراءنا، هو صاحب الاتهام، دعوت

عليه الله». «وماذا رددتَ عليهم». مسح العرق عن جبينه بالغترة: «سعيد كان مجنونا، وأخوه سعد كان معاقا، والبيت أصلا كان لي، أم مرزوق سجّلته باسمي بعد الغزو مباشرة، أريتهم صكّ البيت، فتراجعوا عن اتهامي».
جذب الخبر الهواء الحار عميقا في صدري: «طيب طيب، أين سعد؟». مسح لحيته: «في دار رعاية المعاقين، أنا من أخذه هناك، توفيت أم مرزوق، والخادمة التي ترعاهما كانت تريد أن تعود إلى أهلها، وحدي لن أقوى عليهما، فأخذت سعد إلى هناك، وكنت أريد أن آخذ سعيد إلى مستشفى المجانين، لكنه اختفى قبل أن آخذه».

فتحت مكيف سيارتي على الحد الأقصى لدفع الهواء. وذهبت إلى البيت.

اثنان

وقفت تحت الدوش أغسل جلدي من فَيْح أنسام أغسطس التنّينيّة، وأفكر في القضية التي استدرجت نفسي إليها.. أحبطني مرعي، ولّد لدي ذلك الإحساس الحامض بالفشل. لمست بانزلاق الماء البارد على صدري عزاء. يأتي الفشل بشكل طرق مسدودة أحيانا، لكن هناك فشل ليس له طرق، كهذه القضية، فشل مصمت. هل هناك جريمة أصلا؟ أم أنني أوهمت نفسي مدفوعًا بحماسة المحقق الذي يريد تحقيق العدالة في العالم؟ ولماذا أريد أن يكون هناك جريمة؟ الأنانية؟ محاولة تحقيق الذات؟ أليس المفروض أن أكون سعيدًا لبراءة الناس؟ أم أنني أريد أن أعرف ما مصير سعيد؟ علّني زججت نفسي برغبة كاذبة، ماذا سأقول لمازن؟ و.. وماذا سيقول عنّي؟
ساعدني الماء البارد على قبول الأمر كما هو. تنشّفت في الحمّام وارتديت بيجامة. اضطجعت على سرير عمي. لا أزال أسمّيه سرير عمي، رغم أنني أنام

عليه منذ أكثر من خمس سنوات. أسمّي غرفتي غرفة عمي. وأنسب كل أشيائه له، يعطيني هذا إحساسًا أنه لا يزال هنا ولو بصفة اسمية. عادة اكتسبتها من جدّتي حينما تسمّي لي الأشياء: غرفة جدك، حديقة جدك، مزرعة جدك، نخلة جدك. رغم أنني لم ألْحَق على حياة جدي إلا أنني أشعر، من هذه المسمّيات، بأنه بيننا بطريقة إيحائية. تقع غرفة عمي في الدور الأرضي، كانت صالة جانبية قبل أن يغلقها بجدار ويستقلّ بها، لهذا مساحتها كبيرة، مفروشة بموكيت أحمر، رفضت تغييره لمّا بدل أبي الموكيت بالسيراميك، مرفق بها حمّام، يقع السرير في الزاوية اليسرى أمام الشبّاك، تلتصق به طاولة صغيرة عليها المنبّه و«منفضة السجائر» -رغم أنني لا أدخن إلا أنني حرصت على إبقائها مكانها- بجانبه خزانة ملابس ذات بابين. يليها، بعد خطوات، كنبة مسترخية زرقاء مقلمة بخطوط ذهبية، كان عمي يجلس عليها عندما يرتدي أحذيته أو عندما يحدثني عن شيء جديد؛ وعلى الحائط المقابل للسرير، على جانبي الشباك، تتجاور أرفف الكتب مثل جيش يستعد لتفنيد العالم. كانوا خمسة أرفف عندما توفي، أضفت اثنين قبل سنتين، لما كثرت كتبي، وهذا ما جعلني أضطر لدفع طاولة عمي وكرسيه، حيث كنّا نكتب، إلى آخر الزاوية. وقمت أيضًا بتغيير مكان صورته ببدلته العسكرية التي تلمع بها نجمة على كتفه من الجدار الأيمن إلى أوّل رف للكتب عن يمين الشباك، تاركا نظرته المشعّة، وابتسامته التي تبعث الهدوء، تحرسانني أثناء النوم. وهي الصورة الوحيدة التي أحبّ أن أشعر أنها تحتوي على شيء من الروح.. روحه.

أخذت ملف كتاباتي عن قضية اختفاء سعيد جونكر، قرأتها، معيدًا ترتيب الجمل. شعرت أنني أريد أي شيء يقول لي إن ثمة خيطا يقود إلى ثمة شيء.

«لم يعد هناك إلا فهد» قلت لنفسي واضعًا الملف على (الكومودينو) «فهد يعلم ما حدث، وفهد مات، إذن القضية ماتت أيضًا».

انقلبت على جنبي الأيمن وفكرت بكتاب عمي، «كتاب الفهم والإبهام»، وسألت نفسي: «ماذا يمكنني إطعام ذهني بعده؟».

الجالاكسي إس فور

واحد

طوال الأيام الثلاثة التي تلت زيارتي لمرعي، جعلت البرودة تقرص وجهي من تسرُّعي في حكمي، وأنني بدوت جاهلا متسرعًا في عين عباس، ربما ليس هناك جريمة.

كتبتُ في الليلة السابقة لذهابي إلى مكتب مازن عن الشك والفضول.. الشك: خاطرة فاتنة، تتعرى لإيهام الذهن، فتثير فيه شهوة التفكير، حتى يقع في حبائل مفاتنها، ويهيم بها دون أن يعي خطأ ما يقوم به أو صوابه.. الفضول: شعور يكتنف الإنسان بالنقص تجاه أمر يجهله، ويظل مقتنعًا أنه لن يستعيد كماله إلا بمعرفته.

اثنان

وجدت مازن فواز يفترش الأريكة الثلاثية، أمام طاولة المكتب، في التاسعة صباحًا، ويأكل آيس كريم، مازحتُه وأنا أسير نحوه: «هل هناك لحاف معين أو يمكنني أن أرتدي أي نوع؟». ضحك، همَّ بالوقوف فمنعتُه وصافحتُه وهو جالس. أخرج الملعقة من فمه يقول: «لم تجد شيئا في تلك القضية إذن». «أعترف لك أنها كانت تمثّل تحديًا لديّ» جلست وأكملت: «المشكلة كانت أن المتهم الذي يعرف حقيقة ما جرى توفّي، لذلك قررت تركها». «لا تكترث، قضايا

مثل هذه عدوها الأول الزمن، كلما مر الزمن عليها تغيرت ملامحها، الأهم أنك تعلمت درسًا ما منها». أدرت وجهي جهة الشباك وقلت: «بالتأكيد تعلمت».

خرجت منه بعد نصف ساعة مثقلا بالحرج. على الرغم من كلماته المشجّعة، إلا أن نفسي كانت تدسّ وجهها بين يديها.

أمضيت بقية الوقت في مول الأفنيوز، أرى الناس فيه يهربون مثلي من الوقت، ويتدرّون في التكييف الفائق عن لفح القيظ. يروق لي الجلوس في أحد مقاعد المقاهي ورؤية الأشكال تمرّ من جانبي، ملامح غير متشابهة، انطباعات مختلفة على كل ابتسامة، مع كل نظره أرى شيئا لا أراه في النظرة الأخرى، أتأملهم، الناس هم قضية الحياة، الحياة تأتي وتذهب، أشكال كثيرة لها، والقضايا مثل الناس، لها أشكال مختلفة. أنهيت فنجان قهوة وذهبت.

دخلت المخفر قبل الانصراف بساعة. وجدت عباس جالسًا على طاولة الاستقبال يدير الحديث مع الشرطة كعادته. أحسست أن وجهي خرقة ماء مبلولة أخذت تنشف تحت الشمس وتنكمش. مشيت رافعًا رأسي كأنني على عجالة من أمري. أغلقت باب مكتبي، وجلست أتشاغل بترتيب أدوات المكتب حتى لا أسمع تكتكة الساعة تجرّ قدمي ذهني إلى طريق وعرة. ربما لو كنت متصالحًا مع التلفونات الذكية لكنت شاهدت تسجيلا لضب ما أو شلال في منطقة خضراء، أو حتى رجل يرتفع إلى السماء، ليسهل مرور هذه الساعة المتبقية. يصعب أن أتصور مظهري في عين عباس بعد أن أطلعه على صفاقة فكرة جريمة ألتمس بها إشباع ولعي بالتحقيق. أخذت ورقة بيضاء وشرعت أكتب مجددًا محاولا تحديد شعوري من هذه القضية. معرفة الأسباب تبطل دهشة النتائج. أعلم تمامًا أنني ما دخلت بها إلا لأن معطياتها الأولية أعطت إشارة إلى احتمال وجود جريمة قتل وحالة تستُّر على قاتل، ليس ذنبي أن الأدلة راحت تنقض نفسها واحدًا تلو الآخر. فلا فهد كان متهمًا ولا مرعي كان راغبًا في التخلص من سعيد لتصفو له وحده ملكية البيت. أكره الظهور بشكل المتسرّع. لم تكن الأناة تنقصني، أنا لم أخطئ، حتى لو كان لدي قضايا جرائم قتل

كثيرة، هذه المعطيات كانت لتجبرني على التوقف عندها. استمررت أكتب حتى تجاوزت الساعة نهايتها، فقمت إلى جهاز البصمة. التفتُّ متمنيًا ألا أصادف عباس الآن. وما إن أصدر الجهاز نغمة تسجيل الخروج حتى وقف عباس ورائي، يسأل: «متى أتيت، لم أرك وأنت تدخل؟». أخذته إلى المكتب وطلبتُ منه إغلاق الباب. هممت أن أواجه خجلي وأقول له إن قضية سعيد جونكر نهاية مسدودة، سببُ الفشل أننا تأخرنا عنها إحدى وعشرين سنة. رتّبت جملة أبتدئ بها الكلام: «علينا أن نلوم الزمن يا عباس». ففاجأني: «دعنا من هذا الآن، جاء صقر يبحث عنك قبل قليل، يقول إنه يريدك لأمر مهم لم يخبرني ما هو». خمّنت أنه يريد أن يخبرني شيئا بخصوص عمّه. «عباس أغلقنا القضية، لا يوجد هناك شيء يستحق العناء، تأخرنا إحدى وعشرين سنة يا عباس، ليس ذنبنا». رفع حاجبيه تعجبًا، ثم أخفضهما وهزّ رأسه بلطف: «أنا قلت هذا منذ البداية». تظاهرت أنني أرتب حزمة أوراق على المكتب وقلت: «وليتَني سمعت ما قلته».

ثلاثة

عدت إلى سيارتي شاعرًا ببرودة وجهي رغم الحر الخانق. أدرت المحرك وانطلقت. غدًا سيسألني زملائي: ماذا حصل في جريمة القتل؟ قد يرون شعوري بالفشل فيحاولون تخفيفه بكلمات مشجعة، هذا ما لا أريده، لأنها تؤكد أنني فشلت. خرجت من المواقف أريد ابتلاع الهواء من مكيف سيارتي.. تراءت لي.. قبل الدوار.. الحفرة، تفتح فاهًا لتبتلعني.. وقعت.. متعمّدًا هذه المرة.. اختضّ جسدي.

استدرت مع الدوار شبه استدارة كاملة، وشرعتُ أعد النخل بين الشوارع. حيلة أقوم بها لأخفف عني المشاعر السلبية والتوتر والعجالة أيضًا. ملابسي

الداخلية مبللة بالعرق. ثلاث عشرة نخلة. ازدادت رغبتي بالاستلقاء تحت ماء بارد. سبع وثلاثون نخلة. رن هاتفي كاشفا رقمًا غريبًا على الشاشة، أجبته، كان صقر: «أهلا صقر.. تفضل تفضل».

وشى صوته بحرج، وهو يقول إن لديه شيئا ربما يهمّني.

«ما هو؟».

«سأخبرك إذا واجهتك».

«ربما أكون مشغولا حاليًا، قل لي ماذا لديك؟». اختفى صوته ثم ظهر متذبذب النبرة:

«لا أعرف ما أقول لك، لكن، حسنا، فتحت، فتحت جوال أخي فهد يرحمه الله، و.. وعثرت، عثرت بداخله على تسجيلات مصوّرة، تسجيلات، يقول، يتحدث بها عن، ألو، هل أنت معي؟».

«معك معك».

«تسجيلات عن حادثة اختفاء سعيد، ولا أعرف، ربما تهمك بشيء، بل، بل ستهمّك ستجد فيها ما تريد معرفته».

«تسجيلات!».

«نعم صحيح».

«هل قال فيها أين سعيد؟».

«نعم، لكن.. لا، لا أعرف كيف أشرح لك، يجب أن تراها، فيها دليل على.. حسنا.. أعني قد تجد فيها شيئا يفيد القضية، فيها أمر لم يُخبر به أحدًا».

«لم يُخبر به أحدًا!». يبتعد صوته ثم يعود:

«أرجوك أخبرني أين أنت وسأشرح لك كل شيء».

حدست أن هذا خيط رفيع قد يخرج المحقق المتحذلق بداخلي من مأزقه:

«تعال إلى المخفر، الآن».

أربعة

أخذت الدوار التالي واستدرت معه عائدًا إلى المخفر. صنع العرق بقعًا على ملابسي، كالعادة، من أسفل الإبطين والظهر والمؤخرة. واجهت اثنين من أفراد الشرطة في الاستقبال. أخبرتهما أن رجلا اسمه صقر سيأتي من أجلي. علقت عقالي على المشجب طاويًا غترتي بحلقته. فتحت أزرار ثوبي العلوية، وسرت برودة العرق في ملابسي تستفزني. جلستُ أستمع إلى صوت عقارب الساعة الثانية والثلث. سأعرف يومًا طريقة مرور الزمن، هذه التك تك تك لم توجد عبثا. لا بد أنها تستطيع بشكل ما أن ترجع إلى الوراء، عندها قد أعود إلى قضايا قديمة تُرِكت مفتوحة وأحلّها دون أن أطلب إذنا من أحد. انتبهتُ إلى أنني لم أكتب شيئا عن الزمن منذ فترة طويلة، تعجبت، كيف لم أكتب منذ زمن عن سرّ له جاذبية كل الأسرار مجتمعة، لم يكن يأسي من فهمه وراء امتناعي، لأنني كل مرة أكتب عنه أجد شيئا جديدًا مغريًا. همست: «سر الزمن». تخيلتُ كلمة زمن على الجدار وتأملتها، انعزال حرف الزاي ولفظه المثير للقشعريرة، وشكل حرف الميم ونطقه الذي يخرج الهواء من الأنف، متعانقا مع النون -برنّتها التي تبدأ من أطراف اللسان وتنتهي بأقصى مكان بالصدر- بطريقة حميمية توحي بعمق المعنى.

قال لي عمي ذات يوم إن المعنى يتأتى من طريقة لفظ الكلمة وشكل كتابتها وفكرتها التي كوّنها المرء عنها. اللفظ والشكل غالبا لا يختلفان، الاختلاف يكون في الفكرة التي لدينا عن الأشياء، ومن هنا يقوم التأويل بتغيير المعنى من شخص إلى آخر. فكلمة «وردة» مثلا يأتي معناها من تفاعل ثلاثة أشياء: شكل الوردة في الذاكرة.. فكرة الوردة في العقل.. وكلمة «وردة».

إذا قرأنا «وردة» تستدعي مخيلتنا صورتها، لأننا رأيناها يومًا في الحقيقة، وعرفنا أنها تُنطَق بهذا الشكل، وتكونتْ لدينا فكرة عنها أنها نبات له شكلٌ جميلٌ ورائحته محببة، فينتج من هذا اندماج الكلمة والصورة واللفظ، في الوعي،

للوردة بشكلها وفكرتها ولفظها وشكل كتابة كلمتها أيضًا. لكن هنالك من لديه حساسية من الوردة، سيميل بها لا وعيه إلى معنى مزعج.

قال عمي إن من أهم خصائص القراءة هو اندماج الذهن والمخيلة والعقل، يصير الثلاثة واحدًا، فعندما نقرأ نحن في الحقيقة نؤدي الكلمات.. نتحوّل إلى لغة.

عدت إلى الزمن مرة أخرى، سأكتب عنه ثانية، لأنه قد يكون النظام العام للكون منذ.. أخرجني طرق لطيف على الباب عن تفكيري بالزمن، وجدت صقرًا يقف بشماغه الأحمر، قمت وصافحتُه. وجهه ملتهب قليلا من الحر:

«الحَرّ هذه السنة لا يطاق» قلت ونحن نهمّ بالجلوس.

«المعذرة» قال «أخذت من وقتك».

«اجلس، اجلس يا رجل، أنا معتاد على الخروج متأخرًا.. بيني وبينك، الجلوس في البيت مملّ.. ماذا تشرب؟».

جلس على المقعد المفرد، وجلستُ مقابله على الأريكة الثنائية، وبيننا طاولة الشاي.

«لا شيء» قال.

قلت أريد تخفيف إحراجه الملتبس في وجهه: «المباني المكيفة مغرية في مثل هذا الحر».

فابتسم وتحرّك في الكرسي يداري ارتباكه:

«أستاذ ماجد جئتك بشيء قد يهمك».

«تفضل قلْ ما عندك، وخذ وقتك أرجوك».

«أشكرك.. أريدك أن تعدني أن أبقى خارج هذا الموضوع». صمتَ برهة، أخذ وجهه فيما يعبّر عن التوسل: «أنا أب، لديّ أسرة، لا أريد التورط بشيء».

أوجست أن لديه دليلا سيغير مجرى القضية، فحزمْت:

«أخي صقر، تأكد أنني لن أتّهمك بشيء، كذلك لن أفوّت عملا يخدم القانون، تفضّلْ وقلْ ما عندك».

عدّل نظاراته: «حسنا، بخصوص قضية سعيد جونكر وعلاقة أخي فهد به، ليلة أمس عبثت بجهاز فهد وعثرت فيه على تسجيلات: ستة وثلاثين تسجيلا، يتحدث فيها عما يعرفه عن هذه القضية، أنا لم أخبئ أي معلومة عن الأمن، وربما ستجد في هذه التسجيلات ما يدل على ذلك».

«هلّا أخبرتني عما بها قبل أن أسمعها».

«ستراها، إنها تصوير، لن أستطيع إخبارك ما بها، لأنه أمر يصعب تصديقه».

صمتنا مفسحَين المكان لتكتكة الساعة وهلة، يتطلع كلانا بعينَي الآخر، ونفسي تحدّثني أن التسجيلات قد تحمل دليلا على وقوع جريمة.

«طيب طيب» أزحت الديب عن أذني: «أين هي هذه التسجيلات؟».

أخرج من جيبه جهاز جالاكسي إس فور لونه أبيض. يتعرّج صدع طويل على طول شاشته. مدّه، فأخذتُه أقلّبه.

«تجدها في الاستوديو» قال.

ضغطْتُ بإصبعي على زر أسفل الشاشة، فاستجاب الجهاز منيرا، ثم لمست مربع الاستوديو، فوجدت مربعَي الصور والفيديوهات. سحب الفضول إصبعي فلمستُ مربع الصور، ترتّبت مربعات الصور بوجه فهد عاموديًا. تجولتُ فيها قليلا، وجهه نحيف بعض الشيء وبشرته من النوع الدُّهني، له غمازتان واضحتان، أنف صغير، وجبهة فسيحة، وفي إحدى الصور يسقط عليها جزء من شعر رأسه غير الممشط. تشُفُّ ملامحه عن شيء من البراءة. في صورة أخرى تظهر شعرات بيضاء على شاربه وتتجمع أكثر على فُوده، يبدو فيها أنه حلق لحيته للتو. في إحدى الصور يكشف عن أسنان بيضاء تفرّقها التصبغات؛ كأنه يتفقدها. وفي صورة ينظر إلى الشاشة بطريقة طفل ينتظر أحدًا يجيبه عن سؤال. صور له في البر، وصور وهو مبلل الرأس، وصورة لأطباق عنب. وفي مربع تسجيلات الفيديو كانت هناك صورة نصف وجهه يتوسطها مثلث التشغيل. دخلته، فامتلأت الشاشة بمربعات لتسجيلات على زاويتها توقيت التسجيل ومدته.

قال: «هناك خاصية مفعّلة لإعادة التسجيل ما إن ينتهِ، لا أعرف كيف أوقفها، عد إلى الوراء لتخرج».

«كل هذه التسجيلات!».

«نعم» قال، وانزاح قليلا يكمل: «أرجوك اسمعها كلها، لا أعرف لماذا تحدّث بها فهد عن كل شيء، لكن ربما هو القدر الذي أراد به الله براءته من هذه التهمة مرة أخرى».

«إذن.. تعترف أنه كان متّهمًا».

«لا أستطيع أن أقول لك شيئا الآن، ليس قبل أن تسمع التسجيلات».

دخلت على مقاطع الفيديو، ظهرت مربعات المقاطع معظمها بوجه. على الزاوية اليمنى لكل مربع مدة التسجيل. فتحت أحدها، على مربعها جانبٌ من وجهه، لمست مثلث التشغيل:

صوت هواء.. التصوير في غرفته.. يأتي وجهه.. جالسًا على الأريكة..

انتابني الخوف؛ ليس بالأمر الهين أن ترى رجلا ميتا يتحرك أمامك كأنه حي؛ ينظر إلى العدسة الأمامية، ثم إلى الشاشة، ثم يلمس الشاشة لتفتح الكاميرا الخلفية، يظهر التلفزيون وبجانبه أكياس وأشرطة فيديو قديمة، قليلا ثم يعود وجهه يقول:

> دخلت المخفر ألهث، بحثت عنه في مكتبه، فلم أجده، ولما توجهت إلى غرفة الشرطة سمعته يناديني قادمًا من باب مواقف المخفر الداخلية، دخلت مكتبه قبله، ورميت يدي على الأريكة أقول باكيًا: رأيته، الرجل الملثم، الرجل الملثم، أقسم بالله، ولهثت حتى تمكنت من السيطرة على صدري، وقلت: أَخْبَرَني، أقسم أقسم بالله، أخبرني أن ما رأيته حقيقة.

خرجت من التسجيل لأكتم صوته العالي، وسألته:

«هل هذه اعترافات؟».

«سمّها أنت بعدما تنتهي، سيخبرك فهد بكل شيء تريده، وبعدها كلّمْني».
شعرت أنني ألج بابًا يفتح على عالم لا أعرفه من غرابة الإحساس في الموضوع.
صافحته، فقال أمرًا بعث الثلج في بدني وهو لم يزل يمسك يدي:
«هل يقرب لك ضابط كان يعمل هنا، اسمه عادل؟».
هززت رأسي: «نعم، عمي، يرحمه الله».
«يرحمه الله! هل توفي؟».
«نعم، سنة ألفين وثمانية، هل تعرفه؟».
ابتسم ابتسامة مسالمة وقال: «رحمة الله عليه، ستعرف بنفسك، ذكره فهد في التسجيلات». أدرت له أذني: «ماذا، ماذا ذكر عنه؟».
«ستسمع بنفسك، أستأذنك الآن».
خرج تاركا فضولي يتّقد على إنارة النقال.

خمسة

وجّهت فتحتَي مكيف السيارة إلى وجهي في مظلتي بمواقف المخفر الداخلية، راح الهواء يخرج منها فاترًا يوقف تفصّد العرق. أخذني الفضول لمعرفة ما ذكره فهد عن عمي عادل إلى فتح النقال، رغم التقزز الذي أصابني من طريقته الساذجة في التشغيل.. سهولته تتحدث عن عجلة الإنسان، يريد كل شيء ليس في ضغطة زر وحسب بل في لمسة زر غير موجود. وصورة الأزرار على شاشته تؤكد أن العالم سيتجه نحو التحول إلى صور رمزية، وهذا من الأشياء التي تريبني في الحقيقة. محاولة جعل العالم صورًا قدر الإمكان وتسهيل الوصول إلى كل شيء دون الشعور بلذة الجهد المبذول، لو فكّر فيها عاقل فسيعرف أنها تستهدف تفريغ إرادة الإنسان من القدرة على توجيه قوته.
فتحت الاستوديو.

أطل وجه فهد. أحاط بي الخوف مجددًا. التفتُّ حولي، لم يكن هناك أحد، قرّبت وجهي من فتحة المكيف. الرجل الذي يظهر وجهه في التسجيل أمامي ميّت، وهذا أمر مرعب. التسجيل عالم آخر تعيش فيه اللحظة أبديًا، تستمر فيه «الآن» بشكل دائم، تتكرر دون تغيير، بلا أي دليل حقيقي على الزمن. أفكار كثيرة ستتوالد من هذا التفكير. فتحت التسجيل التالي، من مربع تبدو الأريكة الحمراء في خلفيته، مدته اثنتا عشرة دقيقة وست ثوان.

لمست علامة التشغيل.

التسجيل الأول

تشغيل

صوت هـواء.. وجهه محـايد.. يتلمظ، ثم ينشق. يبتلع ريقه، ويقول ناظرًا إلى ما وراء الكاميرا، كما لو أنه يشاهد أفكاره:

صورة الحياة لدي على شكل الفيديو الذي اشتراه أبي هدية لنجاح أخي الأكبر صقر من المتوسطة قبل الغزو بثلاث سنوات، ماركة سوني، من النوع الذي يشغل شريطا صغيرًا ذا بكرة واحدة.

صوته كسول كمن جلس لتوّه من النوم، أو كمن مكث فترة طويلة ساكتا. يفتح الكاميرا الخلفية ويركّزها على فيديو قديم من نوع سوني، بجانبه ثلاثة أعمدة من أشرطة الفيديو المتراكمة، يعيد الكاميرا الأمامية، يصوّب عينيه إلى البعيد:

لا أعرف، (يهز رأسه بلطف) لا أعرف متى بدأ معي هذا الأمر، تحويل الأشياء التي لا أفهمها إلى صور؛ يساعدني هذا كثيرًا على إدراك المعنى الذي يقف ذهني أمامه مكتوف اليدين. لكنني أفهم، دون الحاجة إلى صورة، أن العلاقة بين الفيديو والحياة هو أن الفيديو يقوم بنفس دور الذاكرة والأشرطة تؤدي فيه

دور الذكريات، ووجه الشبه بين الذاكرة والحياة هو أن الذاكرة هي الحياة ذاتها. رقصت في الحديقة سرورا عندما نزل صقر وأبي من السيارة يحملان الفيديو. لن أجبر على مشاركة أبناء شارعنا في مشاهدة المسلسلات في ديوانية سعد كوكو، ستكون الشاشة لي وحدي.

يترك لي صقر الفيديو عندما يفرغ من مشاهدة الأفلام الهندية التي يهواها، ثم أحمله إلى الديوانية بعد أن ينقضي مجلس أبي اليومي عقب صلاة المغرب، أو إلى غرفة التلفزيون إذا كان مجلسه معقودًا.

يبتسم كاشفًا أسنانا بيضاء متراصّة يفصل بينها اصفرار داكن لترسبات رفيعة من الجير، وتبدو على وجهه ملامح طفولية تجسّد حالة الكلمات التي يقولها:

فأجلس وحدي أشاهد الرسوم المتحركة، مبعدًا عني وهم حركة التمدد في أذنيّ، وبمجرد ضغطي على زر التشغيل ذي المثلث المتجه إلى اليمين يعود جونكر إلى الوجود بعدما مات بالأمس في صحن المدمرين الطائر، متفاعلا كل مرة بدموعي مع لحن أغنية البداية وهو يُعزَف بنغمة حزينة عندما يموت جونكر. أخرجه جانبًا وأمسح خديّ ثم أدسّ شريط بيل وسباستيان، وأدخل بذاكرتي مع الشاشة مستبقا الحركة القادمة التي سيفعلها بيل أو ألفظ الجملة التي سيقولها سباستيان لبوجي الكلب الصغير. وأشاهد بعد ذلك حلقة أو حلقتين بالكثير من مسلسل ساسوكي مقلدًا حركاته عندما يتحول إلى أشياء خلابة؛ وإذا كان المكان خاليًا أقوم بالاختباء مع عدنان ولينا عن الأشرار خلف وسادات الصالة، أتخيلها أشجارًا.. أو أصيح وراء دايسكي في جريندايزر، مسلسلي الأثير، مقلدًا صداه فيما يلقن الغزاة درسًا بأسلحته المدمّرة؛ وفي النهاية يجب أن أشاهد أبطال الملاعب، وكرتي بجانبي لأتمكن من تقليد ركلات حميدو شامل على جدار الغرفة، الأمر الذي يزعج أمي، فأستمر،

بين كلماتها الملوّحة بعقاب أبي، على محاولاتي تسديد ضربة تتلوى بها الكرة على الأرض قبل أن تضرب الجدار.

يسكت برهة، يعود وجهه لما كان عليه وعيناه ترسلان نظرة ثابتة إلى السقف، ثم يكمل:

صارت هدايا أبي في نجاحي، بالشهادات الشهرية بعد الفيديو، أشرطة رسوم متحركة أختارها بنفسي من محل النجوم بمجمعات جليب الشيوخ، منعزلا بنفسي بعد كل نجاح، تاركا أبناء شارعنا يقرعون باب بيتنا للعب مباراة؛ أتسمّر أمام الشاشة دون جواب، فيظلون يقرعون الباب طوال اليوم حتى تقول لهم أمي -بعدما تجدني آكل من صحن العنب بصمت وأبحلق بالتلفزيون- إنني أعاني مغصًا شديدًا، وعندما أكون قد شاهدت الشريط أكثر من تسع مرات، وحفظت كل المشاهد والجمل، وأنهيت الكثير من صحون العنب، أخرج إلى الساحة التي خلف بيت جدة سعيد جونكر، حيث ينبسط ملعبنا، مشحونا بحرارة التحدي، فألعب مباراة، مستعيدًا بذهني مع كل هجمة مشهد ركلات حميدو شامل بينما الأغنية الحماسية لجريندايزر تعزف في خلفية المشهد. (يغني).. علّي علّي بطل فليد.. هيّا طرْ يا غريند.. (يتنحنح) أناور بالكرة الجميع، خاطفا بقدمي المسافة إلى مرمى الفريق الآخر، إما مسجلا هدفا مقتدرًا، أو ممررًا كرة في لحظتها المناسبة إلى سعد كوكو، ابن جارنا أبي صالح، ليلمسها بلمساته الرائعة فتتجه إلى الهدف كطلقة صياد ماهر أدركت طائرًا غافلا. وبعدما أحقق الفوز، أعود إلى الديوانية محاطًا بالرفاق، كقائد شجاع يحبه جنوده، مع سعد كوكو وبشار النحلة والديك محمود، وعزيز وحسين والبقية، يكون مجلس أبي قد انفضّ، فآتي بالفيديو، وأشغّل لهم الشريط الجديد مستعرضًا أمامهم معرفتي بالمَشَاهد:

«انظروا كيف ستدور الكرة الآن من ركلة رياض».. «انتبهوا إلى الزاوية».. «حسناً

جريندايزر».. «يوجد شيء غريب هل لاحظتموه؟».. «الغزاة سيندمون على هذا بعد قليل».

ثم أتى الغزو. (يعقد حاجبيه ويهز رأسه). أتخيله دائمًا بصورة أظافر طويلة ومتسخة. خرجنا إلى السعودية وأخذت الفيديو معي وكل الأشرطة، وتركت الملعب خاليًا والمرمى للريح والكرة مثقوبة في حوش بيتنا.

عندما سكنا بيتا في الرياض ساعدني الفيديو كثيرًا، في الغرفة الصغيرة بزاوية البيت حيث وضع أبي التلفزيون، على استرجاع الكويت؛ إذ كلما اشتقت إلى شارعنا، وكثيرًا ما كنت أفعل، أشغّل مسلسلاتي، وأضع صحن العنب أمامي، وأخاطب أشخاصًا غير موجودين أتخيلهم أبناء شارعنا:

«انظروا الآن ماذا سيفعل دايسكي».. «انتبهوا إلى الزاوية».. «يوجد شيء غريب هل لاحظتموه؟».. «الغزاة سيندمون على هذا بعد قليل.. سيندمون كثيراً، الغزاة سيموتون.. سترون كيف سيموت الغزاة.. سيعرفون الموت».

تتحرك الكاميرا يمينًا وشمالا، يضطجع على قفاه ساحبًا هواء من أنفه ثم يخرجه من فمه، ويظهر خلفه أرفف الكتب:

أمّا صورة الموت (يترك عينيه تذهبان وراء الكاميرا) فصورة الموت لديّ على شكل مربع.. مربع مظلم (يبتلع ريقه) يشبه فوهة الحفرة العميقة التي شاهدتها في بيت أم غريب بعد تحرير الكويت، تلك التي قال بشار النحلة إنها ربما تكون «عين بغزي» الاسم الذي كان لمنطقتنا قبل أن يصبح الفردوس. كنّا نخاف الاقتراب منها كي لا يدفعنا الشيطان ونهوي بها ثم لا نجد سبيلا للخروج منها إلا بالموت نفسه.

ذات مرة (يرقّ وجهه) تحدّينا الخوف وانبطحنا أنا وسعد كوكو وسالم النمس، وزحفنا إليها ومعنا غصن مشتعل لنقيسَ عمقها، أطللنا برؤوسنا على انغماسها

غير المتناهي في القاع، وشاهدنا الظلمة تبث باللون الأسود الداكن تجليًا من تجليات الموت، لدرجة أنني خلت أن عينيّ تحتضران، وكان الهواء الذي يخرج منها باردًا ونقيًا، أسقطنا الغصن، وراح يهوي.. ويهوي.. وضوؤه يتخافت مستسلمًا.. ويهوي.. ويهوي دون تحدٍّ.. دون أن يوقفه شيء.. ويهوي حتى ابتلعه الظلام دون أن يقف. قال النمس: «غاص في الماء، هذه ليست عينا، هذه مصارف الأمطار، عميان أنتم». أمسك كوكو كتف النمس: «دعني أرميك لنعرفَ من العميان». تشبّث النمس بثوبي (يضحك) يقول: «ألعن أبوكم».
عدنا إلى منتصف الحوش، فأخذ سعد كوكو عصا ورسم دائرة على التراب ثم وضع على محيطها نقطتين متقابلتين، وقال موصلا بينهما بخط:
«هذه الحفرة تنتهي بالناحية المقابلة من الأرض.. هل تتخيلون.. الشعلة لم تزل تهوي حتى الآن، ربما ستظل تهوي لشهر أيضًا.. لكن.. غريب.. ليس للهواء فيها أي رائحة».
«بل ونقيّ أيضًا» أكّدت.
عارضَنا النمس: «الغصن انطفأ، كوكو وأبو أذاني يحبان الأفلام، مصارف الأمطار ليست بئرًا».
فقال مساعد البطريق: «رأيت واحدة في البر، غائرة جدًا، رميت بها صخرة فلم أسمع شيئا».
واتفقنا على أن نغطيها بكل شيء ممكن، حتى لا يقع فيها أحد. فقمنا إلى بقايا الأثاث في بيت أم غريب، جمعناه، وذهبنا إلى حديقة جدة سعيد جونكر، أمام بيت أم غريب، وأخذنا ما وجدناه يؤدي الغرض، ثم عدنا وسددنا بكل هذا فوهتها.

تخرج يده، ينهي التسجيل.

.. ثم يعود وجهه محايدًا.. يتلمظ، ثم ينشق، يبتلع ريقه، ويقول ناظرًا إلى وراء

الكاميرا، كما لو أنه يشاهد أفكاره:

«صورة الحياة لديّ على شكل الفيديو الذي اشتراه أبي هدية لنجاح..».

أعاد التسجيل نفسه.

لمست الزاوية السفلية اليمنى، فتوقف كل شيء.

التسجيل الثاني

مشارف التهمة

كل شيء فيه على ما هو عليه في التسجيل السابق. يظل وجهه جامدا حتى لمست المثلث، فيتحرك مع سريان اللحظة، يقول:

لم يشعر أحد باختفاء سعيد جونكر إلا بعد مرور عشرة أيام، عندما اجتاحت الشرطة شوارعنا بحثا عن أثر، وقادهم التحقيق إلى بيت «أم غريب»، عندها علم الجميع أن سعيد جونكر خرج ولم يعد.

اقتحم عناصر الشرطة بيت أم غريب ونبشوه، وجدوا هناك علب سجائرنا، وعصي العراكات، وأدوات تحضير شاي، وبقايا عود وليد أبو سمرة المكسور، وأشياء أخرى كانت موجودة بالبيت قبل أن يهجره أهله بالغزو. ومن ضمن ما وجدوا فردة نعل، حجمها كبير، ملقاة في الحوش، سرعان ما تعرف عليها الأصدقاء عندما عرضتها الشرطة في المخفر أثناء التحقيق: «نعل جونكر».

ولما حفروا التراب تحت مكان النعل، وجدوا خمس جثث، عارية، لم يكمل دود الأرض أكل عظامها. لم أخبر أحدًا عن قصتها، التي أخبرني جونكر عنها.

كنت في الخامسة عشرة من عمري لمّا دخلت المخفر عصرًا مع أبي لأجد أصدقائي «ربع الموت» مع أولياء أمورهم ينتظرون التحقيق، منكمشين خوفا من الضرب الذي قد ينالهم من رئيس المخفر، المقدم علي نشوان، ابن عم أبي.

أحصيتهم بنظره واحدة: سعد كوكو، بدر مجدول، الكنغر معه أمه، سالم النمس، سالم السيكي، ديزل، وليد أبو سمرة، علي هادي، عبّاس الإيراني،

مساعد البطريق، القرد، محمود الصيني. ثم رميت عيني إلى الأرض ودحرجت نظرتي إلى الأمام.

جلس أبي يتبادل الأخبار مع الآباء، وقام الأصدقاء ينظرون إليّ وأنا أنظر إلى الأرض متحاشيًا سؤالهم الذي يطل من أعينهم: أين كنت منذ عشرة أيام؟

وفي آخر الممر جلس مرعي، زوج جدة سعيد، القرفصاء على أرضية المخفر بهيئته المعتادة: شِماغ لونه برتقالي، ثوب أزرق، ياقة مهترئة، أزرار صدر مفتوحة، نعل سوداء، تبرز منها أصابعه الطويلة؛ يشفط سيجارته ويخرج دخانها من فتحتي أنفه، وفي عينيه كانت نظرة الأسى المعتادة تلتصق بالجدران.

لما بدأ التحقيق، نادوا اسمي أولا، فدخلت مع أبي مكتب عمي علي، كان عمي جالسًا على طاولته السوداء مثل صقر شبع، وبجانبه رجل بملابس مدنيّة. لم يغيّر عمي وجهه الرسمي إلا بابتسامة فاترة وجّهها إلى أبي، وطلب منا الجلوس، ثم باغتني:

- أين سعيد مرزوق؟

غصصت بالإجابة التي كنت أتمرّن عليها منذ الأمس، ابتلعت ريقي مرات متتالية لأمهّد لـ: «لا أعرف».

- أجب يا فهد. قال أبي.

- هل تعرف أين سعيد مرزوق الذي تنادونه جونكر؟ أعاد عمي منفعلا.

فخرجت دمعتي رغمًا عني، معها خرجت «لا»، وتشبّثت «أعرف» في آخر لساني.

- لماذا تبكي؟ سألني الرجل المدني.

أجابه أبي سريعًا:

- الولد صغير، قلبه طري، مخفر وتحقيق وشرطة، لا يحتمل كل هذا.

- زوج جدته يقول إنك ذهبت تبحث عنه عندما هرب. قال عمي. فهل حصلت على أي علامة تدل على مكانه؟

هززت رأسي بالنفي، وأنا أمسح دموعي.

أمر عمي بإنهاء التحقيق معي طالبا إحضار أحد الرفاق.

خرجت منكّسًا رأسي كي لا يرى الأصدقاء بكائي. عبرتُ أقدامهم طول الممر المؤدي إلى باب الخروج، أسير خلف أقدام أبي مثل ورقة مجعدة وراء كتاب.
جعل أبي يوبخني، طوال الطريق إلى البيت، على بكائي الذي كان سيرمي الشكوك حولي.

تهتز الشاشة، تظهر الغرفة بشكل خاطف، الخزانة، باب الحمّام، السرير ثم ثبت قليلا على التلفزيون، يسطع نور قوي، عدة ثوان ثم يعود ضوء الغرفة الهادئ. استدللت أنه أزال الستارة من أمام الشباك وأطل على شيء ما. ثم يُرى السرير، فباب الحمّام، ثم الخزانة، وتهتز الشاشة، ثم يعود وجهه جالسًا على الأريكة:

تأججت حادثة اختفاء سعيد جونكر في قطعتنا بعدما أعيت الشرطة في فكّ طلاسمها.. فأين يكون، وكيف يختفي فجأة، ولماذا فردة نعله ملقاة؟
أخذ الأهالي بعدها التدابير اللازمة لحماية أولادهم مما قد يحصل لهم لو كانوا مكان سعيد؛ وقلّص الآباء أوقات الخروج، وحددوا الأماكن التي يجب عليهم أن يكونوا فيها، وحرّموا على الأولاد الاقتراب من بيت أم غريب. فالذي جرى لسعيد يمكن أن يجري مع أي أحد منهم. ثم بدأت الشائعات تتزاوج وتتوالد على إثرها شائعات عمّا يمكنه أن يكون سبب اختفاء سعيد جونكر. لم تدم حادثة سعيد أكثر من أسبوع حتى كفّ الجميع عن الاهتمام بمصيره، إلا أنا، ران الفضول على تفكيري، بسؤال: «ماذا يفعل الآن؟».

يصمت ينظر إلى وجهه في الشاشة، تتحول ملامحه إلى الجد، يكمل:

نظرت إلى منطقتنا، من وراء زجاج نافذة سيارة أبي، ونحن عائدون إلى البيت، والأشياء تعود إلى الوراء، البيوت، السيارات المركونة، أعمدة الإنارة، حاويات القمامة، محولات الكهرباء، المنعطفات، الأشجار، الأولاد الذين يمشون.. كنت أنا الثابت، وكل شيء يمضي مثل تيار نهر مكون من منطقة. تذكرت ذلك اليوم الذي عدنا فيه من السعودية بعد التحرير، كانت الأشياء تعبرني أيضًا، ولم أكن أرى أنني ثابت.

التسجيل الثالث

العودة إلى الفردوس

أمام بابه، تلقي شمس العصر ظلال بيتهم على الحديقة، تظهر مظلة قريه فيها ثلاث سيارات، منارة مسجد تطل بالهلال على رأسها، يتقدم بخطى وئيدة حتى يصبح في المنتصف، ويقول بصوت أوضح من التسجيل السابق:

صورة منطقة «الفردوس» لديّ على هيئة عروس تتأكد أمام المرآة من سلامة خطوط الكحل في عينيها.

يفتح الكاميرا الأمامية على وجهه، بيتهم من ورائه بنوافذه السوداء، على رأسه قبعة رياضية، ويتدلى من أذنه سلك السماعات، يتابع:

كان قد مر عام على التحرير، عندما عدت مع عائلتي من السعودية، والكويت تنفض ثوبها من وقوعها في الاحتلال. لم يطل منطقتي الفردوس سوء بالغ؛ شروخ في جسدها (يقلص حاجبيه)، خنادق في بعض الساحات وآليات عسكرية خفيفة مدمّرة. هناك بعض الأضرار في البيوت التي اتُّخِذت مقرات للإدارات العسكرية العراقية (يفرد حاجبيه ويهز رأسه) لكن بشكل عام لم يكن

بها ما يستحق وصف دمار.

كان أبي قد عاد قبلنا بضع مرات ليجهز بيتنا الذي اتُّخِذ مركزًا لقيادة عسكرية ما، وهو من البيوت التي نال منها الغزو، حيث حرق الأثاث بالكامل واسودّ الطلاء وتكلس الموكيت على الأرضيات وتهشم زجاج بعض النوافذ. وبسبب تأخر عودة العمّال كنّا آخر بيت يعود في شارعنا؛ هذا ما فوَّت علينا سنة دراسية، بدأت في منتصف شهر ثمانية، وجاءت مختزلة في نصف سنة، إذ رأت الحكومة أن دمج سنة في نصف سنة سيعوض الطلاب ما فاتهم من المستقبل.

يخطو وتتحرك الخلفية معه إلى بيت جيرانهم، ثم المظلات، ويتقدم:

حدث ذلك قبل أذان ظهر يوم خميس ماطر، سماؤه شهيّة. (يبتسم) جلست فيه متوقدًا على المرتبة الأمامية بين أبي وأخي صقر، واضعًا يدي على «التابلون»، مقربًا رأسي من الزجاج الأمامي كي لا يفوّتَ لهفتي شيء. وفي المقعد الخلفي جلست أمي، معها أختاي.

«الفردوس تغتسل لاستقبالنا» قال صقر مثبتا نظارته الطبية على عينيه بإصبعه.

«بل تكتحل» قلت.

فقال: «هل ترى المطر أسود يا أعمى».

أجبته (موسعًا ابتسامته):

«الأعمى الذي يعدل نظاراته دائمًا».

وكزني بكوعه، فنهاه أبي.

ينظر إلى وراء الشاشة، يجتاز شيئا ما، تطل من جانبه أغصان شجر كونوكاربس، يقف ويعيد عينيه إلى الشاشة

ويفتح الكاميرا الخلفية، فيما تسطع الشمس يندلق شارعهم على الشاشة بشكل مفاجئ، بيوت مصفوفة بجانب بعضها، يقابلها صف من خمسة بيوت متراصّة، أمام كل بيت فسحة من خمسة أمتار تركن بها سيارات، ثم رصيف واطئ لصعود السيارات، فالشارع المقسوم حارتين، ثم فسحة من خمسة أمتار، تركن بها سيارات، ثم صف من خمسة بيوت متلاصقة، في نهايتهن ينحني الشارع يمينا. يدير الكاميرا على الطرف الآخر فيتعد شارعهم في صف مكون من خمسة عشر بيتًا، متجاور تزدحم أمامها السيارات، يذهب الشارع ينسكب الشارع على شارع آخر:

شوارع الفردوس تشبه المتاهة التي تهتدي فيها حتى عندما تضيع، مصقولة كأنها عُبّدت للتو، تزحف بطريقة أفعوانية تساعد الأولاد على الهرب من السيارات إذا ما طاردتهم، وكثيرًا ما ساعدتنا في ذلك.

ينزل إلى الشارع ويسير ويبدو بيتهم من جهة الشارع:

تتلاصق بيوتها في صفوف طويلة وقصيرة، كصناديق على رفوف محلات بيع الهدايا. كل بيتين يلتصقان ببعضهما من ناحية، ويربطهما من الناحية الأخرى سور الحوش مع سور حوش البيت المجاور، ويلتصق البيت المجاور ببيت آخر، والبيت الآخر له حوش يلتصق ببيت مجاور، وهكذا حتى يفصل صفوف البيوت منعطف أو زقاق ضيق، إلى أن يتوقف آخر بيت بالصف أمام فناء كالذي أمام بيتنا.

يمرر الكاميرا على صف بيوت عن يمينه، يخرج من أحدها رجل مسن، ثم يسدد الكاميرا على أعلى الرصيف، رصيف نظيف مكسو ما قبله بجير أحمر :

سارت صفوف البيوت، المتجاورة والمتلاصقة، معنا ونحن نتجه إلى بيتنا. كنت أتصور أن بيوتنا كومة من الحجارة، كبيوت الفلسطينيين في نشرات الأخبار. لكن الشوارع التي كانت تنعطف نظيفة وتمتدُّ هادئة أكثر منها قبل الغزو، قالت لي غير ذلك؛ كذلك لون الأرصفة الأصفر والأسود، والخطوط البيضاء في منتصف الشوارع، والدهان الفضي البرّاق لأعمدة الإنارة الرشيقة.

يدور مصورا حديقتهم، ويقول وهو يتقدم إليها:

وعندما وقفنا أمام بيتنا وجدناه كما تركناه، وحديقتنا كما هي، كان يؤطرها شجر الياسمين -اجتثه أبي وبدله صقر بالكونوكاربس الملعون- وجدناه أخضرَ كما آخر مرة رأيته، فقط أصبح أطول وأغزر ورقا؛ وشجرة الصفصاف في زاوية الحديقة، والتي حرّم أبي عليّ اصطياد عصافيرها - اجتثها صقر لما أراد أن يبني المظلة - كانت ما زالت باسقةً فاردة حضن أغصانها للأعشاش، وكل شيء على حاله عدا طبقة رقيقة من السخام لعقت واجهة البيت، من فوق النوافذ، لتعطيها منظرًا جماليًا كما الرموش للعين.

يقف ويعود وجهه، يأخذ نفسًا عميقًا ويزفره:

قفزت خلف أبي، عندما أوقف السيارة في منتصف الحديقة، وسبقته إلى الباب. ما إن صرنا خارج السيارة حتى ارتفع أذان الظهر بصوت الشيخ «صابر»، وأخذ ينشر نغمته الشجية في السمع والذاكرة. وقفت أستمع إلى صوت الشيخ صابر

ينادي للفلاح فيما ينكشف وجهه في ذاكرتي مبتسماً كما يبتسم عندما يحذِّرَنا من اللعب أثناء الصلاة.

تعاونت مع صقر وأبي على إنزال الحقائب. بعد ذلك أنزلت الكرة التي اشتريتها قبل شهر بمئة ريال، ولم ألمسها بقدمي حرصًا مني على استخلاصها لعودتي لأبناء شارعنا، لنستعيد مبارياتنا مرة أخرى، ثم أنزلت جهاز الفيديو وكيس الأشرطة.

أخذ صقر حقيبته وصعد إلى غرفتنا. ربَّتت رائحة الطلاء على هواء البيت من الداخل، تقول لنا إن كل شيء مبرأ وآمن. تجوّلت أمسح شوقي على جدران الصالة، المطبخ، والحوش بعد ذلك، ثم أعود إلى الداخل، ثم أسير ماسحًا يدي على جدار الممر المؤدي إلى الديوانية حيث وجدت أبي مشعلا الموقد ويعدّ قهوته.

انسللت بلهفتي، بعدما تأكدت أن بيتنا حقيقي وليس حلمًا، إلى الشارع أبحث عن رفاقي.

تدور الخلفية وراءه، ويسير عائدا إلى شارعهم الداخلي:

كانت السُّحُب قد اعتصرت مجددًا وبدأ الرذاذ يرشّ الأرض.

ما إن وطئت قدمي الشارع حتى رأيت سعد كوكو -ابن جارنا - الذي كنت أشكّل معه ثنائيًا مميزًا في المباريات، خارجًا من باب بيتهم. ارتدّت هجمة بذاكرتي مرّرت بها الكرة إليه فركلها مسجلا هدفاً. جعلتني الرعشة أتردد، هل أناديه أم أتظاهر بأنني لم أره وأنتظر حتى يراني هو؟

انطفأ صوتي فتنحنحت أشعله. ناديتُه بنبرة سريعة لأضيف عنصر المفاجأة: «هي كوكو».

تسمّر يرفع حاجبيه الكثيفين ثم أخذتْ ابتسامته تتسع حتى قسمت وجهَه، كأنه غير مصدق أنه أنا:

هتف مسرورًا (يقلده) «أبو أذانيييي».

أخذ حجرًا ورماني به وهو يتقدم نحوي تحت رذاذ المطر، يقول:

«رجعت رجعت رجعت».

سلمنا على بعضنا وأضاف قبل أن يلكمني: «زاد طولك».

فركلت ساقه ضاحكا: «وأنت أين رقبتك؟».

كان شعره الخشن قد طال أكثر عن آخر مرة رأيته فيها حتى بدا كخوذة، وخداه أصبحا أكثر اكتنازًا بعدما زاد وزنه، سألته:

«أين البقية، مساعد وسالم النمس وبشار، والديك...؟».

«كلهم، كلهم موجودون، كنت ذاهبًا إليهم، هيّا بنا».

يصمت، يشغل الكاميرا الخلفية لتصور شارعهم، صوت أنفاسه يرتفع قليلا، يتابع:

سَرَحَتْ عيناي ترتعان بمنظر شارعنا الخصيب بالذكريات، أسدُّ جوعهما طوال الأيام التي مكثناها بعيدًا عنه؛ أبواب البيوت، شبابيكها المربعة ذات القضبان الألمونيوم. العتبات الواطئة.. الفسحة الترابية التي تفصلها عن الشارع؛ حيث كانت السيارات مركونة.. الأرصفة المسبوكة.. الشارع المنسكب؛ رؤوس الحصى بالكاد تبرز منه.. أعمدة الإنارة تبرق متوزعة.. رائحة مطر تجري بكل هذا إلى صدري.

كان شارعنا لديّ بصورة محفظة ممتلئة أوراقا نقدية في يوم عيد.

مررنا أمام سبيل أبي سالم حيث نشرب بعد المباريات.

ينزل إلى الشارع، ويتقدم، صامتا يصور الأبواب، يطوف ثلاثة بيوت، ثم يركز الكاميرا على مكان أمام بيت:

كان برّاد السبيل هنا، تجاوزناه لننعطف من هنا، من بيت البيّاعة أم محمد

العجوز، التي ماتت قبل الغزو بأشهر، وكانت تعطينا من الحلويات أضعاف قيمة ما نعطيها من مال. (تذهب الكاميرا إلى رصيف يميل يمينا مع منحنى الشارع) ثم الرصيف الذي كنا نجلس عليه كل عصر وننتظرها تفتح الباب. مررنا بزقاق عزوز العَوَر، (يقرب عدسة الكاميرا إلى زقاق ينفذ من بين بيتين) الزقاق الذي كنّا نقول إن فيه جنّيّة ترقص على صوت خطى المارّين آخر الليل. طالت النخلتان الصغيرتان في بدايته واخضرّتا. دخلنا شارع مبيريك، الذي كان يسكنه الممثل العراقي مبيريك رغم أن أحدًا لم يره أبدًا، شممنا رائحة سمك مقلي، انعطفنا من عند بيت عوض ابن أبي عوض آخر الشارع.

يصمت مديرا الكاميرا على ولد خرج من باب بيت وسار يتحدث في التلفون إلى بيت آخر، ثم يملأ الشاشة ببيت أمامه مجموعة سيارات، وينزل الكاميرا على الشارع النظيف والمتآكل، بينما يتجاوز حفرة تجمع فيها ماء من أحد البيوت. يضحك من أنفه وهو يصور خادمة تركض وراء طفل هرب من باب وتعيده، يصور باب بيت ويعود إلى الشارع يقول:

كان كوكو طوال الطريق يتحدث عن الألغام التي زرعها الجيش العراقي في جميع الأماكن، والخنادق التي ما زالت مملوءة بالأسلحة، وعن المنطقة التي سكنها في السعودية. قادني إلى شارع خلف شارعنا، حيث ينطرح «بيت أم غريب»، بين عدة بيوت واقفة. البيت الذي شاهدت فيه ما جرى لسعيد.

يسكت والكاميرا تلتقط البيوت المرصوصة على بعضها، كل واجهاتها بيضاء غير أن الجير الذي بنيت منه

مختلف، بعضها نوافذ مقوّسة أخرى مربعة، وبعضها مستطيلة، وأبوابها مختلف ألوانها، يبتعد عن الطريق، تظهر السيارة على الشاشة تقودها امرأة ومن الزجاج الخلفي يهتز رأس ولد ينظر إلى الكاميرا، تأتي الكاميرا على قمامة بجانبها كيس، يرتفع صوت تنفّسه، يستمر في السير لمدة أربع دقائق، تأتي البيوت وتغيب وراء الكاميرا، الأرصفة تسير معه إلا في مكان المظلات، حيث تكون محفوفة لتسهل ركن السيارات أمامها تحت المظلات. يخرج من شارع ويدخل آخر، وإيقاع خطاه لم يتغير، ثم يستمر دقيقة ونصف، ويبين من البعيد بيت جدة سعيد، وينتهي التسجيل.

الذاكرة تسجيل

واحد

ابتلعتُ ريقي. رهبة عميقة استولت عليّ من رؤية رجل ميت وسماعه يحدث نفسه عن حياته. ربما سبقت هذا التسجيل بروفات صفّ بها كلامه جيدًا، أو ربما كان قد كتب الكلام الذي يقوله وحفظه عن ظهر قلب، هل هي الأوراق التي بكيس القمامة؟.

على كلٍ، أعجبني تصويره أن الحياة فيديو، والذاكرة أشرطة.

اشتعل فضولي بما ذكره عن اختفاء سعيد جونكر. ما الذي حصل له؟ وماذا ذكر عن عمي عادل؟ أجزم أنه ساعده، أو أظهر براءته.

ارتفع صوت مروحة التبريد في سيارتي عن المعتاد. كانت المواقف خالية. وضعت النقال في جيب ثوبي، ثم قدت برويّة إلى البيت، أعيد بذهني ما قاله فهد عن طريقته لفهم ما لا يُفهَم. الصور، هل كانت تلك هي حيلته الخاصة؟ دلالات الصور تختلف كليًا عن دلالات الكلمات، الكلمات تتيح للعقل أدوات التفكير، أما الصور فتأخذها منه، الصورة آمرة، مترفة، متسلطة.. الكلمة مشمّرة عن ذراعيها دائمًا.

خرج الدوار أمامي بسرعة، فاجأتني الحفرة ذاتها تركض باتجاهي، كان الوقت قد تأخر لتلافيها، خضّت السيارة..

قلت حانقا: اقترب وقت غمرها بالإسمنت.

مضيت، طوال الطريق إلى البيت، أفكّر في ما شاهدته من تسجيلات فهد قبل قليل. قد يكون فهد مضطربًا، لكن كلامه بدا لي عاقلاِ جدًا ومنظمًا، حتى لو

كان مكتوبا مسبقا، ثم إن عينيه تفصحان عن صدقه أو على الأقل تصديقه هو لما يقول. يقول عمي إن العينين لا تكذبان لأنهما متصلتان بالروح، والروح طاهرة مهما كانت حالة الإنسان، هي مثل زجاجة السّراج، تغبّش إذا لم نمسحها بالأعمال الطيبة، وتبقى بذاتها نقية. أما اللسان فهو متصل بالقلب، والقلب مثل الإسفنجة التي تحمل ما يغمس بها، لذلك فالقلب إذا تشرَّب الرغبات والمطامع يفسد، وإذا فسد القلب فسد اللسان.

اثنان

قبّلت رأس جدتي، وجلستُ معها، كما أفعل عندما أعود من العمل.

هرعت تشتكي من التكييف وهي تُحكم الشال الثقيل عليها:

«أكلني البرد يا مجيدان» رغم أن هواء البيت كان فاترًا أشارت على فتحة التكييف: «أخفضْ برودة هذه الثلاجة». قلت: «أبشري» وقمت إلى جهاز التحكم في درجة حرارة التكييف المركزي أتظاهر بأنني أغيّره: «سأرمي التكييف خارج البيت إذا أردتي أيضا».

كلما تقدم العمر بالإنسان يتفاقم حنينه إلى ما مضى، لهذا ينتشر البرد في داخله. كتبت مرة عن الفرق بين الحنين والشوق، أن الحنين لا يكون إلا للأشياء التي لا يمكن أن تعود، والشوق لتلك التي تحتمل الرجوع؛ لذلك للحنين برودة اليأس، وللشوق حرارة الرجاء.

«الآن على درجة التدفئة».

«أحسنت، البرد ملعون يأكل العظام».

عدت أجلس بجانبها: «اليوم حرّ رهيب يا جدتي، لم أرَ مثله قط». «كفانا الله حَرّ جهنم» تمتمت وهي تستلقي على السرير: «انتبه من الخروج إلى الحر والدخول إلى مكان بارد، يأكل عظامك البرد، واشرب زنجبيلا، الزنجبيل زين

للعظم». غطّيتها باللحاف ورحت إلى غرفة عمي.
وضعتُ النقال فوق ملف قضية سعيد. أخذت حمّامًا باردًا أنزع به الصهد الذي تخلل مسامي. سال عليّ الماء البارد مثل بلسم ملطف على حروق جلدية. أغلقت عينيّ تحت الدوش. أحبّ هذا الشعور؛ شعور أن جلدي يتخلص من أذى التصق به. أتحرر هكذا من الضغوط، وأخرج بعدما أتنشف خفيفا مثل قطنة.
بعد دوش بارد يصبح النوم لمدة ساعة من الأعمال العظيمة، خصوصًا للذي لم ينم جيدًا ليلته البارحة. راح فضول الفكرة التي جاء بها فهد نشوان يشعل النيران في شغفي. تحويل الأشياء غير المفهومة إلى صورة تقرّبها للفهم. ربما فهد يعتمد على المخيّلة في تحديد المعنى، ليس على العقل، وهذا يمكن أن يعود لأسباب عديدة مثل طغيان عدد الصور في المخيلة على عدد الكلمات التي يتكون منها عقله، أو أن دلالة الصور لديه أكثر وضوحًا من معنى الكلمات. قد يعود هذا إلى مشاهدته الكثيرة للمسلسلات الكارتونية التي ذكرها. لعمي عادل كتابات جميلة عن هذا الموضوع، قرأتها قبل خمس سنوات، واحدة منها أتت على شكل قصة، قصة عن شابين، الأول شاعر والثاني رسّام، تناقشا حول قوة الكلمة وقوة الرسمة. الشاعر يقول إن الكلمات هي المكونات الأساسية للعقل، والعقل هو صاحب الكلمة العليا في الوعي، ويعارضه الرسام بأن الصورة هي التي تنسج عالم العقل، فتأتي الكلمات لتحولها إلى رموز لتُسهّل تناقلها؛ لهذا فالمخيلة هي أساس الإبداع ولولا الإبداع لأصبح العقل يتصرف بطريقة واحدة دون تطور مثله مثل الحيوان.
صدف أن مرّ عليهما فتَيان، فتى أعمى يقوده فتى أطرش. فقال الرسام للشاعر يتحدى: «ما رأيك أن أرسم للأطرش متاهة، ولتصفْها أنت للأعمى، ولنرَ من منهما سيصل إلى الحل».
وافق الشاعر، فوقف الرسام يرسم للأطرش المتاهة على لوحة، وفورما انتهى، قام الشاعر يصفها للأعمى. سرعان ما حلها الأطرش وتعثّر الأعمى يسأل

والشاعر يجيب حتى وجد الحل بعد فترة وجيزة.

فَرِح الرسام وقال: «ألم أقل لك إن الصورة هي الطريقة التي تقود الوعي إلى التعرف على الأشياء؟». فقال الشاعر: «دعنا نتبادل الأدوار.. سأقول أنا للأعمى لغزًا، وارسمه أنت للأطرش». استعدّ الرسام بألوانه عند اللوحة، وراح الشاعر يقول للأعمى اللغز، لحظات وحلّه الأعمى. وعند اللوحة أخذ توتر الرسام يزداد حتى قال: «انتظر، انتظر.. كيف أرسم معنى هذه الكلمة». عندئذ تقدم الشاعر إليه يقول: «المعنى لا يُرسم، الكلمات تشير إليه فقط، والعقل يذهب إليه». لملم الرسام ألوانه ولوحاته. وقبل أن يودع الشاعر انتبه الرسام إلى شيء مهم، فقال كمن وجد حل لغز صعب داخل متاهة معقدة:

«مهلا مهلا، ألم تنتبه إلى أن الأطرش كان هو من يقود الأعمى؟».

تركت جفنيّ يرتخيان، واستسلمت لنوم أخذني لمدة ثلاث ساعات إلا قليلا. حلمت أنني أسير في متاهة وبيدي لغز من كلمات متقاطعة في حله طريقة للخروج من المتاهة.

ثلاثة

صحوت وخدر الاكتفاء اللذيذ من النوم يسري في جسمي يدفعني إلى الاستمرار في الاستلقاء هكذا والتفكير في أي شيء. كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق، وكان نقال فهد في مكانه فوق الملف. أبقيت رأسي على الوسادة، أفكر في غرابة رؤية رجل ميت يتحدث كما لو كان حيًا من جهاز. العالم الذي كان فيه فهد أثناء التسجيل كنت أنا فيه أيضًا في مكان ما، أعيش حياتي بشكل عادي، حدَثٌ بقي في التسجيل كما هو: التسجيل نَسَخَ الحياة. نظرت إلى صورة عمي أمامي في الجدار. نظرته هادئة ونجمته تلمع. أشعر دائماً أنه ينظر إليّ من عالم آخر دون أن يستطيع الحركة، وهذا ما يجعلني أتحرّج من كشف عورتي أمام الصورة،

مسألة نفسية بالدرجة الأولى.. الصور هي نسخ منّا، هذا ما أشعر به كلما نظرت إلى صورة إنسان؛ فأنا منذ الصغر إلى الآن أشعر برهبة خفيّة من رؤية صورتي تدفعني إلى عدم التمعّن في ملامحي كثيرًا مثلما أفعل أمام المرآة، صُوَرُنا في المرآة هي انعكاسنا الطبيعي، أما في الصورة فهي استنساخنا غير الطبيعي. كلما تأملت صورتي أشعر بأنني أصير أحدًا آخر، أصير غيري. الجمود في شكلي فيها ليس إلا حالة من حالات الانفصال عن الحياة.. عن كينونتي، تحتكّ في ذهني «أنا» و«هو»، ومن هذا الاحتكاك ترتعش معاني الأشياء في داخلي.. لكن التسجيل.. آه.. التسجيل شيء مختلف، شكل يتمثّل فيه الموت حيًا على نحو واقعي أكثر، يؤكده التكرار في كل إعادة، يستمر التكرار مع كل إعادة إلى الأبد مثل لعنة، وإذا كان التسجيل لرجل ميت، ونراه فيه حيًا، آآه، هنا يكمن.. يكمن.. لا أعرف ماذا أسمّيه.. آه.. مهلا.. نعم نعم.. فهد قال في التسجيل إن الذاكرة هي الحياة.. ربما هنا يكمن السر، الذاكرة، فنحن لا نعلم كم مرّة تُكَرِّر ذاكرتنا حياتنا. كم مرة عشنا هذه الحياة.

أخذت النقال وفتحت الاستوديو، فتعامدت مربعات التسجيلات. رفعت وسادتي وأسندت ظهري. فتحت التسجيل التالي، تَوقِيتُه يقول إنه بعد التسجيل الفائت بعشرين دقيقة.

لمست المثلث.

التسجيل الرابع

بيت أم غريب

يتحرك وجهه في غرفته. ينشق ضاغطًا على أنفه، ينظر إلى الكاميرا في الزاوية العلوية لشاشة النقال. يكح. يبدأ بالحديث:

طوال فترة الغزو كان شريطا يعاد كل يوم في رأسي حول المباريات والساحة والشارع، (ينظر إلى ما وراء الكاميرا، إلى الشبّاك ربما)، أستدرٌ به بهجة نفسي التي ما انفكَّ الكمد عن ساحتها إلا عندما جاءنا خبر التحرير.. أتذكر إحدى تلك المباريات الكبرى التي كان الأولاد يتجمهرون على حواف الملعب لمشاهدتها، وأنا أبذل كل طاقتي لأريهم قدراتي كيف أمتلك الكرة وأهبها لمن أريد أو أهزّ بها شباك أي زوايا المرمى أشاء.. أسترجع طعم شعوري وفريقي يجري ورائي، يحاولون التعلق برقبتي، وأستعيد كيف كانوا يتنافسون على من يكون في فريقي.
ومذ جاءني الخبر مؤكدًا أن عودتنا باتت قريبة، وأنا أخطط لمباريات لا تنتهي مع أبناء الشارع، كل يوم مباراتان على الأقل.

يسكت، ينظر إلى وجهه في الكاميرا، تميل نظرته قليلا عن زاوية الكاميرا إلى الشاشة، يعمل كمبريسر المكيف ويتمدد صوته وراء خلفية صوت فهد، فيما يقول بنبرة مختلفة عن النبرة التي بدأ فيها الكلام، مخاطبًا نفسه:

قُلتَ لكوكو وأنتما تقتربان من بيت بدا أنه مهجور: «ليتني أحضرت الكرة»، وأضفت: «اشتريتها قبل شهر بمئة ريال، من محلٍّ في الرياض، ولم أمسَّها حتى الآن».

قال لك كوكو: «آه.. لم نعد نلعب كرة منذ عدنا».

شعرت بكهرباء: «لماذا؟».

«لا أعرف، لكننا توقفنا عن ذلك» أجابك.

دافعتَ عن ولعك: «سنعود معًا لتسجيل تلك الأهداف الرائعة، ألا تذكر، كنّا سبب فوز أي فريق نلعب معه».

«أذكر» قال كوكو، ركل حصاة صغيرة وأضاف: «لكن.. لم يعد أحد متحمسًا للكرة».

«كرتي جديدة ما إن ترَها حتى تتحمس لركلها في مرمى، سترى».

راوغك: «ملعبنا خرب».

انبريت له: «بسيطة، نعيده مثل أول مرة، ليس أمرًا صعبًا».

وقفتما أمام بيت له صورة طالب فقير يرخي كتفيه في منتصف طابور طلبة أغنياء. قال لك كوكو: «أتذكر هذا البيت؟».

أجبتَه وأنت توسّع عينك على واجهته المتورّمة: «نعم، بيت أم غريب».

طلب منك إعداد مفاجأة لهم. وقفتَ، ودخل.

تفحصت بيت أم غريب.. مثل نموذج بيتكم؛ بابه له مظلة خرسانية طلاؤها أبيض، وسوره من طوب بنّي تبرز منه خطوط عريضة كنتم تتسلقون عليها، ثم ممرّ يمتد خطوتين، ثم مبنى البيت. كان يشبه بيتكم غير أنه لم تكن له حديقة مثل حديقتكم لأنه محاط بثلاثة بيوت من ثلاث جهات عدا واجهته الأمامية التي تفتح على الشارع الداخلي. تذكرت الولد «غريب» الذي كان يسكنه. يكبركم بثلاث سنوات. التقيتَ به مرات كثيرة. ولد حنطيّ اللون جريء يحب تربية

أنواع شرسة من الكلاب. كان يعادي الجميع ويترصدهم، وكنتم تتحاشونه دائمًا وترمون عليه الحصى إذا ما حاول التحرش بكم وتهربون. تذكرت لهجة أمّه الغريبة وألفاظها الشاتمة، (يقلص حاجبيه وتختلف نبرة صوته)، وكان هناك إشاعة تقول إنها ساحرة تستعمل دماء الكلاب وعظامها لتسترضي بها عفريتا يقطن معها؛ ما جعل أمهاتكم تتجنّبها وتنهاكم عن صحبة ابنها.

كانت نوافذ البيت كلها مكسّرة، (يعود صوته كما كان) وباب المرآب مخلوعًا عدا فرجة يمكن دفعها لتوسعة أحد درفتيه للدخول؛ بدا لك كما لو أنه مهجور منذ سنوات طويلة. وكان يخلو من أي ذكرى، (يهز رأسه) استغربت أنه يخلو من أي ذكرى.

سمعت كوكو يقول من الداخل (يعود السرور إلى وجهه): «توقعوا مَن عاد اليوم؟» أجابه صوتان بنبرة متحمسة: «فهد أبو أذاني».. « أكيد أبو أذاني». ناداك فدخلت. وجدت أصدقاءك.. النمس، بسنه المكسورة وغرّته المجعّدة.. جمال ديزل، ولونه البني هو هو.. سالم القرد، وشفته المشرومة.. مسّت اللوعة بلعومك.. بدر الناقة ووجهه العريض.. بشار النحلة لم يتغير به شيء.. مساعد البطريق قصير الساقين.. مع هؤلاء الصبية عرفت الدنيا، اكتشفت ما وراء بيتكم من عوالم، معهم تعلمت المراوغة في الكرة، الثقة بقدمك، تسجيل الأهداف.

يغلق عينين كأنه يسترجع شيئا من ذاكرته يريده واضحًا،
ويتابع بعينين مغمضتين:

يفتح باب المرآب على حوش ضيق أزيل منه البلاط وانكشف التراب من تحته، يدور حول ثلاث جهات بداخل البيت، رفعتْ بعضُ البراعم ذات الساق رأسها عند أيمن الباب، وتناثرت بالتراب على مسار الجدار، إلى أن تقف عندما يعود البلاط قرب غرفة آخر الحوش، الذي ترتمي على جانبيه الكسر وقد نبتت بينها

بعض النباتات أيضًا.
أخذوك إلى غرفة في آخر الحوش. غرفة صغيرة مهملة خارج البيت، تستعمل عادة للخادمة أو للسائق، حيث وضعوا موقدًا صغيرًا تشتعل فيه نار هادئة على حطب فوقه إبريق شاي نحاسي اسودّ أسفله، مفروشة بسجادة زرقاء مليئة بالحروق، وكان طلاء السقف ممسوحًا بسخام الدخان، أما الجدران فقد تغيّر طلاؤها إلى البيج، عدا الجانب الذي خلف الباب كان ما زال أبيض. جلست مقابل الباب ورأيت أمامك، على الجدار، رسمة بالفحم لسيارة «زد» وفوقها كُتِب بلون أحمر «سرّ الليل».

يفتح عينيه ويكمل:

شربتَ الشاي. لم يكن المكان مريحًا لك.
حدثوك عن ظلام أول ثلاثة أشهر بعد التحرير والأسلحة التي وجدوها هنا، رشاشات، مسدسات، «بازوكة» مدّ النمس ذراعه يصف لك طول قذيفتها، سكاكين.
أخبروك أن بيت أم غريب هجر منذ أول أسبوع خرج به الجيش العراقي، هربت أم غريب وزوجها وولدها خارج البلاد بعد أن أظهرت تعاونًا مع الجيش العراقي ضد أهل المنطقة، (يهزّ رأسه ضاغطا حاجبيه). ذكروا أنها رفعت علم العراق فوق بيتها، وأسرّ لك بشار بصوت خافت أنها رقصت في الشارع على إحدى الأغاني التي تمجد (صدّام)، وأنها كانت تعد الولائم لأبناء أسرتها الذين كانوا برتب عالية في الجيش العراقي؛ وقبل أن تهرب، سرقت مع زوجها بعض البيوت، وهذا الدمار في البيت ناتج عن أهل الشارع الذين تجمّعوا أول أسبوع من بعد التحرير، ورجموا الواجهة ثم اقتحموه وأتلفوا الأثاث.
وقفتَ بعدما فقدتَ سيطرتك على احتمال ضيقك من المكان، وقلت:
«هيا، سأحضر الكرة ونذهب إلى الساحة، ليس أمتع من مباراة بمثل هذا المطر

اللطيف».

قال بشار، يخاطبهم بصوته البليد:

«يقول كرة! أي كرة وسرّ الليل سيلعب في المواقف لعبًا!!».

«ما سرُّ الليل؟» سألت.

أجابك كوكو: «سترى الآن».

خرجتم إلى مواقف مدرسة الابتدائية، (يعود وجهه منفردًا) يمدكم رذاذ المطر ورائحته بالبهجة. شعرت أن صقر مصيب عندما قال إن الفردوس تغتسل لاستقبالنا، رذاذ لطيف مثل هذا لا يمكن أن يأتي إلا من شعور محب.

سرتم شارعين، قدّما لك ذكرياتك، وانعطفتم منعطَفَيْن، أخبراك عن طول غيابك، ثم ولجتم سكة ترابية ضيقة، تفصل بين صفي بيوت من جهاتها الخلفية، كأنك تعرفها جيداً وتعرفك لدرجة أنك وددت من قلبك لو تستطيع احتضانها.

ينظر إلى ما وراء الكاميرا يتغير إيقاع رمشه ويكمل:

قد.. قد يفوق شوق الأماكن شوق الأحباب، فحبُّنا وكرهُنا لها هو الروح التي تبعث بداخلها الحياة وتجعلنا نتبادل معها الإحساس نفسه.

يسكت ثانيتين ثم تعود عيناه إلى الشاشة:

ولما اقتربتم، سمعتم صوتَ صريخِ إطاراتٍ غاضبًا يطيش بجانب زمجرة صوت عادم سيارة مثقوب يتلجلج صداه في الأنحاء.

انفرجت السكة في آخرها عن مواقف المدرسة، وتكاثفت رائحة عطب. رأيت حشدًا من الصبية يتفرجون تحت رذاذ المطر على سيارة، «زد» نيسان، تشبه رأس نسر ينظر إلى فريسة، لونها ذهبي، مظللة الزجاج الجانبي والخلفي بتظليل

داكن، كتب على زجاجها الخلفي بيت شعر: «سريت والليل فيه أسرار .. سر المحبين سر الليل»، على أقواس الإطارات الخلفية تسلخات كثيرة؛ تشاركها سيارة نسيان «جي تي»، يستعرض سائقها طيشها مع سر الليل وتحكّمه في اندفاعها بكل قوتها في منعطفات المواقف. أشار بشار النحلة إلى الزد الذهبي: «هذا هو سر الليل، انظر كيف يتفنن».

سألتَ رافعًا صوتك:

«كم عمره؟».

«لا أحد يعلم». قال كوكو.

وأضاف النمس: «لم يره أحد حتى الآن».

اندفع سر الليل بالزد بأقصى سرعة عند زوايا المواقف، خلص انزلاقها من الارتطام بالرصيف، وأخذ يبرم بها بمنتصفها ويعود مظهرًا مهارة عالية في عدم مس الرصيف رغم سرعة انزلاقه باتجاهه. انتشر الدخان في الجو، وقامت أصوات العوادم المثقوبة تهدر كوحوش تريد أكل القاع. لم يطل الوقت حتى خرجت سيارة السائق الآخر عن سيطرته واصطدمت بالرصيف العالي للمواقف. توقف سر الليل ينظر إلى سائقها وهو يعرج بها خارجًا من المواقف بإطار مثقوب. زاد التصفيق والتصفير، فبدأ سر الليل وحده، بعدما خلت له المواقف، باستعراض مبهر لم ترَ عينك أحدًا قبله يفعله بمثل تلك المهارة والتمكُّن.

وقفت على الرصيف تنظر إلى الجميع (يبتسم داعكا جبينه بيده)، ها هي الفردوس، ها أنت ذا، وهاهم.

توزع الصبية في مجاميع عديدة، في كل زوايا المواقف تقف مجموعة يصفرون ويهتفون بالإعجاب. افتعلت حماسًا زائفا، وهتفت معهم كي لا تبدو بعيدًا عن اهتماماتهم: «أيوا يا خطيبير» «يا بطل.. يا بطل». «الله أكبر عليك». «يا فنان». الهتافات نفسها التي كانت تطاردك عندما تنفرد بهجمة أو تحقق فوزًا. التفتَّ على جمع أولاد بجانبك يصفّرون ويهتفون لسر الليل، وقعتْ عينك على

أحدهم كان ينظر باتجاهكم، اشتبه عليك وجهه فقمت تنظر إليه ربما كنتَ تعرفه من قبل، تركتَه وعدت إلى المواقف وهتفت مع بشار: «يا بطل يا بطل».
كنت متحمسًا لرجوعك وتودّ أن تمارس نفسك على سجيتها، فقلت لبشار: «اشتريت كرة بمئة ريال من محل بالرياض لو تراها...»، فقاطعك صوت يشي بغضب:
«هيه، أنت».
التفتّ، فإذا بالولد الذي كنت تنظر إليه قبل قليل، يعصر حاجبيه وفي يده عصا يحكّ بها الأرض، قال: «ما بك تنظر قبل قليل؟».
حشرت صوتك بين صوت عادم الزد المثقوب وصريخ الإطارات: «لا، لا شيء.. خلتك أحدًا أعرفه».
التفّ أصحابه حولكم، فحذّرك بنبرة مفخّخة:
«إذا رأيتك.. تنظر لي مرة أخرى.. فسأكسر عينك».
تبلعمت. لم تعرف بماذا يجب عليك أن ترد. حالت سعادتك بالعودة بينك وبين الغضب. تقدم النمس ودفعه من رقبته قائلا:
«انقلع».
ارتفع رأس العصا وهوى، ثم اندلع شجار التفّ له كل من بالمواقف.
كانت مشاجرة موفّقة، لدرجة أن سر الليل توقف عن الاستعراض كي يشاهدها. تمزق ثوب كوكو، ونزفت لثة النمس إثر لكمة، وحصلتَ على خدش طفيف في عنقك لأنك خلصتَ ياقتك من ولد كان يريد طرحك أرضًا، ولولا صفارات الدورية التي جاءت لربّما هزمتموهم.
هرب سر الليل مراوغًا الدورية بحركة ثعبانية، وانسل الجميع من السكك والشوارع القريبة، اختبأتم خلف سيارة كانت مركونة في حديقة منزل، يتردد في أذنك صوت صرخات المشاجرة، حتى ذهبت الدورية.
«لماذا سكتَّ له عندما قال سأكسر عينك؟» سألك النمس وأنتم تسلكون السكة إلى بيت أم غريب.

ومضيت كأنك لا تسمعه.

ازداد المطر. سرّعتم الخطى إلى مظلة أحد البيوت في السكة الترابية الضيقة. وقفتم تحتها تستمع إليهم يتحدثون عن الأولاد الذين تعاركتم معهم، وعن سر الليل الذي التفّ بالزد حول الدورية قبل أن يهرب.

وقفت تحدّث نفسك بأن صورة السحاب من الآن يجب أن تصبح صورة خدّ محبٍّ لقي أحبابه بعد طول غياب. وفي حين دار سالم حول نفسه، يقلد دوران سيارة سر الليل حول نفسها، التفتَّ على شباك مفتوح عن يمينكم، خلف قضبانه الحديدية رأيت فتاة تشاهد المطر. ضيّقت عينيك تركز عليها. كانت فتاة فقط، هذا كل ما رأيتَه. ولمّا أتت عينُها عليك سارعتْ في إغلاق الشبّاك.

يتوقف عن الكلام، يضطرب إيقاع رمشه، يبتلع ريقه ثم يقول:

لم تكن تعلم أنك ستتعرف عليها بفضل سعيد جونكر. ستفتح شبّاكها لك في ليالٍ طويلة، وستقول لها أحبك. ثم سيأتي يوم تغلق الفتاة فيه الشباك بوجهك في ليلة ممطرة.

يتنحنح، يتنفس بعمق، يزفر بهدوء من أنفه، يكمل:

جلستم في بيت أم غريب تشربون الشاي. طوال تلك الجلسة كنت تشعر أن في نفسك كرة تصطدم بعارضة مرمى.

يسكت ماطاً شفتيه، أربع ثوان ثم يتابع:

بعد صلاة العشاء تركتَهم ومررت، على ملعبكم في الساحة الترابية خلف بيت

جدة سعيد. لم تجد هناك أثرًا للمرمى. كانت الأرض مبلولة وينبتُ بها نبات الشوكي. فقط الخطوط التي حفرتموها لحدود الملعب ومنطقة الستة عشر والخط الذي يقسم الملعب نصفين والدائرة في المنتصف، بالكاد رأيتها مثل تجعّد واهٍ على خامة رقيقة. ركض فريقان بذاكرتك وراء صبي يراوغهم بمهارة، وأنت تجيل بصرك في الملعب، يتقدم الصبي متجاوزًا اللاعب وراء اللاعب، حتى نحّى المرمى أمامه بين عارضتيه، وفقد الحارس ثقته بنفسه، أغمضت عينك ورأيت أحد أهدافك السريعة وجرْيَ الفريق خلفك لاحتضانك.. «يا فنان».. «الله عليك».. «يا بطل يا بطل».. يتشبثون برقبتك.

تأملت الملعب، ذهبت بعينيك وأتيت، تخطط لبنائه من جديد، ثم عدت إلى البيت تسير فوق الرصيف وشارعكم المبلول يتلألأ، تحت أعمدة الإنارة التي أخذت تطالعك بضوء فضي مسالم، تصلك روائح طبخ من البيوت التي تمر بجانبها، ونهايات أسماء بأصوات الأمهات، وضحكات أطفال، وبكاء رضيع دار حولك من أمام بيت.

قلت في نفسك وأنت تقترب من بيتكم: لا بأس، كانت تمر أيام دون أن نلعب، غدًا أو بعد غد بالكثير سنعيد بناء الملعب.

أمسكت بالكرة على فراشك، التي لم تمسسها بقدمك (ينظر إلى ما وراء الكاميرا) تفكر: أنا لا أجيد إلّا المراوغة في كرة القدم، ربما هذا الذي يجعلني مميزًا.

تذكرت سؤالك المبهج: «من يريد أن يكون في فريقي؟» وأصواتهم وهي تتسابق عليك: «أنا.. أنا.. أنا».

فكرت بالمشاجرة، (يعيد عينه على الكاميرا)، فيما كنت ترمي الكرة على الجدار وتصدّ ارتدادها بيدك، (يهز رأسه بروية يمينا وشمالا) لم تكن خائفا، لكن (يرفع كتفيه ويمطّ شفتيه) لا شيء مميز في الشجار.

ينظر إلى وجهه في الشاشة لمدة عشر ثوان، كأنه يحدّث
نفسه بشيء ما، أو يتذكر شيئا، ثم يغلق التسجيل.

التسجيل الخامس

نهاية كرة

يظهر بنفس ملابسه في التسجيل السابق، مرتميًا على الأريكة:

جاءت سماء يوم الغد، الجمعة، متوشّحة بالغيوم ولها هواء رائق.

بعدما عدت مع أبي من صلاة الجمعة تغدّيت وانطلقتُ معي الكرة. يجب أن نلعب مباراة في هذا الجو المشجّع. طرقت باب سعد فخرجت أمه وقالت إنه خرج قبل الصلاة ولم يعد. عرفت أين هو. تصادفت مع بشار النحلة في طريقي إلى بيت أم غريب. بلادته لم تتغير، حدثني عن مشاجرة أمس بنبرة أبويّة يريد مني أن أتصرف بجسارة في المرة القادمة. أخذ مني الكرة وتفقدها.

«اشتريتها بمئة ريال» قلت «قبل شهر، من محل بالرياض، ولم أمسسها بقدمي حتى الآن».

انعطفنا إلى شارع أم غريب:

«لماذا لم تمسسها بقدمك؟».

«حلفت أن تكون أول ركلة في ساحة ملعبنا».

«وماذا تستفيد من هذا؟».

«لا شيء، حلفت فقط».

فقال بزهو: «أما أنا فعدت معي سكين نصلها حاد جدًا».

«سكين! ماذا تريد بها؟».

نظر إلى الخلف وعاد إلي يقول: «لا تعرف متى يقابلك الشر في الشوارع». قلص عضلات حاجبيه مضيفا: «تحتاج إلى شيء يزيحه عن طريقك».

«أرِنيها».

«هل أنت مجنون، أحملها كي تضيع مني؟ أدسها تحت فراشي».

«لماذا اشتريتها إذا كنت لا تريد أن تحملها؟».

التفت وراءنا ثم عاد إلي بملامح يشوبها الترصد والغضب: «إذا جاء وقت عراك، عراك كبير ليس عاديًا، سترى بعينك كم هي حادة».

استقبلتنا رائحة شواء في بيت أم غريب. كان سعد كوكو ومساعد البطريق والديك يقلّبون دجاجة على النار في منتصف الحوش. انضممنا إليهم. تناولوا الكرة مني وتفحصوها. شعرت بالحماس، لا بد أن جودة الكرة ستغريهم باللعب؛ دخل علينا بعد قليل النمس وعزوز العور. قلت في نفسي ويدا عزوز تقلبان الكرة: «بقي ثلاثة ويكتمل الفريق».

«هل ستذهبون إلى المواقف؟ ربما ستمطر بعد قليل» قال عزوز.

«أجل» أجاب بشار يبحث عن شيء ما على الأرض «ويجب أن نأخذ معنا عصيًّا نستعملها إذا ما واجهنا الصبية الذين تشاجرنا معهم أمس».

قفزت بحماسي:

«لا لا.. سنذهب الآن إلى الملعب. نريد مباراة. دعوا المواقف بعد صلاة العصر».

رمى عزوز علي الكرة فسكّنتها بصدري ثم أمسكتها قائلاً: «من يريد أن يكون من فريقي؟»

لم يرد أحد.

«من يريد أن يكون من فريقي؟» أعدت موضحًا السؤال.

كانت الطقطقة التي ينتجها سقوط دهن الدجاجة على الجمر دليلا على أن لا أحد يريد أن يكون من فريقي.

«تعال وكُلْ فهد» قال كوكو وهو يزيح الدجاجة من فوق الجمر «دع المباراة ليوم آخر».

«لكن الجو اليوم رائع، وأنت تعلم أنه ليس أفضل من..».
«يوم آخر فهد، يوم آخر» قاطعني بشار وهو يقرص لحم الدجاجة ليختبر استواءها.
لم ينزل مطر ذلك اليوم، ولم يأتِ سر الليل، ولم آكل معهم الدجاجة.

يحك طرف أنفه ثم يبحلق لثوان على شيء عن يمينه.
يزداد هدير كومبريسر المكيف، يتابع:

أطل صباح السبت، (يبتلع ريقه) طويلا. شمسه المشرقة كشفت عن بهجة شارعنا الغاربة. قضيته أمام التلفزيون أخرج شريطا وأشغّل آخر. حتى أذّن الظهر بالكاد. جلست تحت شجرة الصفصاف أشاهد العصافير عليها. تغديت، وأخذت الكرة معي إلى الديوانية أنتظر أحدًا يطرق بابنا كما كانوا يفعلون قبل. عاد أبي من عمله، تشارك صحن الغداء مع صقر أمامي في الديوانية. انتهيا من الغداء، فتطرّفت المجلس عند التلفزيون، وحدي، أمام صحن عنب آكل منه. يتخطّف قلبي كل صوت أحسبه طرقة. أشاهد القناة الجديدة أم بي سي. تستعرض فيها مذيعة جميلة أخبار حرب ما.. أخفضت صوت التلفاز، متابعاً الصور التي تذهب وتأتي بعدها صور أخرى.
أحب العنب منذ صغري، في حلاوته الموشاة بحموضة لطيفة طعم يشبه سعادة مجموعة أولاد يلعبون على شاطئ.
انتهت نشرة الأخبار.. بدأ برنامج يتحدث فيه مجموعة أشخاص.. مضغت العنب.. شعرت بسعادة الأولاد تسيل في فمي.. أذّن العصر.
أفرغت صحن العنب.. خرج أبي للصلاة.. انتهى البرنامج.. خفَتَ طعم العنب.. عاد أبي من الصلاة.
اختفت سعادة الأولاد من فمي.. الكرة عند قدمي.. لم يطرق أحد بابنا.. تضاعف داخلي إحساس بإضاعة هدف الفوز في مباراة نهائية.

أخذت الكرة إلى بيت أم غريب مصرًا على مباراة، أتذكر في الطريق كيف كانت طرقاتهم تمدّني بالحماسة الكافية للعب ثلاث مباريات متتالية، تقول لي بأنني أمتلك في ذاتي شيئا ثمينا يجعلني مطلوبًا.

كانوا كلهم هناك، قدّرت أنهم عدد كاف لفريقين، وقفت عند الباب المخلوع:

«هيّا، ستة بستة، لكن أولا يجب أن نصنع لنا مرمى».

التفتوا إليّ وكأنني قلت شيئا لا يجوز لي قوله.

«اليوم سنصنع المرمى من حصى، وغداً سنبحث عن قوائم وعوارض خشبية لنـ..»..

«شُجّ رأس سعد اليوم في المدرسة» قاطعني عزوز «وأنت تريد أن تلعب كرة؟».

صدمت، كان سعد كوكو جالسًا معه عصا وعلى رأسه لفافة من شاش أبيض.

«أف أف» قلت وأنا أقترب والشاش الأبيض يكبر «ماذا حدث؟».

قال بشار:

«لحقه ثلاثة صبية بعد جرس الخروج ونكبوه في ممر الحمامات».

انتبهت إلى أنهم يتأهبون لشيء ما.

أمرني بشار: «دع الكرة وتعال معنا نأخذ حقه، نحن ذاهبون إلى شارع الذين ضربوه».

وضعت الكرة في الغرفة. ورحت معهم.

وجدنا أحد الأولاد الثلاثة خلف محوّل كهرباء. هجموا عليه. ضربه سعد أولا ثم ضربوه كلهم. ابتعدت عنهم وصوت تمزُّق الهواء بصراخ الصبي يمزّقني.

ليست العراكات جديدة عليّ، لكن الذي رأيته في وجوههم كان أول مرة يحدث..

أعدتُ المشهد على فراشي تلك الليلة، العصيّ التي نزلت على رأس الصبي، الأرجل التي تهافتت فوق ظهره وبطنه، الأيدي التي مزقت ثوبه.. والوجوه.. الوجوه التي كانت تعبّر عن رغبتهم في إيقاع أكبر قدر من الأذى في الصبي. كان كل منهم يبحث عن ثأره من جسد الصبي.

شعرت أنه من الغباء أن أقول لهم ذلك اليوم، بعد أن عدنا لبيت أم غريب:

هيا نلعب كرة.

يتحرك تاركاً الجوال على الأريكة، يستولي اللون الأحمر على الشاشة كلها، صوت خطواته يبتعد، يأتي خلفه صوت صرير باب ثم صوته يغلق، يصبح صوت المكيف ولون الأريكة كل شيء، يمضي الوقت والتسجيل يدور عبثا دون فائدة، أفكّر في الوقت الذي يُحسَب من العمر، الأيام التي مرّت وكأننا لا نحتاج إليها، ثم باب يفتح، فخطوات تقترب، فحركة تبدأ بها الغرفة بالظهور، فوجهه مبللا. يضغط أحد منخريه وينشق الهواء من الآخر، يتنحنح، وينشق مجددًا، ثم يبتلع ريقه. يقلص حاجبيه ناظرًا إلى الشاشة، نقطة رؤية عينه تتردد بين الشاشة والكاميرا. يأخذ نفَسًا عميقا من أنفه ويخرجه من أنفه. يمكث وقتا ينظر إلى جانب الهاتف، يتابع:

مضت الأيام على عودتنا تتتابع بسرعة، يومٌ يركض وراء يوم، كما لو أنني أضغط على زر التقديم في الفيديو. كنت أصحو باكرًا، وأجلس وحيدًا غالب الوقت، وكان صقر يصحو الضحى. تجلس أمي وأختاي مع الجارات في مجلس النساء. اضطر إلى أن أشاهد الوقت يقطر ببطء من صنبور النهار، مراقبًا امتلائي بفراغ لزج. أتابع الرسوم من الفيديو، منتظرًا موعد بث القناة الأولى عند الساعة التاسعة، فأمضي وقتي أمام التلفاز حتى تزداد على صدري وطأة الملل، ثم أخرج أتمشى في شارعنا الساكن لأبدّد ركوده؛ وقد يحدث أن أجد أحد الرفاق متغيباً عن المدرسة فنتشارك كدر وحدة الصباح معًا، أو أتسكع في الجوار بكسل، منتظرًا انقضاء صلاة الظهر، لأذهب إلى المتوسطة القريبة من بيتنا، أرتمي في مظلة الانتظار، بجانب الباب الرئيس، حتى يخرج الرفاق، فأعود معهم مستمعًا

إليهم وهم يتحدثون عن مجريات المدرسة؛ وكانت تحدث مشاجرة من حين إلى آخر عند الباب، بين الرفاق وبعض الأولاد، فأبتعد عنها متظاهرًا أنني أتابع شخصًا اندسّ في أحد الأزقة البعيدة، حتى لا أزجّ نفسي بطاحونتها.

يرفع رأسه قليلا ينظر إلى السقف كمن يحاول تذكر شيء:

تفشى حب السيطرة بين الأولاد حولنا. والشعور بأن ثمة أولادًا مندسين سيداهموننا على حين غرّة يلفت إلى كل حركة. اختصر بشار الحالة، بصوته الذي يتصنع به الرجاحة، شادًا على قبضته:
«علينا أن نتحلى بطباع سيئة كي نحمي أنفسنا من الأولاد، وألّا نفوّت فرصة نُظهِر فيها أمامهم قدرتنا على الأذى، وإلّا فلن يكفّوا عن إظهار الأذى علينا».

يعود ينظر إلى الكاميرا:

أصبح اجتماعنا اليومي في بيت أم غريب، من يأتي أولا يشعل النار ويعد الشاي، حتى يجتمعوا بعدد كاف فيذهبوا يجوبون الشوارع بحثا عن «هوشة» يزجون بها الوقت، أو يكسرون زجاج سيارة لجلب الإثارة. كنت أبحث عن عذر لأعود إلى البيت مع أول أحاديث البحث عن متاعب، أشغّل الفيديو وأعود بذكرياتي إلى غرفتي في البيت الذي سكنّاه في الرياض، أتابع مسلسل مغامرات الفضاء، وأخاطب أشخاصًا غير موجودين:
«انظروا الآن ماذا سيفعل دايسكي».. «انتبهوا إلى الزاوية».. «يوجد شيء غريب هل لاحظتموه».. «الغزاة سيندمون على هذا بعد قليل».
وفي اليوم التالي أبحث عن طريقة مغرية أستدرجهم بها إلى الملعب، وفي كل مرة يكون حماسهم مثل خرقة بالية، حتى عندما وضعت جائزة خمس دنانير -سرقتها من أبي عندما قام من قيلولته يتوضأ لصلاة العصر- للفريق الفائز،

تركوني وخمسة الدنانير تهفهف بيدي، وتحدثوا عن سر الليل.

في كل يوم كنت أزداد إلحاحًا عن اليوم الذي قبله، إلى أن توقف إلحاحي ذات يوم، كانت الشمس تميل فيه إلى الغروب، فيما كانوا يتحدثون في بيت أم غريب عن حديقة في أحد الشوارع القريبة فيها دجاج يريدون واحدة منها عشاء:

«هل ترونها.. جديدة، اشتريتها..» قاطعني سالم النمس يقلد صوتي ساخرًا:

«بمئة ريال.. قبل شهر.. من محل بالرياض.. لم تمسسها مؤخرة حتى الآن»..

ضحك الجميع ضحكا فاقعًا صعد منه طعم حامض إلى بلعومي، فتظاهرت بالزعل بالتفافة سريعة أعبّر بها عن غضبي منهم، مشيت على عجالة طوال الحوش، لأبين أنهم لن يروني بعد اليوم، فوصلت إلى الباب دون أن يناديني أحد، التفتُّ إليهم لعل أحدهم يقول تعال. وجدتهم مستمرين في توزيع الأدوار بينهم. رفست الباب لأنبههم أنني سأخرج ولن أعود، فلم يلوِ أحد رقبته عليّ. هززته أنتظر من يسأل: إلى أين أنت ذاهب؟ فسمعت عزوز يقول إنه سريع ويقدر على الهرب إذا ما فاجأهم صاحب البيت في حديقته.

خرجت، ووقفت أمام الباب أتصورني زاوية غرفة مهجورة فيها بيت عنكبوت علقت فيه فراشة ميّتة؛ ثم أخذت عيني ترى مشهد صبي منبوذ، في الرصيف البارد تحت قدمي، يركل الكرة وحده في ساحة خالية. أيقنت أن الكرة تهدد مكانتي. حدّثت نفسي: «أنا الذي يركض الجميع وراءه، أنا الذي يتعلقون برقبته بعد الأهداف التي يسجلها، أنا الذي..». كدت أبكي.. فسكتُّ أشاهد الفتى الذي يتحرك أمامي على الرصيف يترك الكرة في الملعب ويأخذ عصا غليظة.

يرسل نظرة إلى السقف، يعقد حاجبيه، ويهتز رأسه برويه
فيما يعود بصره إلى الجدار أمامه ويقول:

كان ذلك اليوم أول يوم أركل به الكرة، التي اشتريتها بمئة ريال.. من محل بالرياض.. ولم تمسسها قدم من قبل.

ركلتها على جدار بيتنا في الحديقة، وطعم دجاجة مشوية يملأ فمي، لتعود مرة أخرى وأركلها من جديد..

ركلت: لا أريد أن أكون منسيًا مثل مرمى ملعبنا.. ركلت: سأجعل اسمي يرتفع في الشجارات كما ارتفع في المباريات.. ركلت: سأزيل بيت العنكبوت وأكسر الزاوية..

ركلت: سأجعلهم يطرقون بابي كلما حدثت مشاجرة.. ركلت: بل سيتمنون أن أكون معهم في الشجارات.

ثم ركلتها بقوة في المرة الأخيرة لترتد دون أن أصدّها، ولتتدحرج وحدها في الحديقة. ثم قلت في نفسي:

«يجب أن أريهم أنني أحمل طباعًا شريرة، طباعًا لها صورة أظفار طويلة»..

ونطقت: «.. ومتّسخة».

بعد صلاة ظهر اليوم التالي، ذهبت إلى بيت أم غريب، رتبت الجلسة وأشعلت النار وأعددت الشاي وجلست انتظرهم متأملا الإبريق وهو يفور.

«ألا يوجد مشاجرة اليوم؟» قلت لسالم النمس وعزوز العور وهما يدخلان.

نظر عزوز إلى سالم وقال قبل أن يجلسا بصوته الأخنف: «لا لا يوجد، ولن نلعب مباراة».

فقلت، وأنا أصبّ لهما الشاي: «إذن فلنبحث عن حديقة أخرى بها دجاج».

تلفّ عينه إلى شيء ما أمامه، يتوقف عن الكلام، يبتعد وجهه، يغلق التسجيل.

التسجيل السادس

«عيب عيب، عيب عليكم»

جالسًا على الأريكة، يرتدي فانيلة زرقاء عليها عبارة إنجليزية مكتوبة بلون أصفر: جست دو إت، والمكيف يهدر. وجهه كما هو في التسجيلات السابقة، وجه من يريد شيئًا يعرف أنه لن يستطيع الحصول عليه. يتنحنح ثم يقول:

أمام بيت أم غريب مساحة تكفي لركن سيارة.. ثم رصيف.. فيندلق شارع يكفي لمرور سيارتين.. ثم رصيف.. فمساحة أخرى لركن سيارة ثم بيت جدة سعيد جونكر.

لبيت جدة سعيد موقع مميز، في رأس صف بيوت، يفتح على ثلاث واجهات: شارع أم غريب، وسكة تفصله عن بيت أبي راشد الذي يرأس صف بيوت مقابله، والجهة الثالثة تطل على ساحة فرع الجمعية الترابية والواسعة. كان بيتا مهملا، أمامه سيارتا بيك أب، إحداهما خردة، إطاراتها هالكة، نما العشب تحتها من طول وقوفها، وأذكر أنها هكذا منذ ما قبل الغزو، والأخرى قديمة نوعا ما لكنها كانت تعمل، يستعملها مرعي زوج جدة سعيد في مشاويره اليومية. للبيت ثلاثة أبواب، بابان جهة بيت أم غريب، الأول كراج للسيارة لم أره مفتوحًا قط، والآخر باب دخول البيت، لونه الأبيض متسخ، والباب الثالث يفتح على الممر المؤدي إلى ساحة الفرع، ولونه أبيض ومتسخ كذلك، وله حديقة خلفية

كبيرة، تمتد على الساحة الترابية بسور إسمنتي واطئ، تنتصفها شجرة سدر ضخمة. في إحدى زوايا الحديقة حبال ملفوفة على بعضها، وأسلاك كهرباء متشابكة بكومة حديد، وفي زاويتها الأخرى جذوع أشجار كثيرة يابسة، كانت قد اجتثت من المزرعة قبل الغزو.

طوال ثلاثة أسابيع من عودتي، كنا نأخذ من هذه الجذوع ما نشعل به جلستنا وندير به الشاي بيننا. لم أكن أظن أن في البيت أحدًا حتى جاء يوم وجدنا فيه أننا قد استهلكنا كل الجذوع المتوسطة ولم يعد أمامنا غير القطع الكبيرة. ثقل علينا أخفّها فلم نقدر على زحزحته من مكانه. أشار أحد الأصحاب أن نقطعه، فاستعنّا بمعول صدئ وجدناه مع كومة الحديد في زاوية الحديقة. تناوبنا على ضرب الجذع حتى أنهكنا، ولما أوشك ينكسر اهتز الباب الأبيض المتسخ وفتح عن جسد ضخم يصرخ بصوت سوط يجلد الهواء: «عيب عيب، عيب عليكم»، بدا لي جسده لحظتها ماردًا متمرسًا في الإيلام. أخذت طرف ثوبي بفمي وهربت قافزًا فوق السور الواطئ، إلى الجانب الآخر من صف البيوت، تاركا نعلي مكاني. اجتزت عدة سيارات مركونة، ثم توقفت بعدما لاحظت أن أحدًا من الأصدقاء لم يلحق بي. وصل قلبي إلى حلقي. تلصصت من خلف زجاج سيارة لعلهم اختاروا طريقا غير الذي سلكتُه. عدت أبحث عنهم من خلف زجاجات السيارات فرأيتهم ما زالوا في الحديقة كما كانوا. تقدمتُ بحذر محافظا على مسافة كافية للفرار؛ فالجسد الضخم الذي رأيتُه قد يعصرني بيد واحدة إذا أمسكني. بيتهم هذا غير معروف لي. أعرف أنه بيت مهمل وحسب. يسكنه رجل غير مكترث وزوجته التي تبدو أنها أكبر منه؛ ورغم أنني أمرُّ من هنا كل عصر، لم يسبق لي أن رأيت جسدًا ضخمًا يخرج من بابه. مضيت أتقدم على أطراف أصابعي، فرأيتهم واقفين كأن شيئا لم يحدث.

ناداني النمس وهو يفتعل الضحك علي. أفلتُّ ثوبي وأتيتهم أحكُّ رأسي. قال بشار يقذف علي فردة من نعلي:

«جبان، هربت من سعيد جونكر وتركتَ أصدقاءك يا جبان».

انتعلتُها وتقدمت أعرج إلى الفردة الأخرى أمام سور الحديقة:

«أليس صاحب البيت؟».

كانوا قد عادوا لقطع الجذع وكأن ماردًا لم يخرج، وكان الباب الذي خرج منه قد عاد مغلقا.

تلك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها سعيد جونكر؛ ساط قلبي بصوته وكاد يقتلعه بضخامته. سألتهم أين ذهب وأنا أضع نعلي الأخرى في قدمي، لأنني كنت لا أزال خائفا من أن يخرج لنا من باب آخر. لم أصدق أنهم أخافوه ولاذ ببيتهم، كيف لمثل هذا أن يخاف!

أثناء تناوبنا على قطع الجذع أخبروني أنه مجنون، أتى في التحرير ليسكن هو وأخ له معاق مع جدّته.

«لا تغرك ضخامته» قال النمس.

«هو قوي لكنه خوّاف»، أضاف كوكو.

«لوّحْ له بشيء أو اصرخْ بوجهه سيهرب» زاد بشار.

عدنا بالجذع المكسور يحمله ثلاثة منا، وفي بيت أم غريب كسرناه إلى أجزاء متوسطة وأوقدنا منها.

شربت الشاي، وسمعت بشار يسأل أحدهم خارج الغرفة عمّن أزال الغطاء الخشبي الذي وضعوه فوق الحفرة المظلمة، كانت تلك أيضًا أول مرة أسمع فيها عن «عين بغزي». فسألته عنها.

«عين بغزي كان اسم منطقتنا قبل أن يغيروه إلى الفردوس» قال بشار وهو يأخذني إلى الممر الذي يفصل بيت أم غريب عن بيت جارهم الخلفي يقول: «أخبرني أبي أن هذه العين طمرت لما بنوا المنطقة، لكن ربما تكون هذه»، وأشار إلى حفرة مربعة محفوفة بصخور مقدودة بعناية، تتوسط الممر الخلفي للبيت. اقتربت حانيًا ظهري وأضع قدمًا إلى الخلف والأخرى إلى الأمام، فرأيت سوادًا كثيفا وصافيًا كأنه قطعة مربّعة من ليل مظلم:

«لم أر سوادًا كهذا من قبل» قلت لبشار.

كان سوادها يبتلع النظر. دخت. سحبني:
«انتبه لا تقترب أكثر فيدفعك الشيطان داخلها»، وأضاف بصوت يشي بخوفه: «ليس لها قعر».
«لقد دوّختني».
«هكذا فعلت بنا أول مرة، يجب أن نغطيها حتى لا يقع بها أحد».
حملت معه لوحًا خشبيًا كان جزءًا من أثاث أم غريب، وأغلقنا الفوهة السوداء الداكنة، ثم وضعنا حجرين كبيرين على طرفي اللوح.
شعور لم أعتده اكتنفني بقية ذلك اليوم إزاء سواد هذه الحفرة والطريقة الفجة التي اقتحم بها سعيد جونكر خلَدي. مزيج من خوف مرير مشوب بحزن وشفقة طفيفة، معها مقدار بسيط من طعم الغموض الحلو.
سألت أمي عنهم، فقصّت علي أن عجوزًا تسكن في ذلك البيت، مات زوجها ولم ترزق منه إلا بولد واحد، تزوّج ذلك الولد من امرأة أحبّها وترك أمه، فتزوجت هي من رجل أصغر منها اسمه مرعي كان يبيع القماش للنساء في أسواق الجليب، مات ابنها قبل الغزو بحادث سيارة، وفي ثالث شهر للغزو أتتها زوجته بحفيدين أحدهما مجنون والآخر معاق، وضعتهما أمام الباب ومضت ولم تأتِ بعدها حتى الآن. تنهدت أمي بالنهاية وهي تنفض برقعها «الدنيا مصائب، الله يكفينا الشر».
«وعين بغزي، هل سمعتِ عنها؟».
«عين بغزي اسم منطقتنا قبل أن يصبح اسمها الفردوس».
«ما هي وأين هي؟».
«لا أعرف، اسأل أباك عنها».
جلست على عتبة باب الحوش الذي يفتح على الشارع الداخلي. كان غطاء الليل ممدودًا فوق شارعنا الساكن. (يحك أسفل حنكه) لمت نفسي على هربي من سعيد.. كيف سأواجه الأولاد إذا هربت من شخص جبان مثل هذا.. لكن.. أن أخاف من شخص يسكن في شارع من شوارعنا لأمر يشبه كثافة

سواد حفرة بيت أم غريب، ربما هو التغيير الذي جاء بعد الغزو، لن أترك الأمر معلقا بتدخل الأصدقاء، يجب علي اقتحام جونكر هذا وأفعل كما يفعلون معه، سأهوّش له بعصا أو سأرميه بعلبة بيبسي أو حتى لو أركل الأرض أمامه، المهم أن أكون مثل البقية في المهابة.

بعد يومين، فيما كنت ذاهبًا في طريقي إلى فرع الجمعية لأشتري وجبة العصر المعتادة: بيبسي وكاكاو، رأيته يجلس في حديقتهم على جذع شجرة، وبجانبه فتى على كرسي متحرك. مررت بجانبهما لمسافة قريبة أتاحت لي رؤيته عن كثب. ارتبكت، فأبطأت خطاي كي لا يظنّ أنني خائف منه. بدا لي أنه في الثامنة عشرة من عمره، ضخم، وجهه سميك. لما اقتربت أكثر اتضحت لي عيناه الضيقتان تبحلقان بي، وشفتاه الرفيعتان المطبقتان على الدوام. لم يكن قبيحًا، وإنما من ذلك النوع الذي يصلح مهرجًا جلفا، ويشبه جونكر الذي في الرسوم، وكان الصبي الذي معه يبدو كطفل سمين داكن اللون ليس له رقبة.

عبرتهم ونظراتي تقيس المسافة بيننا، خوفا من أن ينتابه شيء من الجنون وينقضّ علي، وعندها قد يلتهمني إذا أراد، فسرّعت خطاي بعد أن تجاوزت حدود الحديقة.

قلت في نفسي: «في المرة القادمة إذا رأيتُه ينظر إليّ سأصرخ: لماذا تنظر يا أحمق؟ لن أترك الخوف يهزني».

وفي المرات القادمة، عبرت وحدي، وكنت أنظر إلى الأمام كي لا أراه وهو ينظر إلي.

تتحرك الشاشة، ثم تثبت على وجهه وهو يضطجع على الأريكة. ثم يغلق الكاميرا.

التسجيل السابع

الموت

يبحلق بالكاميرا ثم يغمض عينه، خمس ثوان، يبتسم
كأنما يرى خلف جفنيه شيئا:

أراني الآن.. مع مجموعة أولاد، نحتطب من الجذوع التي في حديقة جدة سعيد. (يصمت كما لو أنه ينظر إلى مشهد يتحرك خلف جفنيه) أعتاد على خروج سعيد إلينا بصرخته: «عيب عيب، عيب عليكم» فأرشقه معهم بحجر أو ألوّح أمامه بعصا ليعود مغلقا الباب خلفه. كنت أبالغ في صراخي عليه أمامهم، وفي رميي للحجارة التي توشك تصيبه. ويصدف أن نأتي الحديقة وسعيد جالس مع أخيه فيها، ما إن يرنا نقترب من السور، حتى يهرع بأخيه إلى الداخل.

يفتح عينيه وينظر إلى ما وراء الكاميرا:

مرة انتبه سعيد لاقترابنا متأخرًا، فحمل أخاه مسرعًا ونسي كرسيه المتحرك، فأشرت إليهم أن نستخدم الكرسي في نقل الجذوع. حملنا عليه جذعًا كبيرًا بسهولة، وكسرناه في بيت أم غريب. لمّا لمسنا فائدة الكرسي بنقل الجذوع، اقترحت عليهم أن نحتفظ به للمرات القادمة، وليتدبر جونكر أمر نقل أخيه. في عصر الغد مررتُ من جانب الحديقة ذاهباً إلى فرع الجمعية، لقيت جونكر جالسًا كما كل مرة على الجذوع، لكن هذه المرة كان يُجلس أخاه على الأرض،

تحاشيتُه كما كلّ مرة أتظاهر بالنظر إلى البعيد، مواريأ حذري بتصنّع اللامبالاة، حتى سمعت صوته يناديني:

«صبي صبي».

فلت قلبي، فركضت نبضاته وأكملتُ مادًا خطواتي كأنني لم أسمعه.

«أنت أنت، صبي». أصر سعيد.

فتجاهلتُه وتابعت إلى أن سمعت خشخشة تقترب، فالتفتُّ فإذا به خلفي مباشرة. اضطرب قلبي، أول مرة أراه قريبًا بهذا الشكل الذي يكشف وعورة وجهه، فأوشكت أهرب لولا أنني تماسكت شادًا على قلبي بتذكّر كيف كان يلوذ بالبيت خوفا منّا.

«ماذا تريد؟» صرخت بنبرة عدائية يقف خلفها أمل الاستنجاد بأحد يسمعها. توجّهت إليه بكل جسمي أتظاهر أنني على أتمّ الاستعداد للقفز عليه، فتقهقر خطوتين، ثم صرختُ بصوت أعلى:

«انقلع من أمامي» وتابعت طريقي قبل أن ينفرط ثباتي أمامه وأهرب. ما إن خطوت قليلا حتى سمعت صوته من خلفي يميل للخضوع:

«أريد كرسي أخي، كرسي أخي أريده، حرام حرام، أنتم أخذتموه، سعد ليس لديه كرسي، انظر، انظر سعد جالسٌ على الأرض».

هدأت. يريد كرسي أخيه. وقفت أنظر إلى سعد حتى انكسر قلبي لمنظره وهو مُقعٍ على الأرض مستندًا بظهره إلى صخرة عليها وسادة، وراح نبض قلبي يهرول متنازلا عن ركضه. شعرت بأنني ارتكبت ذنبًا كبيرًا في أخذ كرسيّه، ملأت صدري بالهواء، وأفرغته، ثم جعل نبضي يمشي طبيعيًا.

«تجده في بيت أم غريب خلف الباب» أشرت إلى باب أم غريب: «خذه الآن قبل أن يأتوا».

«لا لا». اضطرب صوته. «أرجوك لا.. بيت أم غريب لا، لن أدخله، أنت، أنت أخرجه فقط من الباب».

«هل أشتغل عند أهلك أنا؟ تريد كرسي أخيك اذهب وخذه».

«لا لا، لن أدخل، بيت أم غريب لا».
«إذن لن تحصل عليه».
أكملت طريقي فتبعني يقول:
«الموت في بيت أم غريب، الموت ما زال في الداخل».
توقفت:
«ماذا تقول؟».
«الموت، الموت، في بيت أم غريب، لن أدخله».
«عماذا تتحدث؟».
«أرجوك أخرج لي الكرسي، حرام أخي سعد ليس مرتاحًا، حرام، أرجوك».
غلبني وجهه المشفق على أخيه، فقلت بنبرة أردتُها غير مبالية فخرجَتْ رغمًا عني متعاطفة:
«انتظرني أعُدْ من الفرع وسأخرجه لك».
اشتريتُ من الفرع زجاجة بيبسي وكاكاو سنيكرز وعلك أبو سهم، وعدت إلى بيت أم غريب.
وجدت بعض الرفاق يقومون بترتيب الغرفة من أجل ضيف دعاه سعد كوكو.
عثرت على الكرسي خلف باب البيت الداخلي.
تساءل الرفاق إلى أين سآخذ الكرسي وأنا أخرجه من الباب:
«جدته قالت إذا لم تعيدوا الكرسي فسأبلغ الشرطة».
تأفف أحدهم: «العن أبوها العجوز، متى تموت؟».
وجدت جونكر أمام رصيف بيتهم ينتظرني، جاء قافزًا بخطوتين رجّتا الأرض، التقط الكرسي بخفّة وعاد بخطوتين إلى رصيف بيتهم.
رتّبنا الغرفة، وأعددنا إبريق الشاي، وحين غربت الشمس، دخل علينا «وليد أبو سمرة» الضيف. ولد أسمر، في مثل سننا، زاده طوله الفارع نحولا. جاء وبصحبته عود يغطيه بشرشف.
أغلقنا باب الغرفة، قدمنا له الشاي، وتحدثوا قليلا عن ولد تشاجر مع مدرس

في المدرسة، حتى انتهت المساجد من صلاة المغرب، فوقف كوكو بزاوية الغرفة، مقربًا عصا مكنسة إلى فمه ليقدم أبا سمرة:

«أعزائي الجماهير، نقدم لكم الآن الفنان القدير» ورفع الصوت متحمسًا: «وليييد أبووو سمراااه» ضجّت الغرفة بالتصفيق والتصفير، رفع أبو سمرة يديه محييًا الجمهور، وتابع كوكو:

«وليد أبو سمرة من أبناء قطعتنا، صوته جميل وعزفه أيضًا جميل، لذلك سوف نستمتع في سهرتنا الليلة بمجموعة الأغاني التي سوف يختارها الجمهور، وستشاركه الرقاصة عزوزة العوراء» رماه عزوز بعلبة كبريت يقول: «أمك هي الرقاصة كوكو». تابع كوكو بين ضحكاتنا:

«في البداية سيغنّي الأغنية الشهيرة: يا ناس حبيت واحد».

صفقنا وصفرنا.

دوزن أبو سمرة عوده في زاوية قليلا، ثم عزف، وغنّى: (يا ناس حبيت واحد.. أثر المحبة صعيبة.. أثر المحبة تبكي، القلب لازم يجيبه..) ورددوا: «(القلب لازم يجيبه).

رقصنا بين ثنايا الألحان، كنت أهتز وأتمايل بجسمي فقط، حتى توقفنا عند أذان العشاء. شربنا الشاي، ثم عزف وليد مرة أغنية راقصة لا تحضرني الآن، شاركه فيها عزوز العور يدق الباب بإيقاع سريع، كنا نقفز فيها يمينا وشمالا ويطيح بعضنا على بعضنا الآخر حتى سقطنا من التعب والضحك.

راحوا يتناقلون آخر أخبار سر الليل حيث جرت مطاردة قبل أمس استطاع فيها أن يُدخِل دورية في عمود إنارة.

«أين يسكن سر الليل هذا؟» سأل أبو سمرة.

«سمعت أنه من سكّان العارضية» أجابه بشار «أخبرني أحد أبناء صفي أن اسمه فايز».

«لا لا» تدخّل النمس: «لا أحد يعرف اسمه ولا أين يسكن، كلهم يكذبون».

شوينا بطاطا تلك الليلة، وتفرّقنا في ساعة متأخرة عن المعتاد.

يضع جانب رأسه على ذراع الأريكة، ينضغط خده الأيمن،
يبدو شكله مضحكا، ينظر إلى الشاشة ويتابع:

وجدنا جذع شجرة، في اليوم التالي، من تلك النوعية التي في حديقة بيت جونكر، موضوعًا أمام باب بيت أم غريب، ومكسّرًا إلى قطع متوسطة تناسب الموقد. اتفقنا على أن هذا الأمر لا يفعله سوى جونكر، واختلفنا حول تفسيره، هم يقولون إنه يريد اتقاء شرّنا كي لا نجد سببًا يدعونا إلى دخول حديقتهم، وفسّرتُه بأنه ممتنٌّ لي لأنني أعدت له الكرسي.

حملنا الحطب بسهولة، وأشعلنا النار، وحدّثتهم عمّا قال سعيد أنه رآه في بيت أم غريب، ضحكوا، وانقلب سالم النمس على ظهره في الحوش مبالغة بالضحك. قال سعد كوكو: «كان ذاك النمس».

أخبروني أنهم بعدما اتخذوا من بيت أم غريب مكانا لهم كثر الصبية المتطفلون عندهم، يجيئون من شوارع خلفنا يقودهم ولد اسمه عباس الإيراني، يشعلون النار ويعدّون الشاي دون استئذان، حتى ضاقوا بهم وأخبرهم كوكو ألا يدخل أحد هنا إلا بإذنهم، بعد ذلك ترك عباس وأصدقاؤه المكان فبدأت الأوساخ تتكاثر كل يوم، أكياس قمامة كانت تلقى في الليل، والإبريق يختفي تلو الإبريق، والفناجين كانت تكسر، فعرفوا أن الإيراني «وربعه» وراء هذا، فتضاربوا معهم أكثر من مرة، وفي كل مرة يتضاربون معهم كانت القمامة تزداد في اليوم التالي، فجاءهم النمس بحلٍّ ينهي المشكلة: «نختبئ في الليل داخل بيت أم غريب فإذا دخلوا نمثّل أننا جنّ». أعجبتهم الفكرة، فذهبوا عصر أحد الأيام وتضاربوا مع عباس الإيراني وأبناء شارعهم، ومع أولى نفثات الليل لظلامه اختبأوا في البيت بعدما ارتدى النمس قماش ستارة طويلا من الدانتيل انتزعه من أحد نوافذ بيت أم غريب، ثم بعد صلاة العشاء بقليل انسلّ ثلاثة صبية إلى الداخل معهم أكياس قمامة. تركهم النمس يتوغلون في الداخل، ثم خرج من إحدى نوافذ الدور الأول التي تطل على الحوش صاعدًا فوق أكتاف الأصدقاء، وصرخ

متحشرجاً بصوته: «ححححححححححح». هلع الصبية وهربوا يصيحون.
«صدم عباس الإيراني الباب فوقع وخرج يحبو» قال سالم وهو يكركر.
فسألته: «كيف رآك جونكر؟».
«لما هرب الصبية ذهبنا نشاهدهم من نافذة الغرفة الأخرى التي تطل على الشارع، وهناك رأيت جونكر، فقلت ارفعوني لأرعبه أيضًا».
أضاف كوكو: «لما رآنا توقف قليلا ينظر، ثم نطح هو الآخر الجدار بجانب الباب وكاد يهدّه».
ضحكنا.

ترتبك الشاشة، يعود ليضطجع على ظهره، قفاه على ذراع الأريكة:

صادفت حسن ابن جارنا يرتدي لباس الجيش يفتح باب سيارته الجديدة لما عدت إلى البيت، كان قد تخرّج للتو من الجيش برتبة وكيل عريف، واشترى سيارة حديثة الطراز، أخذ لونها الأحمر يبرق أمام بيتهم عندما، وراح لون السقف المتحرك البيج يتوهج تحت أشعّة شمس العصر. لم أكن قد رأيت مثلها من قبل، فسلمت عليه.
كانت بشرته ممسوحة بالشمس، حليق الرأس، ونحيلا على غير العادة. سألني: «أين صقر؟».
«يمكن أنه يذاكر».
«لكن فاتتكم الدراسة!».
«يحضر نفسه للرابع الثانوي، يريد نسبة عالية».
التفت حول سيارته منبهر بشكلها الرياضي وسقفها القابل للطي. سألته عن اسمها. فقال اسمها «موستنج».
استفسرت منه وأنا أنظر إلى التابلون: «هل هي أسرع من سيارة مايكل؟».

قال هي كذلك لولا أنه متأخر على مناوبته لأخذني بلفّة في قطعتنا، ووعدني بأنه سيفعل وقتما يكون فارغًا، ثم حمّلني السلام لأبي.

وما إن ابتعدت عنه حتى أدار المفتاح وهدرت الماكينة بصوت يثير الحماس.

التسجيل الثامن

أيّام البرد

كل شيء كما كان، عدا أنه يمسك النقال بيده اليسرى:

لم يكن هناك في الصباح أحد في الشوارع غيري وغير سعيد جونكر وأخيه. أمرُّ أثناء تجوالي بجانب حديقتهم، وأشاهده يتابع عصافير فوق شجرة السدرة، أو يضع بعضًا من الطعام للقطط في زاوية الحديقة، أو يعدل حاويات القمامة أمام البيوت في الشارع. كان دائمًا يفعل شيئا ما، حتى إذا رآني وقف جامدًا يتطلع بي، لأعبره إلى الفرع وأختفي عنه، فيعاود عمله؛ وعندما أقفل عائدًا من السكة يسكن مكانه يبحلق بي بنظرات مترقبة، كمن ينتظرني أتكلم، فأتجاوزه إلى بيتنا أو بيت أم غريب، أرتشف مشروبي الغازي وأقضم الكاكاو، دون أن أشعره أن عيني تدور حولهما، فأراقبهما من بعيد ماذا يفعلان، متجمدًا منتظرًا حتى تنقضي صلاة الظهر لأذهب إلى متوسطة الفردوس.

كان سعد أخو سعيد معاقا لا يتحرك ولا يتكلم، فقط ابتسامة واهنة لسعيد من حين لآخر يقول فيها إنه على ما يرام، أو تكشيرة معها فحيح يخبره أنه جائع أو يريد الحمّام. يُمضيان أغلب الصباح في الحديقة. تخرج جدتهما بصحن فيه طعام تصلني رائحته الشهية، أو بقنينة فيها عصير تحملها الخادمة الهندية. الجدة ممتلئة ومنحنية، لا ترتدي برقعًا مثل أمهاتنا، تلفُّ رأسها بحجاب أسود، وعلى صدغيها تجاعيد كَلِحاء شجرة.

أحيانا، عندما تجلس الخادمة معهما، يترك سعيد أخاه لها ويلف الشارع،

ليعدل الحاويات، فيمرّ بجانبي وأنا جالس على أحد الأرصفة، ينظر إليّ بملامح جامدة لا تقول شيئا.
تجرّأت مرة وطلبتُ منه أن يزيد كمية الحطب هذا اليوم لأننا سنشوي دجاجًا. هزّ رأسه، ووجهه الصامت كما هو، ومضى يشقّ بجذعه الصلب عباب شوارعنا، وعندما جاء العصر وجدنا قطع الجذع أمام باب بيت أم غريب، مرصوفة بجانب بعضها، جاهزة للإيقاد. وغالباً كنت أتظاهر بأنني لا أراه، ولم يكن هذا يغيّر من بحلقته الجافة تجاهي.

جاءنا أسبوع لصباحاته الشتوية برد قارس، فاضطررت أن أرتدي فروة أخي صقر التي كانت أطول مني، ويصعب علي المشي بها، أجوب الشوارع منكمشا بداخلها. وكان جونكر يجوب الشوارع بنفس ثوبه قصير الأكمام وكأن الجو لا يخصه. كان يبهرني أحيانا باستدراجه اللطيف للقطط التي كانت تفرّ من ظلالنا، يُقبّل الهواء لها ماداً يده بشيء أحسبه لحم دجاجة مطبوخة، تقترب منه القطط بثقة، ثم يسقط القطعة فتلقمها وتعود للوراء خطوات تأكلها تحت نظراته التي لا أشك أنها نظرات مستمتعة، ويتسلق بخفة شجرة السدر في حديقة جدته وينبش الأعشاش التي فيها لينزل في يده عصفور صغير يداعب به خد أخيه قليلا ثم يعيده مكانه.
مرةً رأيته يحمل أخاه بين يديه ويسير به إلى بيت جارنا أبي حامد ليريه سيارة حسن. جلست أمام بيتنا على الرصيف أراقب ماذا يفعلان، قرب سعيدٌ أخاه من زجاج الموستنج ليريه مقصورتها، ثم أقعده على مقدمتها. عندها رأيت على وجه سعد ابتسامة فاترة كانت كل ما يستطيع فعله للتعبير عن مدى سعادته، مطلقا منها سيلا من اللعاب مسحه سعيد بكمّه، ورأيت السرور يلين وجه سعيد الجلمودي وتنبجس من ملامحه ابتسامة. مرّا بجانبي في طريق العودة إلى بيت جدتهما، بحلق بي سعيد، فهممت بتجريب نبرتي الشريرة لأقول له: انقلع من هنا وإلا صفعتك. فتوقف وسألني:

«هذه، ما اسم هذه السيارة؟»، نظرت إلى أخيه فاستولت على صدري شفقة بدّدت الشر من صوتي: «موستنج».

«يبدو أنها سريعة سريعة» قال يريد أن يتوسع معي بالموضوع.

«طيارة».

«أففففف طيارة!.. تطير تطير.. هل تطير؟» سأل منبهرًا.

«لا، أقصد أنها سريعة جدًا».

«أوه، سريعة جدًا.. نعم.. أخي سعد يحبها».

صمتُّ لأنهي معه الحوار، فقال: «أتريدون حطبًا، حطبًا اليوم».

«نعم».

«نفس السابقة الكمية السابقة».

«نعم».

«هيا، سأضعه بعد قليل سأضعه عند الباب».

«لماذا لا تضعه في الداخل؟».

ارتفع حاجباه: «في الداخل لا لا، أنا لا أدخل بيت أم غريب، الموت هناك».

أشفقت عليه من انقباض كاد يفتّت وجهه المتصلب عندما ذكر «الموت»، وحاولت أن أهوّن عليه:

«لا يوجد هناك الشيء الذي تدعوه بالموت».

حمل أخاه على اليد الأخرى: «بلى يوجد».

ضحكت: «لا تخف، ذاك سالم النمس الذي خرج لك من النافذة، تعرفه، الولد القصير الذي معنا، سنّه الأمامية مكسورة، كان يرتدي ستارة».

«أوه، سالم كان، آه، حسبته الموت».

«ولماذا الموت تحديدًا؟».

«لأن..» التفت يمينا وشمالا وتابع: «رأيت خمسة رجال، رجال دخلوا بيت أم غريب دخلوا ولم يخرجوا منه، لحد الآن، خمسة رجال».

اقشعرّ جلدي: «كيـ.. كيف؟ مهلا» تنحنحت أنظم أنفاسي: «كيف حدث

هذا؟».
«لا أعرف، والله، لا أعرف هذا كل ما أعرف». وأعطاني ظهره ومضى باتجاه شارعهم بخطى سريعة.
وقفت وتقدمت حتى صرت في منتصف الشارع، ثم رفعت صوتي بنبرة شريرة: «انقلع من هنا وإلا صفعتك».

ينقل النقال إلى يده اليمنى:

اضطرني قلقي ممّا قاله سعيد إلى التخلف عن موعد خروج المدرسة. أعرف أنني إذا حلّ الليل فلن أنام، سأستمر أتخيل صورة خمسة رجال يقضمهم مخلوق ضخم له عدة رؤوس، الشكل الذي تخيلته للعفريت الذي يقال إن أم غريب كانت تربّيه في بيتها، ربما هو من فعل بهم هذا.
شغلت الفيديو؛ أحاول، طوال ثلاث حلقات من مسلسل جريندايزر، أن أعيد صف شجاعتي المتبعثرة، وأستمدّ القوة من أغنية المقدمة الحماسية، متخيلا خمسة رجال، يختفون أمامي في جوف جنيّ عملاق لونه أسود يقع تحت أسلحتي. رفعت صوتي مع دايسكي: الويل للغزاة.
صليت الظهر في المسجد، وتأخرت حتى خرج المصلون ولم يبق إلا أنا والشيخ صابر ورجل كان يقرأ القرآن في الخلف. جلست على ركبتيّ أمام الشيخ، وسألته: «شيخ هل يستطيع العفريت أن يأكل الإنسان؟». ضحك الشيخ: «ألا تكفّ عن أسئلتك الغريبة؟». «ألا يوجد عفاريت؟». «بلى يوجد، لكن ألا تسأل عن أجر الصلاة في الجماعة، أو عن فضل أذكار الصباح والمساء أو عن أي شيء نافع يا ولدي؟». «جاوبني يا شيخ». «إذا وعدتني أن تصلي الفجر معنا، أجاوبك». «أعدك» قلت، وأكملت في نفسي: أن أشرب كأس ماء.
«حسناً» قال الشيخ: «الجنّ موجود بيننا، منهم المؤمن ومنهم غير المؤمن، وهم لا يضرّون ولا ينفعون، وقد يراهم الإنسان في أشكال معروفة، كالجراد،

والقطط، والكلاب، وربما البشر، لكن لم يذكر أن رأى أحدهم شكل الجن الحقيقي، وأعيد قولي يا فهد، هم لا ينفعون ولا يضرون، هاه، لا تخف وسمِّ الله، والآن هل اكتفيت بالإجابة؟».

«نعم».

«تعال الآن وجاوبني، لماذا تسأل عن الجن؟».

«ولد أعرفه قال إنه، قال إنه رآه».

«هذا كلام صبيان، لا تخف، وحافظ على أذكار الصباح والمساء وسيحميك الله». وقبل أن أخرج أعطاني ورقة مستطيلة معنونة بـ «أذكار الصباح والمساء» كتب عليها بعض الأدعية، وضعتها بجانب أباريق الشاي في ديوانيتنا.

نمت متأخرًا تلك الليلة، منتبهًا إلى تقلب أخي صقر على فراشه، وإلى الخزانة والشبّاك، أمسك بيدي شوكة طعام.

التسجيل التاسع

عصافير السدرة

على فراشه، متغطيًا بلحاف أخضر، النور خافت بالكاد
يكشف ملامحه:

أخبرت الأصدقاء عمّا قاله سعيد، بعضهم ضحك وبعضهم أفسد الخوف ضحكته.

«مجنون من يصدّق مجنونًا» قال أحدهم يتهكم. قلت له: «لا يبدو لي أنه مجنون، قد يكون جونكر غبيًا أو أحمق، لكنه ليس مجنونا».

تضطرب الشاشة، ثم تعود وهو مسند ظهره على الوسادة
في سريره:

فتر تفكيري في صحة كلام جونكر عن الشيء بعد خمسة أيام. خفّت حدة تخيلاتي لشكل ذلك الجنّي، موجهًا عقلي إلى طرق الشرّ التي أريد أن أشتهر بها، لكنه ظل يطرأ عليّ بين فينة وأخرى.

عدت للخروج عند التاسعة صباحًا والعودة مع خروج المدارس، كي أتأكد أن لا مشاجرة تندلع من دوني؛ وكان يصدف أحيانا مشاجرات هامشية، أستغلّها

لمحاولة إثبات أنني أمتلك نبوغًا خاصًا بالأذى، مستمدًا الإرادة من التناغم الذي أنتجه الملل ورغبتي بالتميّز، كأنْ أمسك قلمًا وأهوّش به على الصبي الذي وقع تحتنا وأصرخ: «ألعن أبوك».. «يا بن الكلب».. «ستندم، ستندم».
ينتهي الشجار، فأجيب على من ينتقد إحجامي عن الضرب: «القلم حاد، خشيت أن ينغرس في رأسه فيموت الولد، لكن سترى في المرة القادمة ماذا سأفعل».

صنعتُ لي «نباطة» لأوسع خناق الملل عن صدري، أصطاد بها العصافير وألـيّن بها صلابة وحدة الصباح. صرت أقضي الوقت باحثاً تحت الأشجار عن عصفور. متنقلا من حديقة إلى أخرى، فإذا وجدت، سددت إليه مغمضًا عينا واحدة، مركزًا عليه بالأخرى بانتباه جمّ، وفي اللحظة التي أطمئن أنه في مرماي أفلت الرقعة فيتطاير الريش في الهواء، ثم يسقط لا بد عصفورًا ميتا، أو جريحًا أجري خلفه حتى أمسكه. كنت بارعًا في هذا، وقلّما تخطئ عيني. أجمع العصافير والحمام المدني في كيس، فآتي بها عصرًا إلى الأصدقاء في بيت أم غريب، ننتفها ونشويها ونأكلها.
كنت أشاهد سعيد ينظر إليّ من البعيد، وأنا أحمل كيس الصيد، وكان بودي أن أصحبَه، أو أريَه عدد العصافير، إلا أن نظرته الجدارية الخالية من التعبير لم تكن تشجّعني.
حتى نضبتِ السماء مرّة من الطيور، فاضطررت للجوء إلى سدرة حديقة جدّة سعيد لأصطاد الطيور التي في الأعشاش، لم أجد أحدًا في الحديقة، وقفت تحت السدرة أبحث عن حركة متوترة تتلاعب بين الأغصان الكثيفة، ونباطتي مشدودة بيدي وتضم في رقعتها حجرا تأهبًا لأي حركة، فرأيت واحدًا يقفز بين الأغصان، أغمضت عيني وصوّبت إليه، وفي اللحظة التي أوشكت بها إفلات الرقعة سمعت عبارة سعيد الشهيرة: «عيب عيب، عيب عليك».
حوّلت نظري إلى الباب، وجدته واقفا على العتبة ووجهه جامد مثل جدار.

«انقلع وإلا فقأت عينك» قلت، وعدتُ أبحث عن العصفور حتى وجدته مرة أخرى يتحرك من غصن إلى آخر، سدّدت إليه حتى اطمأننت إلى أنه في مرماي، فتحرك شيء ما بقربي، شيء ضخم، أمسكني من إبطي، فابتعدتِ الأرض عني، ثم شعرت بخفّة، بعدها لقيت نفسي أزحف خارج سور الحديقة. (تميل زاوية فمه اليمنى بابتسامة) كان ذلك الشيء الصلب يد سعيد. ذُهلت: إنه يضرب.

كنت ممددًا على الأرض منقطع النسم، وجانبي الأيمن يؤلمني، فيما جونكر يقف داخل حدود مزرعتهم بوجه صلد كأنه قُدّ للتو من قلب جبل في صحراء نائية. «ضربني سعيد جونكر الذي يفر خوفا من أولاد شارعنا».. آلمتني هذه الجملة التي صفعني بها الشعور بالإهانة. هذا يعني أنه لا يخاف مني ويضعني بمكانة أقل من البقية. ماذا لو عرف أحد بأنه فعل هذا بي؟ تخيلت صوت النمس وأنا أجلس يقول: «يا مَسْخرة سعيد». كانت نباطتي على حافة السور الإسمنتي للحديقة. حبوت (يحكّ أنفه) وأخذتُها ثم وقفت أعرج باحثا عن حصاة مناسبة لشج رأسه فيما كان صوت ثلاثة من الأصدقاء يضحكون في رأسي على «يا مَسْخرة سعيد». فجأة، بشكل لا أعرف كيف حدث، صار جونكر بجانبي (تميل زاوية فمه اليسرى وتكتمل الابتسامة) وبسرعة اتّسمت بالخفة أخذ نباطتي مني، ثم بحركة واحدة أتلفها ممزقا سيورها، وهرب إلى بيتهم بعدما رماها تحتي، تاركا عيون الأصدقاء في داخلي تنتظر ردي على ما جرى.

لم يغلق جونكر الباب، (يقلص عينه اليمنى ويرفع حاجبه الأيسر) ترك انفراجة ضيّقة يبين منها ربع وجهه الجامد ليراني. (يعود وجهه عاديًا) وجدت نباطتي ممزقة مثلي تحت قدمي، وكنت ما زالت مجعّدًا لا أعرف ماذا أفعل.. هل أنا مَسْخرة إلى هذا الحد الذي يجعل جونكر يتجرأ به علي! لن يطرق أحدهم بابي.. كيف سأصبح الرقم واحد في الشجارات؟

تمكّنت بعد لحظات من إقناع نفسي بأن لا شيء أستطيع فعله الآن، كانت عينه تنظر إليّ من خلف الباب. «ألعن أبوك جونكر» قلت وأنا ألتقط نباطتي، وأضفت: «سأهدم وجهك الوسخ» صرخت حانقا عند كلمة «الوسخ».

يتزلق إلى الأسفل، تضطرب الشاشة، فتثبت على وجهه مضطجعًا على الوسادة:

انتعشت الصباحات بعد ذلك بفعل نار رغبة انتقامي من سعيد، والتي كنت أؤججها بتذكُّر جرأة هذا الوضيع - الذي يهرب من أدنى تلويحة - عليّ. وجدت فيه بيئة خصبة لتخيلاتي حول شكل الشر الذي أريد أن آتيه، سأضربه بعصا على رأسه حتى أدميه، إذا سقط فسأركل رأسه، سأمسك بيدي الأخرى قلمًا أغرسه في كتفه.. لكن جسده منعني من أخذ تخيلاتي على محمل المحاولة.. سيأخذ العصا مني ويكسرها، لن يسقط على الأرض، القلم لن يؤلمه، ربما سيمزقني. دعاني كل هذا لإضافة سيورٍ أخرى إلى نباطتي لأبقى بعيدًا عنه، ولتكون ضربتها أقوى وأشد إيلامًا.

قمت أتربص به من داخل بيت أم غريب من صبيحة اليوم التالي. أتحين وقت خروجه المعتاد عند حدود التاسعة. انتظرته طويلا أول يوم فلم يخرج. درت الشوارع وأتيت أخاتل من جهة الساحة، فلم أرَ له أثرًا. أتردد برأسي من خلف زجاج السيارات كل نصف ساعة، فأجد الحديقة ما زالت خالية والباب مغلقا. إلى أن يرتفع الأذان فأذهب إلى المدرسة. في العصر لا أجده أيضًا. اليوم التالي كان بالمثل، حديقة خالية، باب مغلق، نار تضطرم.

كان أذكى مما كنت أعتقد، وأنبه. لا أعرف هل يكتشف قدومي ويأخذ أخاه إلى الداخل قبل أن آتي، أو أنه غيَّر موعد خروجه، أو لعله احتاط ولم يعد يخرج نهائيًا.

يتثاءب متأوِّهًا، يتلمظ، يبتلع ريقه، ويتابع:

مرت ثلاثة أيام من التربص، خلف مقدمات السيارات والتلصص كل ظهيرة وراء أعمدة الإنارة البعيدة، أشاهد حديقتهم الخالية يتسع فيها الفراغ؛ وينقضي

وقت الصباح على جناح طائر، وتصفرّ شمس الظهيرة في سماء تشبه ريشة زرقاء مبتلة، ويذهب العصر كما ذهب الصباح والظهيرة، دون الظفر برؤية وجهه الصلد. حتى تركت الاختباء في اليوم الرابع وقمت أجوس خلال حديقتهم لأتفحص الأمر عن قرب. فلاحظت أن الأعشاش التي كانت في السدرة اختفت، وانتبهت إلى أن القطط لم تعد تستلقي بكسل عند سور الحديقة كالعادة، والغريب أن كمية الجذوع ما زالت تتراكم أمام بيت أم غريب دون أن نطلبها منه حتى أصبحت لدينا كومة يمكن أن تكفينا شهرًا. سألت نفسي كيف يضعها دون أن أراه! لا بد أن الخطأ مني. بدّلتُ خطتي وأسلوبي في الترصد.. لن أترصده غدًا بوقت مبكر، سأترك ساعات الصباح تحبو على صدري، وآتي من مكان آخر.

ويا لَلحظ، ما إن غيّرت الخطة في اليوم الخامس، وأتيت الشارع من الجهة الأخرى، قبل صلاة الظهر بقليل، حتى رأيته يطعم قطة عند زاوية حديقتهم بقرب الرصيف. شعرت أن دخانا يخرج من أنفاسي.. خاتلته من بعيد متسترًا بالسيارات المركونة على جانبي الشارع، حتى خفت الاقتراب أكثر فينتبه لي ويهرب.. جلست على ركبتي خلف مؤخرة إحدى السيارات.. في اللحظة التي مد صحنا لقطّة أخرى كانت تمشي إليه بهدوء، ارتأيت أنها الفرصة المناسبة لإطفاء ناري.. شددت نباطتي بأقوى ما استطعت إلى أن سمعت أنين سيورها.. ثم أفلتُّ الرقعة.. فأزّ الحجر قبل أن يصيب صدره.. ارتجّ جسده فسقط على ظهره.. صرخة ألم شقّت الهواء.. سمعتُ صوت انسكاب ماء بارد على جمر في داخلي.. أخرجت نفسي متباهيًا تحت لحن أغنية جريندايزر إلى منتصف الشارع لأريه هيئتي الشريرة. لكن (ينعطف صوته) خطأٌ ما حدث.. توقفت الأغنية الحماسية، لما شاهدته يبكي متألمًا بصوت عالٍ، وارتفعت الموسيقى التي تظهر مع القائد جاندال الشرير؛ موسيقى أكرهها، اكتشفت أنني غاليت في انتقامي. فظيعًا كان بكاؤه. لم أشاهد أحدًا يبكي مثله في مسلسلاتي، كما أوجعني فحيح أخيه أيضًا.

كان وجهه جامدًا حتى وهو يبكي، دون أن تعتريه التقلصات التي تعتري الوجه الباكي. بدت لي فكرة الشر سيئة ولا تليق بأبطالي في المسلسلات الكرتونية.

خرجت الخادمة فاختبأتُ خلف سيارة. سمعتُها تسأله عما به، ويستمر هو في البكاء. أبصرتهم من تحت إطارات السيارة، خرجت جدّته مرتاعة تسأله عن السبب فيما بكاؤه متواصل. اختضّ قلبي عند رؤية الجدة.. إذا أخبرهما فسيذهبون يشتكون لأبي، وعندها سأُجلد بقوة. تعالى صوت بكائه مختلطا بأنين. لم أحتمل المكث، تسلّلت على أطراف أصابعي، منحنيًا، من وراء السيارات حتى أصبحت بعيدًا عنهم، ولذتُ بالشارع التالي. تردد صوت دايسكي في رأسي:

«يجب أن نضحّي إذا أردنا أن ننقذ العالم».

التسجيل العاشر

غلطة الحمامة

جالساً على الأريكة، يلبس فانيلة بيضاء، أثر النوم في
وجهه، يمضغ شيئا ما ويبتلعه:

توقفت عن الخروج ثلاثة أيام، مكتفيًا بالجلوس أمام باب بيتنا فقط.
طوال أول يومين كنت أتحسس من طَرق الباب، خشيت أن يأتي أحد يشتكي إلى أبي. خبأت النباطة خلف شجرة ياسمين في حديقتنا. التزمت بصلاة الظهر والعصر والمغرب لأعطي أبي انطباعًا بأنني ولد طيب ولا يمكن أن أؤذي أحدًا. وفي المجلس نشطتُ في صبّ القهوة وفي تصنّع الاهتمام بأحاديث الرجال. لم أذهب لبيت أم غريب رغم إلحاح كوكو علي؛ خفت أن يراني جونكر ويتذكر، بعد أن أنساه جنونه، أنني أنا الفاعل؛ فيخبر جدته وتذهب صلواتي في المسجد ونشاطي في المجلس سدى. كان مشهد بكائه يقضّ عليّ صفائي، لمت نفسي لأنني شددت النباطة بتلك القوة التي يمكنها أن تطيح بدُب. لو أنني خففت منها وأصبت فخذه أو مؤخرته لأُشعره بأنني لست سهلا كما يعتقد، وأنني أمتلك قلبًا قاسيًا.. لكن (يرفع حاجبيه ويمطّ شفتيه ثم ينزلهما) الأمر جرى وانتهى، ويجب عليّ احتمال عذابات طرقات بابنا، والتمعّن في وجه أبي كلّ مرة لأفسّر هل أخبروه أم لا.
ركد صخب الخوف في قلبي مع مرور اليوم الثالث، آخذا معه تشوش أفكاري. فسّرت الأمر على وجهين: إما أنه لم يرَني فلم يعرف مَن الذي أصابه، وإما أنه

خاف من عواقب الشكوى واختار كتمان الأمر على عودتي للانتقام مرة أخرى. سيمرّ الشر على خير.

خرجتُ صبيحة اليوم الرابع مذخّرًا نباطتي بحصاة شريرة أصدّ بها أي خطر قد يأتي. مررت بجانب حديقتهم ورأيته يتسلق الشجرة وفي يده عشّ عصافير. دفع قلبي كمية كبيرة من الدم إلى رأسي، وشعرت بشعر جلدي ينتصب. وقفت لحظات مترددًا بين العودة والإقدام، وفي اللحظة التي كدت أستدير بها وقعت عيناه علي، فعدلتُ عن الرجوع وثبتُّ مكاني متمالكا بالكاد رعشة تصطك في حنكي، أترقّب ردّ فعله شادًا على النباطة. هبط سريعًا من الشجرة، وتراجعت خطوتين، أوشكت أن أفرّ لولا أنه قال:

«أرجوك أرجوك، إنها تؤلم، والله، تؤلم تؤلم، انظر» كشف عن صدره فإذا بشاشة طبّية فوق ثديه الأيمن: «لا أريد منك شيئا فقط ابتعد، ابتعد أرجوك، واتركني وأخي، لا تؤذِنا».

فكّرت: هذا الضخم يرجوني.. يخاف مني.

بدلا من أن تعطيني تلك الفكرة الإحساس بالزهو أعطتني إحساسًا ملتاعًا بالشفقة، آهٍ يا سعيد.. أنا مخطئ فعلا ولا أستطيع أن أعتذر منك لأنك مجنون وأنا أقوى منك، سأتركك وحدك وأذهب، الشوارع كثيرة والحدائق التي لها أشجار أكثر. ابتعدتُ عنه مبتلعًا ريقي لأخلصه من الطعم اللاذع الذي أخذ يصعد إلى حلقي. الذي يريد أن يتميز في الشجارات يجب عليه ألّا يهتمّ بأي ضرر يسبّبه لأي أحد.

يقضم نصف إصبع كاكاو باونتي، يمضغه بأناة، يبتلع،
يلعق أسنانه العلوية، يبتلع ريقه، يتابع:

تركتُ لسعيد الشارع في الصباح، ورحتُ أجوب الشوارع الأخرى القريبة من شارعنا، مختارًا الحدائق التي فيها أشجار صفصاف، الشجرة التي يفضّلها

العصافير وحمام «الياكريم».
كانت الأمهات يلاحقنني أحيانا بعصا مكنسة كي لا أكسر زجاج النوافذ، ويقذفني الآباء بحصى بعد أن أفرّ. تسقط أصواتهم خلفي بكلمات توبخ أهلي الذين تركوني مهملا في الشوارع، فأذهب إلى حديقة مجاورة فيها شجرة صفصاف، تكاثر الصيد في بيت أم غريب، وتطاير من حوشه الريش على نغمات عود أبي سمرة.
خلال ذلك رافقت أبي وأخي صقر، أحد أيام الخميس فجرًا، إلى بر «السالمي» لنصطاد طائر «الدَّحْرُوج» المهاجر، في بداية موسم عبوره، ببندقية أبي «أم خمس». أعطاني أبي البندقية لأصطاد هذا الطائر المراوغ، أطلقت تسع طلقات، اصطدت بها أربعة، اصطاد أبي وصقر الكثير. خبأت بعض الصيد للمساء، واشتويناه في بيت أم غريب، مستمتعين بالطعم اللذيذ. قلت لهم إنني اصطدت سبعين دحروجًا وحدي.

ينصب ساقه ويسند يده التي تحمل النقال عليها:

أخذتْ نهاية السنة الدراسية المختصرة تقترب. كنت متحمسًا لعودتي إلى الدراسة في النصف الثاني، حيث كان بمثابة سنة دراسية كاملة. ستنتهي قريبًا الصباحات المملة، سأكون مع أصدقائي في المدرسة، وسنحظى بأوقات ممتعة.
مرت فترة طويلة دون أن أمرّ بشارع أم غريب في الصباح، لكنني كنت أرى سعيد أحيانا حاملا أخاه -قبل صلاة الظهر بقليل- إلى الموستنج الحمراء في شارعنا، ينظر إليّ من البعيد بوجهه المتجمّد بعد أن يجلس أخاه على مقدمة السيارة، عندها كنت أترك مكاني حتى لا أزعجه. أما في العصر فكنت أراه تقريبًا كل يوم عندما أعبر السكة من جانبهم إلى فرع الجمعية دون أن أكلمه ودون أن ينظر إلي، وكان شعور في داخلي يتنامى تجاهه، شعور يدفعني لأن أكلمه عن أي موضوع، كأن أطلب منه أن يُحضر لنا المزيد من الحطب الذي تناقصت منه

جذوع الأخشاب في حديقتهم، أو أحدثه عن الموستنج؛ وفكرت مرة أن أشتري له ولأخيه الكاكاو؛ غير أن كل هذا يذهب ما إن أشاهد وجهه الجامد فأشعر أنه سيجمد أكثر إن حدّثته.

قبل انتهاء الدراسة بثلاثة أسابيع، (يسعل مرتين) وبينما كنت أصطاد في حدائق البيوت، رأيت حمامة خِلْتها حمامة بَرّ، تهبط على أغصان شجرة في حديقة، رغم أنّ وقت عبورها لم يحن. تتبعتها من شجرة إلى شجرة، حتى ابتعدتُ عن الشوارع التي كنت معتادًا على ارتيادها للصيد، ودخلت شارعًا لم أدخله من قبل. اقتربت من الشجرة التي حطت عليها الحمامة للتو، داخلا حديقة بيت. بحثت عنها من غصن إلى غصن، حتى وجدتها بجانب الجذع. دنوت ماطّا سيور النباطة باتجاهها، فخيبتني إذ اكتشفت أنها حمامة «ياكريم» عادية بهت لون جناحيها قليلا. أطلقت حصاتي تحت تأثير الشعور بالخيبة، فأخطأتها وكسرت زجاج نافذة خلفها.

انسللت على أصابع قدمي هاربًا من حدود الحديقة، حتى توقفتُ أُهدّئُ لهاثي في الشارع التالي. رفعتُ ثوبي وحشرت نباطتي تحت سير سروالي على جنبي. وقفت قليلاً حتى هدّأتُ صدري، ثم مشيت كأنني لم أفعل شيئا، وحين كنت أهمّ بتجاوز الشارع التالي، وقفت سيارة وانيت يقودها شاب معه ولد في مثل عمري، صرخ الولد: «هذا هو ابن الكلب».

فجريت عاضًا طرف ثوبي إلى جهة شوارعنا. جعل صريخ عجلات الوانيت، وهي تندفع ورائي، قلبي يخفق بأقوى ما يمكنه. لم يكن أمامي مكان سوى بيت أم غريب أختبئ به. إذا عرف بيتنا فستكون نهاية حياتي على يد أبي. فكرت أنه عليّ أولاً أن أضيّعهما؛ تركت الشوارع واتخذت «الدواعيس»، طريقة ناجحة نفعلها دائمًا إذا ما لحِقَ بنا أحد بسيارته. بعد سكتين تقريبًا توقفت عن الركض، ومشيت ألهث في الساحة الترابية إلى بيت أم غريب، حتى وصلت سكة جدّة سعيد جونكر، ظنا أنني توّهتُهما. وما إن عبرت السكة، حيث كانت حديقة جدة سعيد خالية منه ومن أخيه، حتى التقطتْ ذراعي يد غاضبة؛

كانت يد الشاب.

صفعني أولا، سقطت، نهضتُ متعثرًا أحاول الهرب، فرفسني الصبيّ على رأسي. سقطت دائخًا على الأرض. كان الشاب يحمل عقالا، جلدني به وهو يصرخ: «هل حسبت نفسك ستهرب مني يا ابن الكلب؟». جلدني بقوة وأكمل: «تكسر نوافذ الناس وتهرب يا ملعون». رفسني الصبي على رجلي. بكيت أرجوهما العفو، لكن الشاب استمرّ يجلدني بلا أي بادرة للرأفة، وداوم الصبي على رفس ساقي، واستمررت أبكي وأرجوهما، إلى أن استحالت زرقة السماء إلى اللون البنفسجي الغامق؛ وبغتة، سيط المكان بصرخة: «عيب عيب، عيب عليكم». قفز سعيد إلى منتصف الحديقة، فهرب الشاب والصبي لمّا رأيا جسدًا ضخمًا قادرًا على دهسهما. فأخذ لون السماء يعود إلى زرقته الطبيعية.

كان فخذي الأيمن وظهري يؤلمانني من جلدات العقال، ورأسي يلتجُّ فيه دوار من رفسة الصبي الملعون. رأيت يد جونكر ممدودة قربي يريد مساعدتي على الوقوف، أمسكتُها وطرتُ معها إلى الأعلى. سرتُ أعرج إلى حديقتهم حتى جلست على جذع شجرة. كنت ما أزال أبكي. غاب سعيد لحظات داخل بيتهم، وعاد معه كأس ماء. شربت نصفه وغسلت وجهي بما تبقّى. توقفت عن البكاء، إلا أن الألم والدوار لم يبرحا رأسي. أحدّث نفسي بأنني سأصطاد ذلك الصبي في أقرب وقت وأنتقم.. لن أُرفَس على رأسي وأسكت.. سأجعله يندم أنّ له رجلا مكّنته من ذلك.. سأخبر الرفاق أنني تعرضت «لنكبة».. أعرفهم.. سيشتعلون ولن تُطفأ نيرانهم حتى آخذ حق ضربتي.

«ماذا، ماذا فعلتَ حتى يضربوك؟» سألني سعيد، مسحت دموعي:

«لم أفعل شيئا».

«ضربوك لأنك، هل ضربوك لأنك لم لم تفعل شيئا».

نظرت إلى وجهه الصخري ينظر إليّ بتعبير جبل منحوت، وأخرسته:

«جب».

يرجع يمد ساقه، يضع نصف إصبع البونتي الآخر في فمه، تهتز الشاشة، يعود نصف وجهه مرتفعًا يأخذ رشفة من علبة كوكاكولا، تهتز الشاشة، يعود وجهه كاملاً، يتجشأ، يلعق أسنانه العلوية، يبتلع ريقة:

أخبرت الأصدقاء بما حصل، اشتعلوا حانقين. وصفت لهم البيت والوانيت والصبي، عرفه بشار، قال إن اسمه محمد وينادونه حمّود البصوة ويعرف كيف يصطاده.

بعد ثلاثة أيام أحطنا بالصبي ومعه آخران في ساحة أمام مسجد قريب من بيتهم. عرفني ما إن رآني، اعتذر وبكى بسهولة كي أشفق عليه وأتركه. كدت أقول لهم: خلاص خلاص اتركوه، سامحته. لكن أعينهم كانت تهتف: اضرب اضرب اضرب. أوشكت أبرر: طالما بكى وطلب الصفح فهذا يكفي؛ فتقدمت نظراتهم تسير إلى عيني، تصيح: خائف خائف خائف. أمسكت العصا، ونزلت بها على ساقه.

ركزت الضربات على رجله وأنا أكرر على إيقاع الضربة:

«تضـ.. ربني.. برجلك.. على.. رأ.. سي.. يا.. ابن.. الكلب».

كنت أريد أن أضربه على رأسه فلم أقدر.

والبقية ضربوا الصبيين اللذين معه، مستفردًا النمس بأحدهما.

عباس الإيراني

راح الجوع يستفزّ معدتي رغم ضعف شهيّتي للطعام. عادتي، إذا استولى علي الفضول، أن أنسى بطني حتى تذكرني حركة أمعائي الصاعدة بأنها جزء مني. كان الفضول يدفعني إلى أن أرى ما تبقى من التسجيلات، ليس لأعرف ماذا حصل لسعيد، وبماذا ذكر عمي «عادل»، بل ولأعرف أيضًا ماذا جرى لفهد. كيف تغير من ولد تدفعه رغبته في التميز على أقرانه إلى ولد يتمادى في الشر ثم إلى كاره للمجتمع؟ ومن أين له هذه الكلمات التي يعبر بها عن أفكاره؟ قررت أن أؤجل مشاهدة التسجيلات المتبقية. الجوع يقلل التركيز، بضع لقمات كافية.

وقبل أن أنزل، أخذت نقالي من جيب ثوبي. هنالك شيء أريد أن أتأكد منه. قالت ساعة نقالي إنها الثامنة مساء. اتصلت بعباس، أجاب بعد خامس رنة بصوت مسترخٍ.

«مرحبًا عباس، معذرة على إزعاجك».

«أهلاً بك، لا عليك، صحوت للتو من قيلولة طويلة».

«أنا مثلك.. أفضل شيء تفعله في شهر أغسطس هو الاستمتاع في قيلولة تزجي بها النهار تحت مكيف سنترال».

«بعد كأس لبن خاثر».

«بعده حمام بارد».

ضحكنا. وسألته:

«عباس أريد أن أسألك سؤالا ربما يكون محرجًا».

«اسأل».

«هل كانوا ينادونك عباس الإيراني يوم كنت صبيًا؟».

ضحك: «صقر قال لك ذلك؟».

«ليس بشكل مباشر، وأريد أيضًا أن أسألك عن حادثة قديمة، حاول أن تتذكرها.. هل كنت ترمي القمامة في بيت أم غريب، حتى خرج لك سعد كوكو من الشبّاك يتظاهر بأنه جنّي».

صمت عباس.

«ألوو، عباس».

«معك معك، نعم نعم كان سالم النمس، صحيح، لكن، من أين عرفت هذا؟».

«سأخبرك لاحقا، شكرًا لك».

أغلقت الخط.

كانت جدتي جالسة على سريرها في زاوية الصالة تناولها أمي عشاءها. عدت إليهما من المطبخ أحمل طبقا فيه موزة وقطعة توست دهنتها بالمربّى وكأس عصير برتقال. وصفت جدتي طريقة أكلي بطريقة أكل عمي عادل، تحب إيجاد أوجه الشبه بيني وبينه: «تأكلان مثل أكل العصافير». لا أزال أشعر بسرور من أي تشابه مع عمي. مدّت كوب الحليب إلى أمي وقالت مغيّرة نبرتها: «إياكَ أنْ تشبهَه في الزواج يا مجيدان». ملأت أمي الكوب وأعادته لها تقول: «لا لا لا» ثم رمقتني: «وعدني على بداية السنة القادمة، هدى بنت أخي عبدالوهاب، يعرفها جيدًا، لن يجد مثلها، أليس كذلك؟». «بلى بلى» قلت مبتسمًا أهوّن حدة نظراتها وقضمت التوست.

لا أعرف ماذا كانت فكرة عمي عن الزواج، لكنني أرى أنها عملية يقسم الإنسان فيها نفسه، فيعطي الآخر نصفا، ويبقي نصفا معه. هذا الانقسام يشعره أنه لن يكتمل إلا بوجود النصف الآخر بجانبه، هنا تقع المشكلة، نحن لا نعلم هل يمكننا تحمل هذه المسؤولية أم لا، لأنها شاقة جدًا، مشقتها تتركز في أنه يجب عليّ أن أكون «أنا» و«هو» في الآن ذاته. أشكّ أنني أستطيع، أبي نجح في هذا نجاحًا كبيرًا، فهو وأمي في انسجام تام. أنا لا أعرف أو لست معتادًا على تكريس نفسي لغيري، لا أعتبرها أنانية، أسمّيها إحاطة الذات. لا أستطيع تخيل نفسي

أفعل مثل أبي عندما تعود أمي من الخارج، يعتدل ويقول: «هلا هلا بالزين». أو طريقته بإدارة رأسه يمينا ويسارًا عندما يتذوق طبخها: «هذا شيء خرافي والله». أو لما تطلب منه أمرًا: «تأمرين أمرًا أنتِ». لا أدري لماذا أشعر أنه يرضي نفسه بهذا.

شكَتْ جدتي لأمي أثر برودة التكييف على عظامها اليوم، تقول لولا أن مجيدان عدل البرودة لكانت متجمدة الآن. أعطتني أمي نقالها تريني رقصة لأبناء أختي على أغنية أجنبية، كان الصغيران يهتزان بها وهما يرفعان أيديهما إلى الأعلى ويحركانها إلى الاتجاهين.

عدت إلى غرفة عمي بقدر لا بأس به من الشبع. أمسكت جهاز الجالاكسي إس فور.

من مكالمتي مع عباس، تأكد لي أن فهد يتحدث عن أشياء حقيقية. لمست مربع الاستوديو، قفزت المربعات تُقدِّم وجه فهد بزوايا مختلفة. أشارت علامة الطاقة أنه يحتوي على عشرين بالمئة فقط، قابس نقالي يختلف عن الجالاكسي، لا بد من الذهاب إلى الجمعية لأشتري واحدًا. لمست مربع التسجيل التالي.

التسجيل الحادي عشر

قصة الجثث

لم يتغير شيء في ملابسه، فقط جلسته، مستندًا على ذراع
الأريكة:

صرت أقضي الصباح، في ما تبقى من الأيام الدراسية، مع سعيد، أحدثه في حديقتهم عن أمور كثيرة؛ عن هدفي لأصبح الأجدر في العراكات، عن حماسي للعودة إلى المدرسة.. مشاجراتنا.. السعودية وكيف قضيت فترة الغزو.. توقي للعب مباراة كرة قدم.. عن الصيد.. بندقية أبي أم خمس التي تخلع الكتف من قوة ارتدادها عند إطلاق النار، وطبعًا أخبرته ماذا فعلت بحمّود الذي ضربني عند حديقتهم.

كنت طوال الوقت أنا المتكلم وهو المستمع الذي لا يهمّه الحديث، والمرات القليلة التي حدثني بها كانت عن أخيه سعد، كيف ضحك أمس، وماذا فعل عندما دغدغ رجله بريشة حمامة وجدها في الحديقة، ومتى سيحمّمُه المرة القادمة، ومرة حدثني عن أمه وأبيه وبيتهم، ومرة عن قصة الجثث الخمسة.

قمنا نبدّد الصباح بأشياء كثيرة، نكسّر جذوع الأشجار المتبقية، نسقي السدرة من دلو كبيرة نملؤها من صنبور ماء خارجي. ننظف أعشاش العصافير فوق السدرة، وأغلب تلك الأعمال كان هو الذي ينجز وأنا الذي أشير. نجلس تحت الشجرة، إذا تعب من العمل، فأقص عليه أحداث أحد المسلسلات، أمثّل أمامه رقصة الكلب في أحد مشاهد مسلسل ريمي وهو يمشي على قدميه رافعًا يديه.

كنت أشعر أنه يضحك عندما أفعل هذا، في كل مرة، رغم وجهه الصامت. أو أقلد صوت دايسكي عندما قص على كوجي ما حدث لنجم فليد، مرخيًا حاجبيَّ بحزن مثلما فعل. وآتيه أركض أحيانا وهو يذهب ليصف حاويات القمامة، فأقفز عليه مادًا قدمي أصيح: «خذ أيها الوحش».. أتعلق في رقبته وعلى وجهي تكشيرة الغضب أتخيل أنني أهزم وحشا.. أو أمسك غصنا كأنني أعزف عليه وأغني: «يا ناس حبيت واحد.. أثر المحبة صعيبة».

لم يكن مزاحي يضايقه، وهذا ما جعلني أرى فيه صديقا حقيقيًا. كنت أتصرف معه على سجيتي، ولا أفكر بماذا ستكون ردة فعله، أشعر معه بالارتياح أكثر مما أكون مع أحد غيره. لم ينتقد مرة ما أفعله، ولم تكن عيناه تقفان في طريق تلقائيتي.

نستمر حتى ما قبل صلاة الظهر فنذهب لنلقي نظرة على الموستنج الحمراء، نصطحب معنا أخاه سعد، أحدثه في الطريق، مشيرًا بإصبعي، عن تاريخ الأماكن التي نمر عليها، تاريخها في ذاكرتي، الأحداث التي وقعت بها، والقصص التي سمعتها عنها، نقف عند سبيل الماء نشرب، ثم أُكمل أنا طريقي إلى المدرسة ويعود هو بأخيه إلى بيت جدته.

تُخرِج جدته أحياناً وجهها القديم من الباب، وتطلب منا، بعدما تحدجني بنظرة من ينتظر خبرًا سيئا، ألّا نخرج من الحديقة، ثم تأتينا الخادمة –بعد دخول الجدة بقليل– تحمل صحن كيك ساخن، يطير طعمه محلقاً بي، فأطلب من سعيد المزيد.

لم يكن سعيد مصابًا بالجنون، كانت تصرفاته غريبة فقط، ولديه اهتمامات ليس لها داع، كحرصه على إطعام قطط الشارع كل يوم، وتنظيفه أعشاش العصافير فوق شجرتهم، وترتيبه حاويات القمامة في الشارع. لا أعرف إن كان غبيًا أم لا، لكن أجزم أن عقله لا يعمل بكل قواه إلا بالأعمال التي يهتمّ بها، أما بقية الأشياء التي لا تسترعي اهتمامه، فكانت هي الأشياء التي لها شأن عندنا ونُؤاخِذُ عليها من لا يهتم بها: كثيابه المجعدة دائمًا والتي تصل أكمامها

إلى رسغه، وشعره اليابس الذي أخبرني أنه يغسله بصابون الملابس تايد؛ لا يأبه كيف يراه الناس. أما طريقة كلامه فكانت مضطربة فقط إذا تكلم مع أحد لا يعرفه أو عند جماعة، فعندما توطدت علاقتي به أكثر اكتشفت أنه يستطيع الكلام دون تكرار للكلمات.

أخوه سعد أصغر منه بأربع سنوات، في مثل سني تقريبًا، إلا أن جسمه توقف عن النمو، ملامح وجهه توحي بأنه طفل بالغ، لا يتحرك إلّا بإيماءات، وكان غالب الوقت ساكنا إلا عندما يواصل سعيد مداعبته، عندها فقط يضيء وجهه بابتسامة ضعيفة تَخْنُس بنفس اللحظة، ما عدا اللحظات التي يضعه فيها سعيد على مقدمة الموستنج، تمتد فيها ابتسامته طويلا لتصل إلى نصف دقيقة تقريبًا، وعند ذلك كان يبدو على سعيد أنه سعيد.

في تلك الأيام علّمتُ سعيد كيف يكتب اسمه، بطريقة سهلة، رسمت على التراب خطًا أفقيًا، في بدايته وضعت ثلاثة أسنان لحرف السين، وبعده فغرت فاه حرف العين، ثم سنّ الياء، وقبل آخر الخط رفعت عمودًا مائلا قليلا جهة اليسار للدال. قلت أشير على كل حرف:

«سا.. عي.. يي.. اد» محوت سن الياء وأضفت: «هكذا تصبح كلمة سعد: .. سا.. عا .. اد».

أعدت رسم اسمه، مرات قليلة، حتى أَتقنه، بعد كل مرة كان يأتيني بكيك ساخن.

يتنفس بعمق، ويتنهد، ثم يقول:

أعتقد أن سعيد أحبّني بعد أيام من مواصلتي قضاء الصباح عندهم وأكل الكيك الساخن اللذيذ الذي تعده الخادمة. بعكس ما يقول وجهه الصلب الخالي من المشاعر. عرفت ذلك عندما حدثني عن حياته، دون أن أطلب منه، ثم عن فترة الغزو كيف قضاها في بيت جدته التي لم يكن يعرفها قبل ذلك.

لاحظت، أثناء حديثه، مروره السريع فوق والديه. ذكرهما كأنه يصف مكانا باردًا، سرعان ما تخلى عن سيرتهما ومضى نحو بيتهم الذي عاش فيه مع أخيه سعد. أحب سعيد ذلك البيت ويتوق للرجوع إلى غرفته التي تطل على ساحة ترابية واسعة فيها كلاب ضالة. كان يخرج القمامة من الحاويات ويلقي التي فيها طعام لهم. قال لي إن تلك الكلاب تحبه، وإنه وأخاه سعد يحبانها، ولم يجد ذلك الحب في القطط الجشعة التي تبتعد عنه ما إن ينفد منه الطعام، وفي اليوم التالي تنسى ما قدم لها.

لكنّ حديثا واحدًا تأثّر له وجه سعيد عندما أخبرني بما حصل في بيت أم غريب ثاني أيام التحرير، وهي المرة الأولى التي رأيت رعشة مشاعر تسري في وجهه.

يعتدل، يرفع يده التي كان يتكئ عليها عاليًا ثم يهزها ويعيدها. يطقطق رقبته يمينًا وشمالا ويستأنف:

بعد ثلاثة أشهر من الغزو، أخبرته أمه أنها ستأخذهما إلى جدته لأنها مع قلة حيلتها وضعفها في بلد يشكو من الاحتلال وعمليات النهب واحتمالات الموت العديدة والمفاجئة لم تعد تحتمل عِبْأَهما. استقبلتهما جدتهما بدموع فرح واشتمّتهما بحثا عن رائحة ابنها الذي فقدته منذ تزوج رغمًا عنها وتركها. لم ينم سعيد في أول ليلتين. كان المكان ما زال غريبًا عنه، حتى وجد طريق الحديقة وبدأت نفسه، شيئا فشيئا، تتقبله. لم يكن حال الجدة جيدًا، لكن كان معها زوجها مرعي الذي يخرج كل صباح ويعود ظهراً ومعه خبز أو دقيق تخبزه الخادمة التي ظلت وفيّة ولم تطلب عودتها إلى بلادها.

وذات يوم، بعد عدة أيام من سكنه في بيت جدته، جلس مع أخيه في الحديقة، فعبر السكة جنديان عراقيان يريدان بيت أم غريب الذي كان مقرًا لإحدى القيادات العسكرية العراقية، ولما ابتعد الجنديان عنهما بضع خطوات عاد أحدهما ووضع لسعيد قطعة كاكاو مغلّفة على السور، وأكمل طريقه إلى بيت

أم غريب. أكل سعيد الكاكاو ودسّ في فم سعد قضمة منه، وشعر أن أخاه يبتسم.

وفي اليوم التالي عاد الجندي العراقي نفسه ووضع قطعتي كاكاو وذهب. سُرّ سعيد بالكاكاو خصوصًا أنه يفرد وجه أخيه. بعد ذلك صار مجيء ذلك الجندي متقطعًا. وصفه سعيد مشيرًا إلى شجرة السدر: «نحيل مثل غصن». وفي كل مرة يأتي بها كان يضع عند حافة سور الحديقة الكاكاو ويمضي إلى بيت أم غريب.

بدأ الخبز يقل، وكانت تمرّ أيام يعود مرعي فيها من الخارج وليس معه ما يكفي لإطعام ثلاثة أشخاص. حتى مرّ يوم دون أن يكون لديهم ما يأكلونه، عندها رأى سعيد ذلك الجندي يضع الكاكاو على السور، فطلب منه: «ألا يوجد لديك أربع قطع، أربع أربع، مر يوم وجدتي لم، لم تأكل شيئاً جدتي». ابتسم الجندي وذهب دون أن يتكلم، ولمّا حل الليل طُرق باب البيت، ففتح مرعي الباب وسعيد خلفه، فرأى ذلك الجندي بصحبة ثلاثة من رفاقه ومعه كيس فيه دقيق ومربى وجبن. ابتسم الجندي لمرعي وطلب منه أن يسامحه لأن هذا كل الذي استطاع أن يأخذه من الثكنة. قبل أن يذهب طلب مرعي منه سيجارة، فأعطاه علبة ومضى.

صار الجندي يأتيهم مرتين كل أسبوع، يحمل معه طحينا أو عدسًا، ومربى وجبنا، وعلبة سجائر، فبدأت علاقة ودية تنمو بينه وبين جدة سعيد التي كان يناديها «خالة». أخبرته أنها سكنت العراق لمدة ثلاث سنوات في صغرها. وصفت له النخيل والأنهار والهواء والأكل، وطيبة العراقيين، تحدّثا عن سبب الاحتلال، وسألته ماذا فعل الكويتيون للعراقيين حتى يغتصبوا بلدهم؟ فكان الجندي يهز رأسه هزة غير المدرك، ويجيبها بأنه لا يعرف شيئا، وأنه لم يؤذِ، ولن يؤذي، أحدًا. «كان طيّبًا، اسمه بدران، دائمًا يعطينا الكاكاو».

تجمّد وجه جونكر أكثر مما كان وهو يسترجع ماذا جرى قبل التحرير بعدة أيام: أتاهم بدران ومعه شموع وأكياس من الطحين والعدس والمربى والجبن،

وقال لا تخرجوا من البيت، كان مرعوبًا، فسألته الجدة عن الأمر؛ أخبرها أن القصف الجوي سيبدأ بعد أيام والجيش العراقي يتأهب للانسحاب. هطلت الطائرات على السماء في يوم الغد، أرعبت أخاه سعد الذي صار يبكي طيلة الوقت في حضنه، ثم تكاثف صوت إطلاق نار في الليالي الثلاث التالية، تطيش معها أصوات سيارات تهرع بكل قوتها؛ ومن بين الأصوات التي طاشت في الجو سمع سعيد صوت صياح وضرب، فقفز إلى الشباك المقابل لبيت أم غريب، فرأى خمس عربات عسكرية تملأ الشارع، وأكثر من عشرين جنديًا عليهم زي الجيش يحيطون ببدران وأرع جنود، فيما هم مُسجّون على الأسفلت، أمام بيت أم غريب، ومُدمّون، وكان الجنود الآخرون يركلون وجوههم وجنوبهم.

سد سعيد أذنيه لكن صراخ الألم لم ينفك عن إيذائه. أغمض عينيه إلا أن صورة كاكاو بدران ساحت في محجره، ففتح النافذة وصرخ: «عيب عيب، عيب عليكم».

ربما حسبوه نظرًا لضخامة جسده وصلابة وجهه، جندياً مختبئا، فهجموا على باب جدته واقتحموه، دخلوا البيت، وصل غرفته ثلاثة مسلحون، هدده أحدهم بالسلاح فَبَرَكَ سعيد يبكي، ثم لما حاول أحدهم أن ينبش سعد هاج سعيد عليه ودفعه على الجدار؛ قام المسلّح الآخر وضرب سعيد -فيما كان يأخذ أخاه إلى حضنه- على رأسه بأخمص البندقية فشج رأسه. تدخلت جدته تبكي وتقول إن هذا الفتى مجنون. رمت تحتهم بطاقة مرعي، الذي مدّده أحد الجنود على بطنه في الغرفة الأخرى، فتوقف العسكريون عن انفعالهم وخرجوا، فأخبرها سعيد أنهم آذوا بدران. لحقتهم جدته ترجوهم أن يتركوا بدران يهرب مع من هرب من العراقيين إلى بلادهم، فصرخ بها أحدهم:

«هل كنتِ تعرفينهم؟».

فأقسمت إنها لم تعرفهم، لكنها تعاطفت معهم لأنهم عرب ومسلمون فقط. نصحها أحدهم بأن تغلق عليها الباب. بكت ترجوه، وكان بدران لا يزال مسجى على الأرض مُدمى الوجه. صرخ عليها العسكر بكلمات لم يستبنها سعيد لكنها

كانت كافية لجعلها تغلق الباب وتعرج إلى النافذة بجانبه لترى ما يحدث.
رأى سعيد أحدهم يدفع بدران إلى بيت أم غريب، ومعه الجنود الأربعة المتبقون، ثم أغلقوا الباب. حذّرهم مرعي ألّا يخرجوا من الشبّاك.

ارتفع أذان الظهر وأنا أستمع لسعيد، فسألني: «ألن تذهب للمدرسة؟». انتبهت للأذان وطلبت منه بدافع الفضول أن يكمل: «لدي وقت حتى الإقامة».

أغلقت الجدة الأبواب ولم تسمح له بالخروج إلى الحديقة ولا بالنظر من النافذة، إلا أنه كان يختلس النظر منها في ظلام الليل. مرّ يومان وبيت أم غريب لا يخلو من العسكر، وكان سعيد يسمع خلالها ضرب معاول وصوت أشياء تتكسر. بعد ثالث يوم بدأ الدوي يخفت، وبدأت الانفجارات التي كانت تهز الأرض تهدأ، فاختفت السيارات والعسكر من البيت تاركين الباب مخلوعًا.
ظل سعيد يراقب البيت لثلاثة أيام أخرى دون أن يُحدِث شيئاً، يحسب أن بدران ما زال بالداخل مربوطاً ويتضوّر جوعًا. في اليوم الرابع خرج مرعي يبحث عن شيء يأكلونه، وعاد يبكي مبتهجًا ومعه بعض الطعام وبشائر التحرير وعلما الكويت وأمريكا، وأخبرهم أنه رقص مع الناس أمام رتل للجيش الكويتي، وأن أحد الجنود الكويتيين احتضنه وهم يرقصون وبكيا معًا.
في الغد تسلل سعيد من باب الحديقة ومعه قنينة ماء من التي جاء بها مرعي قبل يوم وخبزة مدهونة بمربى وجبن. دخل بيت أم غريب فوجد بلاط الحوش منبوشًا من مكانه، فمر قافزًا فوق الكسر حتى دخل باب البيت الداخلي. «كل شيء كان مكسرًا في الداخل». صعد إلى الدور الأول «كما لو أن عاصفة دخلت البيت ودمّرته». لم يعثر على أحد. أحسّ أن في البيت خمسة أرواح تتجول. جرحت قدمه كسرة زجاج من النافذة. نزل يعرج من الدرج، وفي الحوش أتاه إحساس أنهم مدفونون تحت قدميه.

«هل هذه هي قصة الموت السخيفة، عمى بعينك، تركتَني أتأخر عن الأصدقاء في المدرسة.. قل لي إذن، ماذا حدث لأم غريب وولدها وزوجها؟».

«لم يكونوا بالبيت منذ سكنّا بيت جدتي، كان بيتهم خاليًا، إلى أن بدأ العراقيون يشغلونه».

التسجيل الثاني عشر

ربع الموت

مستلقيًا على قفاه، يوسّد رأسه ذراع الأريكة، تظهر زاوية
أرفف يميل بها كتاب بيدرو بارامو على كتاب أليس في بلاد
العجائب.

كانت العطلة التي تفصل بين السنتين الدراسيتين المختصرتين من أفضل العطل التي مرت على حياتي. حدثت فيها أشياء كثيرة مهمة، وأشياء كثيرة غير مهمة.

قلّ وقت جلوسي فيها مع سعيد، كنت مشغولا مع الأصدقاء، نسهر في ديوانية كوكو، نتفرج على أفلام تملأ الشاشة بالدم والأعضاء المبتورة، أتظاهر معهم بالحماس عندما يمزق البطل الأشرار ويموت العشرات في انفجار لينقذ حبيبته. أذكر منها فيلم «رامبو». وحين يكتمل الصباح نذهب إلى مطعم الجمعية ونعود ثاقبين في طريقنا إطار إحدى السيارات النائمة بأمان أمام البيوت. ومرة أشعلت قمامة أمام بيت، رميت بها عود ثقاب، وهربنا، ولما ابتعدنا، رأيت اللهب ينفخ دخانا أسود داكنا، فشعرت أن الشرّ يربّت على كتفي.

ولمّا أوشكت العطلة تنتهي، تحرقتُ لهفة وأنا أقيس البنطلون الكحلي والقميص الأبيض والحذاء الأسود في محل بيع الملابس في الجمعية مع أبي.

نمت مبكرًا تلك الليلة، ليلة أول يوم في المدرسة، وصحوت وحدي مبكرًا وكلي

رغبة في الدراسة إلى آخر السنة. تناولت البيضتين اللتين وضعتهما أمي على الفطور، وملأت فمي من كوب الحليب وانطلقت. وجدت الرفاق عند منعطف شارعنا كما اتفقنا ليلة أمس، ورحنا نشقُّ طريق المستقبل.

لم تتغير مدرستي من الداخل، ولا لون الطلاء أو رائحة الصفوف، التغيير فقط كان في نوعية المدرّسين الذين كانوا يرشدوننا بحماس فاتر إلى أماكن الصفوف. عثرت مع بشار على صفّي بين صفوف الثالث المتوسط. كلهم سبقوني بسنة، إلى الرابع المتوسط، عدا بشار، وجدنا اسمه في آخر صف من صفوف الثالث المتوسط.

كان في الصف رائحة غبار تكاد تختفي، وعلى السبورة بعض كلمات بقيت من السنة الفائتة. جلست في ثالث مقعد بالطابور الثاني من بعد الباب، ورحت ألتفت في عيون زملائي الجدد، لم أجد أحدًا من أبناء صفي قبل الغزو. مرت الحصة الأولى بسرعة، كان المدرس فيها غاضبًا لأمر ما. وبين الحصتين وقفت خارج الباب، أحاول أن أرى أحد الرفاق يخرج من فصله فألوّح له. ولما بدأت الحصة الثانية، دخل مدرس كانت قسمات وجهه توحي بأنه ساذج، فكّرت بأن يومي الأول يجب أن يكون صادمًا ولا ينسى؛ وسألت المدرس، فيما كان يستعرض المنهج على السبورة:

«أستاذ.. ألم تجد لك عملا غير مدرس رياضيات».

ضحك الفصل، ضحكت ممررًا وجهي عليهم، تغيرت ملامح المدرس بسرعة، ترك السبورة، وجاءني بخطى عجلة حتى تلّني من أذني ثم جلدني، ودفعني من كتفي إلى مكاني، فكدت أسقط عن الكرسي، وقال يدفع عصاه في كتفي: إذا سمعتُ نفَسَك فسأسلخ جلدك. ضرب الصمت يده على الفصل، تبلور وجهي فسكتُّ أنظر إلى السبورة. وسوستُ أنني سأصبح أضحوكة الفصل، وبسرعة تخيلت الأولاد يصعدون على ظهري ويجلدني أحدهم عند الباب، وآخر يأمرني أن ألمّ كتبه.

جلست أذرّع الوقت بقلقي إلى أن رنّ جرس الفرصة. خرجت مع التلاميذ إلى

الكافتيريا، لم أكن مرتاحًا معهم طوال الفرصة. الأذى الذي في داخلي يجب أن يبرز أمامهم بصورة متميزة حتى لا يترك لأحد مجالا للتفكير في البحث عن شيء يي يصلح للضحك.

تداركت الموقف بعد انتهاء الفرصة وقمت بمشاجرة مع أحد أولاد صفي اسمه «مبارك»، رأيت في هزال جسمه ووجهه غير المغسول ذريعة لكرهه وعدائه، مستعينا بالسبب الشهير «لماذا تنظر؟». تغلبتُ عليه بسهولة، طرحته وركلت ظهره، وفرَّق بيننا أولاد الصف، ورحت بقية اليوم أرمي عليه أوراقا مجعدة بين الحصتين، وأنتظر متى يقف عند الباب حتى أقوم بدفعه وتوبيخه لأنه سدَّ علي الطريق مستعرضًا أمام أولاد الصف استعدادي لأي مشاجرة. وعند الخروج، سرت مع الأصدقاء إلى بيوتنا نتحدث عن مجريات المدرسة. أخبرتهم عن مشاجرتي مع مبارك، فسألني كوكو إذا ما كنت في حاجة إلى الانفراد معه بمبارك غداً للتأكد من أنه نال ما يستحقه، أجبته بثقة أنني أعرف كيف أعالج أمره إذا لم يتأدب في المرة القادمة.

انقلبت المشاجرة ضدي في اليوم الثاني، (يضحك من أنفه) جاءني مبارك بثلاثة أولاد قبل طابور الصباح، فيما كنت أنزل من السلالم، وهدَّدني بأنه يريد رؤيتي عند باب الخروج. حاولت أن أبدو صلبًا أمامهم، فابتلعتُ ريقي وأكملت إلى الساحة.

أبلغت الرفاق في الفرصة، فلم أجد منهم إلا سعد كوكو، عندما رن جرس الخروج، ومعه نادر أخو عزيز ومساعد البطريق. وجدت مباركا عند المواقف ومعه مجموعة أولاد، أكثر من سبعة، أغلبهم أكبر منا. جاءني يمشي مشمّرًا عن ذراعيه، رميتُ كتبي وقلبي يهتزُّ من الخوف، واستقبلتُه بصفعة.

سقطتُ بضربة قلم رصاص شجّت رأسي. سقط سعد بعدي وتظاهر بأنه فقد الوعي، وهرب نادر وأخذ البقية يركلون البطريق الذي لم تسعفه ساقاه القصيرتان على اللوذ بالفرار، حتى خلّصه أحد الآباء الذين ينتظرون خروج أبنائهم.

لم أكن أعلم أن هذه المشاجرة ستكون بداية لسلسلة طويلة من المشاجرات ستمتدّ لشهرين وستنتهي انتهاء يدوّي باسمي في سماء منطقة الفردوس.

ذهبتُ مع كوكو إلى المستوصف القريب، كان الجرح سطحيًا، رجعت إلى البيت مزهوًا بلون الدم على قميصي.

رمت أمي عليّ حزمة نصائح كي أتجنّب الوقوع في الملعب أثناء المباراة، أكّدت ضرورة أن أرتدي شيئا على رأسي إذا أردت أن ألعب مع الولد الجلف الذي دفعني إلى الأرض.

جئت بيت أم غريب عصرًا أختال بشاش طبي يلف رأسي. كان الجميع هناك، اعتذر النمس وعزوز العور والبقية بأنهم نسوا ما قلتُه لهم في الفرصة. جلسنا نخطط كيف سيكون ردنا غدًا، غير أن الأخبار التي تبادلناها عنهم تؤكد أنه لا طاقة لنا بهم، فعددهم يزيد على العشرين ولدًا، يسمّونهم «ربع مصدّي»، أغلبهم في الصف الرابع المتوسط، وبعضهم في الثانوية، في حين كنا ثلاثة عشر ولدًا في الرابع المتوسط، عداي أنا وبشّار.

ومن الأخبار التي بلغتنا عنهم أن فيهم ولدًا اسمه يوسف، يخشاه الجميع، ينادونه «يوسف مصدّي» بسبب بقع بهاق في وجهه الحنطيّ، جعلت كأنّ فيه صدأً، فُصل من الثانوية التي بجانب مدرستنا لأنه ضرب ولدًا بسكين، ونقل إلى مدرسة بعيدة؛ ويقال إنه على معرفة وثيقة «بسرّ الليل».

افترقنا بعدما اتفقنا على أن نبتعد عنهم قدر المستطاع، ونلتمّ مع بعضنا في الفرصة وعند الخروج من المدرسة حتى نقي أنفسنا مكائدهم.

إلا أنّ مبارك لم يعطني فرصة لإنهاء المشكلة؛ شعر من سلوكي في تحاشيه أنني أهابه، فازداد تسلطا، وجعل يوميًا طوال الحصة يرميني بأوراق مجعدة وأقلام رصاص مكسورة وأشياء أخرى مدبّبة. وعندما يرن جرس انتهاء الحصة كان أول شيء يفعله، بعد خروج المدرّس، هو أن يدفعني عند الباب، فأدفعه ثم يدفعني حتى يفرّقنا أبناء الصف.

وعند الخروج نجتمع قبل الباب، لنلاقي ربع مصدّي، فتندلع مشاجرة سريعة

يهرب نصفنا ويسقط النصف الآخر حتى يخلصهم أولياء الأمور الذين ينتظرون خروج أبنائهم.

كنت دائمًا مع النصف الذي يهرب، لذلك كنتُ أعتذر لهم في بيت أم غريب بأن في رأسي شجًّا وليس بي طاقة للعراك، ثم أتوعد:

«إذا برئ جرح رأسي فسأجعل الدم يسيل إلى ركبتي».

صرت أقاوم تحرّشات مبارك بالقدْر الذي أستطيع به حفظ كرامتي. كنتُ رد فعل ولستُ فعلا.. يرميني بورقة فأعيدها عليه بمثل الطريقة.. يدفعني عند الباب فأدفعه.. يُسقط دفتري فأُسقط دفتره.. يقول يا «ابن الكلب».. فأردّ «أنت ابن الكلب».. يقول «ألعن أبوك».. فأقول «ألعن أبوك أنت».. يسأل «هل أنت حيوان؟».. فأجيبه «الحيوان أنت».

لمّا برئ رأسي، في أول أيام الحديث عن اقتراب شهر رمضان، شجّ مرة ثانية بحجر رماه عليّ أحدهم فيما كنت أناوش مع الرفاق مجموعة صبية أحاطوا بنا عند خروجنا.

«إذا برئ جرح رأسي فسترون ماذا سأفعل بهم». أقول للرفاق وأنا أهرب.

استفحل أمر ربع مصدّي معنا في بقية الأيام، لم يكن يشغلهم في المدرسة إلا البحث عن أحدنا بالفرصة –منفردًا- والنيل منه. ولم يكتفوا بالمدرسة، بل امتدّ شرهم إلى شارعنا، إذ جاؤوا ذات عصر كنتُ قد تأخرت فيه عن الخروج لتقديم القهوة في ديوانيتنا، وجدوا سالم النمس ونادر البُجّي يسيران في اتّجاه بيت أم غريب، فطاردوهما، وكسروا زجاج إحدى السيارات في شارعنا.

لم نكن لنخبر الإدارة عمّا يفعله ربع مصدّي بنا، لأن الاستعانة بالإدارة كان اعترافا منا بأننا عاجزون عن الدفاع عن أنفسنا؛ وهذه، إذا عرف بها الأولاد في المدرسة، فستكون فضيحة لكل أبناء شارعنا.

لذلك قمنا نتسلق السور عند الفرصة الثانية، هربًا من اعتداءاتهم.

«من أين طلع لي مبارك هذا؟» أتمتم في كل مرة أقفز خارج المدرسة سور مع البقية.

يستند على زاوية الأريكة، يرخي رأسه على مسند الظهر، يظهر حنكه من الأسفل، والسقف ساطع فوقه:

كان صباح يوم أربعاء، قبل رمضان بأسبوع، ذاك الذي قلت لهم فيه فكرتي التي خلصتُ إليها في فراشي ليلا، ونحن في طريقنا إلى المدرسة:
«يجب أن يكون لنا ربع كما لهم ربع».

هربنا من فوق السور بعد الفرصة الأولى، فأعدتُ عليهم ونحن ندخل شارع أم غريب:
«لا حل لنا إلا ما قلتُه لكم في الصباح».
تساءل الجميع: «كيف ونحن قلّة؟».
فقلتُ كمن أمسك عصفورًا يطير بالسماء:
«عباس الإيراني وأبناء شارعهم».

يضحك، ويتقطع ضحكه في نهايته إلى سعال، يتنحنح ويكمل:

كانت تلك أول مرة أكلّم فيها عباس الإيراني. سبق أن رأيته، مرات قليلة، من بعيد ولم أعره انتباهي. ولد أنفه طويل ووجهه مليء بخدوش العراكات. أخبرني النمس ونحن في طريقنا إليه أن الإيراني ذو جرأة ولا يعرف الحياء، كاد يرسب في إحدى المواد العام الفائت لولا أنه هدّد المدرس بأنه سيشتكي لأبيه بأنه تحرّش به.
وجدناه أمام بيتهم جالسًا على حمّالةِ قارب أبيه. بدا لي عندما اقتربت منه أنه ذو صبر أثناء الشجار. تجهَّم ينظر إلى سالم. اعتذر النمس منه على العراك الأخير وقال إنه جاء ليصالحه. تحدثنا معه عن خطورة وضعنا في المدرسة،

ومن حسن حظنا أخبرنا أنّ ربع مصدّي يتحرشون به وبأولاد شارعهم أيضًا. دعاه النمس إلى بيت أم غريب، فارتبك وقال إنه رأى فيه جنيًا من أحد الشبابيك. ضحك النمس ينظر إليّ، فضحكتُ معه بشكل مفتعل، وأخبرناه الحقيقة. اعتذر بأنه سيذهب الآن مع أهله إلى بيت عمه. لم يعطنا أي إشارة تدل على أنه موافق، فقط بارقة أمل بأنهم مهدّدون من ربع مصدّي.

كانت مسألة وقت، وكان للحظّ دور كبير بها، إذ وجدنا الإيراني عصر اليوم التالي جالسًا على سور حديقة جدة سعيد ينتظرنا.

قال وهو يبعد نظره عنا:

«ضربوا أمس أحد أبناء شارعنا في الجمعية».

أخذه بشار إلى الداخل يَعِده بردّ يزلزل أقدامهم. قدّمنا له شايًا، وتحدثنا معه بشيء كبير من المجاملة، ثم تركناه يتحدث عن بطولاته مبالغين بالضحك أثناء ما كان يصف الطرق التي ابتكرها لإزعاج العمّال عند الأزقّة.

خرج من عندنا قبل صلاة المغرب ثم عاد سريعًا ومعه تسعة أولاد من شارعهم لهم نفس اهتماماتنا للمتاعب.

يعيد رأسه إلى الأمام، يرفع النقال، ويظهر وجهه كاملا:

عندما استقر الليل خرجنا من بيت أم غريب متّفقين على أننا من اليوم سنصبح معًا. «سيكون اسمنا» هتفت رافعًا قبضتي (يرفع ذراعه اليسرى ويشدّ على قبضته) «ربع الكأس». نظروا إليّ بازدراء فاستدركتُ بوجه غاضب: «ربع الكأس الشرير» (يضحك)، فازدادت النظرات وانسحبتُ متراجعًا خلف بشار أتوق ازدراءها. هتف سعد كوكو بصوت متحمس: «ربع الموت.. ما رأيكم؟». تلفّتوا على بعضهم يقيسون انطباع بعض عن هذا الاسم المرعب. دفعني إيقاع الاسم فتقدمت ثم قلت: «نعم، والله، ربع الموت، ربع الموت».

قضينا يوم الجمعة نستعد للمواجهة التالية، ستكون بمثابة إعلان دخول

اسم «ربع الموت» إلى ساحات المدرسة. وضعنا في بيت أم غريب عصيًا لففناها بأشرطة لاصقة ملوّنة.
أخرجت نبّاطتي ومرّنت سيورها. جمعت أحجامًا متفاوتة من الحصى لأك...

يقاطعه طرق على الباب. يسأل بصوت عال «من؟».
ثم يصمت يستمع إلى كلام لم يلتقطه التسجيل جيدًا،
فيجيب بعربية مكسّرة «ما يي الحين، بعد صلاة ظهر أنا
يجي ياكل عند ماما»:

(يهمس) أين وصلت؟.. (يرفع صوته) آه.. في الطابور..
في طابور الصباح اندهش مبارك عندما قلت له:
«يا ابن الكلب».
ردّ: «أنت ابن الكلب».
قلت: «ألعن أبوك».
رد: «ألعن أبوك أنت»
وفي الدقائق الخمس التي تفصل بين الحصة الأولى والثانية تشاجرتُ معه دون أن يكون هناك سبب؛ أمسكت بشعره من الخلف وأسقطته ثم ركلته على كتفه، ففرقونا.
حين رنّ جرس الفرصة الأولى، اجتمعنا عند السور الداخلي حتى جاءنا سعد كوكو والنمس ونادر وعزوز، وقد أتمّوا الخطة، تسلّقنا السور وأخبرنا النمس أنهم كما خطّطنا كمنوا لأحدهم خلف سلالم الصف الرابع المتوسط، ثم باغتوه وضربوه حتى بكى.

كنت فخورًا بعددنا الذي بلغ اثنين وعشرين ولدًا، نملأ الشوارع مثل جيش منتصر. أحسست أن لي ريشًا ورحت أنفُشُه بزهو.

كان سعيد في حديقتهم يحمل أخاه عندما وصلنا. لم أرَ فيه ما يوحي باستغرابه من عددنا الهائل. ركضتْ رغبة دافئة في صدري بأن أجلس معه وأحدّثه عن نجاحي: «هذا الجمع الذي تراه.. أنا سببه».

سرعان ما وقعت تلك الرغبة في شباك أعين الرفاق. فكّرت: ماذا سيقولون لو رأوني مع هذا المجنون؟ نعم هو مجنون بأعينهم، ولو كان عاقلا بعيني.

انتظرنا مجيء أحدهم لشارعنا. سيأتون ليثأروا. تحدثنا حتى ارتفع أذان الظهر. استغربنا عدم مجيئهم حتى الآن، سيخرج الطلاب بعد قليل من المدرسة ولم يأتِ أحد. مع ارتفاع الإقامة كنّا قد حسمنا الأمر على أن نذهب وننتظرهم عند باب المدرسة. وضعنا كتبنا داخل بيت أم غريب وأخذنا العصي الملونة. كان ريشي قد تلوّن وزها منتفشاً في نفسي، ودم الحماس يدفع برأسي إلى السماء.

وقفنا مقابل باب الخروج، تنظر إلينا أعين الآباء، الذين ينتظرون خروج أولادهم، وإلى عصينا بنظرات مرتابة.

عند أول دفعات الخروج رأينا مجموعة من ربع مصدّي، ففاجأناهم. كسرت عصاي على رِجل أحدهم، وساعدتُ عباس على الإيقاع بأحدهم. تلقيت ضربة قلم على كتفي. شجّ رأس الإيراني وسال الدم من أنف كوكو. كان بشار يصيح من خلف الجميع بأن لا نترك أحدًا منهم دون دم.

كدتُ أبكي من الفرح في طريق العودة بعد هروبهم منا في نهاية الأمر. لن يقف أحد بوجه «ربع الموت» بعد اليوم.

عدنا إلى بيت أم غريب واتفقنا على الاحتفال بعد صلاة العشاء.

اشتوينا لحم خروف، وبعض البطاطا أحضرتُها من بيتنا. أحضر سعد كوكو أبا سمرة، أغلقنا الغرفة، ورقصنا.

اتفقنا قبل أن نذهب إلى بيوتنا، أن نجتمع في زاوية مواقف المدرسة الخارجية في الصباح وندخل معًا، كي لا نترك لهم فرصة للنيل من أحدنا بمفرده.

وجدنا الناظر ووكيل المدرسة في انتظارنا عند الباب. «لن تدخل أنت وهو إلا

بوليّ أمرك» قال الناظر: «حرب النجوم التي حدثت أمس لن تتكرر حتى لو اضطررت لفصلكم من المدرسة جميعًا.. هيّا ابتعدوا وليُحضر كل واحد منكم وليَّ أمره».

جاء كل واحد معه والده، أو أخوه الأكبر. في صباح اليوم التالي. حضر أبي معي، إذ كان متفهمًا عندما أخبرته - متظاهرًا بأنني طالب حريص على مستقبله يحاول الأشرار تدميره - عن تحرشاتهم بنا، وأنهم لا يتركوننا ندرس ونركّز على الشرح، وأن الإدارة لم تفعل شيئا حيال هذا. قال أبي في نهاية حديثي: «إذن لا يحقّ لهم أن يمنعوكم من الدفاع عن أنفسكم».

التسجيل الثالث عشر

شبّاك زهرة

تفتح الكاميرا الخلفية على بداية شارع، لهاثه مرتفع، الوقت ليل، تكنس الأنوار البيضاء للبيوت الظلمة من أمام الأبواب، وتصنع مع أنوار أعمدة الإنارة الصفراء نورا شمسي اللون، يوجه الكاميرا إلى قطٍ أبلق مستلقٍ على مقدمة سيارة، ثم يعود إلى الشارع:

تباعدت العراكات الهامشية بيننا وبين ربع مصدّي، مناوشات في الفصول وفي ساحات المدرسة، وأحيانًا عند باب الخروج، ننجح بنهايتها في قهقرتهم إلى أن يتفرقوا بين الممرات، أو يعبروا الشارع العام هاربين. لمست تأثير قوتنا في الصف عندما رأيتُ عنق مبارك يلتوي إلى الأرض فور أن تتواجه أعيننا. ولم تتوقف قوتنا عند هذا الحد وحسب، بل مضت توسّع لنا الممرات في المدرسة كلها، وتخلي لنا الأماكن الأولى في طابور المقصف، إلى أن جاء رمضان وأغلق المقصف شبابيكه وتقلصت ساعات الدراسة.

تسكته نوبة سعال متواصل، تكف، ويبصق، ثم يهدأ اللهاث قليلا ويكمل:

صرنا نجتمع في بيت أم غريب قبل صلاة العصر في رمضان، نشوي بطاطا

أو دجاجًا أو نسلق بيضًا، نأكل حتى نمتلئ، ونعود في العصر إلى أهالينا وعلى وجوهنا شحوب صائم في انتظار الإفطار، ثم لا نخرج إلا بعد أذان العشاء، لنعصر بأقدامنا الشوارع والسكك ونتذوق رحيق الشيطنة، ولا نرجع إلا في ساعة متأخرة. فكرت بيني وبين نفسي ونحن نمر في أحد الملاعب التي كنا نلعب بها قبل الغزو: كيف كنت متحمسًا لهذه السخافات؛ وبشيء من الخجل تذكّرت الكرة التي اشتريتها بمئة ريال.. من محل بالرياض.. لم تمسسها قدم قط.. كأن هذا حدَثَ منذ زمن بعيد، أشياء كثيرة أخذتْ وقتها الكافي لتتبدل فيه.

نشطت شوارعنا في ليالي رمضان؛ الجيران يتبادلون الزيارات، سيارات تأتي من مناطق أخرى، نرى كل يوم أشكالا جديدة، أبناء عم، أبناء عمة، أبناء خال، أبناء خالة، تزداد نارنا في بيت أم غريب توهجًا في الأماسي، نستمع إلى الزوار يحدثوننا عن مناطقهم، يقصون علينا قصصًا عن الشرور التي اقترفوها مع أولاد شوارعهم، نتبادل معهم القصص والطرق المفعمة بالأذى لقضاء الوقت. ومن ذلك أن زارنا ابن عمة سالم النمس يومًا، ولد اسمه جمال، أطلقنا عليه بعد ذلك لقب «السُّحت». وفيما كان السحت يحدثنا عن سرقة قام بها مع ثلاثة من رفاقه لخيّاط ملابس نسائية وجدوا في أحد أدراجه خمسين دينارًا، أخرج من رقبة جواربه علبة سجائر كان يخبئها عن والده ودخّن واحدة؛ حدّثنا أن السيجارة ممتعة ولا تضرّ. طلب منه كوكو سيجارة ليجرّب، فدخن كوكو. تناولنا سيجارة كوكو وأدرناها على شفاهنا حتى ترمّد آخرها. قبل أن يذهب السحت ترك لنا العلبة بما تبقى بها، ودخلنا مرة أخرى في تجربة تدخين.

يبدل التصوير إلى الكاميرا الأمامية، حيث وجهه مبللا
بالعرق، عليه تيشيرت أزرق، حاسرا الرأس:

وعندما انتصف الشهر، وراحت حشود الأولاد والبنات تطوف على الأبواب قرعًا، يهتفون: «قرقيعان وقرقيعان»، انضممنا إلى حشد الأولاد، نقرع الأبواب، ونردد بصوت إيقاعي واحد «قرقيعان وقرقيعان»، فتنثال في أكياسنا الحلويات والمكسرات حتى الامتلاء. نعود لبيت أم غريب نأكل، ثم نشعل سيجارة ونتبادلها، إلى أن ينتصف الليل، فنفترق كلٌّ إلى بيته.

ينعطف يمينا وتصبح الخلفية على بيت له شبابيك أرضية
كبيرة تظهر أحدها رؤوس رجال، أمامهم تلفزيون كبير:

في ثالث أيام القرقيعان، اليوم الأخير، قبل أن أدخل بيت أم غريب، رأيت سعيد في حديقتهم يبحلق بي، ناديته، قفز إلى رصيف بيت جدّته. طلبت منه للمرة الثالثة منذ بدأ رمضان أن يدخل معي بيت أم غريب، شجّعته: «لا تخف، الموت لا يأتي في رمضان». وأصرّ للمرة الثالثة على أن الموت لا يمكن تكبيله. «حسنا، أحضرْ سعد وخذ معك كيسًا، وانتظرني هنا، سنذهب نقرقع».

في الداخل وجدت سالمًا النمس يتبادل سيجارة مع ابن عمته السحت الذي جاء يزورهم ثانية، أخذت دوري ودخّنت. كان تنفيخا فقط، حتى قال السحت: «لا تنفخ هكذا مثل الأطفال، اسحبه إلى داخل صدرك، ثم أخرجه من أنفك، مثلما يفعل الرجال». سحبت الدخان إلى صدري، فاستحالت الدنيا في عيني لحظة إلى ضباب كثيف، تبدد مع سعال شديد كاد يفجر رئتي، وأخذ رأسي يلف على جدران الحوش.

«تماسكْ» قال السحت «إنها فقط في المرة الأولى».

قلت أفحّ: «كادت تقتلُني».

خرجت مترنحًا، بعد أن استعدت نفَسي، تلاحقني قهقهات النمس وابن عمته الملعون.

اندفع سعيد بوجهي يحمل أخاه سعدًا، جلست على الرصيف أستنشق الهواء.

«ماذا بك؟» سألك سعيد.

«كنّيت سيجارة».

«ماذا تقصد؟».

جلس بجانبي وأخوه على فخذه.

شرحت له: «أدخلت دخان سيجارة إلى صدري هكذا»، وأخذت شهيقا أريه كيف.

«فعلت مثل مرعي».

«نعم».

«ربما ستموت قريبًا.. جدتي تقول لمرعي إن الدخان سيقتلك».

رجعت إلى طبيعتي بعدما توقف رأسي عن الزجّ بي إلى الأرض. فقمنا للانضمام إلى مجموعة أولاد جاؤوا من شوارع مختلفة، إلا أن وجه سعيد الصّخري أخافهم فطلبوا منّا أن نبحث عن آخرين. وجدنا مجموعة أخرى، عرفتُ ثلاثة منهم، وبعدما طفنا معهم الشارع التالي أخذني أحدهم على جنب وقال لي: تلقانا في آخر الشارع الثاني عند المحول، بعد أن تُبعد هذا الرجل الذي بصحبتك وأخاه. وهكذا قررت أن أطرق الأبواب مع سعيد وأخيه بعد أن كررت معه كلمات القرقيعان بإيقاعها الراقص، ولمّا خرجت لنا امرأة من أول باب، جأر سعيد بصوت مفجوع: «قرقيعان وقرقيعان، بيت اقصيّر ورمضان، عطونا الله..»، فصفقت المرأة الباب بعد شهقة رعب، وسعيد مستمر: «... بيت مكة يوديكم».

«توقف توقف» قلت «أغلقت الباب يا جونكر». (يلج سكة ضيقة ويخفت النور تدريجيا، يبدل إلى الكاميرا الخلفية، عن يمينه وشماله صفي بيوت، يبطئ المشي، وهو يواصل الكلام) اتفقت معه على أن يُخفض صوته، وطفنا ثلاثة شوارع، في كل شارع كنّا نطرق أربعة أبواب، وفي كل مرة تخرج امرأة أو فتاة تفرُّ إلى الداخل من منظر سعيد..

ما عدا بابًا واحدًا

ذلك الباب الأزرق المقلّم بخطوط بيضاء .. طرقته وابتعدت، ثم طرقته بعد ثوان ووقفت أمامه، وفي الثالثة فُتح شبّاك بزاوية البيت، شممتُ رائحة مطر يوم رجوعنا بعد التحرير، وأطلت الفتاة التي رأيتها ذلك اليوم خلف شبّاك، ترتدي حجابًا أحمر مطرزةٌ حوافُّه بالزري، وقد أخرجت يدها بحلوى من بين قضبان الشباك، وأمسكت بيدها الأخرى كيس الحلويات استعدادًا لتعطي المزيد؛ لما رأت سعيد تراجعت. «لا عليكِ» قلت بصوتِ متسوّلٍ أشير إلى سعد: «جئنا من أجل إسعاد هذا المسكين».

وقفت الفتاة دون أن تحرك ساكنا، فترددت قليلا ثم (يخرج من أحد البيوت رجل، ويسير باتجاهه) وضعت في كيسي غرفة من الحلوى وهي صامتة. شممت رائحة بهارات متوارية خلف وشاح رقيق من رائحة الحلوى. تفحصتُ وجهها الجميل، ثم انسقتُ خلف إعجابي بجمالها:

«لم تقولي لنا اسمك.. الأغنية، الأغنية».

فأغلقت الشبّاك. (يمر الرجل من جانبه، ومن النور الباهت يبدو أنه عامل، ويتجاوزه فيما هو مستمر في حديثه) التفتّ حولي، لم يكن في الشارع غيرنا، لم يكن ثمّة سيارة أمام البيت. شعرت بحرارة غريبة تحرقني للاندفاع، فطرقت الشباك، ثم طرقته وطرقته، حتى فتحَتْه الفتاة عابسة:

«ألم أعطكَ ما يكفي؟».

«بلى، ولكن يجب أن نغني لك».

كنتُ أشعر بحماس شديد لتقبُّل أيّ رد فعل منها مهما كان غير مرضٍ:

«لن نذهب إلا بعد أن نغنّي لك».

انفرد وجهُها بعض الشيء:

«اسمي زهرة».

رجعت إلى الوراء استعدادًا لأغني: سلّم زهرة يا الله، خلّها لأمها يا الله. لكنني فكرت: فتاة جميلة اسمها زهرة سيسلمها الله وسيخليها لأمها دون الحاجة لأي

أغنية. لاح في ذهني أن أحضر أبا سمرة هنا ليعزف لحن الأغنية بعوده. ارتبكت وهي تنظر إلي منتظرة مني الانتهاء من الأغنية التي لم أبدأها بعد. سألتني:

«ألستَ كبيرًا على القريعان».

استعرتُ ابتسامة الشيخ صابر عندما يعظ: «هه، أنا لا أقرقع لنفسي كما ترين، جئتُ لأسعد هذا المسكين».

«أين تسكن؟».

«بيتنا قبالة المسجد الذي على الشارع العام».

«لا أعرفه» قالت مقدّمة رأسَها قليلا، ثم أدارت عينيها باتجاهَي الشارع تتأكد من أن أحدًا لا يشاهدنا: «و.. وما اسمك أنت؟».

هتفت: «فهد».

«أخفض صوتك.. فهد ماذا؟».

«فهد نشوان».

«نشوان.. نشوان.. نشوان» جعلتْ تردد اسم أبي رافعة عينيها إلى الأعلى زامّة زاوية فمها كما لو أنها تبحث في ذاكرتها عن شبيه له «لا أذكر أنّ واحدة من زميلاتي في المدرسة اسم أبيها نشوان».

«أنت في المتوسطة؟».

«نعم، أعني كنت».

قلتُ أتزلّف:

«متأكد أنك متفوقة».

التفتت وراءها وعادت مبتسمة:

«تركتُ الدراسة قبل الغزو. اسمع، هناك سكة خلف بيتنا، تعال معها، ستجدني عند الشباك».

قلت لسعيد إن وقت القرقيعان انتهى إلى الأبد وعليه أن يعود إلى بيتهم. أعطيته كيسي بما فيه من حلويات. انطلقت طاويًا الشارع بسرعة إلى الزقاق الترابي الذي يقود إلى مواقف المدرسة الابتدائية، حيث رأيتها أول مرة، تحدّثني

نفسي أنّ وجه سعيد يجلب الحظ الطيب.

يبطئ الخطو عند أحد البيوت عن شماله، يوجه الكاميرا
إلى شباك ينحشر كرتون ما بينه وبين القضبان الحديد،
ويبدو من حواف واجهة البيت المقشّرة أنها مهملة:

أطلّت زهرة بثلث وجهها من بين قضبان هذا الشبّاك، أشارت بيدها كي أراها، اقتربت وعيناي توزّعان حذري أمامي وورائي.

كان الشبّاك معتمًا زجاجه بجلاد مثل الذي كنّا نستخدمه لتجليد كتبنا، لونه أبيض وعليه رسوم أزهار بخطوط خضراء رفيعة.

تكشفت زهرة دون حجاب، تاركة شعرها الأسود يخبرني كم أنا محظوظ برؤيته. هبّت علي من شباكها روائح بهارات كثيفة، وقفت صامتاً أنظر إلى وجهها حتى قطعت تأملي:

« هل لديك أخت في الثانوية؟».

تحدثنا عن أشياء كثيرة، صوتها رقيق، قلت لها إني في الصف الثالث الثانوي، وأشياء كثيرة قلتها عن عدم رضاي عن أبناء قطعتنا المزعجين الذين يجلسون في بيوت مهجورة.

سألتها عن روائح البهارات الكثيفة، والتي تهبّ من الغرفة. أخبرتني أنها تساعد والدها في تحضير البهارات لبيعها في سوق الجمعة. سرعان ما شعرت أن لها نكهة مختلفة عن كل ما رأيته.

اقتربت من الشباك وألقيت نظرة، كانت الغرفة صغيرة ومليئة بأكياس كبيرة تشبه أكياس الأرُز، فيها مساحيق لها ألوان مختلفة؛ وكرسي وطاولة عليها ميزان وأكياس صغيرة، على يسار الطاولة كان.. سرير.. اضطربت.. سرير عليه امرأة نائمة، تراجعت، فقالت:

«لا تخف، هذه أمي، لا يمكنها الحراك».

مددت رأسي ثانية، رأيت المرأة مسجاة على ظهرها، مغطّاة إلى صدرها بلحاف لونه أحمر، بجانب السرير طاولة صغيرة عليها مجموعة كبيرة من الأدوية.

عرفت أنها الأخت الكبرى لثلاث بنات وولدين، أصيبت أمها بمرض، قبل الغزو بسنتين، أتلف شيئا في النخاع الشوكي، ضمرت بسببه عضلاتها تدريجيًا، وقضى على النطق لديها والسمع والرؤية. تعتقد زهرة أن قواها العقلية لا تزال تعمل، على الرغم من أن الأطباء يقولون إنها ليست كذلك. ختمت القصة بصوت حزين:

«فتركتُ الدراسة منذ ذلك الحين وتفرغتُ للاهتمام بوالدتي».

مثّلت أمامها أنني أمسح دموعي تأثرًا بقصتها، ثم صمتُّ ساهمًا في السماء حتى سألتْني عن الدراسة لتلطّف الجو، فحدّثتها عن الترتيبات التي أجريها الآن للامتحانات النهائية وعن حيرتي في اختيار التخصص بعد الثانوية، وتحدثنا عن سعيد وأخيه، قلت لها إنني أشفق عليهما، هذان المسكينان ليس لهما أحد في الحياة يدافع عنهما.

يترك الشباك عن شماله ويتابع السير

تلك الليلة، عندما عدت إلى بيت أم غريب، أخذت نفَسًا من سيجارة أشعلها سعد كوكو و«كنّيتها» مخرجًا دخانها من أنفي، كاتماً اندفاعات السعال. كنت أريد أن أكون رجلا بأسرع طريقة.

لم يُجبني سعيد لمّا سألته، حين خرجت ووجدته جالسًا بحديقتهم، عن رأيه في جمال زهرة. بحلق بوجهي إلى حين ثم قال:

«عيب عيب، عيب عليك».

أخبرت سعد كوكو عنها في طريقنا إلى البيت. قلت له كل شيء. أعطاني بعض الإرشادات التي تعلَّمَها من الأفلام:

«البنت تريد الجريء الذي لا يخاف، اطلب الجلوس معها في البيت وانظر كيف ستحبك بسرعة، لا تكشف لها أنك مرتبك، أشعرْها أنك معتاد على التحدث مع الفتيات، قل لها مثلا إن صوتها يشبه صوت ثالث فتاة ربطتك بها علاقة». (يقترب من نهاية السكة، يرسل عمود إنارة خيوطا صفراء إلى الكاميرا، تمر سيارة من ورائه) سرّحت شعري، بعد أذان العشاء، ورششت عطرًا وجدته في غرفة أمي، ثم خرجت.

يظهر وجهه يلمع بنور أصفر، تغور السكة خلفه ولا يبين
بها إلا بقع ضوء تأتي من شبابيك تطل عليها:

كنت قد قضيت ليلتي ألوّن أحلامًا لم أعهد نفسي بها، وأفكارًا لم تراودني من قبل: أنا الذي لم أعرف فتاة من قبل، ولم أفكر بذلك، أصبحت فجأة مشغولا بكيف يحتفظ الفتى بفتاة لأطول مدة ممكنة، وما المواضيع التي تحب أن تسمعها الفتيات، وماذا ينبغي علي قوله إذا ضحكت، أو ماذا أفعل إذا رأيتها متكدرة.. الملابس التي سأرتديها.. الهدايا التي سأقدمها.. المواعيد المناسبة.. كيف أضحك.. كيف أستأذن للانصراف؛ لم أترك شخصية عاشق رأيتها في مسلسلاتي الكرتونية إلا استحضرتها تلك الليلة لتدلني إلى الطريق الصحيح.
نقرت الشباك، فتلألأ من خلف قضبانه وجه زهرة يبتسم ورأسها دون حجاب.
أصبحت أجيء إلى شباكها ما تبقى من ليالي رمضان، بعد صلاة التراويح، وكانت تتكلم عن أي شيء، وكنت أعجب منها بأي شيء.

التسجيل الرابع عشر

سر الليل

يبين عليه احمرار التأثر بالحر، جالسًا على عتبة الباب، تظهر يده ثم تتسع الكاميرا الخلفية على حديقتهم، مظلات سيارات على جانب قبالته، صف أشجار الكونوكاربس أمامه على بعد عشرين مترا، تطل من فوقها منارة مسجد، تعود الكاميرا إلى وجهه.

في أول يوم عيد، بعد صلاة الظهر، ذهبت لبيت أم غريب، وفي جيبي عدد من أرباع الدينار، ربما يصل مجموعها إلى خمسة دنانير، حصيلة للجهد الذي بذلته في ديوانيتنا وأنا أغزل بدلّة القهوة بين الضيوف. بعث دفء الجو رغبة مزعجة لفعل الخير، لقيت في الداخل ثلاثة من الأصدقاء، والبقية قد سبقونا إلى الجزيرة الخضراء. تفحص كل منا ملابس الآخر الجديدة ونعله، ثم عد كل واحد أمام الآخرين حصيلته من العيديات؛ قال بشار، منتهيًا بثلاثة دنانير بيديه، إنه خبّأ بقية العشرين دينارًا التي حصل عليها في بيتهم. وقال سالم النمس، الذي كان معه سبعة دنانير، ضاحكا بسنّه المكسورة إنه أخذ من جيوب إخوته الصغار بعضًا من عيدياتهم. خرجنا من سكة جدة سعيد، فرأيته وأخاه يجلسان في الحديقة، أبطأت أنظر إليهما، لم تكن ملابسهما جديدة مثلنا، لم تحل بهجة العيد في نفسيهما كما حلّت في نفوسنا، كانا ما زالا في يوم أمس، أو اليوم الذي قبله، بل لم يبرحا الشهر الفائت. مسّ قلبي عليهما طارف من حزن. دفعني أحد الأصدقاء من خلفي ليقطع استرسال منظرهما في شفقتي. تقدمت أنظر إلى

الأمام فناداني سعيد: «فهد فهد»، ولما التفتّ إليه، قال: «لدينا كيك، كيك، ليس الآن في الصباح تعال، تعال كيك».

عبرنا الساحة والتففنا وراء فرع الجمعية إلى الشارع العام، وعندما وقفنا عند مظلة حافلة المواصلات، ننتظر أي تاكسي أو وانيت، يقلّنا إلى الجزيرة الخضراء، سألني النمس بخبث: «هل أصبحت وجونكر أصدقاء؟»، ضحك البقية. شعرت بالإحراج فقلت: «أنا أعطف عليه فقط».

قال بشار: «بل تعطف على كيكهم»، ضحكوا، ازداد حرجي أكثر.

توقفت سيارة وانيت يقودها رجل كبير في السن، اتفقنا معه على دينار وربع إلى الجزيرة الخضراء، وركبنا.

لم أستمتع طيلة تلك الرحلة الترفيهية، إذ أخذ شكل سعيد وأخيه يعصر حلقي بمرارة أبتلع بها ريقي في كل لحظة. قطع منظرهما البائس مسافة طويلة في شفقتي. دخنت سيجارتين متتاليتين لأبدد الصورة المزرية تلك، لكن دون فائدة. لا أعرف ماذا أصابني، أردت أن أبكي، أبكي عليهما فقط.

عدنا في الليل، وذهبت إلى شبّاك زهرة، وجدتها تنتظرني متأنقة.

إذا ما وقفت أمام شبّاكها، يختفي كل شيء من حولي، بسبب سطوع مصابيح الغرفة؛ فيغدو وجهها، والنور المجهر من خلفها، مكلَّلا بهالة نورانية تشعرني بأنها تشع من داخلها، بإمكانها إنارة أي ظلمة أذكر اسمها بها.

دارت حول نفسها تأخذ رأيي بفستانها في العيد، قلت إنه أجمل فستان على كوكب الأرض، احمرّت، وحدّثتني عن زياراتها لبيت خالتها الكبرى الذي تجتمع فيه الخالات، وكم العيديات التي حصلت عليها، وانتقدت فساتين بنات خالاتها الخالية من تناسق الألوان. قصّت علي تفاصيل الزيارات، الأكل، الأحاديث، خطة الرحلة الترفيهية ليوم غد مع بنات خالتها الكبرى، زفرت تقول: «أخبرني.. كيف كان يومك؟». حدثتها عن الجزيرة الخضراء، عن الفرقة التي رقص الرفاق على أغانيها، عن الخمسين دينارًا التي صرفتها هناك؛ ثم وجدتني أتحدث عن سعيد، متمالكا نفسي عن البكاء.

«مظهره يا زهرة قطّع قلبي».

«بسم الله على قلبك».

عدت إلى البيت تفوح من فمي رائحة أوراق ياسمين مضغتُها قبل أن أدخل لأبعد رائحة السجائر، واضطجعت على فراشي، وراح وجه سعيد ينبجس منه ماء في مخيلتي ويسيل من عيني حتى بلّل وسادتي.

يذهب نظره بعيدًا، ترتجّ الصورة ارتجاجًا يتّسق مع خطواته، ثم يدخل ويغلق الباب، تنكشف لمحات سريعة من أجزاء الغرفة، ثم تثبت على الأريكة، ويظهر اللون الأحمر لقماشها، يُسمَع صوت شُرب، يعود وجهه، يتلمّظ، يأخذ نفسًا ثم يقول:

ركضتُ في ثوب العيد إلى بيت جدة سعيد، بعد صلاة عصر اليوم التالي، طرقت الباب حتى فتحه سعيد بوجه متماسك، قلت: «أحضر سعد وتعال». تحجّر وجهه يقول: «أين إلى أين؟». قلت متحمّسًا: «هيّا أحضر سعد والحقني وستعرف». (يشرق وجهه بسرور) هرولنا إلى شارعنا، توقفّنا أمام موستنج حسن الحمراء، كان سقفها مكشوفا، طلبت منه أن يقف بأخيه هنا وذهبت أدقّ جرس باب جارنا، خرج حسن. «ها هما» قلت أشير إلى سعيد وأخيه. «زين، هيا بنا» قال حسن وهو يفتح باب الموستنج. سحب كرسي السائق للأمام، جلست في المقعد الخلفي، وقف سعيد حاملا أخاه عند الباب الآخر لا يعرف ماذا يفعل.

كنت بعد صلاة الظهر في مجلسنا عندما زارنا حسن وأبوه ليُهنّئا أبي بالعيد ويشاركانا وليمة الغداء، وبعدما تناولنا الغداء، وقف عند الباب يريد الذهاب، فأشار لي بيده أن تعال. تركت المبخر عند الوجار وجئته. طلب مني أن أكون عند بابهم بعد صلاة العصر ليأخذني بالجولة التي وعدني بها على منطقتنا،

وابتسم: «هذه عيديّتك مني». تذكرت سعيد وأخاه، وطلبت أن أصطحب معي صديقين، فرحّب.

«ألا يريدان الركوب؟» سألني حسن. «بلى يريدان» أجبته وتوجهت إلى سعيد: «اركب سعيد، لا داعي للحياء، هيا لا تفوت الفرصة، اركب». ثبت سعيد مثل تمثال حجري. أصررت: «سعد يريد الركوب، انظر إلى وجهه». كانت عين سعد مثبتة على الكرسي الذي بجانب السائق، فتحرك سعيد أخيرًا عندما رأى في وجه أخيه الرغبة، وفتح الباب.

كانت الشمس لطيفة، والهواء منعشا يمر من فوق رؤوسنا. قاد بنا حسن في الشوارع الداخلية بأناة، ولما استقللنا الشارع العام رفع المسجل على صوت عبدالله رويشد «قلبي معك يا مشغل البال ملتاع». مددت رأسي من بين المقاعد الأمامية أنظر إلى سعد في حضن أخيه، كان يبتسم ابتسامة واضحة، بل ظننت أنه يضحك من السرور، كان رأس سعيد مثبتا إلى الأمام، غمزته من كتفه بأن انظرْ إلى سعد، عندما طالع أخاه تملّكت وجهه ابتسامة على شكل بكاء، لا أعرف كيف أصفها، لكنها كانت ابتسامة نادرة لم أر سعيد يبتسم مثلها من قبل ولا من بعد. كانت صورة وجهه لديّ تلك اللحظة كجبل انشقّ عن جدول ماء. «ياللي عيونك حلوة سود ووساع» غنّى الرويشد، فتخيلت وجه زهرة. خفف حسن السرعة عند مطب، ولمّا تجاوزه اندفع بكل قوة الموستنج، فزأر المحرك وصرخت الإطارات ثم زحفت السيارة على جانبها قليلا فاعتدلت منطلقة بنا. ترنحنا بداخلها. أخذني الحماس فوقفت مادًا يدي مثل طائر، «ما للهجر يا زين في الحب داعي». قلت لزهرة في خيالي: أنت جميلة. أجلسني حسن كي لا أسقط، طالعت سعيد كان ينظر إلى أخيه مسرورًا، وكانت ابتسامة سعد ابتسامة أساسية وليست طارئة، تقول إنه تجاوز حد السرور الذي عرفه طيلة حياته، ودخل منطقة جديدة من المتعة لم يسبق له أن وطئها. مررنا صوب الجمعية الرئيسة. كان العمال يقومون بتركيب وجه الأرنب الجائع على المطعم. أسرع

حسن مرة أخرى، قبل أن تنتهي الأغنية. تجاوزنا كل السيارات التي أمامنا، ثم ركدت الموستنج واستدرنا مع الدوار، ومضت بنا متحفزة لأي انطلاقة يشاؤها حسن. لففنا شوارع الفردوس الرئيسة حتى عدنا أخيرًا إلى شارعنا.

نزلنا، شكرته، التفتُّ إلى سعيد أحثّه أن يقول كلمة أو إيماءة شكر. فما كان منه إلا البحلقة في وجه حسن. جررت يده إلى بيتهم. كانا ما زالا في نشوة ركوب الموستنج. نطق سعيد: «لم أر سعدًا مسرورًا هكذا من قبل». كانت جملته هذه عبارة شكر، قالها ومضى إلى بيت جدته، ودخلتُ بيت أم غريب.

كانوا جالسين يدخّنون أمام النار. أخذت سيجارة من العلبة التي اشتريتها أمس من الجزيرة الخضراء، وكنت قد تركتها تحت فرشة الغرفة آخر الحوش. مد النمس يده فأعطيته سيجارة، تبادلنا الحديث عن ربع مصدّي، ثم غيّر عزوز العور الحديث وأخبرنا بحماس عمّا فعله سرّ الليل ليلة البارحة بدورية يقودها ضابط، وصف لنا عباسٌ الإيراني حديقة رأى فيها دجاجًا سمينا.

كان أذان العشاء وشيكا عندما رفضت أن أعطي النمس آخر سيجارة تبقت في العلبة. عايرني بالبخل فأخرجت السيجارة إمعانا في إغاظته وسحقتها بقدمي.

فقال يغيظني:

«لو طلبها جونكر لقذفت نفسك تحت قدميه تشعلها».

سفّهته، ولمّا رأى على وجهي التأثر، زاد:

«ماذا سيهمّك، سيجمع لك جونكر أعقاب سجائر مرعي؟». ضحك من كان معنا من الرفاق، واستمرّ النمس:

«سنسميك فهد دونكر كي تتلاءم مع سعيد جونكر».

طرَقَ الضحكُ الفاقع الذي تزايد عينَ كرامتي، لم أحتمل. قمت وركلت ساقه، فقام ولكمني على أنفي ثم شدّ شعري فسقطتُ وركلني على فخذي حتى خلصني الرفاق منه. «سأكسر سنّك الأخرى أيها النمس الوسخ» قلت وأيدي الرفاق تجرني.

فقال وهو يحاول التخلص من أيديهم: «سأقطع أذنيك الطويلتين يا أبا أذاني

وأرميهما في وجه جونكر». بصقت عليه، بصق علي، يقول: «إذا كنت رجلاً فتعال، ابرزْ لي رأساً برأس». تظاهرت بأنني أريد التخلص من أيديهم لأنقضَّ عليه أقول: «هيّا هيّا تعال، هذا ما أريده». رفض الرفاق ذلك، وقال كوكو: «أنتما كالأطفال». ورمى علبة سجائر كاملة على الأرض يقول: «خذا، هذا الذي جعلكما تتعاركان». فتوقف سالم عن الاندفاع، وتوقفت.

لم أنتبه إلى أن أنفي يرعف إلا عندما قال لي عباس ذلك.

سال الدم من أنفي تلك الليلة وبقّع صدر ثوبي وكمّه الأيمن. غسلت أنفي عند ماء سبيل أبي سالم. لم أذهب لشبّاك زهرة حتى لا تراني هكذا. أخذت أجوب الشوارع ومعي عباس الإيراني وبشار النحلة يحاولان تهدئتي، حتى انصرف كل منّا إلى بيته عند مواقف السيارات. شعرت طوال الطريق إلى بيتنا أن علاقتي بسعيد أصبحت محل نقد، وربما ستضر بسمعتي عند الأولاد وتمنع تميّزي الذي أسعى إليه. تصورت كيف سيقهقه ربع مصدّي إذا رأوني برفقته، وربما يستسهلونني فأصير أداة يظهرون بها قوتهم. قررت، وأنا أدخل سكّة الجني، أنه يجب ألّا تمتد صحبتي مع سعيد لأبعد من حدود حديقة جدّته.

وعند نهاية السكة، قبل أن أُنزل رجلي من الرصيف، حدث شيء غريب.. شيء خارج عن كل الاحتمالات الممكنة..

رنّ منبّه سيارة قادمة من يميني، التفتُّ.. كان «سر الليل».

عدتُ إلى الرصيف ليمرّ، فعبر من أمامي هادئا متأنّيا، كما لو أن سيارته تسبح فوق سطح نهر راكد. تأتي من داخلها دمدمات موسيقى تكبتها النوافذ، لم يسمح زجاج السيارة الداكن برؤية من فيها. لم يبتعد كثيرًا حتى توقف، ثم أنارت أضواء الرجوع الخلفية، وعاد للوراء إلى أن توقف عندي. انخفض صوت الأغنية، أنزل ربع الزجاج، ابتلعتُ ريقي، انحنيتُ أنظر إليه، كانت إنارة المقصورة الصفراء الواهنة تقف مع ظلام المقصورة في تصعيب الرؤية. تفشّت رائحة سجائر قوية.

«مرحبًا» قال بصوت بالكاد يُسمع.

«مرحبًا» رددتُ.

سألني:

- هل هذا دم الذي على ثوبك؟
- ....
- أتسمعني.. هل الذي على ثوبك دم؟
- نعم.
- من ماذا؟
- تشاجرتُ مع ولد.

توهّجت جمرة سيجارة بداخل السيارة:

- هل إصابتك بالغة؟
- لا، دم من أنفي فقط.
- حسبتك مطعون.

أغلق زجاجَ النافذة وتقدّمتِ السيارة ببطء، سامحةً لي بأن أشاهد بيت الشِّعر على الزجاج الخلفي عن قرب «سريت والليل فيه أسرار.. سرّ المحبين سرّ الليل». حتى انعطف من الشارع، فأكملتُ طريقي إلى البيت، ودغدغة الفرح، من سماع صوت سرّ الليل، تزيل عن أنفي بقايا الألم. لم يسبق لي أن شعرت أنني مهمّ إلى هذا الحد. الطريقة التي تحدث معي بها سر الليل جعلتني أتفاقم.. كلمت سر الليل.. أنا.. أول من يكلمه.. بل وربما هو يعرفني الآن، نعم.. تحدثنا.

لقيت أبي في الصالة، قلت له إن سالم ركل الكرة على وجهي ونحن نلعب.

اضطجعتُ على فراشي، أستعيد صوت سر الليل، حتى غلبني النوم.

تتحول زاوية الكاميرا، يرفع علبة بيبسي ويجرع منها، يُسمَع
صوت ازدراده، يتجشأ مغلقاً فمه، ثم يجرع مرة أخرى،
يتلمّظ، يتابع:

أخبرتُ بشار في طريقنا إلى بيت أم غريب عصرًا عن لقائي بسر الليل، خزرني بنصف عينه وأخرج لسانه.

دافعت عن تميّزي الذي يريد إلغاءه:

«أقسم بالله، وسألني عن الدم الذي على صدري، وأخبرته أنني تشاجرت، ثم سألني من غلب».

«وهل رأيت وجهه؟».

«نعم، لا، أعني.. السيارة كانت مظلمة من الداخل، فلم أستطع رؤية وجهه».

ضحك ثم صمتنا حتى وصلنا بيت أم غريب، فقال ونحن نسير في الحوش:

«يا رفاق، فهد يقول إنه كلم سر الليل أمس».

ترك عزوز الإبريق فوق النار وسألني:

«ماذا قال لك؟».

شعرت بالحرج، فأخبرتهم بما جرى. قال بشار:

«سنسميك: سر العصر، أو سر المغرب»، فضحك الجميع. دافعت عن صدقي:

«أقسم بالله إن هذا ما حصل».

«لا تزعل، سنسميك أذاني الليل» قال كوكو.

يتجشأ من أنفه مغلقًا فمه، يبتلع ريقه ويستأنف:

عقد كوكو والرفاق صلحًا بيني وبين النمس لردم الجفوة التي حدثت بيننا. كنت أريد أن أشترط للصلح ألا يمسّ النمس علاقتي بسعيد لا من قريب ولا من بعيد، لكنني خفت أن تصبح الضحكات علنية، خصوصًا بعد تهكمهم عليّ في خبر حديثي مع سر الليل، فاكتفيتُ بشرط ألّا يمازحني ولا أمازحه.

أصبحتْ صورة لقائي مع سر الليل أثر طلقة خارج دائرة الإصابة. حدث عظيم كان من الممكن أن يُقرَع من أجله باب بيتنا، لكن لم يشهده أحد، ولن أستطيع إثباته.

استمروا ثلاثة أيام يعايرونني بسر الليل، كانوا يقولون: «فهد.. انظر هل لدى سر الليل ولاعة».. «مرة واحد كلّم سر الليل فصار سر الصبح».. «فهد، سر الليل يريد تركيب أذنيك على المقدمة، لأنها توازن السيارة»، وأشياء كثيرة من هذا القبيل. كنت خلالها أخرج من بيت أم غريب غاضبًا، أركل في طريقي أي شيء أجده.

لم يعد أحد يعايرني بسعيد، إلا أن شعورًا ثلجيًا يسقع بداخلي ويجمّد ماء وجهي كلما رآني أحدهم جالسًا معه. وبدأت أوسوس: ماذا يقولون عني من ورائي؟ لأنهم كانوا يتحاشونني إذا رأوني مع سعيد وأخيه، حتى بدأت أبتعد عنهما كلما رأيت أحدهم قادماً وألج بيت أم غريب.
لم يفسر سعيد تركي لحديثي معه فجأة، عندما أرى أحدهم قادمًا من أول الشارع، بشيء؛ أو لعله فسّره بأني أستحيي من مجالسته، لكن طبعه غير المكترث لم يدْعُه إلى التأثر بتصرفي. بدأت أقلّص وقتي معه، وبدأ هو يزيد من دعوتي أمامهم على الكيك الساخن، عندها كانت الابتسامات تفرّ من الشفاه مصحوبة بنخرة أو ضحكة مكتومة يفلت جزء منها، وكان وجهي يتحول عندها إلى قالب ثلج متصدع، أذيبه بذكرى لقائي مع سر الليل.

صرت أقلل من ذكرهما عند زهرة، وعندما تسألني عنهما أجيبها بأنهما بخير فقط وأتهرب إلى سؤالها عن آخر مشكلة حدثت في بيتهم، فتجيبني باستفاضة عن مشكلة حدثت يوم أمس، أو صباح اليوم، أو حتى قبل قليل، كان هناك دائمًا مشكلة تحدّثني زهرة عنها، كأنها تسكب من دلو امتلأت في داخلها. «أففففف اليوم أبي قال..»، «ماذا أقول.. في العصر طلبت من أخي..»، «فصرخت في الحوش عليه..»، «أبي قال إنني لا أجهّز البهارات كما يجب..»، وبعد أن تفرغ، تأخذ نفسًا عميقا وتخرجه من بين شفتيها، وتصمت قليلا ثم تقول: «قل لي كيف كان يومك؟»، وتبدأ تسألني عن المدرسة، وعن أصدقائي،

وعن بيتي وعلاقة أمي بأبي، كنت أجيب دائمًا كما لو كنت أحد الطلاب الذين يخرجون في البرامج التوعوية على التلفاز، حاشراً بعض كلمات الإنجليزية التي أعرفها في الحديث. ثم أعود منها إلى شارع أم غريب، تقف على طرف عيني نظرة شفقة عند بيت جدة سعيد، أتأمل بها شجرة السدرة، أفرّغ بها عن صدري ضغط الشعور بالحرج، ثم أمضي إلى البيت، ملوحًا بوجه زهرة أمام كل عتمة تأتي بطريقي.

يرفع رأسه ليفرغ ما تبقى في علبة البيبسي إلى جوفه،
يُسمَع صوته يشفط بقية البيبسي على حواف العلبة،
يبتلع ريقه، يتجشأ، يتنحنح، يقول:

هرع الوقت يركض بسرعة، لم أعد أجلس مع سعيد كما كنت سابقا. لحظات قليلة وحسب، إذا صادف ووجدته في حديقتهم قبل أن أدخل بيت أم غريب.
لما استؤنفت المدرسة بعد عطلة عيد استمرت عشرة أيام، كنت قد أمضيت ثلاثة أيام لم أكلم بها سعيدًا. كان يحاول أن يفتح معي مواضيع كثيرة بطريقته غير الآبهة: يسألني متى يأتي موعد قرقيعان القادم، أو يطلب مني اسم الأغنية التي شغلها حسن في الموستنج، أو يقف ببساطة يبحلق بي بعينيه المدورتين الهادئتين.
وصارت لقاءاتي مع زهرة شبه يومية، عدا الخميس والجمعة، وقت تذهب إلى بيت خالاتها. في المدرسة كانت كل الأيام متشابهة، حصة، فرصة، مناوشات، حصة، خروج، مناوشات. ثم يأتي الاضطجاع أمام التلفاز في الديوانية إلى صلاة العصر، فالدوران بالدلة حتى صلاة المغرب ثم بيت أم غريب، فدخان السجائر حتى بعد صلاة العشاء، ثم مشاهدة مسلسل كرتوني حتى وقت النوم. وهكذا حتى تفاجأت يومًا أن لا شيء يبقى سرًا إلى الأبد..

يصمت، يمطّ شفتيه لثانيتين ثم يتركهما ويكمل:

لا أعلم كيف علموا عن علاقتي بزهرة. وجدت جميع الرفاق يعرف أنني أكلم فتاة في «داعوس» المواقف ليلا من وراء شبّاك، (يلصق حاجبيه ببعضهما ويهزّ رأسه يقول) فاجأني بشار بهذا، قبل أسابيع على انتهاء الدراسة، والجو ينشر دفئا رائقا في الهواء، فيما كنت أمضُّ سيجارة، وعلى وجهه ابتسامة أب يشجع ابنه:

«هل أدخلتك إلى غرفتها؟».

نفخت الدخان بسعال: «ماذا تقول؟».

«ماذا أقول!.. علينا فهد.. ألا تعرف ماذا أقول؟.. الفتاة.. في داعوس المواقف».

تبلعمت. فضغط:

«لماذا احمرّ وجهك؟.. كلنا نعرف.. ما بك كأنك أنت الفتاة.. هيا أخبرني.. أقبّلتها أم بعد يا بطل؟».

نفضت سيجارتي وقلت: «لا أعرف عمّاذا تتحدث».

«حقا.. صدّقتك.. صدّقتك.. أنت فعلا لا تقف أمام شبّاك فتاة في السكة كل ليلة وتتحدث معها.. صدّقتك».

«هل رأيتني؟».

«لا.. لكن سمعت».

«ممن؟».

«من العصفووور»، ضحك.

أخذت دخانا إلى صدري وأخرجته من أنفي أقول: «لماذا لم تصدقني يوم قلت لك إنني تحدثت مع سر الليل؟».

«سأصدقك إذا أخبرتني.. هل أدخلتك إلى غرفتها أم لحد الآن؟».

أطفأت سيجارتي في الرمل أقول: «لا تصدقني.. كما تريد.. ولم أتكلم مع سر الليل».

أقسم كوكو، ونحن عائدان إلى البيت، إنه لم يخبر أحدًا:

«بشار أول من أخبرهم، والجميع يقولون إنك تكلم الفتاة القبيحة التي تُخرج وجهها للجميع في (داعوس) المواقف».

آلمني الوصف؛ زهرة قبيحة: «من النذل الذي قال ذلك؟».

«لن أخبرك، لكن لماذا تستحيي من إظهار علاقتك بها لو لم تكن قبيحة؟».

تصلّب فمي: «سعد لا تُعِدْ هذا الكلام مرة أخرى».

صمتنا بقية الطريق أصدّ عن قلبي ألم كلمة قبيحة باستذكار ضحكة زهرة.

وقبل أن نفترق أمام بيوتنا سألته: «زهرة جميلة، قل لي.. أنت رأيتها».

«لا بأس بها».

مال إلى بيتهم وأكملت إلى بيتنا، ولما وقفت على الرصيف، ناديته: «سعد، سعد، قبل أن تدخل». وقف على عتبة بابهم وجئته حتى وقفت أمامه، قلت:

«سعد.. لو قال العالم إن طعم العنب مر، تأكّدْ أن هذا لن يغيّر طعمه في لساني». شعرت أنني أقول هذا الكلام لنفسي.

«أف أف أف، من أي فيلم سمعت هذا الكلام؟».

«لا أذكر».

كيف قلتُ تلك العبارة (يهز رأسه) لا أعرف.. لكنها جاءت من مكان عميق في داخلي.

عن عمي عادل

وما أن لمست التسجيل الخامس عشر، وظهر فهد ورأسه مبلل، وعلى رقبته منشفة زرقاء عليها رسمة وردة صفراء، نكث نسيجها حتى تهدلت خيوط طويلة من أطرافها، يمسح أذنه بالمنشفة وقال:

لم أستطع الانتظار حتى ينعس الشارع، ذهبت إلى شبّاك زهرة بعد صلاة المغرب.

كنت طوال الليلة الفائتة أُعِدُّ كل ما أملكه من فهم لأستطيع تحديد نوع شعوري بها، وأسأل نفسي لماذا لم أفكر في تقبيل زهرة من قبل، ربما أخاف أن تصدني...

حتى فرغ شحن بطارية النقال وتلاشت إضاءة الشاشة منطفئة.

واحد

لم أستطع الصبر، ارتديت ملابس رياضية وخرجت. كانت الساعة الثامنة وإحدى وأربعين دقيقة. صادفت جدتي تشكو برودة التكييف الملعون، فيما أمي منحنية تحكم اللحاف حول قدميها. قالت أمي شيئًا عن العشاء، قلت لها سأعود بعد عشر دقائق. كنت مندفعًا لسماع ما سيذكره عن عمي عادل، واستكمال بقية القصة..أو المشاهد إذا صح التعبير. فإطالته في تصوير تفاصيل الأحداث تنبئ أنه يحفظها كمشاهد، كصور متتالية، هذا يدلني على أمر مهم، ربما حدثني عمي عنه، أن المخيلة ترى الذكريات على هيئة صور وأحاسيس، والعقل، يراها على حروف وكلمات.

لفحتني السَّموم خارجًا من باب الصالة إلى الحوش. كان الليل قد خفّف من الجمرة التي أوقدها النهار. عبرت الحديقة إلى سيارتي. اندفع الهواء المحتبس داخلها بوجهي مثل ماء مغلي، مقاعدها لا تزال ملتهبة، فتحت المكيف على آخر قوة دفع للهواء، أنزلت زجاج النوافذ ثم وقفت خارجها حتى يدخل الهواء الساخن ويطرد الهواء الأسخن. فكرت أن على جدتي أن تخرج ربع دقيقة لتعرف أن التكييف ليس من اللعنات. تدفق العرَق سريعًا من مسامي. ركبت، وقدت إلى الجمعية كأنني أريد اللحاق بشيء سينفد، أعدّ النخلات الواقفة بكسل بين الشارعين الرئيسيين؛ مائلة كأنها متعبة، وعذوق تمرها ثقيلة ومهمَلة، ذكّرتني بهيئة عمي عادل في آخر أيامه.

ينتقد عمي هذا الإهمال دائمًا، ويصفه بالطريقة العصرية لإثبات الاستغناء عن النبات، فلو أجّرت الحكومة شركة لتنشيط هذه النخلات الخاملة، التي تتسكّع في كل شوارع الكويت، لكان التمر مجانا في التموين؛ أو على الأقل كنّا قدّمناه كمساعدة للدول التي تحتاج إلى طعام، هذا أفضل من تراكمه العبثي على السواقي ودهسه بعجلات السيارات.

ثمان وثلاثون نخلة حتى الدوار الأول، حيث أمالت الورود رؤوسها في المكان المزروع وسط الدوار من شدة الحر.

تجزم جدتي أن الذي أصاب عمي عين حاسدة لم تذكر اسم الله على ذكائه وسماحة وجهه، رغم أن أبي يؤكّد لها أن الذي أصابه قبل سنوات طويلة هو حالة متقدمة من الاكتئاب كما قال طبيبه النفسي. بعد التحرير بثلاث سنوات على ما تذكر جدتي، عاد من العمل من مناوبة ليلية وأغلق على نفسه الباب، ورفض الخروج من غرفته لمدة عشرة أيام، ثم بدأت تتضح عليه أعراض الحسد. عدّت جدتي على يديها أربعاً: يتكلمَ أثناء نومه عن الليل.. والرجفة التي كانت تهزه بعد ذلك أثناء صمته.. صار يتحسس من أي صوت.. توقفت شهيته عن الطعام. أخذه أبي إلى مقرئ فأكد أن عينًا سوداء خبيثة أحاطت به. لم يقتنع أبي بالعلاجات التي قدّمها، لأن حالته استمرت بالتقهقر، لدرجة

أنه تعارك معه بالأيدي، بعد ثلاثة أشهر من انحداره النفسي، فقط لأن أبي أراد أن يجبره على الأكل.

أخذه أبي بعد ذلك إلى طبيب نفسي في الكويت، فنصحه بالذهاب إلى طبيب في مصر، وهناك وجد علاجه بعد جلسات متواصلة لمدة ثلاثة أشهر، فعاد مثل شجرة سُقيت بعدما قطع عنها الماء، واستعاد نفسه بعد تسعة أشهر من المشي على حواف الجنون.

تذكر جدتي أنه بدأ يكتب بغزارة بعدما عاد من مصر، ثم أصبح يكتب كلما تضايق، واختفى بعدها ذلك اللمعان الذي كان يبرق بعينيه، حلّت مكانه نظرة مسالمة تتحسس أوجاع الآخرين. لا أذكر عدد المرات التي كتبت فيها عنه، كثيرة جدًا، لعل أقربها للصدق هو ما كتبته يومًا كنت مريضًا فيه. في المرض نرى الأمور كما هي عليه، لأن غليان الشهوة وتفلّت رغبة النفس تكونان في حالة خمود، وتصير الأهواء في هدأة، فتخرج النظرة صافية وخالية من الاندفاع الكاذب. كتبت أربع أوراق بالتمام، حاولت بها، ككل مرة، إدراك حالة السلام التي كان يعيشها مع نفسه ومع العالم، خلصت فيها إلى أنه صُدِم صدمة أخذته إلى الغوص في بواطن العقل ليرفض أمرًا ما، لا أعرف ما هو، وتوصل عن طريق الكتابة، إلى سبيل يتيح له تغيير واقع الأشياء لديه. لأنني وجدت أن دلالات الكلمات عنده هي أساس برمجة العقل؛ كان دائمًا يقول لي إن من يحفظ كلمات عن الشجاعة لا يمكن أن يكون جبانا، ومن يردد كلمات عن الكرم لا يصبح بخيلا أبدًا، لكن من يرى صورًا عن الكرم قد ينتقدها، ومن يشاهد فعل الشجاع قد يستصعبه. لهذا أقول إن عمي -ربما- أصبح ينظر إلى كل شيء عن طريق صيغته الكتابية في مخيلته، أي أنه حوّل العالم إلى لغة.

ثلاث وعشرون نخلة متعبة حتى الدوار الثاني، حيث كانت رشاشات الماء تمد العشب بالحياة.

لمّا اكتشف أنه مصاب بسرطان المخ، كتب عن الأمر حتى تصالح معه كأنه يكفِّر عن خطأ استحقَّ عقوبته.

فبدأت تأتيه حالات صداع تأخذ رأسه إلى الأرض، ويشم معها رائحة بيض فاسد، فيذهب إلى فراشه ويضطجع حتى يتبدد ما ألمَّ به، ثم يجلس راغبًا الحديث عن أي شيء.

كنت أجلس أُسلّيه في اللحظات التي تلي الصداع؛ نتحدث سريعًا عن اللغة أو عن الكتب.

أذكر مرة، في الليلة التي سبقت رحلته للعلاج بيومين، أتته نوبة صداع، كنت جالسًا على الأريكة أقرأ استطلاعًا في مجلة العربي عن كمبوديا، حتى تفكك الألم عن رأسه وانتعش، فاستحمَّ، وأخذ حسوات من حساء طبخته أمي ثم جلس على الأريكة، قمت أقابله على كرسي المكتب. تحدثنا عن بريطانيا ثم ملنا سريعًا إلى الأدب الإنجليزي، وانفتحنا بعد ذلك نتحدث عن الروايات، وطريقة الروائيين في الكذب بطريقة صادقة. شرح لي أفكاره عن التعاطف، الذي يشكّل الحجر الأساس في قوة الرواية، فكلما نجح الروائي في جعل القارئ يتعاطف مع أبطاله كان تأثيره أقوى وأجدى. نحن عندما نقرأ رواية لا نفعل ذلك من الخارج، بل بصوتنا الداخلي، فنكون نحن الأبطال، فنتبنّى أفكارهم بسهولة كأنها أفكارنا نحن، ونتحدث بصوتهم كأنه صوتنا، وحياتهم كما لو أنها حياتنا، وهنا تقع خطورة الروايات الجيدة؛ أنها تقود القارئ لا شعوريًا إلى الاتفاق معها، دون أن ينبس ذهنه ببنت شفة اعتراضًا على أفكار الأبطال. أشار إلى المجلة، يقول: «ماذا تقرأ؟».

مددتها له: «استطلاع مجلة العربي، محمد المخزنجي، عن كمبوديا».

قلّبها، حتى وقف على الاستطلاع، مسحه ببصره سريعًا ثم أعادها إلي، فقلت أسلّيه: «وصف المعابد في كمبوديا ومعيشة الناس هناك، والمناخ الاستوائي ونهر الميكونج، والطبيعة الخضراء كأنك تعيش هناك، وهذه ليست رواية».

ثم سألني، ينظر إلى المجلة رافعًا حاجبيه:

«ماذا لو» ثم سكت. فوضعت المجلة جانبًا وصمَتُّ أنتظره يكمل. ترك عينه تسرح في الجدار برهة ثم أكمل:

«ماذا لو كان الاستطلاع عن أرض خضراء، والصور التي عنها صور صحراوية، مَن ستصدق.. الوصف المكتوب أم الصورة المأخوذة؟».

«سأصدّق الوصف المكتوب».

«لماذا؟».

«قد تكون المجلة أخطأت ووضعت صورًا لاستطلاع آخر».

«ولماذا لا تكون المجلة وضعت استطلاعًا لصور أخرى؟».

«طيب طيب» فهمت ما يريد أن يقول: «ربما لأننا نثق بالكلمات أكثر من الصور».

انفرد وجهه ببهجة يقول: «أحسنت» هزّ رأسه رضًا: «الحياة كذلك، نصدق ما يقال عنها أكثر مما نراه فيها».

سبع عشرة نخلة من الدوار الثالث إلى مدخل مواقف الجمعية.

اثنان

ركنتُ في أبعد موقف عن الباب تجنبًا للازدحامات، ومضيت أكابد السَّموم حتى وقفت أتصبب عرقا أمام محل بيع الأجهزة النقالة، عند باب الجمعية الرئيس، درت بعيني على الفاترينة التي تستعرض أحدث الأجهزة الذكية لتكثيف غباء الإنسان، لا أعرف من أين جاءتني تلك النظرة السوداوية تجاهها، ولماذا أراها ألواحًا رفيعة قادرة على تغيير الشخصية المستقبلية للمجتمع البشري، وأنها ستحد من قدرة الإنسان على الاستنتاج، وبالتالي ستجعل الصورة تحلل خصائص الحروف حتى تضمحل؛ ربما لأنها تُقدم المعرفة بشكل معلبات جاهزة، أو تسجيلات مثل الوجبات السريعة، فالمعرفة حتى تكون معرفة ليس فقط يجب أن نفهمها، بل يجب أن نفهم الطريقة التي وصلنا بها إليها. أتوقع أن الأمور ستتطور بالمستقبل كما قرأت في مقال عن بحث أكاديمي يقول إنهم

توصلوا إلى شريحة إلكترونية تُزرع في الجهاز العصبي أسفل الرأس، تُمكّن حاملها من تغيير قنوات التلفزيون ذهنيًا، وتفتح أمامه باب بيته الإلكتروني المبرمج مسبقا على الشريحة؛ إذا حدث هذا فسأقول إن عصر الإنسان انتهى، لأن الإنسان في تصوري هو في قيام الأفعال وليس في فكرة الإرادة وحسب؛ وهذا يقضي على الشعور الحميمي الذي يتهادى داخلنا عندما نترك اللهفة تدفع بابًا نعرف أن خلفه عالمًا نطمئن إليه.. فكيف نثق في باب لا نفتحه بأيدينا!

اشتريت شاحن جالاكسي إس فور، ثم دخلت الجمعية أشتري عددًا متنوّعًا من الآيس كريم أبرّد أحشائي.

عدت إلى البيت أعدّ النخلات في الطريق. لو أن هناك شركة تهتم بها لكان منظرها أفضل من شكلها السائب هذا.

ثلاثة

كانت جدتي نائمة على سريرها، فيما أمي واضعة نظارات القراءة تشاهد مقطعًا على جهازها النقال يتحدث أبي فيه عن شيء. سلمت هامسًا بالسين في: السلام عليكم، ومُخفياً بقية الحروف. هزّت أمي رأسها تردّ علي السلام دون أن ترفع رأسها من النقال. ملْتُ إلى غرفة عمي وأغلقت الباب عليّ، وضعت القابس في نقال فهد، بدلت ملابسي التي بللها العرق، وجلست آكل قطعة آيسكريم ثالثة على الأريكة.

طالعت مكان تراكم أوراق فئة «الأفكار» بجانب الكرتون الذي لم أكمله. أنهيت الآيسكريم وقمت أفتح الكرتون أكمل الفرز حتى يكتمل الشحن. أخرجت عددًا من الأوراق، جلست قرب نقال فهد ألقي نظرة سريعة على المحتوى وأفرز الأوراق أمامي، رافعاً صوتي قبل أن أضع كل ورقة في مكانها: الأفكار.. الأفكار.. الأحداث.. الأفكار.. الأفكار.. الأفكار.. الأفكار.. الأحداث.. الأفكار.. الأفكار..

القصص.. الأفكار.. الأحداث.. الأحـ..دا..ث.. وتوقفت عند اسم تعثرت به عيني، اسم فاجأني: سر الليل.. عدت للورقة التي قبلها، وجدتُها البداية، ورحتُ أعد الأوراق التي تليها، حتى خلصت إلى تسع ورقات متصلة بها، وبعد ذلك اختلفت مواضيع الأوراق.

الورقة الأولى معنونة بـ«الظلال والظلمة».

قرأت..

الورقة الأولى:

في شهرك الرابع، متحمسًا لملء رتبتك وتحقيق الأمن في منطقة صلاحيتك.. كنت تتجول كثيرًا في الدورية، وحدك، تبحث عن أي خلل في النظام لتصوبه؛ تنظم السير في الازدحامات أثناء المدارس، وتضع نقاط التفتيش لتشيع جوًا من الاطمئنان، وكنت تطارد سيارات الذين يقودون باستهتار خصوصًا الذين يستعرضون في المطر مستغلين الحالة الزلقة للشوارع، تسمونهم المتمردين. كنت متمكنا من القيادة، أوقعت الكثير منهم؛ إلى أن صار لك اسم تعززه قصصك في اصطيادهم. لم تكن الكمائن التي تعدها مع بقية الدوريات ترضيك. كنت تريد شيئا خاصا بك، وهذا من حقك، لكلٍ بصمة تختلف عن الآخر، متعتك كانت في النظر إلى أعينهم بعد أن تحشرهم في شارع أو تلتفّ حولهم، متحكمًا بانزلاق الدورية، قاطعًا عليهم الطريق؛ ليس شماتة أو استعلاء، بل لترى خفوت بريق الشغف الذي يأتي من الندم على ارتكاب الخطأ. تمكنت منهم جميعًا، حتى لم يعد هناك من يجرؤ على الاستعراض في المنطقة. ثم مر شهر دون أي تمرد، انشغلتم فيه ببلاغ جاءكم عن شخص ينشط في ترويج المخدرات في المنطقة، أخذتك الحماسة، تريد أن ترى عينيه نادمتين خلف قضبان النظارة.

وذات ليلة، كنت تهمّ بإشعال سيجارتك أمام باب المخفر الخارجي، تنظر إلى تراقص رذاذ المطر على واجهة المخفر المبلطة، فسمعت صوت صريخ إطارات، آتيًا من جهة مواقف مدرسة ابتدائية حيث كان المتمردون يستعرضون فيها عادة.

الورقة الثانية:

أشعلت السيجارة، وركبت الدورية ثم انطلقت دون أن تشغّل الفلشر والصفارات. وجدت تجمهرًا من الأولاد على حواف مواقف المدرسة، وإذا بنيسان زد، ذهبية اللون، كتب على زجاجها الخلفي بيت شعر، لم تلتقط منه إلّا «سر الليل»، يلهب حماسهم في استعراض مذهل. لم تكن قد رأيتها في المنطقة من قبل، بل ولم تكن قد شاهدتها في المناطق الأخرى. عندما اقتربت من المواقف، أنزلت زجاج النافذة ورميت السيجارة، ثم شغلت الفلشر والصفارات لتربكه، غير أنه استمر بالاستعراض كما لو أنك لستَ بعينه. أثارك تجاهله، كنت في سن سريعة الاشتعال، ضغطت على دافع البنزين بكل قوتك، استدارت الدورية منزلقة فوق الإسفلت، وبسرعة أغلقت الطريق من أمامه كما كنت تفعل دائمًا، لكنه برم بسيارته في مكانها واستدار إلى الجهة الأخرى. منعتك زجاجات سيارته المعتمة من رؤية من بداخلها، ولم يكن عليها لوحات تسجيل المرور. أدركت أنه كان يتوقع المطاردة، فأكمل استعراضه كما لو كان يستهزئ بك. اشتعلتَ، تبعته تحاول لقاءه عند مخرج المواقف الثاني، إلا أنه عرف ماذا تريد وانزلق خارجًا من المواقف إلى ما بين الشارعين ليعطي نفسه جهة أخرى للهرب، بحركة أدركتَ منها أنه سائق متمكّن.

الورقة الثالثة:

انقصفتَ خلفه بكل اندفاع الدورية تريد صدم مؤخرة سيارته، لكن.. مثل حركة مدرب الثيران.. عندما يهز قماشة حمراء أمام ثور هائج ثم يبعدها ويترك الثور يصطدم بالفراغ وراءها.. هذا ما فعله. ابتعد لمّا أوشكت تلامسه، فصدمت الرصيف وتفجّر الإطاران الأماميان؛ وطاش صياح الأولاد مستهزئين. نظرتَ إليه من المرآة الداخلية فإذا به يقف في منتصف الشارع ينظر إليك من خلف الزجاج المعتم، زاد اشتعالك عليه، قلت: أنا الملازم عادل الذي اصطدتُ أعتى متمردي المنطقة بسهولة، يدخلني هذا الغريب في الرصيف!

بلّغتَ في الجهاز أن ولدًا قفز في طريقك فجأة فتحاشيته إلى الرصيف. لا تريد أن تبدد اسمك الذي تعبتَ في تكوينه على شيء لا يستحق.
شغلك هذا المتمرد عدة أيام، رفضتَ فيها الاعتراف بإعجابك بقدرته على القيادة في كل مرة تستذكر بها قدرته على تثبيت سيارته عند المنعطفات، وكأنه يتزلّج بسكين على جليد؛ وضعت اللوم على إطارات الدورية البالية، لولا رداءتها لكنت اقتدته إلى النظارة.

الورقة الرابعة:

أمطرت السماء بعد تلك الحادثة بأسبوعين، فهرعت إلى الدورية تنتظر خروجه من أحد الشوارع، وبينما كنت تسير متلهفا في الشارع العام أمام المخفر، خرج عليك الزد الذهبي منزلقا من مواقف الجمعية. توقعتَ أنه جاء من أجلك، ربما سمع بك وأتى يجرب نفسه معك. تحمستَ من هذه الخاطرة، قلتَ في نفسك: «سأريه من أنا». عندما يكون دافع الإنسان هو كلمة أنا فإن الأمور تصير صعبة. انطلقتَ خلفه مدفوعا بلذعة كهرباء أرعشت أوصالك. صارت المسألة لديك مسألة إثبات من أنت ومن هو. صرفت كل السيارات في الطريق عن عينيك وتركته به وحده، إلا أن المفاجأة حصلت عند الدوار.. لا تعرف كيف فعلها.. استدارت مؤخرة سيارته وتوجه إليك بمقدمتها فيما هي تنزلق إلى الوراء، ثم اعتدل والتفّ جانبًا حول الدوار، لم تستطع السيطرة على الدورية الثقيلة واندفاعها المنقذف، فصدمت عمود إنارة في نهاية المنعطف، قبل الدخول إلى الدوار، وضرب رأسك المقود، خرج بخار الماء من المبرّد بمقدمة الدورية. نزلت واضعًا كلتا يديك على جبينك، وقفت بعض السيارات على جانب الطريق لمساعدتك، بلك المطر، لم تصب بجرح، فقط ضربة في جبهتك تركت أثر ورم. أمّا هو فوقف في منتصف الشارع الآخر، أمام المستوصف، وما إن تأكد أنك رأيته حتى ذهب يقود بروية، واختفى منعطفا من الدوار التالي.
كتبت تقريرًا في المخفر عن حالة إطارات الدوريات وضرورة إبدالها في أسرع وقت.

الورقة الخامسة:

بعد يومين، خرجت من المخفر فور انتهاء مناوبتك الليلية. على جبينك لون كدمة وبقايا ألم من ضربة المقود. فرأيت الزد ذهبي اللون يسير متأنيًا في الشارع العام. تلك اللحظة اعترتك الرجفة فعلمت أنه الشعور بالهزيمة، شددت على عضلاتك تصد الرجفة عن ثقتك، ركضت إلى الدورية، وانطلقت تجول في شوارع الفردوس تبحث عنه لتحمي قيمتك، لم تجده تلك الليلة، فعدت إلى المخفر وأخذت سيارتك وذهبت إلى البيت تكلم نفسك عن ضرورة الهدوء في مثل هذه المواقف. بعد ذلك بدأ المتمردون يعودون للاستعراض في المطر، فقمت تصطادهم واحدًا تلو الآخر، بنفس السهولة التي كنت تصطادهم بها من قبل، أعاد هذا جزءًا يسيرًا من قيمتك، وزاد حماسك للقاء صاحب الزد الذهبي، تتخيّل شكل عينه عندما تقيّده وتدفعه إلى النظارة كأنه شيء عادي. مرت ثلاثة أسابيع ثم بدأ المطر يزداد في آخر أيام الشتاء، ولم يظهر الزد. ضاعف الانتظار توتّرك. كان الجلوس في المخفر وانتظار ظهوره في أي لحظة بمثابة كفَّين يطبقان على رقبتك، مثل حبال، فجعلت تتجول متسترًا بسيارتك الخاصة في شوارع المنطقة تخفف من اختناقك. خشيت أنه لن يعود بعدما تحقق من هزيمتك.

خمّنت أنه ربما حدّثه أحد أصدقائه عن جدارتك في القيادة، واصطيادك للمتمردين، فوجد في هذا تحديًا، ولما حصل على ما يريد، ولما شعر أنه هزمك، اكتفى وعاد إلى منطقتهم؛ لهذا كنتَ تريد أن تراه لتتأكد أنك لا تزال جديرًا بالتحدي.

الورقة السادسة:

تتالت الأيام الممطرة دون أن يلوح نجم ذهبي في أفق الشوارع، ولما دخل الصيف كانت أعصابك عبارة عن حبال متيبّسة. ترددت في الإبلاغ عن مواصفاته، لا تعرف لماذا، لكن الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أن تقديرك لذاتك تناقص،

وأنك لن تعود كما كنتَ إلا إذا رأيته واصطدته بنفسك. كنت تردد في نفسك تلك الأيام: سيمر الصيف بغمضة عين وسيأتي مع موسم المطر ثم سألتقطه مع أول غيمة ماطرة. شُغِلتَ به طيلة الوقت، جعل الغموض الذي يحفّه، ومهارته في القيادة، يستثيران خيالك للإبحار في هيئته ومن يكون. وفي منتصف يوليو، في يوم أحد حار، كنت ستدخل بسيارتك مواقف المخفر لمناوبتك الليلية، فمرّ من جانبك اللون الذهبي. لم تصدق عينك. حتى دغدغك السرور بفكرة أنه قرر أن يعتبرك مهمّاً ويقترب منك إلى هذا الحد. أبطأ السرعة يريدك أن تراه ثم رنّ منبه سيارته كأنه يسلّم عليك. بلا شعور ملتَ عليه باستهتار، طار بسيارته مبتعدًا عنك، وكأنه كان يتوقع هذا منك، فكدت تصعد الرصيف، حنقتَ وطاردته، لكنك هذه المرة كنت أشد حذرًا. سيارتك الشيفروليه مثل نوعية الدوريات، إلا أن إطاراتها الجديدة قد تمكنك من الثبات أثناء الانزلاق. سرت خلفه بمسافة كافية لتحترز من انعطافاته المفاجئة، تنتظره يركب الخط السريع، حيث ستعطيك سرعة سيارتك تفوقا عليه، لكن، بعد سبع منعطفات، عاد إلى شارع المخفر، فعلمت أنه يتلاعب بك.

الورقة السابعة:

دخلت المخفر وأخذت الدورية، دون أن تخبر أحدًا. وجدته يقود بأناة عند دوار الجمعية، وهناك حدثت المطاردة التي تجزم أنها أدهشته، كانت مطاردة عنيفة، كنت قد تعلمتَ من تجربتك معه كيف يختار وقت انعطافه والتفافه، ومتى يطبق الكوابح وأي التوقيت يناسبه لزيادة السرعة. كانت قراءتك لأسلوبه في القيادة صحيحة، كل شيء كان سليمًا حتى انزلقت بك الدورية، فيما كنت مسرعاً خلفه على منحنى داخلي، وصدمت سيارة كانت واقفة تحت مظلة أمام بيت. هذه المرة ضربتَ المقود بجانب وجهك وجرحتَ. كان الغضب قد أخذ عقلك لحد الجنون، بل لما وراء الجنون. سال دمك على خدك الأيمن، فيما هو واقف أمامك مباشرة ينظر إليك من وراء التعتيم الأسود. أخذت الجهاز

وبلغت عن زد ذهبي اللون معتم النوافذ يقوده فتى مستهتر وضغطت على نفسك وقلت: «هو الذي يروّج مخدرات».

انهرت بعد ذلك.. قيمة الإنسان الحقيقية ليست في ما يملك بل في ما يؤمن أنه يستطيع فعله، صرت مثل بسكويت هش، تشعر بالخيبة كلما نظرت في المرآة إلى أثر الجرح قرب عينك، يشبه أثر انزلاق إطار سيارة على شارع.

الورقة الثامنة:

فقدتَ الأمل بقدرتك على اصطياده، لكن ما زال لديك نجمتك التي على كتفك.. السلطة.. وزارة الداخلية بكامل عتادها وعدتها. لن تتركه دون أن ترى في عينيه الذعر، لم تفكر يومًا بإخافة إنسان، لكن مع خسارة النفس تمرض القيم، ولا يعود للأشياء ثمن، حتى تتعافى النفس من جديد وتبدأ تستعيد الأشياء حولها قيمتها.

صفعت سائق سيارة آسيويًا، في تلك الأيام، لأنه لم يربط حزام الأمان، ولم يكن يعرف العربية. ومرة أيضًا ضربتَ ولدًا أمام رفاقه لأنه يريد أن يجلس في ساحة وطردته منها، حانقا يتطاير الشرر من أفعالك.

قضيت شهر سبتمبر تتجول في مداخل المنطقة ومخارجها لتخمّن، متخيلا أنك صاحب الزد، أين ستهرب إذا لاحقتك الدوريات؟ ومع انتصاف شهر أكتوبر وبداية موسم المطر، كنتَ قد رسمت خطة كاملة للإيقاع به، دون الاعتماد على مهارتك وحدها. قلت لرئيس المخفر إن بلاغًا أتاك بأن مروج المخدرات يستغل الأيام الممطرة لتوزيع بضاعته، أعطاك الصلاحيات اللازمة لإجراء ما تراه مناسبًا للإطاحة به.

رتّبتَ كل المواقع التي ستندسُّ بها سيارات المباحث، عيّنت الأزقة التي ستغلقها الدوريات مع إشارة البدء، وراحت عقارب ساعة مكتبك تصدر صوتا يلدغك الوقت به.

الورقة التاسعة:

لزمت الاتصال بالأرصاد الجوية كل يوم لمعرفة حالة الطقس. تركت كل شيء بالعمل وسددت كل قواك ووقتك على موعد اللقاء، وعند أول نبأ عن غيمة مثقلة، ازداد توترك، وراحت علبة سجائرك تنفد بسرعة. تجاهلت رجلا جاء يريد تقديم بلاغ تغيّب عن ابنه منذ الصباح، وأجّلت موعد تدريب على الرماية. تجهّزْتُم؛ كلّ واحد عند مكانه المعلوم. رشّ المطر الأرض في الساعة الثانية والنصف، ثم توقف بسرعة، وعاد في الخامسة، واستمر ساعة دون أن يُسمَع صوت لجلجة عادم سيارة، ثم انصبّ المطر بغزارة في الساعة السابعة لمدة عشر دقائق، وعاد بعد ذلك متواصلا في الساعة التاسعة والنصف، وكنت وحدك في دوريتك، مذخّرًا مسدسك.

انتظرتم في أماكنكم حتى ازدادت غزارة المطر، ولمّا أوشكتم تنفضّون، في حدود الساعة العاشرة، رأيتَ الزد الذهبي يبرق تحت أضواء أعمدة الإنارة، فارتعش صوتك وأنت تبلّغهم بالجهاز أن يتركوه يعبر إلى مواقف المدرسة، حيث كانت سيارات المباحث مركونة كأنها سيارات أصحاب البيوت. كنت تريد أن تكون أول من يلقي القبض عليه، ولمّا بدأ يستعرض خاتلتَه، ثم اقتحمت المواقف بالفلشر والصفارة، فتراجع بحركة رشيقة، يحسبك وحدك، وهنا أعطيتَ إشارة البدء للجميع فأُغلقت كل المداخل والمخارج، عدا سكة ترابية تنتصف صفي بيوت، لم تتوقع أنه سيلجُها. ومضت أضواء الفلشرات من كل اتجاه، بدا توتره من توقّف سيارته المفاجئ. علمت أنه ارتبك، والارتباك أول درجات الهزيمة. فتحت الميكرفون وأمرته: «توقف توقف، انزلْ من السيارة، لا تحاولِ الهرب، كل الأماكن مغلقة»، فتقدم بسرعة حذرة، ثم راوغك بحركة لولبية وولج السكة. انطلقتَ خلفه، ولجتَها وراءه.

انتهت الورقة التاسعة.

وقفتُ في المنتصف، أحاول تحديد وجهة فضولي: إلى الكرتون للبحث عما بعد

الورقة التاسعة، أم إلى النقال على الشاحن لمتابعة التسجيلات؟ أمسكت النقال، وعيناي تلقيان نظرة على أطراف أوراق برزت من حافة الكرتون.

أشار قارئ الشحن إلى أن البطارية تحتوي على خمس وثلاثين بالمئة. شغلت الجهاز والقابس لا يزال يشحن، وفتحت الاستوديو على التسجيل الخامس عشر.

التسجيل الخامس عشر

الكلبة سعيدة

يمسك النقال باليد اليسرى. رأسه رطب، وعلى رقبته منشفة زرقاء عليها رسمة وردة صفراء، وفي أطرافها خيوط من نسيجها منكوثة، يمسح أذنه اليمنى بالمنشفة ويقول:

لم أستطع الانتظار حتى ينعس الشارع، ذهبت إلى شبّاك زهرة بعد صلاة المغرب.

كنت طوال الليلة الفائتة أُعِدُّ ما أملكه من فهم لأستطيع تحديد نوع شعوري بها، وأسأل نفسي: لماذا لم أفكّر في تقبيل زهرة من قبل؟ ربما أخاف أن تصدني فأفقدها، أو تسقط من عيني. البنت التي تترك ولدًا يقبّلها ستسمح له بفعل الكثير بها، وهذا ما لا أريد أن تكون عليه زهرة، لأنني.. لأنني أحبها.

همستُ قبل أن يأخذني النوم: «نعم أحبها، بكل ما تقدر عليه روحي»، ورحت إلى حلم أسود مصمت.

يضع المنشفة عن رقبته، ويأخذ عنبة من صحن لا يصله مجال الكاميرا، يمضغ العنبة مغلقا عينيه كما لو أنه يستلبه الطعم، يفتح عينيه ويكمل:

وجدتُها متزينة وتضع على رأسها قبعة رياضية. اقتربت من الشبّاك حتى شممت

عطرًا نسائيًا يتغنج بين روائح البهارات. قالت:
«جئت مبكرًا اليوم».
سكتُّ أنظر إلى وجهها، وأفكّر: زهرة جميلة مهما قالوا عنها.. أنفها قصير، وعيناها صغيرتان.. لا يهمّ كيف طعم العنب في لسان غيري.. المهم هو كيف طعمه في لساني.
«ما بك؟» قالت.
«أنت جميلة».
ضحكة خجلة:
«سأذهب مع خالتي إلى بيت خالي».
سكتُّ أحاول إخراج الكلمة من بلعومي.
«لماذا تبحلق بي هكذا؟» قالت «قل لي ما الذي جاء بك هذا الوقت؟».
ابتعدتُ عن الشبّاك، ودرتُ حول نفسي أتأكد أن أحدًا لا يرانا، ثم عدتُ إليها وقلبي يخفق بقوة ماكينة موستنج. كانت تنظر إليّ بهدوء وعلى وجهها ابتسامة، فقلت:
«زهرة.. زهرة أنا أحبّك».
انتشر اللون الأحمر في وجهها، وحدث للسماء اتساع في عينيها، ثم هربتُ.
هربتُ من ردة فعلها، ومن نفسي، دون أن أنظر إلى الوراء، وراحت السكة والشارع الذي تنفذ إليه، والأرصفة التي تحفّه، والسيارات الواقفة بجانب الأرصفة، وأعمدة الإنارة، والبيوت وأبوابها، والشبابيك المفتوحة والمغلقة، ورائحة الطبخ، وأصوات الأمهات.. كلها تشير إلي، وتضحك مما قلتُه. ركضت حتى وقفت لاهثا قبل شارع أم غريب متحررًا من الأعين غير المرئية التي تراقبني. تنّفستُ، استجمعتُ أفكاري، شعرت أنني أطلقتُ حصاة قلبي بنباطة واصطدت شيئا ثمينا لا سبيل إلى تحديد اسمه: شيئا جعلني أشعر بأنني رجل ويمكنني امتلاك مسرّات الأيام القادمة بوجه زهرة الجميل وحده. مضيت إلى الرفاق وفي نفسي حرَج من أن يعلم أحد أنني قلت «أحبك» لفتاة، فسأكون

أضحوكة لثلاثة أسابيع.

لم أجد سعيد كالعادة ينظر إليّ من خلف سور حديقتهم. أريد أن أرى وجهه الجامد لأجد شيئا يدلني على الثبات. لكن.. قبل باب أم غريب، تذبذب عواء كلب، آتيًا من الحوش، بدّد صوتَ زهرة من أذني.

وجدتُ سالم النمس يقف آخر الحوش وفي يده كلبة من طينة الكلاب الضالة التي كنا نراها بكثرة قبل الغزو، يجرّها بحبل، على وجهها الأسود بقعة بيضاء تغطي جبهتها وعينها اليمنى، وبقية جسدها أسود، بدت من أثدائها المتهدلة أنها ولدت للتو مجموعة جِراء.

«سالم، ماذا تفعل؟» سألت من أمام الباب.

أجاب: «ألا ترى؟.. أشد رباط هذه الكلبة».

«ماذا تريد بها؟» قلت أتقدم إلى البقية عند الجدار الداخلي.

«سأجوّعها اليوم، ثم أعلّمها على النهش غدًا»، وأضاف وهو يجرها للداخل: «لن نتعب أنفسنا.. تخيلوا.. كل ما علينا هو أن نفكّ الحبل عنها وهي ستمزقهم».

تبعناه إلى الداخل. كان وجه الكلبة بائساً ككل وجوه الكلاب الضالة، يصطخب تنفسها بهلع، في طرف ذيلها تيبّست أوساخ مخلوطة بطين، لم يكن يبدو عليها أنها ستقدر على فعل شيء. وفي أحد الحمامات الخربة داخل البيت ربط النمس الحبل في ماسورة ماء وأغلق الباب: «أمهلوني يومين فقط وسأريكم كيف تستجيب».

«يجب أن نسميها»، قال عباس. فانفجرت الأسماء من البقية، عزوز: «لوسي». الديك: «المجرمة». عباس: «هوشة». أنا: «هوشة اسم سيئ.. لوسي أفضل».

«سعيدة» قال كوكو «سعيدة جونكرة» ضحكنا.

«حسناً»، قطع سالم النمس الجدال: «اسمها سعيدة».

«ربع مصدّي انتهوا الآن» قلت ونحن نخرج إلى الحوش: «لم يعد أحد منهم يجرؤ على رفع عينه أمامنا».

قال بشار:

«من قال لك هذا؟ أخبرني أحد أبناء صفي أن يوسف مصدّي يتوعدنا.. واسأل الديك ماذا قال له أحدهم عند سلالم صفوف أولى متوسط».

قال الديك: «إي والله، كنت أتدافع مع أحدهم عند السلالم فقال: سنجعل البيت المهجور الذي تجلسون فيه مقبرتكم».

يضع في فمه حبة عنب أخرى ويتابع وهو يمضغ:

أويتُ.. إلى.. فراشي.. تلك الليلة.. (يبتلع) وفي رأسي أشياء كثيرة أريدها أن تحدث. لا أذكر منها على وجه الخصوص إلا رغبة شديدة تسلّطت على عيني في الاحتفاظ بوجه زهرة. صحوت مبكرًا من نوم خفيف، وكانت زهرة تبحث في داخلي عن أماكن جديدة. وفي المدرسة لمست في نفسي رغبة في السلام والاعتذار من الجميع..

تنتبه ملامحه مع تقلص طفيف في حاجبيه، كما لو أنه
تذكر شيئًا مهماً فجأة:

آه.. أذكر.. أذكر أنني في ذلك اليوم صلّيت العصر في المسجد، ولما قضينا، ناداني الشيخ صابر ليسألني عن عدم التزامي أنا والرفاق بالصلوات، أخبرته أننا نصليها في مسجد قريب عند ملعب كرة نلعب فيه كل يوم، لمعت ضرسه الفضية رضاء عليّ وربّتَ على رأسي ودعا لي بالتوفيق، وقبل أن أخرج عدت مدفوعًا بالفضول، وكان قد جلس لتوّه في زاويته المعتادة ليقرأ القرآن، وسألته (يبتسم):
«شيخ، هل الحب حلال أو حرام؟».

كان الضوء المجهد الذي يصلنا من عمود إنارة في الشارع يطرح ظلال سالم النمس والكلبة على الأرض. أخذت سيجارة من عباس، وجلست بجانبه نشاهد

ما يفعل النمس. أخبرني عباس شامتاً: «أخرجها ثلاث مرات منذ العصر، لا تحركت ولا شيء».

أخذ سالم يهز الحبل لينشطها، ويحرك الخرقة أمامها. لم تكن الكلبة بالحماس المطلوب، كانت أكثر وهنًا من الأمس. فقرر:

«أحتاج إلى يوم آخر، ليست جائعة بالقدر الكافي للبحث عن فريسة». ضحكنا. صرخ وهو يعيدها للحمام: «أنا قلت لكم: يومَين، اليوم هو الأول، غداً سترون». تركتهم يتندرون على سالم ويضحكون، مع أول نداء لأذان العشاء، وذهبت إلى سكة زهرة.

وقفت برأس السكة أراقب شبّاكها المفتوح يلقي ظلال القضبان على القاع. ضمر وجهي بشكل سريع لمّا قررت التقدم. صار وجهها بعد كلمة «أحبك» مستبدًا وآسرًا. لم أجد الجرأة على مواجهته وحدي. كيف أنظر في عينيها مباشرة، دون جدار بيننا أخفي وراءه تقلصاتِ جبيني، وتشنجاتِ زوايا فمي، وركْضَ كلمة أحبك بقلبي. قلت وأنا أنسحب إلى البيت: «أحتاج إلى أن يكون معي شخص آخر».

ازدادت رغبتي، في الصباح التالي، بالسلام ومحبة الجميع في المدرسة. كنت أبتسم لكل من تقع عيني عليه. راح حبي لزهرة يخلق فيَّ أشياء جديدة، ويغير نظرتي للأشياء القديمة. رغم ما أخبرني به الشيخ صابر من أن الحب حرام، ولا يجوز إلا للزوجة، إلا أنني لم أستطع تجاهل ذاك الشعور الذي يجعلني -ما إن أذكر زهرة- أحترم الأشجار، ويدفعني برغبة صادقة لحماية كل عصافير الدنيا. الحرام لا يَفْعل أياً من هذا (يهزّ رأسه) أبداً لا يفعله. لدرجة أنه عندما جاء عصر اليوم التالي وأخرج النمس الكلبة وكان بيده عصا عليها خرقة، ورأيتها أوهن منها يوم أمس، تحرك وجه زهرة في داخلي يدفعني إلى التعاطف معها: «ستقتلها، ستموت من الجوع».

وشرع يهزّ الحبل ويحرك العصا أمامها دون أن ترفع الكلبة رأسها عن الأرض. ثم رفسها فالتصقت بالأرض. قرَّب الخرقة من فمها يقول: «عضّي، عضّي، هيا

هيا»، ورفسها. أصدرت الكلبة صوتا من أعماقها كما لو أنها تستغيث.
لم أحتمل، ذهبت لأطلق سراحها: «حرام، كفى كفى، ستموت ستموت».
تشاددْتُ معه على الحبل، وكاد الأمر يتحول إلى عراك لولا أن تدخّل كوكو وسحبني إلى زاوية الحوش.
جلست مع كوكو والإيراني عند جدار البيت، نراقب صبر النمس ينفد في منتصف الحوش وهو يطلب منها أن تنهش الخرقة التي علّقها على عصا.
لم تبدِ الكلبة أي حركة، يهتز جسمها تحت قدمه أثناء تنفسها. عندما نفد صبره أخيرًا رفسها يصرخ: «تحركي»، ثم رفسها ثانية: «افعلي أي شيء الآن، ألعن أبوك». عوت الكلبة، فرمى الخرقة عن العصا وبدأ بجلدها، عوت الكلبة بصوت عال، ونهضت تريد الهرب لولا أنه يحكم وثاقها: «سأرميها بالحفرة الكبيرة». فعوت بطريقة تشبه صريخ الإطارات على الشارع، كان عواؤها مزعجًا حقا، وما إن قمت أخلصها منه حتى ارتجّ الباب الخارجي ارتجاجًا أرعبتنا قوّته.. كأن لغماً انفجر عنده.. وبزغ سعيد من بين درفتيه يصرخ صرخة هزّت كل شيء في الداخل:
«عيب عيب، عيب عليكم».
اندهشنا من اقتحامه لبيت أم غريب، ومن نبرة صوته أيضًا، ليست راجية ككل مرة، كانت نبرة آمرة، ومسنّنة بنيّة مصرّة على الأذى. ترك النمس الكلبة واتّجه بعصاه إلى سعيد:
«لم يتبقّ إلا هذه! جونكر يأتي هنا ويعلمني العيب!»..
ومن أمام الباب، جلد سالم سعيد بالعصا، فأمسكها سعيد وأحالها نصفين، ثم ارتفع النمس عن الأرض وحط قريبًا منا مقطوع النفَس. تسمّرنا مكاننا من قوة اختلاف الأمر عن المعتاد.
«أترون؟» صرخ عباس: «قذف جونكر سالم».
انطلق عباس يلتقط عصا من زاوية الحوش ليؤدب بها سعيد، وبقفزتين حلّ سعيد أمام عباس، ثم بحركة واحدة من قدمه الضخمة وجد الإيراني نفسه

طريحًا على الأرض يتلوّى بجانب النمس.

ابتعدتُ إلى باب البيت الداخلي. أعرف هذه الحالة التي تنتابه الآن، عندما ينتفض خدّاه ويكون وجهه أكثر جمودًا عن العادة. حمل سعيد الكلبة بين يديه وخرج قافزًا إلى الشارع، تاركا سالم النمس وعباس الإيراني يئنّان من الألم. أخذ جونكر الكلبة إلى حديقتهم، وهناك ربما قدّم لها حليباً وقطع لحم متبقية من غدائهم. تركها تختبئ تحت جذوع الأشجار، ومن تلك اللحظة أصبحت الكلبة لا تفارق حديقتهم، طيلة النهار تلعب بجانبه مع أخيه، وفي الليل يدخلها حوش بيت جدته خشية أن يأخذها سالم ويعذّبها ثانية.

أما عن ضربة سعيد للنمس والإيراني، فأقسمت أنا وكوكو عليهما أن لا يمسّاه بسوء، وكأنهما كانا ينتظران أي حائل يمنعهما من الاقتراب من سعيد جونكر بعدما رأيا قدرته على الإيذاء. قال عباس وهو ينفخ آخر نفَس من سيجارته: «لأجلكما، فهد وسعد، سأتركه هذه المرة، لكن.. إذا اعترضني مرة أخرى»، رمى السيجارة تحت قدميه ودعسها بقوة وأكمل: «إذا اعترضني مرة أخرى فلا تلوماني إذا شققت بطنه». ووافقه النمس.

صمت ينظر إلى ما وراء الكاميرا، يركّز نظره على نقطة معينة كأنه يفكر بشيء، تجمّدت ملامحه ثلاث ثوان، ثم يأخذ نفَسًا من أنفه عميقا ويزفره يقول:

بعد أقل من سنة، من ذلك اليوم، ستختفي الكلبة، ومعها سعيد، في ليلة غزيرة المطر، تنزل من السماء فيها تلك الأضواء الملوّنة، وسأسمع لأول مرة صوت الرجل الملثم.

يصمت ينظر إلى وجهه في الشاشة، أربع ثوان فيرفع يده الأخرى ويُنهي التسجيل.

التسجيل السادس عشر

ما حصل في الساحة

تسيح برحة رملية فسيحة من الشاشة، يلمع من البعيد نور أعمدة إنارة العامة، تسير به سيارات قليلة متأنية، الوقت يبدو أنه الفجر أو المغرب كما تقول زرقة السماء، يقرب بالزوم مبنى من دور واحد، ترتجف الشاشة، لوحة فوق المبنى مكتوب فوقها (فرع) ثم يبعد وتتسع البرحة، يتجه إلى اليمين، يظهر بيت جدة سعيد والسدرة، ويتقدم:

وقفت أمام شبّاك زهرة، بعد صلاة المغرب، بكل ما أملكه من قوة. تركت سعد وبشار يقفان على رأس السكة، كذبت عليهما بأنني أخاف أن يأتي أبوها فجأة وأريدهما يراقبان. كنت بحاجة إلى أحد يسند خجلي منها. وقفت زهرة أمامي بكل تيارات أنهار الدنيا. جرفتني قائلة:

«أين كنت طوال ثلاثة أيام؟».

تخبّطت:

«كنت.. كنت.. في البيـ.. كنت مسافرًا.. نعم سافرت مع أبي».

ابتسمت، تقول بحياء:

«خفتُ أن يكون أصابك شيء».

ضحكت أحكّ رأسي.

يعود بيت جدة سعيد، يتحرك باتجاهه، تنخفض الكاميرا لتخطف صورا سريعة لتراب وسور إسمنتي، تقترب من التراب، ثم ترتفع إلى بيت من جير أصفر، يضبط الكاميرا الأمامية على وجهه، يرتدي قبعته الرياضية وثوبًا أبيض، ومن خلفه بيت جدة سعيد:

تحدثت معي عن أشياء لم أُعرْها انتباهي، كنتُ أهيم بوجهها وأتمعّن في تفاصيله الجميلة، وأتفقّد بين لحظة وأخرى كوكو والنحلة اللذين اختفيا من السكة، ثم أعود لمشاهدة حركة شفتيها اللتين تتذبذبان مثل جناحَي عصفور أحمر. لم يكن لدي أي شيء أقوله. كلمة أحبك كانت الغاية من الأحاديث لدي، وقد قلتها وأتممت مقاصد الكلام. أذّن العشاء فيما كانت ما زالت تتحدث وكنت لا أزال أشاهد؛ عندما أقيمت الصلاة طلبتْ مني أن أذهب، لأن أمها تحتاج إلى بعض العناية، وأعود بعد قليل. وأضافت وهي تصكّ الشباك وعلى خدها احمرار الخجل:

«لدي شيء مهمّ أريد أن أقوله لك بعد قليل».

بحثت عن سعد كوكو وبشار النحلة، كانا قد اختفيا تماماً من نهاية السكة. فكرت: ستقول لي أحبّك. كنت متأكدًا من ذلك، ماذا سأفعل بعدما تقولها.

«كوكو يعرف أفضل مني»، قلت في نفسي وأنا التفت إلى اتجاهَي الشارع «قد يكون تململ كعادته وعاد بيشار إلى بيت أم غريب».

هرولت إلى شارع أم غريب. سيخبرني ماذا يتعين علي قوله إذا قالت زهرة أحبك. ربما يساعدني على البحث عن وردة نسرقها من أي حديقة، و.. وقبل أن أنعطف إلى شارع أم غريب، لمحتُ فوجاً من الصبية يخرجون منه، حسبتهم رفاقي، وما إن فتحت فمي لأناديهم حتى لمحت وجه مبارك يشفط سيجارة في مقدمتهم. رميت نفسي بسرعة تحت عجلات سيارة مركونة قرب الرصيف. اضطرب قلبي: «ربع مصدّي!».

كانوا يمشون بجمع واحد غير آبهين. إذا رأوني قد.. قد..

حبستُ أنفاسي حتى انعطفوا، رفعت رأسي أستكشف خلوّ الشارع منهم، تقدمت مُجيلا عيني على كل مكان، ثم خرجت وركضت إلى بيت أم غريب وقلبي يحدثني أن كارثة وقعت هناك. مررت بسيارة تناثر تحتها زجاج نافذتها الجانبية، وعندما دخلت الحوش وجدت ثلاثة رؤوس مشجوجة وأنفين ينزفان، وثلاث فردات نعال متروكة.

أمسكت رأسي أدور في منتصف الحوش أنظر إلى ما جرى. كان بيت أم غريب يشي بهزيمة نكراء وخسيسة، كُتِب على أحد جدرانه بخطّ متعرج: «ربع الموت الفروخ». وتبوّلوا في الغرفة، ثم تركوا كل شيء محطمًا.

سرعان ما وقعتُ فريسة للإحساس بعدم القيمة.. لقد خذلتُهم.

أتى البقية تباعًا، كلٌّ يحمل إصابته، عباس كان الأخير، تفقّد ثوبه الممزق ثم سأل سالم النمس:

«هل رأسك بخير؟».

أصدر النمس صوتا من أسنانه وهو يرفع يده المدماة عن جرح رأسه.

أمسك سعد كوكو أنفه النازف وقال بخنّة:

«الولد القصير الذي ضربني بالحديدة هو يوسف مصدّي، كسر أنفي ابن الكلب».

وجّه عباس الكلام لبشار:

«أنت الذي هربت أولا وتركتهم يتحمسون لذلك».

«لم أهرب بل ذهبت لأنادي فهد» قال بشار.

«أين كنت؟» سألني عباس.

شعرت أن الإجابة عن سؤاله ستذيب وجهي، فحاولت تغيير الموضوع:

«أخبروني ما حصل بالتفصيل».

«هل كنت عند قبيحة السكة؟» قال النمس بصوت غاضب: «تشمّ رائحتها هناك ونحن نتعارك هنا وتسيل منا الدماء».

برد وجهي حتى كدتُ أغطيه بيدي.
قام من مكانه يكمل:
«هل خبرتم يوماً تعاركنا معهم ولم يهرب أبو أذاني».
راحت كلماته المسمومة تُمرض ثقتي، لم أجد غير أن أهاجمه:
«ما بك.. شُقّ رأسك وكدت تموت» أشرت إلى رأسي «أنا يُشق رأسي كل شهر مرة ولم أقل حرفا».
«وأنا لا أترك رفاقي لأجل فتاة قبيحة تتحرّش من خلف شبّاكها بالمارّة».
انسحب الدم من وجهي، وتصلّبت رقبتي، أحسستُ أن أي رد مني سيزيد الأمر سوءًا. عضضت على شفتيّ وسكتّ.
خرج وليد أبو سمرة يعرج من باب البيت الداخلي، وراح يلملم حطام عوده الذي كُسر، كانت رقعة جيب ثوبه العلوي تتدلى، نظر إلى ما تبقى من عوده في يده، ثم نظر إلينا وقال:
«ألعن أبو الذي يجيء عندكم مرة أخرى».
«شدهم يوسف، أصبحوا أقوى» قال كوكو: «لن يتركونا عند هذه الضربة، سيجيئون إلينا مرارًا.. آه.. ابن الكلب يوسف، لا يأبه في أي مكان يضرب».
قال عباس الإيراني، وهو يمسح أنفه بكمّ ثوبه:
«منذ دخلنا مع ربع الموت والمشكلات تنالني أنا وأولاد شارعنا»، وقام إلى بيتهم يقول لثلاثة من أولاد شارعهم: «ما لنا نحن وهذا الهراء؟».
كان واضحًا أنه يقول: سننسحب من ربع الموت.
في الطريق أخبرني كوكو أنه فيما كان واقفا مع بشار عند بداية السكة، رآهم ينعطفون باتجاهنا، فخاف أن يناديني فيروني ثم يقطعون علي الطريق، فهربا يخبران الرفاق في بيت أم غريب، فاقتحمهم يوسف هناك وحدث ما حدث».
«كيف كان يوسف مصدّي هذا؟» سألته.
«قصير وغليظ العظام، وجهه مبقّع، يمسك حديدة ثقيلة يضرب بها بهياج دون أن يراعي المكان الذي ستقع عليه».

شعرتُ مع كل خطوة أخطوها إلى البيت أن ريشة تُنتَف بداخلي.. يوسف مصدّي إذن.. شددت قبضتي أقول في نفسي بصوت دايسكي: سوف أنتقم.

يبعد النقال عن وجهه، ثم يأتي صوت يشبه صوت كيس،
ثم يعود مرة أخرى يمضغ شيئا ما، يبتلعه، ويتابع:

لم أقدر على النوم في الليل، تراجع وجع زهرة إلى الوراء، وحل محله شكل فتى قصير وغليظ العظام يمسك حديدة. غابت الفردوس تحت ليل ثقيل قرّب السماء إلى الشوارع. فكرت، مبحلقاً بالجدار، كيف سيكون الرد، يجب علي أن أقدم رداً يشدّ وثاقنا.. رداً يجعل الأرض تثبت تحت أقدامنا، وإلا.. وإلا تفرق ربع الموت الذين كنتُ سببًا في جمعهم، وسنعود للاختباء والهرب من السور، وربما سيتجاسر علينا بقية الصبية وتتوالى علينا الابتلاءات، وسيصفونني بالجبان.. الجبان الذي كان جالسًا أمام شبّاك زهرة حين كان رفاقه يتعاركون. كم مضى على عودتي إلى الكويت.. لم يطرق أحدهم بابي حتى الآن.. لم أُكسب اسمي صيتا. تناهى إليّ صوت صريخ إطارات.
«هذه فرصة».. قلت لنفسي: «يوسف مصدّي.. يجب أن أضرب يوسف مصدّي أمامهم، بل يجب أن يكون ردي أقوى من الضرب.. الطعن.. نعم الطعن.. سكين.. ليس عليّ أن أطعنه.. فقط أُشرّط جلده.. حسنا.. سأطعن بها الرصيف قبل العراك لأكسر سنها وأحدّهـ..». قطع تفكيري صوت لجلجة عادم سيارة مثقوب يردفه صريخ إطارات، ربما كانت تعود لسرّ الليل، وعندها سقطت فكرة في ذهني كحمامة أدركتها طلقة بندقية.. تأملت الفكرة سريعًا.. ارتعدت.. أغمضت عيني أتخيل الذي سيحدث.. «أجل» قلت في نفسي بنبرة بطل واتته لحظة الانتقام «سيكون ردًا تصبح السكين أمامه منديلا». وراحت أغنية بداية مسلسل مغامرات الفضاء ترتفع في داخلي.

تهبط الكاميرا عن وجهه إلى السور، ويأتي صوت الكيس،
ثم ترتفع الكاميرا ويرجع وجهه يمضغ شيئا يبدو أنه كاكاو،
يبتلعه، يلعق أسنانه العلوية، يبتلع، يتابع:

أخبرت الجميع قبل أن ندخل المدرسة بأنني سأنازل يوسف عصرًا في ساحة الفرع، رأسًا برأس. تطلّعوا إليّ غير مصدقين، ثم قلت مؤكدًا: «سأجعله يندم أن له رجلين قادتاه إلى شوارعنا».

في الحقيقة لم تكن خطتي هي النزال ولا الطعن.. كانت أكبر من ذلك بكثير.

وقفت أمام مبارك بداية الفرصة حاملا كتبي لأتسوّر المدرسة:

«ابن الكلب، ستندم أنك دخلت شارعنا، وقل ليوسف الفرخ إذا كان رجلا ينازلني عصر اليوم في ساحة الفرع، رأسًا برأس، وسأعيد لوجهه لونه الحقيقي».

جلسنا في بيت أم غريب، يحاول بشار في ما تبقى من الصباح تدريبي كيف أطرح الخصم في النزال، مستعينا بعزوز والدّيك. كنت أنظر إليهم وأعيد تفكيري بخطورة ما أنا مقدم على فعله، لم أقل لهم ما خطتي، خشيت أن يمنعوني من تنفيذها. جلسنا حتى وقت خروج المدارس، فعاد كل واحد منا إلى بيته.

ولما جاء العصر وجدتهم قد سبقوني إلى بيت أم غريب، واتفقوا بغيابي على الهجوم أثناء النزال وأخذهم غدرًا.

خرجنا إلى سكة سعيد، يهبّ علينا الهواء الفاتر من جهة الفرع، وقفنا ننتظر، حتى حضر ربع مصدّي يتقدمهم فتى قصير غليظ العظام يمسك بيده حديدة.

«هل هذا هو مصدّي؟» سألتهم.

أجابني بشار:

«نعم هو».

وقفوا على مبعدة منا. ربما منعهم يوسف من التقدم لأنه شعر أن هناك كمينا، قاموا يطلقون شتائمهم: «فروخ الدجاج.. الموت». رأيت، من الحيرة التي بدت على وجوه الرفاق، أن الوقت قد حان، فطلبت منهم أن ينتظروني حتى أعود.

نظر إليّ عباس نظرة سألَتْني: «هل ستأتي؟». ركضت إلى البيت، ولحقني صوت النمس:

«هرب أبو أذاني».

يشغل الكاميرا الخلفية على الساحة

كانت خطتي عبارة عن مغامرة خطيرة لم أسمع بأحد فعلها قبلي، ستدوّي باسمي في المنطقة كلها. دخلت البيت، من باب الحديقة، وخرجت من باب الشارع أحمل بندقية أبي «أم خمس» ألفُّها بشرشف كما يلفّ أبو سمرة عوده. في جيب ثوبي ثلاث طلقات من عيار أربعة وعشرين الخفيف، والذي لا يؤثر بالحمامة إذا أصابها من مسافة بعيدة.

تنسحب في الشاشة الساحة حتى تثبت على باب جدة سعيد

عندما وصلت سكة جدة سعيد جونكر كان الجميع يتراجعون بعدما تقدم ربع مصدّي، ولما رأوني أركض باتجاههم توقفوا عن التراجع، ثم كشفت عن البندقية، فاتّسعت الأعين وتكوّرت الأفواه وتفرقوا. ومن باب جدة سعيد، جاءني صوت يصرخ:

«عيب عيب، عيب عليك».

التسجيل السابع عشر

بعد سنة ونصف من ذلك اليوم

وجهه متأثر بالنوم، يمسح حنكه، لحيته خشنة، ينظر إلى الشاشة يقول:

بعد سنة ونصف من ذلك اليوم، وقفتُ في طابور الصباح أمام جميع الطلاب، وناظر المدرسة يقف بجانبي يمسك الميكرفون، ويتأهب لإلقاء خطاب، وكان الملازم عادل بجانب الناظر، يرتدي زيّه الرسمي، يطالعني بابتسامة فخورة.
ألقيت عينيّ على الأرض أبعدهما عن أعين الأولاد الذين كانت أعينهم تتقلّص من الذعر ما إن ترَني.
ربّت الناظر على كتفي يقول: «تقدمِ الطالب فهد بشكوى لدى المخفر أن هناك من يروج إشاعة بأنه قتل ولدًا السنة الفائتة.. فمن يعرف قائل هذه الإشاعة عليه أن يتقدم ويخبر الجميع الآن عن هذا الشرير قليل الأدب الذي شوّه سمعة هذا الطالب الطيب.. كلكم تعلمون أن فهد ولد بريء من أي اتهام.. ونحن في الإدارة نقدّره ونقدّر أي ولد طيب مثله.. أما الأولاد الأشقياء (رفع صوته) الذين يشوهون سمعة الأولاد الطيبين، فهؤلاء سنعرف كيف نكشفهم ونقدمهم للمحكمة، وتعلمون أن من نقدمه للمحكمة في تهمة تشويه سمعة فسوف يفصل من كل مدارس الكويت أولا، وعليه غرامة مالية ثانيًا، وثالثاً يسجن ثلاثة أشهر؛ وأي مدّرس يتهاون مع مثل هذه الإشاعات فسوف يقدم للمحاكمة، وسيكون جزاؤه مضاعفا لأنه أخلّ بمسؤولياته أيضًا.. أنا مستعدّ

لأن أضحي بوظيفتي في سبيل ألا يمسّ طالب من طلبتي بسوء، لذلك أقول لكم الآن إنني ضائق جدًا من هذا الأمر، خصوصًا أنني أعرف أن فهد ولد يتمنى جميع المعلمين أن يكون لديهم طالب مثله، ومن نسمعه يقول غير هذا فالفصل من المدارس ينتظره والسجن. وفي النهاية أقول لكم انتبهوا إلى مستقبلكم، اتركوا الكلام الزائد، وكونوا أصدقاء بعضكم لبعض.» وضع يده على كتفي وتابع: « والآن أريد أن أسمع منكم تصفيقا حارًا تحيّون فيه فهد الذي سأقدّم له الآن جائزة أفضل ولد في المدرسة».

يتوقف عن الكلام، مركزًا نظرته على شيء أمامه، كمن يستجلي منظرًا غائرًا في ذاكرته، تعود عينه تتحرك يكمل:

ارتفع التصفيق، من الأولاد والمدرسين. أخذ الناظر من طاولة بجانبه علبة مغلفة، وطلب من الملازم عادل أن يقترب، أمسكا الهدية وقدماها لي. أخذتها فيما تدور في رأسي كل تلك الأيام التي مرّت علي في السنة الماضية.. اختفاء سعيد الذي جرى أمامي.. الاتهامات.. الليلتان اللتان قضيتهما في نظارة المخفر مع سر الليل.. شوارعنا التي لفظتني كلقمة غصت في بلعومها.. الليل.. وسادتي.. بكاء أمي.. جبين أبي المتصلب.. المطر.. صوت شبّاك زهرة وهي تغلقه في وجهي.. الأصدقاء وهم يبتعدون عني.. رأسي.. الرجل الملثّم الذي كلمني عند باب بيتنا ويعرف أنني رأيت ما حدث لسعيد.. الملازم عادل بعد ذلك.
مسح الناظر على رأسي وقال: «أنا فخور بك يا فهد»، حاولت أن أشدد على وجهي لأصنع به ابتسامة فلم أقدر، فقال الملازم عادل: «كلنا فخورون بفهد»، وهمس في أذني: «ابتسم يا بطل، لا تقلق، ستعود الأمور كما كانت، أعدك».
أخذتُ الهدية وذهبت إلى مكان صفي في طابور الصباح. دخل الملازم عادل والناظر إلى الإدارة، هتفنا: «عاش الأمير» تلتفّ أعين أبناء صفي حول الهدية.. «تحيا الكويت».. خمّنت أنهم سيطلبون مني أن أفتحها بالصف.. قال ولد

بجانبي: «مبروك»، التفتُّ إليه ورددت: «الله يبارك فيك»، وهتفنا: «تحيا الأمة العربية».

طوال الحصة الأولى، كانت الهدية فوق الطاولة، وكنت سارحًا بخيالي إلى تلك الليلة، قبل سنة، بعدما عدت إلى بيت أم غريب ليلاً، أحمل عشاء من بيتنا، ووجدت سعيدًا نائمًا، والمشروبات الغازية التي أحضرتها كانت ما زالت مع السنيكرز تحت قدميه لم تُمسّ.

شعرت، وعيني على الهدية، بأنني يجب أن أرى الرجل الملثم مرة أخرى.

رنّ جرس انتهاء الحصة، فتجمّع الأولاد حولي يريدون أن يعرفوا الهدية التي داخل العلبة.

التسجيل الثامن عشر

أبو بارود

يمشي بروية، عليه ثوب أبيض، يلف رأسه بشماغ، فيما الليل يملأ ساحة ترابية في خلفية المشهد، عن شماله صفوف بيوت تكشف إنارتها الخارجية عن حدائق تمد أشجار الكونوكابرس على الساحة، يملأ صدره بالهواء ويدفعه مكورًا فمه:

تُوسَّعُ لمروري الممرات.. تزاح الطاولات عن طريقي.. يبتعد الأولاد عن النظر مباشرة إلى عيني.. ينكمش أولاد «ربع مصدّي» عند رؤيتي ويلوون رقابهم إلى الجدران.. أمتلك الساحات في المدرسة.. أسيطر على طوابير المقصف.. أتحكّم بالصف.. أتطاول على المدرسين.. تمسك يدي كل شيء.. إنها العظمة المستحقّة.

من يستخدم بندقية لأن أولادًا دخلوا شارعهم فماذا سيستخدم في الأمور الأكبر منها!

من يمتلك قلبًا قويًا ليطلق النار على الأولاد في ساحة منفرجة وأمام مرأى الجميع ودون أن يحاسَب، فما الأمور التي فعلها مستترًا ولم يعلم بها أحد!..

تناقل الأولاد ما فعلته بيوسف، مضيفين عليه بعض التفاصيل التي لم تحدث، مثل أنني تبولت عليه، وحشوت فمه ترابا؛ على أنني انتقمت منه إلا أن نظراته

ذلك اليوم آلمتني لعدة أيام كلما استرجعتها على الفراش، فعندما أطلقت الأخيرة في السماء وأنا أقترب منه أخذ البهاق في وجهه يشفُّ أكثر عن لونه، آخذًا بالانهيار للبكاء.. انقلب على ظهره.. وضعتُ فوهة البندقية على بطنه وصرخت: «تحسب دخول شارعنا هينا يا الفرخ».. رفستُه على قدمه. التمّ الرفاق وأوسعوه ضربًا حتى اتّسع أنفه وسال الدم من فمه.. ثم راح عباس يمزق أزرار ثوبه قبل أن نتركه.

أصبحتُ نجم أولاد الفردوس، بطلاً من أبطال المنطقة، يتقرب مني الذين يكبرونني بالسن بتقديم السجائر لي في الحمامات.. يدنو الذين بعمري لإشعالها.. يلتمس الذين هم أصغر مني رضاي، يطفئونها عنّي.. «فهد أبو بارود».. اللقب الذي حصلت عليه بعد هوشة الساحة، وأطلقَ أعيرةَ اسمي في سماء الفردوس، ومنحني بذلك المزيد من الكبرياء، حتى بلغ تقديري لذاتي مبلغاً لم يصله قبلي أحد. ومن سيقول عني أبو أذاني ربما سينتهي أمره. تناقل الصبية ما أخبرهم به بشار من أنني أحد المقربين من «سر الليل»، وأنه رآني بعينيه مرة أقرّب رأسي من نافذة الزد ويد سر الليل تخرج بولاعة ليشعل سيجارتي.
انتشر الخبر في البيوت ينقصه الكثير من التفاصيل.. ولد مجنون أطلق النار من بندقية صيد على مجموعة أولاد وأصاب ثلاثة بجروح خطيرة، زادت أمي: «الشرطة يبحثون عنه وعن الأشقياء الذين معه، إياك أن تكون واحدًا منهم».
تظاهرتُ بالمفاجأة: «بالتأكيد لن أصاحب مثل هذا الولد غير المتربي يا أمي».
خفت أن يصل الخبر إلى زهرة ويفسد راحتها إليّ. أريد أن أكون في نظرها الولد الذي يفكر بتخصّصه في الجامعة، الذي يمكنه أن يبني بيتا ويتزوج، وليس الولد الشقي الباحث عن المشكلات. عندما قابلتها، بعد يومين من حادثة البندقية، سألتني عمّا خلّفني عن موعدها. أجبتها، والليل يضفي على السكة جوًا ملائمًا لسرقة شيء ثمين، بأن ولدًا شقيًا أطلق النار في ساحة الفرع على مجموعة أولاد فخفت أن يأتي بطريقي ويوجّه بندقيته علي.

أمسكتْ فمَها ووسعّت حدقتيها تمد رأسها قليلا إلى الأمام.

«يهملون أولادهم بالشوارع يا زهرة» هززتُ رأسي بأسف، وأضفتُ أنظر إلى آخر السكة: «ويلومونهم إذا جاؤوا بمصيبة».

ثم صمتُّ أتساءل وعيناي تحومان حولها: لماذا عندما أكون معها أصبح شخصًا آخر، غير الذي مع ربع الموت؟ ستقود نواياي الطيبة حتى تمكّنها مني.. راودني خوف غريب على شرّي.. ربما ستذهب لقاءاتنا برائحة البارود التي تحفّ باسمي. انتزعتْني من رأسي:

«قل لي بماذا تفكر؟».

طارت الكلمات مني مثل عصافير أخطأتها حصاة. صمتُّ.

أمسكتْ أحد القضبان وقالت: «قلت إنك تحبني».

فقدت الشعور بوجهي:

«نعم».

«قلها مرة أخرى».

ضعف نبضي، بالكاد دفعت لساني: «أحبك».

تورّد خدّاها وأغلقت النافدة إلا جزءًا لا ينفذ منه إلا الصوت، قالت من خلاله:

«وأنا أحبك أيضًا».

ثم أكملتْ إغلاقها. تلا ذلك صمت له إيقاع أغنية «قلبي معك يا مشغل البال ملتاع». شعرتُ بها تقف خلف الشبّاك المجلّد والورود الرقيقة المرسومة عليه تسقط ظلالها الشفيفة على ثوبي، وباغتني شعور بأنني لن أصبح شريرًا مهما فعلت بعد اليوم.

يتعثر بشيء ما، تهتز السماء في الشاشة فيما صوت قدميه
يقول أنه تخبط تخبطًا طفيفًا، يملأ وجهه الشاشة، ينظر
تحته، ويتوجه إلى الكاميرا ويتابع:

لاحظت تغيُّرًا على سعيد، شيء ما تبدّل في نظرته لي، شيء عميق، ولم يكن تغييره ممكنا بسهولة؛ صار يتحسس من مروري في السكة، يهرع بأخيه وينادي سعيدة ويقفل الباب بسرعة لها دويّ انفجار. أحيانا، عندما لا أسمع صوت قفل الباب، أرى عينه من الفرجة بين الدرفتين تراقبني أدخل بيت أم غريب، فأنظر من فرجة باب بيت أم غريب إذا دخلتُ، لأجده يخرج مسرعاً يلتقط كرسيَّ أخيه أو يأخذ صحنا نسيه، أو يضع عصفوراً بيده فوق العش، ثم يعود مسرعًا ويغلق الباب. فقدتُ براءتي عنده بعد أن أطلقتُ النار أمامه في الساحة، أصبحت بابًا من أبواب الشرّ قد يفتح بوجهه أصناف الابتلاءات. وربما خشي مني على أخيه وعلى الكلبة التي أصبح يرعاها كرعايته أخاه. عاد يُتأتئ في الحديث معي عندما يعتذر مني إذا ما باغتُّه في الحديقة: «سعد سعد، سأحمّم سعد سأحممه أحممه».

وعلى الرغم من هذا رحت أنظر إليه من فرجة باب بيت أم غريب، كلما دخلت، وأشعر برغبة في مشاهدة طريقة إنصاته الجلمودية وأنا أحدّثه، وإلى نظراته الساكنة على وجهي، وهزة رأسه المتفهّمة بعد أن أنتهي من الحديث دون أن يقاطعني، وإلى تلقائيّتي معه التي كنت أسترسل معها دون تفكير مسبق. وما إن أسمع أصوات الأصدقاء في الغرفة حتى أتخيل كيف ستتجهّم نظراتهم إذا ما رأوني معه، وكيف ستنخر ضحكاتهم من أنوفهم، فيتحول الجلوس معه، سريعاً، في نظري إلى عقال يجلد ظهري.

مررت على حديقتهم صباحًا، ذات يوم تغيّبتُ به عن المدرسة، وما إن تجاوزتُ السور حتى وقف يتعذّر بجملته: «سأحمم سعد»، وأغلق الباب خلفه.

لم يعد لائقا بفهد أبي بارود أن يجلس مع سعيد جونكر، فهد له اسم الآن يرتّب الفوضى، ويمهّد الذي لا يتمهّد.. أبو بارود الذي صار الأولاد يعون إلى رضاه وطلب المعونة منه في هوشة تجري في القطع المجاورة يجب عليه ألا يرمي وجهه عند مجنونٍ أكمام ثوبه قصيرة ويبحلق طيلة الوقت بأي شيء يتحرك أمامه.

يتوقف، ويضبط التصوير على الكاميرا الخلفية، تنبث أنوار صفوف بيوت على مد النظر، تكشف عن حدائق ومظلات كبيرة أمامها، حتى يتجمع النور في آخر الرؤية حول مبنى يتطرف الساحة ويبدو شارعا سريعا عن يمينه:

بانتهاء المدرسة وبداية عطلة الصيف، أجبرَنا حرُّ جدران بيت أم غريب على تغيير مكان جلوسنا إلى آخرَ خلف محول كهرباء في رأس شارع عباس، له جهة تفتح على ساحة ترابية واسعة، نجلس في الظل بعد صلاة العصر، وعندما يحل الليل نتقدم إلى منتصف الساحة حيث كانت تهبّ علينا ريح طيبة. استمر الأولاد يتهافتون على الانضمام لربع الموت.

«من يريد أن يكون من ربع الموت؟».

أقول أمام الأولاد الجدد رافعًا قبضة يدي، فتنطلق أفواههم: «أنا.. أنا.. أنا» دون أن أجد لها طعمًا كما كانت تفعل في المباريات.

في كل أسبوع تقريبًا كان ينضم إلينا أحد الأولاد من الشوارع المجاورة، وبعضهم ليسوا من قطعتنا، ولم أكن أعرفهم كلهم، فندخن وننطلق، نبحث عن فلول ربع مصدّي الذين سمعنا أنهم ازدادوا عدداً وبدؤوا يجوبون الشوارع ويفتعلون العراكات.

يمرر الكاميرا على مكان ما في الساحة،

كنّا نتحلق هنا، أقصّ عليهم حديثي مع سر الليل، أصف لهم مقصورة الزد المظلمة، أرى في أعينهم بريق الإعجاب تلتمع فيه صورتي، أتظاهر أمامهم بحب الشر، أصف لهم كيف تأتي ضربة قلم حبر بنتيجة ممتازة إذا اخترقت الخدّ ومزقت اللسان، أشير إلى الأماكن الحساسة في الجسم والتي يمكن أن نصرع الخصم بها بضربة عصا، وأوصيهم في النهاية بإبلاغي عن أي شكوى تأتيهم من

المخفر كي أبلّغ عمّي يدسّها في درج طاولته.
وعندما أقف أمام شبّاك زهرة..

يصمت ويتذبذب صوته فيما يتحرك يمينا بروية ثم يتابع:

وعندما أقف أمام شبّاك زهرة، ويهب نسيم وجهها منه، أصير ريشة لا يمكن أن تجرح أحدًا، أتقلب بهدوء في السكة، أنبذ أمامها كل طرق الشر والأذى التي يأتيها أولاد قطعتنا المهملون في الشوارع، كأنني أبرئ نفسي من كوني أكثرهم كلامًا عن الشر. تتحدث زهرة عن أشياء كثيرة ليس للخير فيها طرف، إلا أن صوتها وطريقة كلامها المتحمسة، غير المبالية، ترسم في داخلي صورة ولد يصلّي في الصف الأمامي.

لما ازداد عددنا وأصبحنا نملأ الساحة، راحت الأصوات والضحكات تذهب بعيدًا، حتى بدأت بعض الأمهات يخرجن لنا من البيوت المجاورة، أو الآباء، ويهددوننا بالشرطة. نخفض أصواتنا دقائق معدودة، ثم تعود لترتفع تدريجياً دون قصد، حتى جاءت ذات ليلة دورية شرطة، من لحظتها بدأ اسمي يخسر جاذبيته.

كنا متحلّقين في عدة حلقات، نضحك بأصوات عالية، يصرخ بعض الأولاد على بعض، فيما كنت أخطّط مع مجموعة من الرفاق للذهاب إلى البحر غدًا بعد الظهر، فرأينا أنوار الفلشر تقلّب أضواءها في الساحة، قال أحد الرفاق: «لا يهرب أحد، إذا هربتُم فسيقولون إننا ارتكبنا خطأ».

أوقف سائق الدورية مقدمتها أمام جلستنا، في منتصف الساحة، وسلّط علينا أنوار الإضاءة الأمامية المجهرة، وكانت أضواء الفلشر تدور باللون الأحمر والأزرق. ارتبك الأولاد فانسلّ بعضهم من خلف المحوّل ووقفوا يُطلّون من زاويته. خرج صوت حانق من نافذة الدورية: «أنت وهو.. إذا وجدتُ أحدًا منكم هنا مرة أخرى فسأدعس على رأسه، هيّا انقلعوا إلى بيوتكم». هرول البقية ولاذوا

وراء المحول. بقيتُ جالساً ومعي سعد كوكو والنمس، أحرّك الرمل بقضيب حديدي، وأستدعي بذاكرتي صورة عمي علي نشوان برتبته العسكرية. صرخ الصوت: «ألا تسمع أنت وهو، هيّا انقلعوا». أذعن سالم النمس وذهب، وتبعه سعد. وجدتُها فرصة جيدة لأبرهن على تميزي؛ وضعت يدي أمام عيني أصدّ بها الضوء، وقلت: «هذه ساحتنا، بيوتنا قريبة من هنا، ولم نفعل شيئاً خطأً حتى تطردنا». فتح الباب وجاء يمشي إليّ بسرعة تشي أنه سيركلني، يقول: «تريد أن تريهم أنك بطل هاه!». (يتقدم إلى البيوت، وينكشف مبنى مربع بين صفي بيوت) وقفتُ فرأيته، كان برتبة ضابط، نجمة على كتفه، على عينه اليمنى ضمادة، تراجعت خطوات أقول: «عمي علي، عمي علي نشوان رئيس المخفر»، فأمسكني من ياقتي: «هل تهددني يا صغير؟». توقعتُ من حرارة صوته أن تأتيني صفعة، صالبت يدي أمام وجهي، ثم خرج صوتي متوسلا: «لا لا، فقط أقول لك لأنك -لابدّ- تعرفه، أريـ...». «اخرس» قاطعني، وأضاف وهو يلوي أذني: «انقلع الآن وإلا قطعت أذنك». دفعني، فسقطت على ظهري. تقدم بسرعة، فيما كنت أنهض، وركل مؤخرتي، فانكببت على وجهي. قمت أقول بصوت باك: «خلاص خلاص، سأذهب والله»، وهرولتُ إلى المحول. (يبين من المبنى أنه محول، يميل إلى منفذ عن يمينه، يحفه صف مقلم من شجر الكونوكاربرس) وجدتُهم وراء المحول بقليل، ينظرون إلى وجهي منكمشًا، أنفض ثوبي. رأيت في نظراتهم اسمي يتحول إلى دخان سيجارة، يرتفع، ويبدأ بالتحلل إلى لا شيء. قال بشار يهوّن ما حدث مخاطبًا الأولاد: «هذا الضابط صديق عم فهد، كلنا نعرفه، ونعرف أنه يمزح مع فهد»، وحوّل الكلام إليّ: «قل لعمك ما حصل وانظر كيف سيضحك ويقول لك: نعم أخبرني، كان يريد أن يمزح معك فقط».

زادني صمتهم طوال الطريق إلى بيت أم غريب سقوطًا من مكان عال.

يبدّل النقال إلى يده الأخرى ويتابع:

وهكذا رجعنا إلى بيت أم غريب، مرغِمين أجسادنا على التقلُّب في حر الجدران حتى نكمل سيجارة أو اثنتين، ثم نخرج نجوب شوارعنا، ونجلس تحت أي ظل نجده مناسباً، ثم نعود إلى بيت أم غريب، ندخّن، ونذهب إلى ديوانية كوكو نشاهد فيلمًا قتاليًا. (ينزل إلى شارع داخلي مارا من بين سيارتين مركونتين) بدأ الأولاد يقلّون بعد ذلك، لأسباب عديدة، منها أن ديوانية كوكو ضيقة ولا تكفي لأكثر من خمسة عشر ولدًا، فاضطر البقية لأن يبحثوا عن مكان يخفف عنهم الحر، ومنها أيضًا أنني طردت أربعة أولاد؛ لأن ولداً اسمه وليد، كنّا نناديه «سوسة»، أسنانه الأمامية مسوّسة، وتخرج من فمه رائحة خبيثة، طردته لأنه تطرّف بي مرة عن الأصدقاء، يريد أن يحدّثني بشأن خاص، حسبته سيشكو من أحد يؤذيه، فإذا به يبتسم ابتسامة صفيقة ويقول بصوت خسيس: «البنت التي تكلمها في الداعوس، هل لها صديقة، أو أخت بمثل عمري، لا بأس لو أصغر مني قليـ..». تكابرتُ أن يعلم مثل هذا بعلاقتي مع زهرة، دفعته من رقبته، ثم أمسكت شعره أجرّه إلى الباب، قام البقية يفرقوننا، قلت وأنا أتركه: «إذا رأيتُك هنا مرة أخرى فسأخرجك ركلا على مؤخرتك إلى أن تصل لقطعتكم». خرج معه ثلاثة أولاد من أبناء قطعتهم، فسار حتى وصل سكة جدة سعيد ثم وقف وقال: «مثلما ركل مؤخرتك الضابط ذلك اليوم وبكيت مثل البنات»، وهرب. ارتعش اسمي، بعد ذلك كثيرًا بشكل غير مباشر، كأن أطلب ولّاعة من أحدهم ويستمر بالحديث كأنه لا يسمعني، أو يقاطعني أحدهم وأنا أتحدث عن سر الليل. حاول بشار إيقاظ الخوف في نفوس الأولاد، بعدما سمع أحدهم، من أبناء قطعة مجاورة، يناديني بـ «أبو أذاني»، كنت سأقول له: نعم، لولا تدخُّل بشار يقول: «لن أقول لك ماذا سيحدث لك في المرة القادمة التي تنادي فهد هكذا»، اقترب من الولد وزاد بنبرة محذّرة: «اسأل الرفاق لماذا لم يعد حمّود البصقة يجلس على مؤخرته». (تمر بجانبه سيارة رياضية، ترتفع منها ضوضاء) مع انتصاف شهر ثمانية وبلوغ الحرارة الدرجة التي تغلي بها الأدمغة، قمنا نجلس في ديوان سعد كوكو، حتى صلاة المغرب ثم نذهب إلى بيت أم غريب،

حين يصبح الجو محتمَلا، لندخن سيجارة ونعود.

تنزل الكاميرا على الأسفلت، تهتز مع إيقاع خُطاه، يأتي الرصيف عن جانبها الأيمن ثم يختفي، يسير ثلاثين ثانية، يقول: السلام عليكم، يرد صوتان عليه: وعليكم السلام، ثم يصعد رصيف يظهر بلاط اسمني مربع، ويمضي عشرون ثانية، ويأتي بلاط من جير ملون، ترتفع الكاميرا ويظهر أمام بيت من جانبه سكة متوجها إليها، يبطء السير، ويقول:

طوال ليالي العطلة كنت أنتظر الساعة تتجاوز العاشرة حتى أذهب إلى شبّاك زهرة. تغلق المكيف حتى نسمع بعضنا جيدًا. أستعرض عندها أحداث النهار، ويجب أن يكون لدي مكان مختلف عن مكان المرة السابقة؛ مرة مع عائلتي على الشاطئ في يوم البحّار، ومرة عند بحر البرتقالة.. أجّرنا سفينة.. في المطعم.. السينما.. كل مرة كنت أبحث مع سعد كوكو وبشار عن مكان، وكانت تطلب مني أن أصف الأشياء هناك، فأعصر مخيلتي، وأحدّثها عن أشياء رائعة لم أرها يومًا.. المدينة الترفيهية، الألعاب، الطرقات الضيقة، الأشجار، الأسماك، القنوات المائية، الورود، الطيور، الناس.. أهم شيء عندها كان تصرفات الناس في الأماكن، ومدى استمتاعهم، ثم أترك لها الحديث لتخبرني عن مشاغل البيت، أو تقصّ علي قصة فيلم شاهدته بالأمس، وعن ذكرياتها مع صديقاتها يوم كانت في المدرسة، أو عن بنات خالاتها الحمقاوات، وبعدها تحل لحظة صمت ينظر بها كل منا إلى الآخر ثم تأتي «أحبّكَ»، و«أحبّكِ»، و«انتبه لنفسك من الأولاد الأشقياء»، و«أتمنى ألا يأتوا في طريقي».

يدخل السكة، وتمتد صفي بيوت متقاربين، بينهما فرجة

ترابية تكفي لمرور سيارة، ويلتف الظلام حوله الشاشة، يسمع صوت لهاثه، سمر بقعة نور مستطيلة تأتي من باب مفتوح، ويأخذ نفسا عميقا ويزفره، ويكمل:

تناقص عددنا تناقصًا سريعًا مع آخر شهر ثمانية. لا يوجد أحد لم يلاحظ أنهم بدأوا يتركون مشورتي منذ ذلك المساء الذي رأوني فيه مهانا بين يدي ضابط شرطة، لم يعد أحد يأتي ليقول: أنا أنا أنا، على: من يريد أن يكون من ربع الموت؟ وكان الصبية من الشوارع الأخرى يتناقلون أخبار ازدياد عدد ربع مصدّي، وانتشر بينهم خبر قيل فيه إن يوسف مصدي كسر زجاج دورية يقودها ضابط كان يلاحق سرّ الليل. وأخبرنا عباس أنه رأى أحد الأولاد الذين كانوا يأتوننا، يمشي في الجمعية مع أولاد من ربع مصدّي، ولدٌ له أسنان أمامية مسوّسة. فقال: «هذا يعني أن مصدي أصبح لاسمه شأن مرة أخرى».

استمرّت، طوال فترة الصيف، الجفوة من جانب سعيد كما هي، لم تتّسع ولم تتقلص؛ النظرات، والاقتراب، و«سأحمم سعد». أتركه لما يريد.

وقبل المدرسة بثلاثة أسابيع، عندما رقّت النسمات، وبدأت تخالط الجوَّ أنفاسٌ خفيفة تنشر دخان السجائر في الرئة بلطف، وأصبحت شمس العصر تتلطف، معلنة دخول شهر تسعة ذي الليالي الرائقة، حدث شيء قرَّب المسافة بيني وبين سعيد.

كنا نتأهب لشوي دجاجة في بيت أم غريب، فأربكتنا منبّهات سيارة إسعاف وقفت أمام بيت جدة سعيد. خرجنا نقف مع الجيران الذين تجمّعوا حول الإسعاف. خرج رجال الإسعاف بسرير ذي عجلات يحملون عليه الجدة، ثم مضوا بها إلى المستشفى ولحقهم مرعي بسيارته. رأيت سعيد لحظتها عند الباب يحمل أخاه ويبحلق بي من دون الجميع، لم تكن بحلقته المعتادة، كانت مصحوبة بتعبير من حاجبيه له معنى واحد: ماذا سيحصل؟ عندما اقتربتُ منه

أسأله عمّا حدث انسحب إلى الداخل وترك الخادمة تبكي وحدها أمام الباب.
سألتُها: ماذا حدث؟ أجابتني بعربيتها التائهة: ماما موت.
«لم تمت يا زهرة»، قلت أمام الشبّاك، وهواء الساعة العاشرة يمسح على رأسي، فيما وجه زهرة تصطبغ عليه كل ألوان الشفقة، «أصيبت بجلطة شلّت نصف جسدها وربطت لسانها».
«مسكينة، وماذا فعل سعيد؟».
«ماذا سيفعل المسكين؟».
«يجب أن تساعده».
«بالتأكيد».

يسمع صوت أذان يكبر من مكان قريب:

عادت الجدة بعد ذلك بأسبوع، كنت مع مجموعة من ربع الموت عائدين من ساحة الفرع حين أنزلها سعيد والخادمة من سيارة مرعي وأجلساها على كرسي متحرك. عندما رأيتها متكوّمة على الكرسي يدفعها سعيد إلى الداخل ارتفعت رغبتي بالبكاء إلى حلقي، دفعتها عني بالكبرياء الذي منَحَنِيه لقبي المنكوب «أبو بارود»، لا ينبغي له أن يبكي أمام أحدهم.

يظهر عمود إنارة من يقف آخر السكة، يسحب نفسا طويلا ويغلق التسجيل

التسجيل التاسع عشر

المومياء

عـود أسـنان في فمه، يبحلق في الشـاشة يتفحّص وجهه.
تجمد ملامحه، ينزع العود، ثم يحدق في وجهه سبع ثوان،
يتنحنح ويبتلع ريقه، تلين ملامحه:

خرجنا من بيت أم غريب، أنا وسالم وبشار، نتحدث عن المدرسة التي ستبدأ بعد ثلاثة أيام، يضع بشار في حسباننا أن بعض الأولاد الذين كانوا معنا تفرقوا، وأننا صرنا ثلاثة فقط في المتوسطة، مشيرًا إلى وضعنا الحرِج، أنا وهو وعباس، حيث كانت ستبدأ الدراسة بعد ثلاث أيام، إذا ما واجهنا ربع مصدّي الذين بقي منهم في مدرستنا أكثر من عشرة. وذكّرنا بالأيام التي كنا نقفز السور هربًا من أذيّتهم. افترق عنّا النمس، أكملت طريقي مع بشار، يحدثني عن الأذى الذي قد ينالنا أنا وهو وعباس: فربع مصدّي ملاعين ولا يأمنهم عاقل، سريعو الغدر، يضربون بالأقلام على الرأس وربما أخذوا عينا بالخطأ.

لم أشعر بذلك في أي تهديد من ربع مصدي، ملت إلى شارعنا، وأكمل إلى شارعهم. طالعته وهو يبتعد عني، واسترجعت نظرة يوسف مصدي المتوسلة وفوّهة البندقية تندفع في بطنه.

يحوّل بصره إلى وراء الشاشة هازا رأسه بلطف. يجمد كما

لو أنه يستعيد بذاكرته شيئا ما، يرفع رأسه إلى الأعلى، ثوانٍ ويعود إلى الشاشة:

في عصر الغد، طرق بشار باب بيتنا، فخرجت معه ندخن في بيت أم غريب. أعاد علي في الطريق مخاوفه من ربع مصدي، فقلت له غير جاد: «لا تقلق سأجد حلا». أعطاني سكيناً من النوع الذي يطوى، أخذتُها أقلّبها. قال:
«إذا عرفوا أنك تحمل سكينا فسيَرْهَبونك، وإذا رهِبوك..».
فتحت السكين، نصلها حاد جدًا، خفتُ، أغلقتُها وأعدتُها إليه فيما كان يتابع:
«.. لن نسيطر عليهم إلا بهذه الطريقة، وأنت من يستطيـ..». قاطعته:
«لا لا، الشيطان سيركبني ويجعلني أطعنُ بها». أمسك ذراعي يقول:
«ضعْها في جيبك، ولا تخرجْها إلا في وجودي، ودعِ الباقي عليّ».
«ماذا ستفعل؟».
مالت زاوية فمه اليمنى بابتسامة ماكرة:
« إذا تجاوز أحدهم أدبه معك فأخرجْها كأنك تريد أن تطعنه، وسأتظاهر بأنني أمنعُك من الطعن.. نحن في حاجة لتخويفهم، المدارس بعد يومين، تعلم أنه لم يبق في المدرسة غيري أنا وأنت وعباس.. البقية انتقلوا كما تعلم إلى الثانوية.. ستكون أمامنا أيام سوداء».
توقف وأمسكني من كتفي كقائد ينصح أحد أتباعه: «فهد، أنت من يقدر على تخويف مصدي، ضعها في جيبك، ضعها». نظرت إلى السكّين ثم رفعت عيني إليه، فوجدت وجهه منفردًا كجناحي حمامة سلام. وضعتُها في جيبي، ودخلنا بيت أم غريب.
وجدنا كوكو والنمس جالسَين مع ولد اسمه فيصل -سميناه يومئذ «المومياء»- وكان من الأولاد الذين انقطعوا عن المجيء عنا، قام يسلم علينا، قال إنه كان مسافرًا إلى مصر مع عائلته. تركناه يحدثنا عن رحلته إلى مصر، أخبرَنا عن الأهرامات والمومياوات التي شاهدها مضطجعة داخل فاترينات. أراد النمس

أن يُضحكنا فطلب منه بوجه يصطنع الجد أن يقلد مومياء. عرفنا مقصد سالم، فألححنا على فيصل أن يقلد كيف كانت المومياوات مستلقية، استسلم وانبطح على ظهره يحدق بالسماء ثم شدّ على جسمه مصلبًا عضلاته يحاكي جمود المومياوات، انقلبنا على ظهورنا من الضحك.

يضحك، يميل وجهه إلى اليمين، ثم يسكت ويبتلع ريقه:

شعر فيصل أننا نتخذ منه سخرية، فقام بسرعة وقال يستنكر: «الخطأ علي، حسبتكم جادين». استرضيناه وخرجنا من بيت أم غريب إلى بيت عباس، عبرنا سكة جدة سعيد بجانبها نكركر من شكل فيصل وهو يقلد المومياء، وقد بدأ وجهه ينكمش من ضحكنا عليه.
وجدنا عباس أمام بيتهم يساعد أباه في غسل القارب، جلسنا ننتظره عند المحول، دخّنّا إلى أن جاءنا، فرحنا إلى الشوارع المجاورة نبحث عن أي شيء يزهق الوقت.
عندما عدنا بعد صلاة العشاء وجدنا سعيدًا جالسًا في الحديقة تحت شجرة السدر يبحلق بأخيه سعد. لم يهرع إلى الداخل لدى رؤيتي، قلت ربما اطمأنَّ أنني لا أؤذي أحدًا؛ وكان قد مضى أسبوعان تقريبًا، منذ أصبيت جدّته بجلطة، لم أره فيها.
حدثنا المومياء، ونحن نعبرهما، عن آخر خبر سمعه عن يوسف مصدّي؛ من أنه أشعل نارًا في سيارة كانت متعطلة على الطريق، ووصف -فيما كنت أنظر إلى سعيد- جمعهم عندما رآهم يوم أمس بالغفير. تركته، معيراً انتباهي إلى سعيد الذي تخيلت أنه يتفوه باسمي، ثم عدت إليه، فإذا باسمي يتكرر مرة ثانية بصوت سعيد، التفتُّ فرأيت سعيدًا يرميني بنظرة صلبة، ونادى بطريقة غير مكترثة: «فهد تعال». تابعتُ طريقي متظاهرًا بأنني لم أنتبه، وقلتُ مقاطعًا حديث المومياء: «.. عمومًا البندقية موجودة والطلقات كثيرة، لن

يجرؤ يوسف على دخـ..». «فهد قلت تعال» ناداني مرة أخرى بصوت زاجر. نظر إليّ فيصل كمن ينتظر رؤية ردة فعلي، فتابعنا طريقنا نتحدث عن ربع مصدي، فقاطعنا سعيد مصرًا على إحراجي: «ألا تسمع فهدًا؟ أريدك أريدك، تعال الآن الآن». أخرج فيصل صوت ضحكة من أنفه، وتعجّب: «هل صرت خادمًا عند جونكر؟» فضحكوا، لم أعرف ماذا أفعل.. سعيد لا يناديني هكذا.. أعرف أن أمرًا طارئا ألمَّ به. بدافع من الحماقة والشعور بالإهانة من تندر فيصل علي، أخرجت السكين، ومددت نصلها اتجاه جونكر أقول: « سأشق بطنك جونكر إذا ناديتني هكذا مرة أخرى، هل تحب أن ترى كيف يبدو بطنك من الداخل»

لم يتغير وجه سعيد لكنه تراجع إلى الوراء خطوات، وقف ينظر إلي ثواني ثم استدار بطريقةِ سدٍّ ينهار ومضى إلى حديقتهم.

دفعني كوكو لأكمل الطريق، وأعطاني ما تبقّى من سيجارته ليخفّف حنقي يقول: «خذ، خذ، اهدأ، مجنون لا يعرف كيف يتكلم». وضعتُها بين شفتيّ وقلت: «مجنون نعقّله». أخذت نفَسًا من السيجارة ونفخته بقوة متوجهًا إلى فيصل: «لم نحمل السكاكين معنا عبثا».

لم أكن معهم في ديوانية كوكو وهم يتابعون رامبو وهو يلاحق رجالا لهم وجوه شاحبة برشاش وقنبلة، كنت أبحلق معهم في الشاشة، وذهني شارد مع سعيد، تتخطف بلعومي حموضة غريبة، أزدردها مواصلا التظاهر بالاهتمام بكلام فيصل وهو يقص علينا أحداث الجزء الأخير من فيلم «رامبو» أفكّر بماذا يريد سعيد منّي.. لم يسبق له أن ناداني بهذا الشكل من قبل.

لم أستطع الانتظار أكثر، استأذنتهم للذهاب إلى البيت، وخرجتُ إلى بيت جدة سعيد.

كان الليل قد أنزل بساطه على الشوارع، وأخذتْ أعمدة الإنارة تزجيه بنور

فضي هادئ، طرقتُ باب الجدة حتى خرجت الخادمة وطلبتُ منها أن تنادي سعيد، لحظات وخرج وجهه السميك من فرجة الباب يطل، ضيّق الفرجة وقال من وراء الباب:

«أنت تريد ماذا، ماذا تريد؟».

«أريد أن أقول لك إنني كنت أمثّل قبل قليل عندما قلتُ سأشق بطنك».

أخرجتُ ضحكة مفككة وأضفتُ: «أراهن أنك صدقت».

«سكين كانت معك، تريد أن، كنت تريد أن تشق».

«قلت لك أمزح .. هيا قلْ ماذا كنت تريد؟».

لم يرد، فلم أرغب بالضغط عليه: «حسنا، مع السلامة»، ثم رجعت خطوتين واستدرت، وحين وضعت قدمي في الشارع، أخرج رأسه وقال: «فهد، فهد»، وأشار لي بيده أن تعال، أخرج جسده كله ومضى إلى سور الحديقة، تبعتُه حتى جلس على السور، جلست بجانبه أتطلع إلى جبهته المتصلبة وهي تكاد تنصدع من شدة تصلبها. وقبل أن أسأله قذفني بجملة: «يريدون أن يأخذوا سعد». سكتَ كل شيء في الشارع، سألته: «من.. من يريد أن يأخذه؟». لمعت عيناه دون أن يتغير صوته: «مرعي قال إنه سيأخذه إلى مكان فيه أطباء سيهتمّون به، جدّتي لم تعد تقدر على الحركة»

كجبل يتصدع، كان سعيد مثقلا بالأسى، ومتعبًا كبحر ينشف.

يأخذون سعدًا منه كيف.. كيف.

لم يكن يعرف أحد سواي، شعرت أن علي أنِ أفعل شيئا ما، لا بد أن يكون لي دور في تخفيف مأساته.

«سأجد لك حلا». وقفت أمامه وقلت بصوت بطل يريد أن يجعل من العالم مكانا آمناً للمساكين: «لا تخفْ، لن يبعدك أحد عن سعد». رفعت قبضتي وشددت عليها: «أعدك، أعدك».

قام إلى بيتهم صامتا، وعدت إلى ديوانية سعد كوكو أفكّر ماذا عساي أفعل. تلمّستُ السكين، تخيّلتُ أنني أفعل بمرعي مثل ما يفعل رامبو بأعدائه، يضعها

على حناجرهم ثم يطلب منهم ما يريد فيطيعونه.

ركن حسن الموستنج أمام بيتهم قبل أن أدخل ديوان كوكو، ولوّح لي بيده مسلّمًا، لوحت له مبتسمًا. تخيّلت قبل أن أدخل إلى الرفاق أن سعيدًا في الجيش، مثل حسن، ولديه موستنج، ويستطيع أن يعتني بأخيه سعد، أخذت نفسًا عميقًا ودخلت.

تابعت معه رامبو وهو يواصل قتل أعدائه فيما فيصل المومياء يقص علينا أحداث الجزء الثاني منه.

جاهدتُ في القبض على شهقات أنفاسي وأنا أقصّ على أمي ما حدث. أمسكتْ أمي وجهها من التأثر، حوقلتْ، دعت الله أن يصيب أمّهما، التي تركتهما، بمرض السل، وبعد سلسلة من الكلمات المدرّة للشفقة عليهما قالت:

«لعله من الأفضل لهما، أين سيذهب المسكينان بعد عين العجوز؟».

لم أجد لديها حلا، فذهبت إلى أبي في الديوانية، وجدته وحده يتفرج على الأخبار، كانت الشاشة تعرض جثث قتلى، ألقيت عليه ما حدث، انعقدت على جبينه تقطيبة التأثر، حوقل، هز رأسه، وتابع التفرج على الدم الذي يخضب الأجساد، سكتُّ أنتظره يقول شيئا، ثم بعد برهة، لما انتقل المذيع إلى موقع آخر، قال إن مرعي مصيب، من سيرعاهما بعد جدتهما، الحكومة جزاها الله خيرًا وفّرت مأوى كريمًا لمثل حالتهما، لعله خير لهما.

رفعتُ صوتي:

«أي خير، يبعدانه عن أخيه وتقول خير..؟». انتبهت، من عبوس وجهه، أنني تجاوزت حدود الأدب معه، فخرجتُ أكابد غضبي.

قبل أن أخرج قال لي إن عندنا وليمة مساء الغد.

شتمت الولائم وأنا أصعد الدرج، نكذب، نطعم أناسًا لا يحتاجون إلى طعام، ولا نساعد آخرين في حاجة للمساعدة.

«صقر» قلت، فيما كان صقر يقرأ جريدة فرشها أمامه: «ألا تعلم ما حصل؟».

سردت عليه ما عندي، ثم ختمت: «افعل شيئا، دعنا نتكلم مع مرعي، على

الأقل يضعهما معًا في مكان واحد».

أرجع رأسه إلى الجريدة يقول ببرود:

«الله لم يكلفني حل مشكلات الناس».

لم أنم تلك الليلة، كأن الله كلفني حل مشكلة سعيد، قضيت الليل أفكر بهما، كانت ضحكة سعد، عندما لفّ حسن بنا الفردوس في الموستنج، تضغط على أعصابي.

تمر إحدى عشرة ثانية من الصمت وهو ينظر إلى نفسه
كأنه يتذكر أو يرى ما يقوله في مخيلته:

كان حلمًا مزعجًا، رأيتُ فيه مرعي وأبي صقرًا يزجّون سعيدًا في سيارة إسعاف، كتلك التي جاءت تأخذ جدته، وكانت الكلبة سعيدة تنبح في الحلم من داخل الإسعاف نباحًا شعرت بأنها تستحثّ به سعيد للركوب دون مقاومة. في الإسعاف رأيت سعدًا معافى، رأيته إنسانا سليمًا كاملا، يبتسم لسعيد كي يخفف عنه التوتر الذي منعه من صعود الإسعاف. أمّا سعيد فكان يمسك الباب الخلفي مقاومًا الأيدي التي تدفعه بكل ما تستطيع من قوة. لم يطل الأمر حتى رأيت نفسي أقفز بالقرب منهم وبيدي رشاش وقنبلة، أصرخ بصوت رامبو: «عيب عيب، عيب عليكم».

يخلل شعر رأسه بأصابعه، يسرحه على جنب، ويضع
رأسه على مسند ظهر الأريكة، يرفع النقال إلى وجهه:

صحوت من النوم على جلبة صقر وهو يبحث في الخزانة عن ملابس، شعرت برماد في حلقي، مكثت أتقلب في فراش تحت هواء المكيف البارد وهديره النابش لأوجاع الرأس، أبحث عن حل لمشكلة سعيد وأخيه. فلم أجد حلا.

كان الوقت عصرًا، وجدت أمي ومعها إحدى أختي منهمكتَين في تجهيز خروف لوليمة الليلة، لم أكن مستعدًا للطواف على الضيوف بالقهوة والشاي. شربت ماءً وخرجت إلى بيت سعيد.

ناداني كوكو من أمام بابهم يسألني إلى أين أنا ذاهب؟ وضعت سبابتي وإصبعي الوسطى على شفتي أشير إلى أني أريد سيجارة، وقال إنه سيلحق بي.

رأيت الكلبة سعيدة منتصبة بصمت أمام سور الحديقة. لم يستفق الشارع من قيلولته بعد، كانت المكيفات تهدر بكسل على جدران البيوت، وجدت سعيدًا في حديقتهم أمام أخيه سعد، بحلق بي قبل أن أقعد، قدّرت من درجة تصلب جبينه أن شيئا استجدّ وغيّر مسار الأحداث للأفضل، كان يبدو كمريض يتماثل للشفاء، سألته عن آخر ما جرى، فأخبرني، وهو يخطّ اسمه على التراب، بأن مرعي غيّر رأيه بعد أن أقسمتْ عليه الجدة بأن يتركهما في بيتها. فرحت بالخبر، كدت أقبل رأسه عليه.

استعدت الحميمية التي كانت بيننا، قررت أن أكون المسؤول عنهما إذا تُوفّيت الجدة، ويجب أن أستعد لموتها من الآن. فكرت أولا أنه يجب علي التحكم في مرعي.. يجب أن أخيفه مني.. سأريه مدى الشرور التي أستطيع اقترافها بابتسامة غير مبالية على شفتي.. سكين بشار.. البندقية.. مرّت طلقات عيار أربعة وعشرين في بالي.. لا بد أن يراهما بيدي كأسهل ما أستطيع ابتذاله.. وبعدها لن يتكبّر عن الانصياع لك.

أتتنا الخادمة بكيك ساخن، وأنا أرى ارتعاد مرعي في مخيلتي متسمرًا أمام فوهة البندقية. أكلت قطعة.. كانت أجمل مذاقا من أجمل مذاق مرّ علي.

قلت لسعيد وأنا ألتقم القطعة الثالثة:

«لا تخف سعيد، سأكون معك ومع أخيك، لن أترككما».

مكثت معهما تحت السدرة إلى أن رأيت كوكو وبشار مقبلين من آخر الشارع، فقمت إلى بيت أم غريب، وقبل أن أدخل تذكرت أن عندنا وليمة اليوم، عدت وعزمت جونكر هو وأخاه، هزّ رأسه بالإيجاب.

تعاونت مع صقر على تحضير القهوة والشاي وصفّ الدلال والأباريق على «الوجار»، وبعد صلاة العشاء بدأ الضيوف يأتون. طفت بالدلة وراء الدلة أملأ الفنجان تلو الفنجان بثبات وانتباه. ولحظة جهزنا المائدة بصحن رز كبير يستلقي في منتصفه خروف بإليته الدسمة، لمحت سعيداً يبحلق بصمت أمام باب الديوانية، يلبس ثوبًا مجعدًا ناصع البياض، وأخوه على كتفه. طلب أبي من الضيوف التفضل على العشاء.

وما إن دخلا حتى راحت العيون تربّت عليهما بنظرات مشفقة، وجثم بجانب الباب مقعدًا أخاه بجانبه يبحلق بالضيوف حول الوليمة. أفسح له رجل كبير بالسن مكاناً وناداه ليأكل بجانبه، هز سعيد رأسه رافضًا، فأصرّ أبي على أن يأتي ويأكل معهم الآن، فقام وجلس يأكل معهم، جلست بجانب سعد أنتظر قيام الضيوف.

قال سعيد من خلف إلية الخروف، وهو يمضغ: «طعـ.. طعمه لذيذ»، ضحك الضيوف، وقاموا بتقطيع المزيد من اللحم ووضعه أمامه، وراح يلتهم ما يوضع أمامه باستمتاع مصدرًا عدة أصوات من فمه. سأله أبي عن صحّة جدته، فأجابه بعد أن ابتلع لقمة: «أظنها ربما أظنها قريبًا ستموت قريباً». حوقل الرجال وطلبوا منه أن يذكر الله على هذا الكلام الذي يجلب الفأل السيئ، فأصر بلا مبالاة وهو يمضغ قطعة لحم: «جدتي إنسان.. يموت الإنسان» ألقى وجهه الصلب على الرجل كبير السنّ بجانبه وأكمل: «الإنسان يموت إذا.. يموت إذا كبر».

نهض الرجل كبير السن، يرمق سعيدًا بنظرة غير راضية.

يرسل نظره إلى ما وراء الكاميرا، يرى الفراغ، يعتري أجفانه
ارتعاش طفيف ثم يرمش ثلاثا:

هل كان ظن سعيد بوفاة جدته تنبُّؤاً، أو من ذلك النوع من الكلمات التي نقولها

تقديرًا وتصبح حقيقة بعد ذلك؟ لأن جدته ماتت في اليوم التالي، وسيختفي سعيد بعد ذلك بأسابيع قليلة.

التسجيل العشرون

السكين

تصطدم الشاشة بسور مدرسة أملس ولونه حليبي، يسير حتى تنثني زواياه ويبين طرف المستوصف، يخفي الليل اسم متوسطة الفردوس المكتوب فوق البوابة، بجانبها مظلة تحتها مقاعد الانتظار، ثم تتسع مواقف سيارات مليئة بالمطبات لتمنع الاستعراضات، تأتي بعدها مساحة قصيرة مبلطة بمربعات إسمنتية تنتهي عند شارع عام يذهب جهة الدوار. يلف بالكاميرا على السيارات وهي تبطئ عند مطبة ممددة قبل مخرج المواقف، ويظهر المسجد، ثم الجمعية الرئيسة بلونها الأدهم العتيق، ينشق، ثم يقول فيما الكاميرا ترجع إلى سور المدرسة:

كان حماسي للمدرسة في الصباح يشبه ظلا باهتا لغصن نحيف رمته إنارة بعيدة على أرض رطبة.

فرحنا لأننا في صف واحد، أنا وعباس ومعنا المومياء، وبشار كان في آخر صف بالممر. كنت قد شددت حزام بنطلوني على السكين جيدًا، وأمضيت الحصة الأولى أتطلع إلى عيون أولاد صفي باحثا عن إشارة تحمل لاسمي تقديرًا معينا، فلم أجد.

رنّ جرس نهاية الحصة الأولى فقمت إلى مكان عباس، مررت من بين ثلاثة أولاد

يقفون أمام طاولاتهم، لم يبتعد أحد منهم، ولم ينتبه لي ولدان، كانا يتحدثان عن فيلم «وحيد في المنزل». رأيت أن بشار محقّ؛ البطالة في عطلة الصيف أنستهم اسمي.

رن جرس الفرصة فذهبنا إلى الكافتيريا آخذين بشار في طريقنا. تلوّت الطوابير في صالة الكافتيريا قبل شبابيك البيع، وكان المدرسون مشغولين في الحديث مع بعضهم؛ تجاوزنا عدة أولاد، إلى نافذة البيع، فتعالت الكلمات من بعضهم تقول لنا إن هنالك دورًا يجب أن نلتزم به. توقف عباس عند ولد هدّدنا بالمدرس وشدّ على صدره كأنه يريد العراك. نادى الولد مدرساً وأخبره أننا لا نلتزم في الطابور. جلد المدرس الهواء بعصا كانت معه، وأشار لنا بها إلى آخر الطابور. خزرنا الولد الذي نادى المدرس بنظرة تهديد ونحن نتراجع مرغمين.

وبينما كان الطابور يتقدم ببطء شاهدنا ثلاثة من ربع مصدّي، يتبعهم الولد «سوسة»، يجتازون طابورًا بجانبنا دون أن ينبس أحد من الأولاد بكلمة. دنا بشار منّي يقول:

«بعد قليل .. في الحمام .. كما اتفقنا».

تمتلئ الشاشة بوجهه، حاسرا رأسه، يلتم الليل حول عينيه، جالسا على مقدمة سيارته في المواقف، من خلفه تأتي أنوار السيارات الأمامية وذهب من الجهة الأخرى أضواؤها الخلفية، في حركة السير العادية، ينشُق ويواصل:

بعدما اشترينا وأكلنا، ذهبنا إلى الحمام ندخّن، وجدنا هناك بعض الصبية يتبادلون سيجارة. أخرج عباس العلبة من رقبة جواربه، ووزّع على كل واحد منا سيجارة، دخّنّا. وقال بشار بصوت استعراضي: «أرني السكين بالله عليك يا فهد». ترددت أنظر إلى الأولاد، فأصرّ: «لا تقلق، هؤلاء رجال ولن يخبروا أحدًا». أخرجتها من تحت قميصي، اتّسعت أعينهم، قلّبها بشار يقول: «يا ويل يوسف

مصدّي منها» وضحك، فضحكت معه بنبرة حاولتُ أن تكون شريرة، ضحك عباس، ضحك الأولاد وهم ينظرون لبعض.
مر ذلك اليوم سريعًا مثل رمشة عين، لم تحدث فيه أي مشادة بيننا وبين أحد.

يرفع رأسه إلى السماء، يهز رقبته، كما لو كان يريد أن يخفف ضغطا بها، ثم ينشق ويكمل:

صحوتُ قبل صلاة العصر من قيلولة تعيسة، طرحت نفسي في الصالة حتى أذن العصر ثم قمت إلى الديوانية أدير الدلة على الرجال، فدخل رجل يسكن قرب شارع بيت أم غريب، عندما مددتُ له الفنجان أخبرَنا عن أمر أوشكتُ أرمي الدلة على الأرض من ثقله؛ قال إن العجوز زوجة مرعي تُوفّيت، أخذتْها سيارة الإسعاف صباح هذا اليوم، اهتزت الدلة بيدي فيما تستولي صورة سعيد يبكي على كل ما أرى.
تركتُ الفنجان في يده، ووضعتُ الدلة على «الوجار»، وركضت حافي القدمين إلى بيت جدة سعيد، أحدّث نفسي أن سعيدًا في حاجة لمن يقف معه الآن، وليس له إلا أنا، أنا فقط.
وجدتُه في الحديقة، تحت السدرة يقبض التراب ويتركه ينساب من بين أصابعه، وأخوه على كرسيه المتحرك، اهتزّ وجهه لدى رؤيتي، تجاوزت سور الحديقة، وقلت: «هل ماتت؟». هز رأسه يقول: «ماتت». جلست بجانبه أسمع فحيحًا يأتي من جهة سعد أظنه بكاء، وحشرجة من جهته، متأكد أنها نحيب.
تمدد رأسي بعيداً يحسب كل الأمور التي ستجري لسعيد.. من سيعتني به؟.. الخادمة.. وإذا قررت الذهاب إلى ديارها.. فهل يستطيع مرعي تدبير خادمة غيرها؟ مرعي ربما سيتزوج، لن يطيق تربية مجنون ومعاق؟
سحبت رأسي ووضعته على يدي. قلت لسعيد، وعيناي تمسكان الرمل، بأنني سأكون معه، لن يؤذيه أحد ورأسي يشمّ الهواء.

رأيت ثلاثة من الرفاق يدخلون بيت أم غريب، فتركته وعدت إلى البيت.

أخبرت أمي فأمسكتْ وجهها تأثرًا، طلبت مني أن آتي بهما يأكلان العشاء عندنا. رجعت إليه، وجدته على جلسته، يخط اسمه على التراب، أمامه صحن فيه رز لم يؤكل منه شيء، جلست معه حتى أذّن العشاء، أحاول طمأنته بأن الحكومة ستعطيه راتبًا شهريًا وتتكفل بخادمة تخدمه هو وأخاه، رفض أن يأتي معي حتى قلت له إن عشاءنا هو خروف مثل الذي أكلناه يوم أمس، فتحرك دون مقدمات.

كان أبي جالسًا يشاهد الأخبار، فقام يقبّل رأسيهما، ويعزّيهما. وسألهما عدة أسئلة عن أقربائهما بعد الجدة. كان سعيد يهز رأسه عليها كلها بالنفي. أحضرت الطعام وأكلنا. لم يهتم سعيد أنه ليس خروفاً. قلت لهما أن يأتيا غدًا ليأكلا معنا الغداء، فهز سعيد رأسه رافضًا، تبعته حتى بيتهم، وهناك وجدنا الخادمة قلقة تنتظرهما أمام الباب.

يتقدم باتجاه المدرسة، بينما عيناه تذهبان إلى جهة اليمين، تظلان أربع ثوان تحدقان بشيء ما، تعودان إلى المدرسة، ويقول:

سار كل شيء سهلا في طابور الصباح، الهتاف، التمارين، المسير إلى الصف بطابور متماسك، ولما سار بجانبنا صف آخر، وقعت عيني على سوسة، فتوهمت، في زحام الطلاب عند أبواب الصفوف، أنه يفعل باتجاهي حركة بإصبع يده الأوسط. استبعدتُ ذلك ودخلت الصف. كان همّ سعيد وأخيه يغصُّ في صدري، أبعدته عني بالأحاديث مع أبناء صفي وبالانتباه إلى المدرس. انقضت الحصتان بسرعة، وخرجنا إلى الكافتيريا. حاول بشار أن يتجاوز بنا بعض الأولاد، غير أن أحدهم أشار إلى المدرس، فتراجعنا. ولما دخلنا الحمام

ندخن، فتحت نصل السكين، أنظف بسنها أظفار يدي، أريهم أنني متمرس فلا تجرحني. قال بشار كلامًا، يُسْمِع به صبية كانوا يدخّنون بجانبنا، يتوعّد به جسد يوسف مصدي ورفاقه.

كنت ألمّ كتبي، في الحصة الأخيرة، لمّا طلب منّي أحد أبناء صفي أن أريه السكين. اضطربت كأنني أدسّ مسروقات، وسألته: «من قال لك إنني أحمل سكينا؟»، قال إن أحد أبناء شارعهم أخبره بأن معي سكينا أريد أن أشق بها بطن ولد لم أذكر اسمه. «في أي صف ابن شارعكم هذا؟» سألته والارتباك يرعش صوتي، فأخبرني عن صف بشار.

يبدل التصوير إلى الكاميرا الخلفية، تستولي المواقف على الشاشة، فيما أنوار أعمدة إنارة الشارع العام تحول بوهجها بين الرؤية الجيدة، يخطو ببطء إلى المواقف ويقول:

لُمتُ بشار ونحن ننعطف، بعد باب الخروج، إلى اتجاه قطعتنا. هدأني يقول إنه لا داعي للخوف، لأن إنكار السكين أسهل بكثير من إثباتها.

وبعد خطوات، فيما كان بشار يقول إنه سيهدد من يخبر الإدارة بأمر السكين، رأينا سوسة يحرك إصبعه الوسطى باتجاهنا، (تدور المواقف في الشاشة) كانت المواقف مزدحمة بالأولاد، توقف بشار ووكزني يقول: «أخرج السكين، أخرجها، أسرعْ.. لا تضيع الفرصة».

قلت أخشى أن يخبر أحد الإدارة، فقال مصرًا:

«هذه فرصتنا، سوسة سيبكي أمام الجميع، وسينتشر الخبر سريعًا».

يثبت الكاميرا على زاوية يلتقي فيها صفّا الرصيف، ومن خلفه فسحة ترابية من ثلاثة أمتار تقريبا:

ما إن أصبحت في زاوية المواقف، بعيدًا عن الآباء، حتى أخرجت السكين فارتمى بشار وعباس علي يقولان بصوت عال: «لا يا فهد لا تقتله»، رحت أنتفض من بين أيديهما مخرجًا أسناني كدليل أنني غاضب أقول بصوت منشار يقطع خشبة: «ابتعدا.. سأري الجميع أمعاءه».

فنادى بشار سوسة: «تعال اعتذر، لا تكبّر الموضوع، سوسة، ستجني على بطنك، والله».

أتانا المومياء يهرول وسحب يدي يرجوني أن أعفو عن سوسة الذي أخذ يتراجع. ارتبكتُ، لمّا رأيت أعين الأولاد تتحسس حد السكين، وأعدت طيّها ثم وضعتها في جيبي، وسرتُ بخطوات سريعة، تجاري خفقان قلبي، حتى انزلقت مع زاوية المدرسة.

«إذا طلبتني الإدارة غدًا» قلت لهم ونحن نسلك سكة ترابية «سأقول إننا كنا نمثل بغصن شجرة، واشهدوا بذلك إذا طلبت منكم».

تتحرك المواقف في الشاشة معه وتظهر سيارته راكنة، يتقدم إليها:

بعد صلاة المغرب، مررت بسعيد فوجدت عند بيتهم بعض الجيران الذين جاؤوا لتقديم العزاء، فرش مرعي جزءًا من الحديقة بفرش أحمر عتيق، وجلس الجيران على الأرض، وكان عزوز العور يضع أكواب شاي صغيرة في صينية أمامها أباريق مصفوفة على طاولة في زاوية الحديقة، وأبوه يقف خلفها.

تركت بيت أم غريب إلى الفرع، اشتريت علبة سجائر، وذهبت إلى محول شارع عباس، جلست أدخن حتى ما بعد صلاة العشاء ثم ذهبت إلى شباك زهرة، مضغت أوراق ياسمين في طريقي، وهناك صمتنا ينظر أحدنا إلى عين الآخر، حزنا على ما أصاب سعيد.

تلك الليلة طلبت مني زهرة أن أقرّب وجهي من الشباك أكثر، فمدت يدها

ومسحت خدّي، فتوقف الحزن عن بثّ الأسى واختلاق المواجع، وشعرت بكهرباء، كهرباء تنير في داخلي رغبة في تقبيل يد الكون.

يحكّ خده، ثم يضع إصبعه على شفته لثانيتين، ويتابع:

في الغد، أثناء الحصة الثانية، طلبني الاختصاصي الاجتماعي، وسلّمني ورقة طلب حضور ولي الأمر على شكوى قدمها ولي أمر الطالب وليد محمد، يتهمني فيها بأنني تهجمت على ابنه بسكين. أقسمت للاختصاصي إنني كنت أمزح بغصن شجرة، أصرّ على حضور ولي أمري، ومنعني من استكمال بقية الحصص حتى يأتي أبي.

قلت لأمي إن الموضوع كله تلفيق، وإن سوسة هو الولد الذي أطلق النار على الأولاد في الساحة، ويريد أن يُلبسني تهمة، كي لا أخبر أحدًا عن فعلته.

أخبرتْ أمي أبي، فلم يصدّق أنني يمكن أن أرفع سكينا بوجه أحد.

يظهر الأسفلت، بلمحة ثم باب السيارة، فالمدرسة مقلوبة، ثم داخلية السيارة، ثم يحل الظلام، وتسمع نغمة تنبيه فصوت تشغيل المحرك، بعدها تختلف درجات اللون الأسود في الشاشة سريعا، فيظهر وجهه متجليا بالنور الداخلي من الكاميرا الأمامية، ويقول:

أنكرتُ في الصباح أمام أبي عند الاختصاصي في حضور سوسة ووالده، قلت إنه كان غصن شجرة رفيع. أقسم سوسة إنها كانت سكينا وإن الجميع رآها، فأقسمت إنها غصن وطلبت شهادة النحلة والإيراني والمومياء، فطلب الاختصاصي من سوسة أن يأتي بأحد شاهدها.

خرج سوسة وعاد بوجه بارد يقول إنه لم يجد أحدًا يشهد. انتهت الشكوى

بتوقيع تعهد.

عندما دخلتُ الصف، أخبرني عباس، بأنه مع بشار أشاعا يوم أمس في المدرسة أنني أقسمتُ أن أشقّ بطن من يشهد ضدي.

التسجيل الحادي والعشرون

رَبع مصدّي والموت

مقرفصًا على الأريكة، يأتي وجهه من زاوية سفلية، ومن
سطوع إنارة مصباح الفلورسنت في السقف، تدور حوله
هالة بيضاء وتشف الرؤية، يبدو كمخلوق مقدس:

حدثت وقائع كثيرة في الأسبوعين التاليين. شجّ رأس عزوز العور في الثانوية بحصاة لا يعرف من رماها عليه. قضيتُ صباح عطلة نهاية الأسبوع مع سعيد في حديقتهم. قصّت علي زهرة قصة فيلم هندي قالت إن البطل فيه يشبهني والبطلة تشبهها. قصصت عليها قصة الجزء الأخير من فيلم رامبو بعدما غيرت الأحداث وجعلته يموت في النهاية بين يدي حبيبته. أخرجت السكين أمام أحدهم وقال بشار بصوت هازئ: «هذه دواء البهاق». مرضت، وتعافيت بثلاثة أيام. أخبرني عباس أن سوسة صفع المومياء أثناء غيابي عند مبردات الماء. اشترى أبي سيارة لصقر، تويوتا كرسيدا حمراء. خرب الفيديو تلك الأيام، وعدني أبي، إذا جئت بعلامات جيدة في النتائج الشهرية، فسيشتري لي آخر ذا شريط كبير.

ومن تلك الوقائع أنني طلبت من زهرة، فيما كانت تقلّب كتاب الإنجليزي للصف الرابع الثانوي -بعدما أزلت منه اسم صقر وكتبت عليه اسمي- أن تسمح لي بأن أقبّل خدها.

ومنها أنه جاءنا ولد يخبرنا بأن يوسف مصدي يتوعدني بساطور. ابتلع بشار ريقه، وردَّ عليه بأن السكين ستتكلم عني إذا رأيتُه.

لاحظنا أن عيون أولاد ربع مصدّي أصبحت تتجرأ وتطيل النظر إلينا، وحدث أن رأيت عند باب الخروج سوسة يقوم بتحريك إصبعه الأوسط باتجاهي. بدأ الهواء البارد يمسح على وجوهنا في طريقنا إلى المدرسة صباحًا، ويضاعف متعة التدخين. عدت أجلس مع سعيد كل عصر، رغم طلب الرفاق مني الكف عن ذلك، أحدّثه عن زهرة وقضبان الشباك، عن يوسف مصدّي والسكين، عن البرودة التي في عيون الأولاد لدى رؤيتي، شكوت إليه أن أحدًا لم يطرق باب بيتنا منذ مدة طويلة.

يعيد ظهره إلى الأريكة، تهبط خلفية من السقف إلى
الجدار خلفه، تتساوى زاوية التصوير مع وجهه:

رفضتُ ما اقترحه بشار، في بيت أم غريب عصرًا، بأن علي أن أطعن أحدهم حتى يرتمي الآخرون على الجدران عند مرورنا. وافقني كوكو: «ربما يقتل أحدهم».
هزتني كلمة يقتل، فرميت السكين عليه أقول:
«اطعن بها أنت قبل أن تهرب».
التقط سكّينه وخرج بخطى ثقيلة، استند على الباب قبل أن يخرج منكّساً رأسه كبطل خذله الأصدقاء، ثم خرج دون أن يقول كلمة، ولم يكلمني في الأيام التالية.
اختلفت طباع أولاد ربع مصدّي معنا، بدأ ذلك عندما مررت من تحت صفوف الثالث المتوسط، وسمعت أحدًا من أعلى السلالم يناديني بـ «أبو أذاني». فإذا بسوسة معه ولدان، تظاهرت بأنني لم أسمعه وغيّرت طريقي، لأنني أعلم أن أي شرارة تندلع بيننا وبينهم سيسقط معها الجدار المتآكل الذي يحمينا منهم، والذي بقي واقفا بسبب اسمي.
إلا أنني انهرت بعد يومين، وتخليت عن خصلة الحذر، فعند خروجي من المدرسة، تصادفت عند الباب مع سوسة يصحبه أحد أولاد ربع مصدي، سرعت خطاي،

فتسارعا بقربي حتى وصلنا المواقف، فقال لصديقه:
«يا ويل قلبي على زهرة».

استـَعَرَتْ أنفاسي فتظاهرتُ أنني أقلّب كتبي كحلّ وحيد لتجاهله، وأكملت بخطى سريعة، حسبتُ أنني تخلصت منه، وفيما كنت أعد نفْسي بالثأر لاسم زهرة من لسانه، رفع سوسة صوته:

«زهرة تريد فحلاً مثلي»

دفعت نفسي إلى الأمام دفعًا مجهدًا، وشكل قضبانِ شبّاكٍ تحتلّ مكان شكل الكتب بيدي، أحدّث نفسي أن الثأر سيكون مصحوبًا بدم من فمه، وقبل أن أنزل من الرصيف قال:

«ستدخلني غرفتها، من ثاني لقاء، ولن تتركني أخرج».

صارت السماء ضيقة جدًا، فرميت كتبي رغمًا عني، وجئته أركض، لا أرى شيئا إلا فمه الأسود، رمى كتبه ووقف باستعداد، قذفتُ قبضتي تجاه فمه، فانحنى ودفع نفسه علي، ثم وضع قدمه خلفي، سقطت، ركل ساقي، وكان سيرمي نفسه فوقي لولا أن أتى رجل وفرّقنا.

جاء بشار يركض، فيما كنت أنفض بنطلوني، ورفع صوته:

«ستبكي عليك أمك سوسة، ستشتكي للإدارة مثل الكلب مرة أخرى».

سرت صامتا طوال الطريق، منشطرًا بين الأسى والتوجس، أتألم على اسم زهرة الذي صار ولد مثل سوسة يعرفه، وآسف على اسمي الذي لن يحميني بعد ما حصل، حتى قال بشار لما وطئنا شوارعنا، يزيح الصمت: «لن نسيطر عليهم إلا إذا استخدمنا السكاكين».

يصمت، ثم يركز ساقه وتظهر ركبته، يلصقها بصدره،
يقرض الطبقة الميتة في جلد شفته السفلية، أربع ثوان،
ثم يكمل:

رقص سوسة أمام ربع مصدّي بخبر أنه ضربني عند المواقف، وبدأ الرفاق في الثانوية يقاسون المرار من تطاول يوسف ورفاقه، حتى شجّ رأس النمس في شجار، وغرس قلم في كتف سعد كوكو. تخلى عنا الأولاد الذين استمروا معنا في العطلة الصيفية تجنبًا للمشكلات التي قد تنالهم، وراح سوسة يعترضني في المدرسة كلما رآني، ومعه بعض الأولاد، وأخذوا سجائر عباس رغمًا عنه في الحمّام، وصفع ولد منهم، ينادونه الذبّانة، بشار في ممر باب الخروج. اضطررنا إلى الجلوس بالقرب من المدرسين في الكافتيريا، وتغيير الحمّام الذي ندخّن فيه؛ كنا نعلم أن الأمور ستتطور بسرعة، سينقضّون علينا قريبًا، وبعدها لن نتمكن من البقاء في المدرسة.

لم يعد أمامي إلا البندقية من جديد، أجلو بها الصدأ الذي ترسّب على اسمي، سأستدرجهم إلى ساحتنا ثم أفعل كما فعلتُ في المرة السابقة.

فكّرت ليلا، بعدما عدت من زهرة -وقد طلبتْ مني ألا أعيد عليها طلب القبلة إذا كنتُ أحبها فعلاً، ووعدتُها بذلك- أن أعيدَ لقائي معهم في ساحة الفرع، إذ ما زال في خزانة أبي علبة كاملة من طلقات عيار أربعة وعشرين. أعيد لاسمي «أبو بارود» فوّهته المسددة نحو أعماقهم.

أخبرتُ بشار في الطريق إلى المدرسة عما أخطط له، ابتسم، ووضع يده على كتفي يقول: «هكذا يفكر الرجال».

ثم رأيتُه في الفرصة يخرج من الكافتيريا، بصحبة عباس وثلاثة أولاد, أشار إليّ، ثم رفع يديه وضيّق عينه يحاكي حركة من يصوّب ببندقية.

كنت أعودُ كل ليلة من زهرة ممتلئا بالمحبة، لأرمي نفسي في أفكار شريرة تراودني قبل النوم بكيفية العمل على تطوير الشر لأحتمي به. كان حب زهرة يحاول أن يجعل مني ولدًا طيبًا، وهذا ما كنت أقاومه فيه، أنا في حاجة إلى أن أكون شريرًا، أحدّث نفسي كل مرة أعود من شبّاكها إلى البيت - والأشياء تبدو أوضح

منها عما كانت عليه في طريقي إليها قبل قليل - أن الشر يمنع عني الأذى، الناس يؤذون الطيب لأنهم يعلمون أنه طيب، ويبتعدون عن الشرير لأنهم يتوقعون أن ردة فعله مؤذية.. كيف لي أن كون ولدًا طيبًا وشريرًا معًا.

يعيد ساقه ويستند على ذراع الأريكة، يقرض شفته العليا،
ثم يتابع بنبرة عميقة:

ذات يوم، أذكر أنه كان يوم أحد، دخل علينا أحد الأولاد الحمّامات، وعرّف عن نفسه بأنه من طرف مصدّي، وأخبرني بنظرة مدبّبة أن يوسف يريد أن يواجهني، رأسًا برأس، أمام الجميع، يوم السبت القادم، وراء مواقف السيارات.
تداركتُ ارتعاشي ورميتُ السيجارة ثم دعستُها أقول:
«فليحضر معه ضمادات يرقّع بها جسده».
قلت للرفاق، في بيت أم غريب، ما قاله الولد، فأخرج بشار السكين ومدّها يقول:
«أنت تدافع عن نفسك الآن».
ذهبت إلى سكة شبّاك زهرة والسكين تهتز بجيبي مع إيقاع خطواتي، أفكّر بما أقول لها إذا سألتني: «كيف كان يومك؟»، وما إن بدا وجهها من خلف القضبان، حتى كتم الشر في داخلي أنفاسه.
حدثتني زهرة بحماس عن فكرة محلّ عطارة تريد أن تطرحها على أبيها. تحمستُ معها للفكرة، وشجّعتُها: «المحل يدلّ على أن بضاعتك ممتازة وأنك ثقة». تطور المحل، بعد نصف ساعة، إلى مصنع يوزع الخلطات الرائعة على الدول العربية، نسيتُ مع حماسها أن هناك يوسف مصدي في الحياة، وجدت نفسي أمام مشروع كبير، عدّدتِ الموظفين الذين تحتاج إليهم، والأجهزة المطلوبة لتحسين الإنتاج، والسيارات، وكم فرعًا ممكنًا تتم فيه تغطية الكويت، ثم مالت بالحديث نحو ردة فعل بنات خالاتها إذا رأين مشروعها الناجح. أيدتُها

على أنهن سيمتن من الغيظ، ضحكت، ثم تنفست بعمق وقالت: «كيف كان يومك؟».
ثقُلت السكين داخل جيبي، وقلت: «قررت أن أكون طبيًا.. أعني طبيبًا طبيبًا».

تفانى بشار في شحذ اسمي بنشر خبر رغبتي السوداء التي تتوق إلى ثقب جسد يوسف.
سألني المومياء، أثناء خروجنا يوم الثلاثاء، عن صحة ما يتناقله الصبية من أنني عازم على فقء عين يوسف مصدي. قلدت وجه رامبو ما استطعت بشدّ أسناني وضغط حاجبي على عيني وقلت: «سترى بعينك».
توترت طيلة مساء ذلك اليوم، وازداد انزعاجي من أي شيء. خذلتني أفكاري على الوسادة قبل النوم بـ: كيف ستواجه مصدي؟.. فتى أقوى مني وأكثر جرأة.. ولديه خبرة لا أمتلكها في العراكات الفردية.. و.. ساطور! يوشك البكاء يطفر من عيني كلما تذكرت الساطور.. أنا لا أعرف إلا الجري، وجرّ الشعر، والركل، والصفع، والعض إذا لزم الأمر، وضربتُ أربعةً أو خمسةً بالعصا، وأذكر أنني حاولت غرس قلم في ظهر ولد لولا أنه تجنّبه في اللحظة الأخيرة.. أما السكين فلا أعرف إلّا التشريط بها، كما أفعل على رقاب الطيور.. والطعن فـ.. لا أعرف، لا أعرف.. يرتجف حنكي من مجرد التفكير بأنني سأدفع حد سكين داخل جسد ما.. والساطور.. هذا شيء لم أر أحدًا يفعله، ولا حتى رامبو.
تغيبتُ يوم الأربعاء، قضيت النهار في حديقة جدة سعيد أقفز يمين السدرة وشمالها ثم أطعنها بغصن صغير يابس، وعينا سعيد ترمقانني بجمود.
اجتمعنا في بيت أم غريب عصر الأربعاء نبحث موضوع ربع مصدّي.
النمس قال إن الحل أن نذهب إلى قطعتهم ونكمن لهم واحدًا تلو الآخر.
الديك أشار إلى أن النيل من مصدي سيرهق عزيمتهم، وسيسهل علينا الإطاحة بهم.
أومأ بشار إليّ برأسه يقول: «اعتبروا أمر مصدي منتهيًا من الآن».

فتصورت، وأنا أنظر إلى رماد سيجارتي، الساطور وهي تفصل يدي عن جسمي، فتأكدت أن النمس مصيب، يجب أن نذهب إلى قطعتهم ونلتقطهم واحدًا تلو الآخر.

اتّفقنا أن كوكو ومن معه في الثانوية سيهربون قبل الحصة الأخيرة يوم السبت وينتظروننا عند باب مدرستنا.

وكان قلبي يخفق بقوة، ويدي ليست في مكانها.

تذكرت أن أبي أخبرني أننا سنخرج للصيد قبل الشروق، فقد بدأت نهاية موسم عبور الحمام البري حيث يزداد عدد الأسراب.

وجدت سعيد جالسًا مع أخيه بعد صلاة العشاء تحت السدرة، وقفت على الرصيف أقول لنفسي: لو كان لي مثل جسم سعيد، لتخلصتُ منهم جميعاً بهزة واحدة من يدي، قدّرت أن جسمه ضد السواطير.

التسجيل الثاني والعشرون

يوم الفراق

مستلقياً على سريره، نور هادئ يكفكف عن وجهه الظلام،
يرفع النقال فوق رأسه، لحافه الأخضر من خلفه، في
عينيه التماع غريب، يبدأ يتحدث كأنه أعد الجملة الأولى
قبل أن يفتح الكاميرا:

عدنا من الصيد بعد غروب الشمس بقليل، معنا أكثر من خمس وثلاثين حمامة، اصطدت ثلاثا بنفسي والبقية أبي وصقر. نتفت أمي الحمام ونظفت أحشاءه، فأخذت منها خمساً وخرجت إلى بيت أم غريب، لم أجد أحدًا هناك، ذهبت إلى محوّل شارع عباس فوجدته خاليًا، قلت ربما ذهبوا إلى القطع المجاورة، فعدت من طريق شارع أم غريب أفكر في ما عليّ فعله يوم السبت. وجدت سعيدًا جالسًا على السور وأخاه على كرسيّه أمام الباب. قلت في نفسي: سأشوي الحمام مع سعيد. دخلت حديقتهم أهز الكيس: «حمام بري، ستأكل أصابعك وراءه». صمت يتابعني وأنا أعلق الكيس أمامه على غصن من السدرة، وأميل إلى زاوية الحديقة عند مكان قطع الجذوع الكبيرة ألملم القطع الصغيرة المتناثرة، راكمتها فوق بعضها، وذهبت إلى بيت أم غريب وعدت ومعي ولاعة، وورقة جريدة عليها صورة إعلان مسرحية سيف العرب.

أشعلت الورقة، نفخت على الأغصان الصغيرة التي جمعتها من زاوية حديقة جدته، حتى تمكن منها اللهب. حدّثت سعيد، ونحن ننتظر تهيؤ الجمر، عن

مخاوفي من لقاء يوسف. بحلقة سعيد أشعرتني بأنني أستطيع التحدّث عن أي شيء أريده دون خوف من انتقاد، أو خشية من انتقال كلامي إلى آخرين. قلت له إنني أخاف من العراك الفردي، أسقط بسرعة ولا أتمكّن من النهوض، إذا رأى الصبية سهولة ضربي فلن تتوقف أيديهم عني، أعرف هذا.

الهزيمة في العراك الجماعي ليست هزيمة، لأننا نتشارك فيها، مثل الحمل الذي تحمله جماعة، كلما زاد العدد خفّ الحمل على الفرد، ويمكن لكل واحد وضع أسبابها على الآخرين بسهولةٍ من يضع ملابسه على المعلاق؛ أمّا هزيمة الفرد فهي هزيمة صريحة لأنه لا يمكننا لوم الآخرين عليها.

أحب سعيد طعم صدر الحمام، وقال إن سعدًا أحبَّه أيضًا. دخنت سيجارة على سور حديقتهم، أتابع سعيدًا وهو يسكب سطل ماء على الجمر، ويأتي بعدها بـ«شبل» يكسح فيه مكان النار ويرميه خارج الحديقة، وأشاهد سعدًا في كرسيه ساهمًا إلى شجرة السدر.

تلك كانت آخر مرة رأيت بها سعدًا.

يصمت يأخذ نفساً ويزفره من أنفه طويلا، يزم فمه كما لو أنه يتأهب لاستقبال دفقة مشاعر حزينة، يخرج طرف لسانه يلعق شفتيه ثم يشد نفسًا أعمق أحدث له انقباضات، ثم زفره يقول:

صحوت بعد الظهر ببطن منقبض وحنجرة تنبض، المكيف يهدر فوقي بكل قدرته على التبريد والإزعاج. صقر حوّل غرفتنا إلى ثلاجة. أبعدت الستارة عن الشباك فرأيت السماء غائمة. نزلت إلى الصالة، كانت أمي مضطجعة في قيلولة، وجدت أختي في المطبخ تضع الغداء لصقر، وطلبت منها أن تضع الغداء لي أيضًا. أنّبتني على نومي عن صلاة الجمعة، قلت لها إنني مريض. أخبرتني، وهي تضع الغداء، بأن ولد أم صالح الذي اسمه سعد طرق الباب مرتين اليوم

يبحث عني.
«ماذا يريد كوكو مني؟.. مرتين في الظهر!» تساءلت في نفسي: «هل طرق الباب ليخبرني أن ربع مصدّي تجاوزوا الحد وعادوا لشوارعنا أثناء نومي؟».

يصمت، يستمع لشيء ما، يهمّ بالنهوض، ثم يجمد قليلا،
يعيد رأسه إلى الوسادة، يعود وجهه كما كان، يكمل:

استلقيت بعد الغداء، قبالة التلفزيون في الديوانية، أتفرّج على قناة إم بي سي، تعرض رجلاً يرتدي بدلة رسمية بيضاء، ونظارات مقعرة، يتحدث عن أشياء لا أفهمها. تابعت ثقل طينته أنتظر الرسوم المتحركة التي تُعرض بعده؛ كان يعرض صورًا عن الفضاء، ويظهر رجال آخرون يتحدثون عن الكواكب، وفرضية أن هناك مخلوقات أخرى تعيش في المجرات الأخرى، كانت صور الكواكب تشبه الأرض، لكنها خالية من الحياة، ويقول المتحدثون إن الفضاء واسع بشكل لا نهائي، والقول بأن الإنسان هو الكائن الوحيد فيه هي فكرة غير مؤكدة.
قطعت أختي علي المشاهدة تخبرني أن سعدًا ولد أم صالح عند الباب. «يا رب يكونون ربع مصدّي» تمتمتُ أدعو في طريقي إلى الباب مفكرًا بأنني إذا أخرجت البندقية اليوم قد تنهي المواجهة بيني وبين يوسف يوم غد.
وجدت سعد كوكو عند الباب، يحمل وجهه أثر صفعات،
سألته قبل أن ينطق: «هل يوسف معهم؟».
«أي يوسف؟ إنه سعيد جونكر، هاج وكسّر كل شيء أمامه وهرب ولم يعد».
سرى تيار كهربائي من قدمي إلى رأسي. استزدته: «ما الذي حدث؟».
«صحا في الصباح ولم يجد سعدًا بجانبه، وأعلمته الخادمة أن مرعي ذهب به إلى المستشفى. حالما عاد مرعي وحده قال لسعيد إن سعداً في مكان مريح ولديه الكثير من الناس يعتنون به، فقام سعيد وصرع مرعي في الشارع، كاد يقتله لو لم تتدخل الخادمة».

ركضتُ إلى بيت جدة سعيد حافي القدمين، موقنا أنني شاركت في هذا. لم يخدع مرعي سعيدًا وحده، بل خدع كياني كله.. ألعن أبوه.. خدعنا ابن الكلب.

وجدتُ الخادمة جالسة على عتبة الباب، رجتني الخادمة تبكي، فهمتُ أنها تطلب مني البحث عنه. «في أي اتجاه ذهب؟» سألتُ، فأشارت إلى آخر الشارع. لاحظتُ تحطم زجاج ثلاث سيارات في شارعهم باتجاه المحول «كسرها بيده» قال سعد ونحن نتجاوز آخر سيارة تناثر زجاجها تحتها «لو رأيته، يا الله، يده أقوى من الحديد». افترقنا عند المحول. بحثت في السكة المجاورة للمحول، في الشارع التالي، في الساحة التي بعده، ثم مواقف المدرسة الابتدائية، فالسكة، ثم مررت أمام شبّاك زهرة، دون أن أجد ذاك الإحساس الذي يغمرني كلما مررت أمامه. درت مع الشارع الذي يلفّ حول الساحة. لأكثر من ساعة كنت أبحث، حتى شعرت بأن قدمي لا تستطيع الاحتمال أكثر من ذلك، ولولا الشكل المنعش للغيوم لربما رميت نفسي من التعب على أحد الأرصفة.

وجدت كوكو قد عاد قبلي، ولم يجد لسعيد أثرًا. طرقت الباب، خرجت الخادمة وأخبر أحدنا الآخر أنه لم يرَ سعيدًا لحد الآن.

ذهب كوكو إلى بيتهم وملت إلى حديقة جدة سعيد حيث دعتني رغبتي بالبكاء، جلست تحت السدرة، محل جلوس سعد، فكرت: لا بد أنه هام على وجهه.. لا أستطيع تخيّل حاله بعد أن انتُزِع منه سعد، سعيد يهيج إذا أوذي حيوان فكيف إذا شعر أن أخاه يتعرض للأذى.

كأنني أمسك سكينا من النصل، أنا الوحيد الذي يستطيع العودة به إلى البيت، لكنني لن أستطيع فعل شيء بعد ذلك.. آه.. بعد فقد سعد لن يعود سعيد سعيدًا مرة أخرى.. آآه..

تصعد تفاحة آدم في بلعومه وتهبط ثم يتنحنح ويكمل:

رشّ المطر الأرض لدقيقة أو اثنتين، ثم توقف، كنت أشاهد قطراته تتلاحق

وأنشق أنفي الذي سال. الخطوة التالية لمرعي هي سعيد، سيأخذه بطريقة ما إلى مستشفى المجانين، يجب عليّ أن أقوم بشيء..لكن.. ماذا بعد.. أين سيذهب سعيد بعد ذلك؟ أحسستُ أنني أستسلم، وكانت الخطوط التي رسمتُها بأصبعي تحت الشجرة ملتوية على بعضها ومتداخلة. قلت لنفسي وجبين أبي مشدود بمخيلتي: «مرعي سيتزّوج، أو سينشغل بحياته، والخادمة ستذهب إلى أهلها ولن يجد سعيد أحداً يعتني به». أسِفتُ على ما حدث وعلى ما سيحدث.. كانا بالأمس معًا واليوم.. يا الله.. افترقا.. وكيف.. بطريقة مفاجئة لم تتح لأحدهما فرصة توديع الآخر، ولا حتى مجالا لنظرة أخيرة يقبض كلاهما فيها بعينيه على ذكرى اللقاء الأخير.

وبكيتُ مثل إبريق شاي يفور.

يضمّ شفتيه، ينظر إلى ما وراء الكاميرا صامتا، كأنه يحاول تهدئة اضطراب أنفاسه:

ارتفع أذان العصر، مسحتُ الخطوط التي رسمتها وقمت إلى البيت، وقبل أن أعبر سور الحديقة لمحت أربع أقدام رفيعة، من تحت باب بيت أم غريب، تجول في الحوش. هتفتُ في داخلي: هذه أقدام الكلبة سعيدة، سعيدة لا تترك سعيد، ربما هو في بيت أم غريب الذي يكره دخوله!

وعندما رأتني سعيدة هرولت مطأطئة رأسها إلى الداخل، حيث ساهم الغيم في تكثيف الظلام، فتجاوزتُ خرابات كانت غرفا ذات يوم، حتى وجدت سعيدًا، قرب الغرفة المدمرة، والتي كانت مطبخًا قبل الغزو، مستندًا على الجدار يقلّب رأسه بين ركبتيه، ويبكي بكاء مكتومًا على شكل أنّات حارّة خافتة، وعلى كمّ ثوبه الأيمن دم. كان في صورة جبل مدكوك.

«سعيد»، همستُ وحبل البكاء يتدلّى في صوتي: «كنا نبحث عنك».

فدنوتُ منه خطوتين حتى اتضحتْ عيناه، فإذا به يرمقني بنظرة لم أنسَها

حتى الآن؛ كانت من تلك النظرات التي تتكلم بها العينان بشكل يفوق فصاحة اللسان، قالت نظرته: لا يوجد مكان في العالم الآن لأقوم معك إليه، كل شيء انتهى، الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تساعدني فيه هو أن تذهب وتدعني وحيدًا.. الآن.

أعاد رأسه بين ركبتيه، فتراجعتُ عنه بضع خطوات، وقفتُ أنظر إلى الوحدة التي يريدني أن أتركه فيها، كان وحيدًا لدرجة أنه ألغى كل ما حوله.

قلت لنفسي: «أتركه الآن وأعود قبل صلاة المغرب، يكون قلبه برد قليلاً، وأحضر معي طعامًا وبعض المشروبات الباردة». خرجت من حيث أتيت، طرقت باب جدته، أريد إخبار الخادمة بأنه موجود في بيت أم غريب، فلم يفتح أحد.

رشّ المطر الأرض مرة أخرى، وترك رائحته التي تزيل الغبش عن النفْس، وقد أخذت الشوارع تلمع.

شربت ماء شديد البرودة، وذهبت أستلقي في الديوانية حتى عاد أبي من صلاة العصر ومعه أحد الجيران، فقمت أحضّر القهوة والشاي. ضاعف انشغالي بالضيافة قلقي على سعيد.

توالى الرجال إلى الديوانية، وتضاعف جهدي في إعداد القهوة والشاي والطواف بهما عليهم، أنتظر قرب صلاة المغرب حتى أذهب إلى سعيد.

سكبت القهوة على الأرض وأنا أصب فنجانا، فلم أحتمل مواصلة الدوران، تظاهرت بأنني أذهب إلى الحمام، وانسللت داخل البيت وخرجت من الباب الآخر.

كانت زرقة السماء تتراجع إنارتها من الغيوم الرمادية، وتدكن الظلمة بأثرها. تذكرت كيف كنت أتصوّر الفردوس، وأنا أركض إلى الفرع لأشتري لسعيد مشروبات غازية وكاكاو، الفردوس عروس تتأكد أمام المرآة من سلامة الكحل في عينيها.

التسجيل الثالث والعشرون

حادثة اختفاء سعيد

على سريره، والتماعة غريبة في عينه تزداد، يضم شفتيه
لبرهة ينظر إلى ما وراء الكاميرا، ثم يقول:

جريت إلى الفرع بكامل سرعتي لأدركه قبل أن يغلق بابه للصلاة، أمسح عن وجهي رذاذ المطر، متجاوزًا بيت أم غريب إلى سكة جدة سعيد. على عجالة التقطت لاهثا من الأرفف خمس أصابع كاكاو سنيكرز، ومن الثلاجة ثلاث علب بيبسي، حاسبت وانطلقت أهرول إلى بيت أم غريب والسماء تدكن مسرعة إلى ليل.

كان حوش بيت أم غريب مبللا كما تركته ويلمع. فغر الظلام فاها مبهماً عند الباب الداخلي، حيث كانت سعيدة رابضة عنده. راح الظلام يدلهمّ، كلما تقدمت، ويتماسك. نشر صوت رذاذ المطر طمأنينة، وقد توشح الهواء برائحته منطويًا على رائحة غبار تتخاتل بين الجدران.

وقفتُ عندما انعدمت الرؤية، وناديت: «سعيد».

كان البيت منغمسًا في الظلام، مسحت البلل عن وجهي وأصررت:

«سعيد تعال، اخرج، لا أرى شيئاً، تعال، سعيد».

لم أسمع صوت حركة، رحت للغرفة الخارجية وعدت ومعي ولاعة، قدحتها عند الباب، مشعلا لسانا ذهبيًا أزجى الظلمة عن مواضع خطاي، تقدمت، لبسني خوفٌ من ظلال الأشياء وهي تسقط ممدودة على الأرض وتهتز. «سعيد أين

أنت؟» قلت وظل باب أحد الغرف يرتعش مع الشعلة، وجدته في مكانه على الحالة التي تركتُه عليها، وقد ربضت سعيدة بقربه. انطفأت الشعلة، قدحت مرة ثانية فانكشف وجهه ينظر إلي، فكدت أفلت صرخة من أعماقي. «تعال معي إلى الغرفة الخارجية» قلت له بينما كان ظله يرتعش على الجدار. «تعال تعال بسرعة، سيدخل المطر علينا هنا، غرفة الحوش آمنة من المطر». انطفأت الشعلة، قدحتها مرة ثالثة، فوجدته يقف أمامي بعينين متعبتين، شهقت، وتراجعت إلى الوراء بحركة كشفت عن خوفي.

«أخفتني يا رجل» ثم تراجعت أقول: «هيا تعال تعال» وسمعت خطواته تخطّ الأرض خلفي.

جلسنا في غرفة الحوش، ربضت سعيدة عند عتبة الباب وألقت رأسها خارجًا. يصلنا من الباب وهج مُتعب من خلف السحب.

قمت ألملم قطع الأخشاب المتبقية من آخر نار أشعلناها وأوقدها بأوراق ممزقة. أفشت النار الضوء في الغرفة. استند سعيد بجانبه الأيمن على الجدار ووضع رأسه بين ركبتيه، خرجت سعيدة إلى الحوش، مسحت عن وجهي قطرات نزلت من غرّتي المبلولة، وفتحت الكيس أخرج منه علبة بيبسي وإصبع سنيكرز. مددتهما إليه أقول: «كل كل، أنت لم تأكل شيئا منذ الصباح». جمد، ولم يبدُ عليه أنه يريد أن يتحرك. غطّى صوت الشيخ صابر في أذان المغرب على صوت المطر. وضعت الكيس أمامه، وسألته إذا ما كان يرغب في أن أقول لخادمتهم أن تعد له عشاء، وأحضره إلى هنا؛ وأيضاً أستطيع أن أحضر له من عشائنا إذا أراد. دخلت سعيدة وارتعشت تنفض عنها البلل وجلست في الزاوية التي وراء سعيد.

يبتلع ريقه، يصمت، تعود عيناه إلى الكاميرا، ثلاث ثوان،
ثم ترتفع إلى ما وراءها، يكمل:

فتحت علبة بيبسي وأخذت منها شربة، أفكر متأملا حطامه: الحمد لله أن لي أبًا وأمًا، ماذا سيكون شعوري لو كنت مكانه. لم يستمر صمتنا طويلا بعد انتهاء الأذان، حتى قطعه سعيد يهز رأسه:

«لا أريد». وسكت، فسألته:

«لا تريد ماذا؟».

«يا سعيد لا تخف، كلّمت والدي، ووعدني بأنه سيجعلك.. سيجمعك بسعد مرة أخرى.. ستكونان معًا.. لا تخف».

فقال دون أن يغيّر وضعية رأسه المتوارية:

«لن نكون معًا، أعرف، أعرف أننا لن نكون مرة، معًا مرة أخرى».

«لا تقل هذا، أخبرتك أن أبي سيتدخل لصالحكما».

شعرت بوضاعتنا عندما رمقني بنظرة وكانت ملامح وجهه الحجرية قد لانت من عند الحاجبين وتصلبت بشدة من عند الحنك، حاولت مواراة وضاعتي بأن قمت قائلا:

«حسنا، سأتركك الآن وسأعود بعد صلاة العِشاء ومعي عَشاء من بيتنا».

خرجت مسرّعًا خطاي إلى البيت، تحت رذاذ المطر، أُبعِد البكاء الذي تأتيني به أصوات أمهات ينادين أبناءهن من البيوت التي أمر عليها، وضحكات الأطفال والأولاد والبنات، وروائح الطبخ، وموستنج حسن التي مرّت بجانبي ولوّح لي بالسلام وتجاهلته، وكوكو الذي قال لي من أمام بيتهم بأن الرفاق عند مواقف المتوسطة ينتظرون سر الليل، ولم ألتفت له.

استلقيت في الديوانية وحدي، أبحلق في شاشة التلفاز المطفأة، أعيد ما قاله سعيد قبل قليل عن عدم رغبته في الحياة، وفجأة انتبهت لطرف شريط فيديو من تحت كومة جرائد تحت طاولة التلفاز، مكتوب عليه «الجزء الأول، جونكر». تذكرت وجه جونكر في الرسوم ووجه سعيد، وابتسمت، آلمتني ابتسامتي. سحبت أحد مساند مجلسنا وضعت رأسي عليه، أغمضت عينيّ أتخيل سعيداً يصبح جونكر فعلا ويخلّص الأرض من الشر، الشر الذي أبحث

فيه عن طرقة أُوسع بها نطاق اسمي في منطقتنا. نمت، وحلمت حلماً فيه أحداث كثيرة، نسيتُها كلها، إلا شيئا واحدًا فقط، بقي عالقا في ذهني عندما صحوت، هو أن سعيد يكلمني من خلف شبّاك زهرة، يقول كلامًا يودّعني فيه.

يتّسع صدره بنفَس يأخذه إلى آخر مكان فيه، يغمض عينيه زافرًا الهواء من أنفه، يكمل:

أيقظني أبي يأمرني بأن أتعشى وأنام في غرفتي، فعجلت إلى المطبخ، أشارت ساعة الصالة، في طريقي، إلى التاسعة والنصف، قلِقتُ على سعيد.. كيف تركتُه كل هذه المدة، لمتُ نفسي على نومي عنه، وقفت على عتبة باب الشارع. رأيت، من الأماكن التي تجمّع فيها الماء، أنها أمطرت بغزارة أثناء نومي. كانت السماء رمادية غامقة. تساءلت: أما زال سعيد ينتظرني، أم عاد إلى بيت جدته؟ قررت أن آخذ معي طعامًا، وإذا لم أجده رميته في القمامة. عثرت في أحد القدور، على نصف دجاجة معها خضراوات مطبوخة، وضعتها في ورقة جريدة وسحبت خبزة من الثلاجة، وقبل أن أفتح الباب، قلت لنفسي: «الوقت ليلا، والشوارع خالية، من الأفضل أن آخذ معي شيئا أحتمي به». صعدت غرفتي وأخرجت سكين بشار من تحت فراشي وانطلقت أخطو بسرعة. قدح البرق فوقي منبئًا عن هطول غزير، تلاه رعد تلجلج صداه بين زوايا البيوت. وصلت بيت أم غريب ألهث، وقفت عند الباب أنادي سعيدًا لأتأكد أنه موجود، أطلّت سعيدة من باب غرفة الحوش، هرولت متحاشيًا قطع البلاط المتناثرة في الحوش، والتي كانت تلمع على ضوء عمود الإنارة الخارجي، فانزلقت قدمي على بقعة استحالت طينا وسقطت؛ تدحرج نصف صدر الدجاجة. أخذته ونفضته. وجدت سعيدًا نائمًا على يده، وكان جمر النار التي أوقدتها في المغرب قد غفى تحت الرماد، وصار جو الغرفة محملا برطوبة باردة. أيقظته، فيما كانت سعيدة تحاول الحصول على نصف صدر الدجاجة، فصحا ونظر إليّ دون أن يرفع رأسه عن ذراعه.

«هيا قم..نصف دجاجة بنكهة المطر» قلتُ أمزح.
جلس مطبقا فمه. وضعت الجريدة أمامه، وأمسكت رقبة سعيدة التي كانت تتفلّت على الدجاجة. قضم سعيد صدر الدجاجة كاملا. شعرت بالارتياح لهذا. رمى الخضراوات لسعيدة، وراح يأكل الخبز. أخذت علبة بيبسي وفتحتها له. عبّ منها. مددت إصبع سنيكرز فأخذه مني وتجشأ.
قلت في نفسي: «الحمد لله، بدأ يتحسن».

يفتح عينيه وينظر إلى الكاميرا:

بدأ المطر يهطل بوتيرة متزايدة، أخرجت سيجارة من علبة سجائري وأعدتها تحت الفرشة، جلست قبالة الباب أنظر إلى الهطول. قلت لسعيد إن عليه أن يذهب إلى بيتهم الآن، الخادمة المسكينة قلقة عليه منذ الصباح، ومرعي ربما ذهب إلى المخفر يبلغ عن غيابه. تركته يبحلق بسعيدة وهي تقضم العظام، أشعلت سيجارتي، ودخّنت أتأمل المطر. أتخيّل أن الماء حالة أخرى للسماء، زرقة السماء مثل زرقة البحر، وسوادهما في الليل واحد.. كيف تحمل السحابة هذه الكمية من الماء دون أن تسقط على الأرض؟.. لو عرفنا السبب لربما استطعنا أن نركب سحابًا ونتمشى في أرجاء السماء. تخيلت زهرة بجانبي على غيمة، ما أرقّ وجه زهرة، ستحبّ الغيمة بالتأكيد، لن يكون بيننا قضبان، و... وفيما كنت أخرج الدخان ببطء من فمي، خيّل إلي أنني أرى قوس قزح يلوح في السماء، فرّقتُ الدخان بيدي، وركزت نظري على السماء، فرأيت أضواء تتقلب هابطة من بين الغيوم. حسبتُه برقاً أول الأمر، ثم ظننته تأثير دخان سيجارتي، فمددت رأسي قليلاً فإذا بها أضواء ملونة تأتي من السماء. البرق لونه أبيض ويخطف خطفا، أمّا هذه فزرقاء وحمراء وتهفهف من وسط السماء مثل قماش دانتيل هبّت عليه ريح رقيقة. ناديت سعيدًا ليرى، وقف مغلقا الباب بجسده الضخم، فانحشرتُ خارجًا من الغرفة أتلقى زخّات المطر. قلت: «هل ترى ما

أرى؟ هذه الأضواء قادمة من السماء».

راحت الأضواء تتقلب في السماء من جهة سكة بيت جدة سعيد. تحرك سعيد ببطء إلى الباب تتبعه سعيدة، وبقيت أمام باب الغرفة مأخوذا بمنظر الأضواء وهي تقترب من بيت جدة سعيد، لم يكن هنالك صوت غير صوت هطول المطر، أطل سعيد من فرجة باب الشارع، ثم أخرج جسده وبقيت وحدي، تقدمتُ حتى منتصف الحوش ورأسي مثبّت على الأضواء، وقبل أن أصل إلى الباب، سمعت صوتا يشبه محرك طائرة نفاثة، ثم ارتجّت الأضواء في كل مكان، بعد ذلك قامت تتقلب في المسافة التي بين الغيوم والأرض، من فوق حديقة جدة سعيد..

يضيق عينيه، ويتابع بنبرة بطيئة:

ركض الرعد مدويًا من طرف السماء الغربي إلى طرفها الشرقي.. دخل سعيد يجري فكاد قلبي يطير، هرعت أحتمي في الغرفة، وصوت الرعد مستمر يثقب أذني، بالكاد كنت أسمع نباح سعيدة المذعور، وقفنا في غرفة الحوش نرتجف. كان سعيد يريد أن يقول شيئا لولا أن الرعب ربط لسانه، عرفت أنه رأى شيئا غريباً ينزل من السماء. فتحت سكين بشار ويداي ترتعشان، قلت له إن علينا الهرب إلى بيتنا. وقف يُتأتئ بشيء استعصى نطقه على لسانه، فجررت يده وقلت: «اتبعني». ركضت وسعيد يركض بجانبي، وفي منتصف الحوش انزلقت قدمي فسقطت، ثم أنار البرق مجددًا، ورعدت السماء. بعد ذلك.. (تحمرّ عيناه) بعد ذلك تحول.. العالم تحول كله، فجأة، إلى مكان خالٍ من الشر، صار مثل.. مثل شاشة تلفاز تعرض مشهدًا عن السلام.

يتوقف عن الكلام، يرفع عينيه الحمراوين إلى السقف،
يفركهما بإصبعي يده الأخرى، ينظر إلى الجدار سبع ثوان
ثم يواصل:

عندما قلت للملازم عادل ما حدث، أخذت عيناه تفيضان بالدموع، دموع مثل مطر تلك الليلة، وقال لي لا تخبر أحدًا بما رأيت.

ينظر إلى وجهه بالشاشة، يرفع الصمت صوت التكييف عاليًا، يبتلع ريقه، يمكث اثنتي عشرة ثانية ينظر إلى صورته في الشاشة، يزداد احمرار عينيه، ينشق، يتنحنح ثم يكمل مثبتا عينه على الشاشة، تتبدل ملامحه بأخرى لها طابع مصرّ على إثبات شيء ما، يقول مخاطبًا نفسه:

حبوتَ إلى الباب، فسمعت سعيدًا يناديك وأنت تهمّ بالنهوض: «فهد.. فهد»، فالتفتّ إليه فإذا به ينظر إليك وملامح وجهه مطمئنة، كما لو كنتما تمثّلان مشهدًا.

وقفت قبل الباب تشعر بفيض هائل من الارتياح. لم تكن تعرف ما الذي يجري، فناداك:

«تعال فهد لا تخف»

جئته من غير خوف، مستغربًا من نبرة صوته الواثقة. لانت ملامحه، حتى إنك شاهدتَها تلين، ومدّ يده ليصافحك. لم تستغرب ما يحدث فمددت يدك وصافحته، قال:

«لا داعي للخوف، جاؤوا يأخذونني».

رعدت السماء ثانية دون أن تخيفك هذه المرة، وراح هطول المطر يتكاثف، فسألته:

«من هم؟»، فقال في حين كانت الأضواء تشع أكثر:

«لا تعرفهم».

«لا أفهم ما تقوله يا سعيد».

«صعب عليك فهم هذا، فقط أريد أن أقول لك وداعًا».

ألمّ بِك البكاء، فقلت له مستسلمًا، دون أن تحاول الفهم:
«وداعًا يا سعيد».
ثم.. ثم حدث ذلك الشيء الرائع.. المدهش.. الغريب.. نعم.. رأيتَه.. أنت رأيته.. بعينيك هاتين (يضع سبابته تحت عينه اليمنى ثم اليسرى) رأيت سعيد يرتفع إلى السماء.

يكمل بصوت يدافع البكاء نبرته:

تحرّر من الجاذبية بطريقة سهلة كأنه معتاد عليها.. ابتعد سعيد عنك صاعدًا.. رأيتَه يرتفع عن الأرض وهو ينظر إليك وعلى وجهه ابتسامةُ مَن نال مراده، وبعد لحظة ارتفعت معه سعيدة، وشرعت الأضواء تتخللهما، والمطر يبللك، ارتفع وارتفع وارتفع، تابعتَه يرتفع حتى اختفى وراء الغيوم.
أحسستَ بخفّة في نفسك، جاءك يقينٌ أن سعيداً في مأمن الآن، لن يحتاج للذهاب إلى مكان يكرهه ولا القعود في محل لا يطيقه. لا تعرف لماذا ابتسمتَ وقتها، تخيلتَ وجه سعيد وهو يحدثك بملامح واثقة قبل لحظات، لم يكن جامدًا، كانت به طراوة، الطراوة مضحكة على وجه سعيد. هتفت:
«وداعًا صديقي سعيد».
فسمعت صوتَه من وراء الغيوم يقول:
«وداعًا صديقي فهد».
ثم التفّ حولك صوت آخر، ليس صوت سعيد، صوت مبلل بالمطر، يقول:
«لا تخبر أحدًا عمّا حصل».
قلت وأنت تنظر إلى السماء:
«من سيصدقني إذا قلت ما حصل؟». فقال الصوت:
«طيب، عُد إلى بيتكم، الآن».

يسكت، يمسح دموعه، يواصل النظر إلى الشاشة وعيناه
تقولان إنه ما زال يتحدث مع نفسه، تمر سبع ثوان، وهو
يحدق صامتًا في وجهه، ثم يحوّل نظره إلى ما وراء الكاميرا،
يتنحنح ثم يكمل:

انعطفتُ إلى شارعنا وقد صار كل شيء جديدًا كما لو أنه يحدث لأول مرة. ما رأيته غريب، لكن ما أثار استغرابي أكثر من صعود سعيد إلى السماء، وأكثر غرابة من الصوت الذي جاء، هو أنني كنت أستقبل كل هذا برضى تام، دون خوف يتّسق مع رهبة الحادثة، ربّما لأنني رأيته الحل الأفضل لسعيد، فهذه الأرض تحتاج إلى الكثير حتى تكون مكانا يصلح لحياة أناس مثله.

توقّفتُ أنظم أنفاسي، وقلتُ متعجبًا: «الذي حدث معجزة». وفكرت: كيف أخبر الناس عمّا رأيت؟ لن يصدقني أحد، بل لن أعرف كيف أصف. أحد من السماء أتى، ورفع سعيدًا بواسطة الأضواء، أضواء مصممة لرفع الأشياء، سعيد الثقيل ارتفع مثل دخان..من سيصدق.

تركت رأسي يحاول ترتيب الحدث وأكملت إلى البيت والمطر يهطل فوقي.

كانت أمي جالسة في الصالة عندما دخلت مبللا وثوبي ملوث بالطين، فانهالت علي: «هل يخرج ولد عاقل في مثل هذا الوقت؟ وملابسك وسخة أيضًا ورائحة سجائر، رائحة سجائر.. أبوك.. اذهب إليه إنه ينتظرك في الديوانية». ذهبت إلى أبي، وجدته يشاهد برنامجًا على التلفاز، قطّب جبينه وقال: «هل أنت صاحٍ؟ أيخرج أحد في مثل هذا الوقت وهذا الجو؟.. ما بك تبتسم هكذا؟ هل تريد أن ترى كيف يرقص العقال على ظهرك؟». كنت في حالة لم تسمح لي بفتح فمي من الرضى، فهززتُ رأسي نافيًا. أمرني بأن أذهب إلى النوم حالا.

تنشّفت وبدّلت ملابسي ثم استلقيت على فراشي أعيد في ذهني صورة سعيد وهو يرتفع. شعرت باستعداد يجمع قلبي على التسامح مع كل شيء، وأتى النوم

بسهولة.

وفي الصباح صحوتُ متعرقا وحرارتي مرتفعة.

التسجيل الرابع والعشرون

السّر

يرتدي فانيلة جست دو إت، لحيته تزرع خديه برؤوس
شعرها، يلتم الشيب عند حنكه، ينظر إلى الشاشة ثم
يحول عينيه إلى الكاميرا ويقول:

شربت دواء بطعم التوت ليخفض حرارتي، عزت أمي حرارتي، وهي تضع حساء الخضار أمام فراشي، إلى خروجي ليلة أمس في مطر غزير، لامتني على إهمالي صحتي. حسوت بضع ملاعق ثم اضطجعت، بقيت في الفراش أتأمل ما حدث ليلة البارحة لسعيد، سرور وبهجة تركضان في قلبي لحصولي على شيء يميزني عن الناس؛ وحزن يمشي وراءهما بكسل، ليس لديه ما يقوله.

فكرت، وعيناي تنظران إلى السقف، أن الذي رأيته يجب أن يبقى سرًا، ليس لأن أحدًا لن يصدقني وحسب، بل لأنني أريده لي على وجه الخصوص. هذا أمر يرفعني عن قدر الناس، سيدفع العالم ما لديه من علم ومال وجاه ليرى تلك الأضواء. فقط الأضواء.. لأن رؤية سعيد وهو يرتفع في السماء لا تقدر بثمن؛ أما ذلك الصوت الذي قال لي لا تخبر أحدًا، فربما هو صوت ملاك، أو مهما يكن.. كان صوتًا يقطر المطر من نبرته، لا يمكن لأحد سماعه حتى لو دفع روحه مقابل ذلك، أنا فقط سمعته، أنا فقط، وها هي روحي معي.

ينشق ويبتلع ريقه ثم يتنحنح ويتابع:

قضيت معظم صباح ذلك السبت جالسًا عند باب الديوانية، أرفرف بعيني في السماء، فوق حديقتنا، حيث كانت الغيوم تسحب أذيالها عن وجه شمس طيّبة، ويندفع الهواء إلى وجهي باردًا ومحملا برائحة مطر ناعمة، أفكر بـ: «أين سعيد الآن؟».

هل يلهو في أرض أخرى فوقها سماء غير هذه، تهرول خلفه سعيدة في وادٍ أخضر يتجهان إلى شجرة في آخره، الشجرة عليها عنب، أحمر وأخضر، يجلسان تحتها، يتسلقها سعيد ويأخذ من قطوفها، يلتهم ملء يديه منها، يسيل عصيرها على ذراعه، يلعقه، يرمي لسعيدة قطافا، وينزل يجلس بجانبها يتأمل قوس قزح في زاوية السماء التي هو فيها..؟ أم.. أم يلهو بالغيوم؟ لا بد أن الغيوم كثيرة، يرمي غيمة فتركض سعيدة وتعيدها له، ويضع أخرى في فمه ويشرب مطرها، ويعصر ما تبقى منها فوق سعيدة.

كان فضولي لمعرفة «أين سعيد الآن» يقدح مثل ولّاعة في مكان مظلم. أتتني أمي بالإفطار ومسحتْ جبيني تقيس حرارتي، قالت كلامًا عن أن صقرًا سيأخذني بعد العصر إلى الطبيب. أفطرت وسرحت في تفكير طويل عن: كيف حدث ما حدث، السماء ليست شيئا ملموسًا مثل الأرض، أتذكر برنامجًا شاهدته على التلفزيون فيه خطوط متماوجة وأسهم كثيرة، فهمت منه أن السماء هواء؛ لكن كيف تحمل الغيوم المطر الغزير، مطرًا يملأ أحواض سباحة، فهل يقدر الهواء على حمل حوض سباحة؟ نحن لم نكتشف العالم، لا لم نكتشفه. ظللت هكذا حتى أذّن الظهر فتوضأت وانطلقت أصلي في الصف الأول. جلست بعدما قضيت الصلاة أنتظر خروج المصلين؛ أريد أن أسأل الشيخ صابرًا عن: أين يذهب من يذهب إلى السماء؟ وفي زاوية المسجد، رحّب بي الشيخ بالتماع ضرسه الفضية، سألني عمّا غيّبني عن المدرسة، قلت إنني مريض، دعا لي بالشفاء.

ضحك لما سألته، وقال لي: «من أين تأتي بمثل هذا الخيالات؟»، ولما أصررت على أن يجيب، تغيرت ابتسامته إلى زمّة الجد المواربة. ظن أنني أعني أين تذهب الأرواح، فأكدتُ له أنني أعني من يرتفع بروحه وجسده. ضيّق عينيه عليّ،

وطلب مني أن أبتعد عن مشاهدة الأفلام، فهي مفسدة للعقل والأخلاق، ولا ينبغي أن نصدّق كل شيء فيها.

أخذني صقر إلى المستوصف، بعد صلاة العصر، وكان عبادي الجوهر يعزف بعوده أغنية «سكة طويلة» بإيقاع حزين. قال الطبيب إنّها حمى دخول فصل الشتاء، وصرف لي دواءين، ثم أعطاني إجازة مرضية لثلاثة أيام. أكملت بقية اليوم في غرفتي أقلّب صورة ارتفاع سعيد، والأضواء التي ترتفع وتهبط، والأصوات التي تأتي من الأماكن التي لا نعلمها.

ارتفعت حرارتي في الليل أكثر فاتضح مشهد ارتفاع سعيد كأنه يحدث أمامي على الجدار، ولما صحوت قضيت النهار جالسًا بين عتبة باب الشارع وعتبة باب الديوانية، أضع تصوراتي عن وضع سعيد الآن، أتخيله يعدو في أرض معشبة تتناثر الأزهار الصفراء والبيضاء والحمراء على أرجائها، في جيبه العلوي غيمة، وفي يده حبات عنب كبيرة، تلحق به سعيدة، وهواء محمّل برائحة المطر يهفهف ثوبه، عنده أناس طيبون لهم صوت يشبه صوت الهطول، يقدمون له كيكا ساخنا وهو جالس تحت شجرة، و.. وليمة دسمة مثل التي أحبّ طعمها عندنا. أتنهّد بين لحظة وأخرى، مشتاقا إلى رؤية جمود وجهه و.. أضحك.. وطراوته أيضًا.

يعتدل في جلسته، يواصل:

طرق كوكو بابنا قبل صلاة العصر، أخبرته أمي بأنني مريض، وطرقه هو وبشار بعد صلاة المغرب، وأخبرتهم أختي بأنني ما زلت على فراشي. في عصر الإثنين أخذني صقر مرة أخرى إلى الطبيب إذ لم تهدأ حرارتي عن الارتفاع المباغت، كتب تحويلا إلى المستشفى لأجري هناك فحوصات موسعة. لقيني عزّوز ومعه النمس في حديقتنا عندما عدنا، سلّما على صقر، وأخذاني إلى الشارع يريدان أن نذهب إلى بيت أم غريب؛ قلت لهما إنني مريض ولا أقوى على الذهاب، أجبراني

على الجلوس على الرصيف، فقال عزّوز:

«كان مصدي ينتظرك ومعه كيس فيه شيء طويل ورفيع، أظنه ساطورًا». صمتُّ أمطّ شفتي، فأكمل: «ضربوا بشّارًا وعباسًا اليوم أمام مواقف السيارات».

تخيلت بشّارًا يبكي وأقدام الأولاد تتردد فوق عباس، فأضاف:

«يقولون إنك غبت لأنك خفت ملاقاة يوسف».

قام النمس وجلس مرتكزًا أمامي على قدميه:

«مصدي اليوم شدّ ياقة فيصل المومياء وقال له أن يخبرك بأنك إن لم تواجهه أمام مواقف المدرسة فسيأتي مع رفاقه ويحطم وجهك أمام بيتكم».

صمتَ ينتظر ردي، شعرتُ بالشفقة على يوسف الذي يتلاعب به الشر. فكرت: لو رأى ما رأيتُ تلك الليلة في بيت أم غريب لعرف كيـ.. قطع النمس تفكيري لما رآني أطلت السكوت: «قررنا أن نجتمع غدًا قبل صلاة المغرب، ونذهب إلى قطعتهم، نطيح بهم واحدًا وراء الآخر». تقززت من فعل «نطيح». شعرت أنه مفعم بالشر، فقمت أقول:

«حرارتي ارتفعت» أعطيتهم ظهري وأكملت: «وموعد دوائي الآن». تركتهم وأغلقت الباب ورائي.

صعدت غرفتي وانغمست في فراشي أسترجع الأيام التي مرّت منذ عودتنا من السعودية، أشاهد على السقف ذكرياتي مع الرفاق، ألوم نفسي على الطريق الذي اتخذته.. لا أحد يمكنه أن يتميز بالشر لأن الشر مثل عملية الهدم، أما الخير فهو البناء، هو التميز، دخلت في حالة صفاء جعلتني أنظر إلى الجدران دون تفكير. ناداني صقر قبل صلاة المغرب يقول إن أبي يريدني.

يترك النقال على الأريكة، يأتي ديكور السقف واضحًا،

تعرج عليه بعض التصدعات، يُسمَع فتح شيء ثم إغلاقه،

ينشق أنفه، يعود جنبه الأيمن يجلس على الأريكة،

تنشغل يده بشيء ما، تهتز الشاشة ويعود وجهه:

وجدت مع أبي في الديوانية ثلاثة رجال، أحدهم كان مرعي، يمد قدميه متكئا على جنبه الأيسر في طرف المجلس، ضاق صدري لدى رؤيته، هذا النذل تسبّب في فراق أخوين، عبست أنظر إليه، فقال أبي: «فهد، هذا مرعي عمّ صديقك سعيد، أنت تعرفه بالتأكيد، يقول إن سعيدًا متغيب عن البيت منذ أربعة أيام». فتدخل مرعي: «الخادمة، يا ولدي، تقول إنك ذهبت تبحث عنه ذلك اليوم، فهل عثرت عليه أو سمعت شيئا عنه؟». ومض في ذاكرتي مشهد صعود سعيد إلى السماء والأضواء تدور حوله، هززت رأسي: «لم أجده، لففت شارعنا ذلك اليوم وعدت إلى البيت». فسأله رجل: «هل أبلغت المخفر؟»، سحب قدميه، وهزّ رأسه تأسفا: «المخفر.. نعم أبلغته، أبلغت ضابطا صغيرًا بنفس اليوم الذي غاب فيه وأظنه لم يعرني انتباهه، لم يسجل اسمه ولم يقم بعمل شيء».

فقدّم أبي مساعدته، وقال إن ابن عمه رئيس المخفر، ثم أشار لي أن أقرّب له التلفون، وضعتُ التلفون أمامه وعدت إلى غرفتي.

يسكت، ويزمّ شفتيه، يقرب حاجبيه من بعضهما، ثم
يتركهما يبتعدان، ويواصل:

فحصني طبيب مسنٌّ، صباح الثلاثاء في المستشفى، أدخل عوداً في فمي ودفع أصابعه إلى صدري وسألني عن لون بولي، ثم أخذوا مني عينة دم، وأعطوني موعدًا آخر وورقة فيها رخصة من المدرسة حتى يوم السبت. في العصر طرق بشار بابنا، وقال لأمي إنه ابن صفي ويريد أن يعيرني كراسة فيها الدروس التي فاتتني، امتدحته أمي تشير إلى كسَلي أمام التلفاز، وطلبتْ مني أُدخل هذا الولد الطيب - الذي تعنّى المجيء من بيتهم من أجلي - إلى الديوانية.

رأيت انتفاخًا بنفسجيًا على زاوية جبهة بشار. قال:

- الآن تجيء معي، الرفاق كلهم ينتظروننا في بيت أم غريب.

- أنا مريض.
- أنت تتمارض.
- أقسم بالله.
- آه فعلا، جاءك المرض تحديدًا قبل يوم اللقاء، صح صح، مرض طيّب هذا.
- حوّلوني إلى المستشفى أيضًا، أخذوا مني دمًا.
- في المدرسة يقولون إن غيابك كان خوفا من يوسف.
- ماذا تريد الآن؟
- اليوم رأيت المومياء يمشي معهم في الفرصة.
- شأنه، المومياء ليس من أبناء قطعتنا.
- لكنك تعرف ماذا يعني هذا.
- لا يهم.
- لأنك جبان.

أعطاني ظهره ومضى، وقبل أن أدخل ناداني:

«تعال تعال»، توجهت إليه فوجدته يرفع السكين: «كان يجب أن تعيدها لي، لا أن ترميها في بيت أم غريب».

أخذت الدواء في الليل، ولم ترتفع حرارتي، نمت مبكرًا وصحوت يوم الأربعاء قبل الجميع. جلست في الصالة أحيط مشهد صعود سعيد من زاوية أخرى، وأشعر بنشاط غريب ورغبة في معرفة المزيد عن السماء، حتى صحت أمي وأعدّت الإفطار فأكلت بشراهة. شعرت برغبة لاذعة في الذهاب إلى بيت أم غريب ورؤيته بعد ما حصل لسعيد لعلي أجد أثرًا لحادثة اختفائه، خرجت من باب الشارع.

يبتعد وجهه، يبان ذراع الأريكة، يأتي صوت بلاستيكي،
ثمانُ ثوان ويعود بشفتين مبللتين بماء أو مشروب غازي:

انتظرت حتى ذهب الجميع، فخرجت، كان الليل قد ترك البرد بصورة طبقة رقيقة فوق الأشياء، وسربل الهواء برائحة ندى، ربما كانت الساعة الثامنة صباحًا، إذ كانت الشوارع خالية، ما عدا بعض العمال الذين واجهْتُهم أمام سبيل أبي سالم يملؤون قناني ماء. وقفت أمام سور حديقة جدة سعيد، دخلتها ببصري، تسلقتْ عيناي شجرة السدر أستعيد بذاكرتي كيف كان سعيد يعيد العصافير الصغيرة إلى أعشاشها بعد أن يداعب أخاه بها، هبطت منها إلى مكان جلوسي مع سعيد وأخيه سعد، مررت على عتبة الباب حيث كانت الخادمة تأتينا بالكيك، وآكل حصة سعيد، ضحكت، كان دائمًا يتركني آكل حصته.. تلاعبتْ لوعة في بلعومي.. لديه كيك الآن في المكان الذي ذهب إليه، أوشكت الدنيا تموج، فاستدرت ودخلت بيت أم غريب أمسح عينيّ بكمي.

كان المكان كما لو أنني تركته قبل قليل، سرت إلى غرفتنا آخر الحوش، وقفت أمام باب الغرفة أنظر إلى السماء حيث رأيت الأضواء ترفع سعيدًا، يرتفع ويرتفع، تخيلت المشهد مرة أخرى، ثم دخلت، وجدت جمراً نائماً في الموقد تحت إبريق الشاي، وعلى جانبي الموقد تبعثرت مجموعة أكواب صغيرة، غرق داخلَ إحداها أعقابُ سجائر ودكن لون السائل الذي فيه. أخرجت علبة سجائر وجدتها تحت الفرشة، بحثت عن ولاعة في الأماكن التي يضع الرفاق فيها سجائرهم، وجدت علبة كبريت، وضعت سيجارة بين شفتي، جلست أمام الباب أنظر إلى الحوش الهادئ والسماء الصافية. أخرجت عود ثقاب وحككت رأسه بجانب علبة الكبريت فقدح شرارًا وفسد، تذكرت الولد الذي كنتُه قبل أن أستجيب لمتطلبات الشر.. كرة تمرر، وركلة تسدد، وهدف يحقق، وفوز يختطف؛ ألمس غياب الرغبة التي كانت تجعلني شرارة تتوق إلى أن تصبح نارًا تندلع في الأخضر واليابس ليرى العالم وهجها من بعيد. أخرجت عودًا آخر، رأيتُ كم كنت جباناً لمّا حملت البندقية على الأولاد لأنني أريد أن أكون أفضل منهم فقط. حككت العود الثاني فاشتعل، تأملت اللسان الناري الأصفر الصغير الذي بالكاد كان يرى، ذكّرني بتلك المرة حين أشعلت النار في قمامة أمام

بيت، وفجأة تذكرت.. زهرة.. الشيء الوحيد الذي كان يربطني به الخير. كيف أعادت كلمة أحبّك الطيور في داخلي إلى أشجارها. عزمت أن أمر بشبّاكها الليلة مهما كانت حرارتي. وصلت الشعلة إلى إصبعي، نفضتها ورميت العود داخل الكوب المليء بالأعقاب، أبعدت السيجارة عن فمي، رأيت أنها فعل ينتمي إلى الشر، تركت الكبريت يسقط من يدي، وشرعت أفتت السيجارة وأشاهد التبغ يتناثر عند قدمي، متذكرًا عدد المرات التي تسبّبت فيها بالأذى، ومشهد ارتفاع سعيد ينكشف تدريجيًا في ذهني وقدماه تذهبان إلى الأعلى.

كنت سأضحك وأبكي في آن لو استطعت، تركت بقية السيجارة تسقط من يدي، ولمّا وقفت أريد الخروج، تناهى إلى مسامعي حسيس خطوات تقترب من الباب الخارجي، خمنت أن أحدهم تسور المدرسة، فجهّزت عذراً للتنصل: موعد دوائي حان.

توقفت الخطوات قبل الباب الخارجي، ثم رأيت رجلا ملثمًا يضع نظارات سوداء داكنة ينسل متخفيًا إلى بيت أم غريب.

لسعتني كهرباء الخوف، أمسكت أنفاسي ولذْت خلف باب الغرفة، بجانب رسمة سيارة سر الليل، أسمع خطى الرجل وهي تتقدم باتجاهي متوقّية قطع البلاط.

يذهب وجهه ويخرج ذراع الأريكة، ثم يعود وشفتاه مبللتان، يبتلع شيئًا في فمه، ويتابع:

كان الشارع هادئاً، فلو صرخت لربما قتلني وهرب قبل أن يأتيني أحد: التصقت بالجدار أستمع إلى صوت خطواته تقترب، داهمني شعور بأنه قاتل أخفى جثة في هذا المكان.. أزهق روحًا ويريد أن يزهق روحي، بثّت مخيلتي صورة رجل يمسك مسدسًا ويطلق النار. كنت سأجري لولا أن توقفت خطواته وذهبتْ منعطفة داخل البيت الرئيس. انبطحتُ لا أقوى على الحركة، خمّنت أنه يختبئ قريباً

من باب البيت ينتظرني أخرج لينقضّ علي، كان نبض قلبي يهز صدري، وكانت السيطرة على صوت أنفاسي تؤلمني. لحظات وسمعت خطواته تأتي من ممر الحوش، كتمت أنفاسي، مرّ من أمام باب الغرفة، وراح ضباب رمادي يتكاثف في عيني. مضى يتخبط في رمل الحوش، غير المستوي، ويتحاشى قطع البلاط المتناثرة. لا أعرف إن كنت واهماً أنني سمعته يبكي، لأنني سمعت صوتا مكتومًا يتلوه نشيج. توقفت خطواته، فتحت لصدري فرجة من فمي لأتنفّس عنه، تبدد شيء من الضباب، وكان أمامي عقب سيجارة مدهوس، زحفت، ومددت عيني بحذر من زاوية الباب، فوجدته واقفا في منتصف الحوش وظهره إليّ، ينظر يمينا وشمالا، ثم تقدم خطوتين، أزال النظارات ومسح عينيه بكمّه، ثم راح ينظر إلى الأرض، حرّك قدمه كمن ينبش شيئا، فجلس وأخذ يمسح على الرمل، ثم أدار رأسه على جانبيه وهو جالس، سمعتُه ينشق، ثم وقف وخرج.

تركت أنفاسي تهرع، وقفت أرتجف، بقيتُ برهة ألفّ عيني حول الباب، حتى سمعتُ السعال الذي يخرج من سيارة مرعي عند التشغيل، جريت إلى الباب وأطللت من الفرجة، رأيت مرعي فاتحًا غطاء سيارته ويعبث بها، أخرجتُ رأسي وتلفّتُّ، وجدت الشارع خاليًا، وكان هناك صوت سيارة تبتعد، رجعت إلى المكان الذي كان الرجل يبحث فيه، مسحت الأرض أتطلع يمينا وشمالا، درت حول نفسي، حرّكتُ التراب بقدمي فلم يكن ثمة شيء، انتظرت خلف الباب حتى ابتعد مرعي وخرجت أجري إلى البيت.

وقفتُ ألهث أمام سبيل أبي سالم حتى عادت أنفاسي إلى رشدها، أخذت شربة ماء بيدي، مضيت أمشي بروّية، قلت لنفسي أهدّئ من تفاقم مخاوفها: «ربما يكون من الجيران، أو من جهة حكومية تستكشف البيوت المهجورة». مرّت بجانبي سيارة يمشّط سائقها شعره، فسرعت خطاي.

بتُّ تلك الليلة أستعيد صوت خطواته، وصورته وهو يحرك المكان الذي ارتفع سعيد من عنده بالذات، أضع الخطوط العريضة لاحتمالاتي وأزيلها.

التسجيل الخامس والعشرون

الرجل الملثم

لم يتبدل شيء عن التسجيل السابق غير أن نبرة صوته
ثقلت قليلا:

أمضيت يوم الخميس أشاهد التلفزيون وأتحدث مع أمي وأختي عن أشياء عادية. أنظر إلى السماء بين فينة وأخرى، لعلي أرى سحابة يطل منها رأس سعيد. وضعت رأسي على الوسادة أفكر بالمكان الذي هو فيه الآن، حتى نمت. صحوت يوم الجمعة مبكراً، قضيت الصباح فيه أطلّ كل حين على بيت أم غريب، من بداية المنعطف، وأعود إلى البيت. استمعت إلى خطبة الجمعة التي تتحدث عن مخاطر التلفزيون. واستمررت أنتظر أذان العشاء حتى ألاقي زهرة. مر العصر وأنا خلف «الوجار» يسحبني أبي من تخيلاتي وأفكاري، إلى أن أصب لرجل لم أنتبه لدخوله قهوة، أو أملأ كوب شاي فرغ بين يد رجل آخر. ولمّا أذن المغرب وقفت أمام المرآة، أتأهب للقيا زهرة، أمرّن ملامحي على الاعتذار عن تغيبي عنها طوال أسبوع، أُخرج من جيبي زجاجة الدواء أريها كيف أجبرتني مباغتة المرض على حملها؛ لكن قبل أذان العشاء بقليل، أمرني أبي أن ألبس شماغًا وعقالا لأننا سنذهب إلى وليمة أقامها عمي علي في بيته لأحد الضيوف، حاولت أن أحني ظهري وأرخي كتفَي لأقنعه بأنني مريض، كاد يتركني لولا أن أمي قالت إنه يجب عليّ الخروج حتى تنتعش صحتي.

كان ديوان عمي ممتلئًا، امتدح رجل طريقتي في اللباس أمام الرجال، وقال لأبي

إنه يجب أن يعجل في زواجي. ساعدت أبناء عمي على صب القهوة وإعداد السفرة. جلس أبي حتى وقت متأخر مع عمي ورجل آخر، عدنا إلى البيت في وقت لا تفتح زهرة فيه شبّاكها، أخذت دوائي ونمت مثل كيس شعير وصحوت مبكرًا كريشة في هبّة هواء. أخذني أبي إلى موعدي في المستشفى، قالت التحاليل إنني أعمل بشكل جيد، عدنا إلى البيت بسرعة لأقاسي ثقل الوقت، الذي عليّ أن أزحفه، حتى يرمي الليل نعاسه ويفتح شبّاك زهرة عينيه. خرجت من باب الحديقة وجلست على العتبة أفكر: لو أن سعيدًا بقي في الأرض لكنت الآن أكسر معه ثقل صخرة الانتظار عن صدري.. سأحدّثه عن شعوري لمّا قال الرجل لأبي: يجب أن يعجّل في زواجي.. أنا رجل يا سعيد.. وزهرة امرأة.. بعد سنتين سيسمح الجيش لي بالالتحاق، وسأحصل على وظيفة وراتب، وسأتزوج زهرة.. وأنت ستقدم الوليمة للرجال. سيصمت سعيد ويبحلق في وجهي، وسيسمعني أكمل أحلامي حتى النهاية، وسيمر الوقت مثل ماء انسكب من قنينة.

طرق أحد الأصدقاء بابنا قبل صلاة العصر، أخبره صقر بأنني مريض. ارتميت في الصالة أشاهد في التلفاز، مع أختي، سقوط المتسابقين في برنامج الحصن على شاشة أم بي سي. رحت للمرآة، أتدرب على إتقان التعب، فحححت: كدت أموت يا زهرة. ارتميت على الجدار، وانسحبت منزلقا عليه حتى وصلت إلى الأرض، أقول: ربما قبلة منك تشفيني. أعدت تمثيل المشهد خمس مرات، في كل مرة أكتشف أنني مثّلت المرة السابقة بشكل مضحك.

كان الوقت مثل دودة تنخر عظامي، لم يمضِ بسهولة ودون ألم. صليت العصر، تعهدت القهوة في ديوانيتنا، حتى غابت الشمس متكاسلة. صليت المغرب، وعدت للمرآة، أرخيت حاجبي، وتركت فرجة طفيفة بين شفتي، وأحنيت رأسي قليلا، فتأكدت أن هذه هي الهيئة المناسبة لمريض يحتضر وستلبّي زهرة طلبي لتنقذ حياتي.

يسكت، تجيء زاوية الأريكة خلفه، يتحرك كما لو أنه يمد ساقيه عليها:

مع بشائر أذان العشاء ارتديت شماغي وأحكمت عقالي فوقه، وشاهدت بالمرآة كيف أبدو، ثم انطلقت. كان الهواء في أول درجات البرودة، ويحرض على الالتمام. تلثّمت في الطريق حتى لا يراني أحد الأصدقاء فأدخل معه في حوار قد يجرّني إلى بيت أم غريب إلى آخر الليل. تفقدت الدواء في جيبي فيما كانت قدمي تخطو إلى السكة. كان الظلام يخبر بأن كل الشبابيك مغلقة، توقفت، خمّنت: ربما هي مريضة، أو تعتني بأمها وستفتح الشبّاك ما إن تفرغ. فور أن قررت العودة إلى البيت، لآتي بعد انقضاء الصلاة، رأيت، قبل أن أستدير، شبّاك زهرة يُفتح ويغلق بقوة، وخيال رأس ما يقف أمام الشباك، فتقدمت أدقق النظر إلى أن سمعت تمتمة، تابعت حتى أصبح بيني وبين الشبّاك أربعة بيوت، ففتحتْه زهرة مجدداً ولمحتُ وجهها غاضبًا يستعد لشتيمة، لمحتُ أيضًا وجهًا عرفت صاحبه من أسنانه المسوّسة، يقف أمام القضبان، يحاول بيده أن يبقي الشبّاك مفتوحًا، ولما استطاعت زهرة أن تغلقه، تحركت في داخلي صواعق لم أعرف أنها موجودة من قبل، وصرخت: «عيب عيب، عيب عليك»، فهرب سوسة بالاتجاه الآخر، جريت خلفه خطوات، ثم توقفت، سمعت ارتطامًا وصوتا معدنيًا يتقلب، ثم يعود دبك خطواته مضطربة حتى انتظمت ورأيته على نور عمود الإنارة من آخر السكة ينعطف إلى مواقف السيارات. بقيت دقائق أمام شبّاك زهرة، أحاول إسكات نقمي على جرأة سوسة. نسفت طرفَي شماغي فوق كتفي، بعدما استعدتُ السيطرة على صدري، ونقرت زجاج الشباك ثلاثا حتى فتحتْ زهرة ووجهها مستعد لإلقاء شتيمة، ولما رأتني تركت وجهها يعبر عن ارتياحها وزفرت زفرة طويلة: «فهد». أطلت بزاوية وجهها على اتجاهي السكة، وقالت: «ولد قليل أدب للتو كان هنا».

«رأيتُه» قلت، وأومأت برأسي ناحية مواقف المدرسة: «هرب من هذا الاتجاه لما

رآني، لم أرَه من قبل، هنا».

«قال إنه يعرفك».

قفز قلبي: «يعرفني! يكذب يكذب».

«يعرف اسمك بالكامل».

غاص لساني في بلعومي، لا أعرف بماذا أرد. أضافت: «وقال عنك كلاماً سيئًا».

دبّ نمل في عروقي، قلت كأنني أتوسل: «يكذب، ورأس أمي وأبي يكذب».

«اهدأ اهدأ.. أعرف أنه يكذب» هدأت أنفاسي، ابتلعت ريقي. أضافت: «عرفت أنه يكذب لمّا قال إنك تتعارك معهم في المدرسة المتوسطة، يحسبني لا أعرف أنك في الثانوية، منذ ثلاثة أيام وهو يطرق الشباك ليقول عنك كلاماً سخيفاً.. تصور.. يقول إنك تدخن، وتجلس مع الأولاد في البيت المهجور، أف يا ربي، تفوح من فمه رائحة كريهة».

«هه» ضحكت بتعب «هؤلاء الأولاد ليس لهم أهل يربونهم، ربما يكون الولد الذي حمل بندقية ورمى بها الأولاد في الساحة».

ضحكت تقول: «تصور أنه يقول إنك أنت من فعل ذلك».

ضحكت وسعلت، ثم أخرجت علبة الدواء وملأت غطاءها وشربت. قالت: «سلامتك، ما بك؟».

«الله يسلمك، كنت مريضًا طوال أسبوع».

مسحت جبيني بيدها تقيس حرارتي، كانت فرصة مناسبة لأقذف نفسي على الجدار وأطلب منها إنقاذي بقبلة لولا أنني خشيت من تبعات كلام سوسة عنّي، (يرفع كتفيه) خفت أن أفقدها. تحدثنا عن المرض وأعراضه وأسبابه. امتدحتْ لباسي وقالت إنها تتخيلني أذهب إلى الجامعة السنة القادمة هكذا. أعدت عليها ما قاله الرجل لأبي بأن يستعجل في زواجي، خرجت من ثغرها ضحكة، غطت وجهها بيدها لحظات، ثم كشفت عن احمراره، وقالت تغيّر الموضوع: «حسنا، كيف حال سعيد وأخيه؟». لاحظت من تغير وجهها أنها رأت تغيرًا في وجهي، فقلت: «سعيد وأخوه، نعم نعم، هم بخير.. لا أعلم، أعني يقولون إن..»،

وقطعتُ الحديث فجأة ورغمًا عني، تحت التأثير القوي لمشهد ارتفاعه، الذي يتجلى في الظلام أكثر منه في النور، والصوت المبلول بالمطر، والأضواء الرائقة تتقلب.. قدما سعيد.. ذيل سعيدة.. أعادتني زهرة: «فهد، ما بك؟». انتبهت، قلت: «لا، لا شيء، فقط، فقط حرارتي ارتفعت». دلكتُ جبيني وقلت: «زهرة علي أن أذهب لأرتاح، هذا الدواء يسبب لي دوارًا». قبل أن أذهب أعطتني كيسًا فيه أوراق نبات حمراء قالت إنها تطرد البرد إذا شربتها منقوعة بماء ساخن.

يتزاح فيسند رأسه، يتحرك جزؤه السفلي حتى يثبت على
وضعية معينة، ثم يكمل:

تواعدنا على أن نلتقي يوم غد بعد صلاة المغرب. عدتُّ إلى البيت وحرارتي مرتفعة، أستعيد كيف كان وجه سوسة يقف أمام نور شباك زهرة. كان صوتي يقول في داخلي إنه لا بأس بالشر إذا كان يؤدي إلى الخير، لو كان سوسة يعلم أن سكيني حادة وتشرط الجلود لما حملته نفسه على التفكير بزهرة.
سقتني أمي مخفّض حرارة، ووضعت أختي كمادات باردة على جبيني، منعني تذبذب الحرارة من الذهاب إلى المدرسة صباح الأحد.
صحوت ضحى أشعر أن حرارتي هدأت قليلا، أفطرت ثم جلست على الرصيف وباب شارعنا موارب خلفي. راح الهواء يسحب برودته الناعمة على قدمي. مرّت سيارة بيضاء يمشّط سائقها شعره، خرجت خدامة من بيت جيراننا وطرقت على باب بيت جارنا الآخر، تابعتها حتى رجعت تحمل بيديها كيسًا فيه خضراوات. كانت زرقة السماء واضحة، وتعطي شعوراً بالسلام. تذكرت وجه سعيد وهو يحدق بي أثناء حديثي، لو كان سعيد هنا لذهبت إليه وبحت له بما في نفسي تجاه زهرة، سأقول له: أنا نادم على كل الكذبات التي قلتها، ما كان يدفعني لذلك إلا أنني كنت أريد أن أعجبها.. أفكر يا سعيد أن أخبرها بصراحة عن تمزّقي بين أنا الذي يحب الخير وأنا الذي يريد أن يتميز بأي وسيلة، ثم أقدم

نفسي بين يديها كي تخبرني ماذا تريدني أن أفعل لأبقي شباكها مفتوحاً دائمًا في وجهي وأتميز بالطريقة التي تريدها.. ما رأيك؟.. إلى متى سأستمر بالكذب أمامها؟ غطيت قدمي بثوبي من البرد، وتابعت: إذا كنت عازمًا على ترك المتاعب وإنهاء مسيرة الشر فعلي أن أبدأ مع زهرة، أليس كذلك سعيد؟ سأخبرها بكل شيء، ربما تصك شباكها بوجهي، لا بأس، أنا أستحق، ستفتحه ما إن تهدأ.. لكن قل لي يا سعيد، ماذا تفعل الآن؟ تلعب.. أكيد.. أنت تحت شجرة ما الآن، شجرة عنب أليس كذلك؟ سعيدة تقفز وراء الحبات التي ترميها عليها.. هه.
شعرت أنني منشطر، نصف يريد أن يفكر بسعيد والآخر يرغب في التفكير بزهرة. حتى جمعني صوت ألقى عليّ السلام، وما إن نظرت إليه حتى تناثرت قطعًا صغيرة على الرصيف.

يأخذ نفسًا طويلا ويزفره متنحنحًا:

وقف الرجل الملثم (يرفع حاجبيه وينزلهما) أمامي ونظاراته السوداء مسددة علي، أرى انعكاسي فيها صغيرًا ومضغوط الجوانب: «السلام عليكم». حاولت الوقوف فلم أقدر، نطقت بصعوبة: «وع.. وعليك السـ.. سلام».
«ما اسمك؟».
دفعتني الصدمة لأقول: «فهد».
طيب، فهد، أين والدك؟».
«في.. والدي في العمل»، واستدركت: «لكن أمي في الداخل، أمي، قريبة من الباب».
توجهت نظاراته إلى الباب، وعادت إلي، قال: «طيب.. فهد، أريد أن أسألك سؤالا فقط وأذهب: هل اختفى أحد تعرفه، أو هل، هل رأيت شيئًا غريبًا يحدث، لا تخف لا تخف، لماذا ترتجف؟ أنا لن أؤذيك، أجبني، أجبني وحسب». لم أقوَ على تمالك ارتجاف حنكي وقدمي اللتين تثلّجتا، فقذف في

روعي يقول: «في الليلة الممطرة، قبل أسبوع، حدث شيء غريب في ذلك البيت المهجور، الرجل الضخم، الكلب، هل تذكر شيئًا من هذا؟». انسحبت أنفاسي، عاد سعيد يرتفع في مخيلتي ويختفي وراء السحاب، حدثت نفسي: «رأى هذا الرجل ما رأيته». «أجبني لو تكرمت». فقلت: لنفسي: «إنه يعرف شيئًا». فألحّ: «أجبني، لماذا أنت ساكت هكذا؟ أجبني وسأذهب». تشنج لساني وتصلّب فمي مطبقا، فرفع صوته بشكل ينمّ عن قلة صبره: «فهد، تكلم، هل رأيت شيئًا أم لا؟». تذكرت يوم رأيته أول مرة في بيت أم غريب، كان يبحث عني ربما، أو جاء ليخفي أثر ارتفاع سعيد، فهل ترك سعيد آثارًا تدل على ارتفاعه، حاولت أن أسأله هل يقصد الارتفاع أم الأضواء؟ فلم أقدر على النطق.

«لن أذهب من هنا إلا إذا تكلمت» أصرّ. فباغتنا صوت أمي مرتبكا تطلب مني الدخول فورًا. تولّى الرجل الملثم مسرعًا، لمّا رآها، إلى الاتجاه الآخر.

ارتاعت أمي من منظر الرجل الذي يخفي وجهه تمامًا وهو يكلمني. قمت إلى الباب، أتابعه يغيب خلف باص مركون في آخر شارعنا، فجرّتني أمي من كتفي إلى الداخل بسرعة وأغلقت الباب خلفنا.

سألتني، ووجهها شاحب، عما يريده مني. رُبط لساني، كيف أقول لها إنه سألني عمّا حدث في الليلة الممطرة في بيت أم غريب، ستسألني عمّا حدث، فأفتح على نفسي كوة تنهال منها الأسئلة التي لن يصدق إجاباتي عليها أحد. قلت إنه سألني عن بيت ليس بشارعنا. «بل كان يريد أن يخطفك، الملعون، كان يحاول استدراجك» قالت هذا بصوت هلع وذهبت مسرعة تتصل بأبي في مكان عمله. سمعتُها تقول له بصوت مشدود أن يدركنا لأن رجلا ملثمًا كاد يخطفني قبل قليل من أمام الباب لولا أن بعثها الله لتنقذني في اللحظة الأخيرة. أغلقت السماعة وراحت تقول لي أشياء كثيرة. كنت أمامها بجسدي، وبعيداً عنها بوعيي، أفكر بـ: ماذا لو كان الرجل واحدًا من الذين أخذوا سعيداً؟ أسئلته كانت تقيس تصديقي لما حصل تمهيدًا لإخباري عن شيء آخر. أجبتها: «لا، لم يكن يريد اختطافي، أمي ليتك تأخرتِ قليـ..»، فقاطعتني بنبرة غاضبة، تضع

سبابتها أمام أنفها: «اسكت اسكت، ولا كلمة، بل كان سيخطفك، والله»، وأمسكت رأسها تقول: «الحمد لله الذي سلّم، قرصني قلبي، كنتُ في الصالة، فقرصني قلبي وخرجت إلى باب الشارع، الحمد لله الحمد لله»، وأخذت تدعو الله أن يصيب هذا المجرم بالشلل، ويطفئ نور عينيه اللتين تبحثان عن الصغار. وضعتني أمام عينها، وراحت تؤجج الجارات في التلفون بما حدث، فيما كنت أشاهد شاشة التلفاز التي يتحاور فيها رجل وامرأة، وأقلّب الحادث في رأسي، إما أن يكون الرجل الملثم شاهد ما شاهدته ويريدني أن أؤكد له ما حصل، أو.. يالله يالله.. أو أنه نزل.. نزل من السماء.. من عند سعيد. «آه» همست مدركًا أن أمي فوّتت علي فرصة عظيمة، نظرت إليها وهي تصف لأحد الجارات كيف كان قلبها يقرصها، وقلت في نفسي: «إذا كان من السماء فلربما كانت لديه رسالة لي من سعيد .. كيف فاتني.. صوته» جلست على ركبتي أمسك رأسي.. «صوته يشبه الصوت الذي سمعته يوم ارتفع سعيد!».

التسجيل السادس والعشرون

الاعترافات

مضطجعًا على الأريكة، يمسح بيده الأخرى على رأسه:

شُغِل نصفي الذي مع سعيد في ما يريده الرجل، ونصفي الذي مع زهرة بـ: كيف أعترف لها بكل كذباتي؟
أرشد عمي علي أبي إلى الإجراءات اللازمة التي يجب أن أتّبعها لمثل هذه المواقف إرشادًا مكونا من إجراء واحد: منعي من الخروج صباحًا -في الأيام التي أتغيب بها والعطل- وبعد صلاة العشاء في كل الأيام.
لم تفارقني نبرة المطر في صوت الرجل ذلك اليوم، ولا الأيام التي بعده، استعدتها صامتا بعد صلاة العصر في الصالة، وجدتُّ ميلاً في نفسي إلى فكرة أنه من أهل السماء، وأن لديه رسالة لي من سعيد، ربما أراد أن يعطيني شيئا، قطعة تذكارية من المكان الذي يهنأ سعيد فيه.
سمعت أمي تفسّر لصقر أن صمتي الآن وتحديقي في الجدار ليس سوى أنني واقع لحد الآن تحت تأثير الصدمة. وصفتُ له طول الرجل ولثامه والنظارات الحالكة التي كان يضعها، تركتها تصف له قرصة قلبها، ورحت أخمّن -ومنظر ارتفاع سعيد إلى السماء يعاد على الجدار أمامي- أن الرجل الملثم كان تلك الليلة في هيئة سحابة، حاولت تخيل الشكل الحقيقي لهذا الرجل حتى نبهني أذان المغرب إلى موعدي مع زهرة. تركت سعيدة ترتفع على الجدار، وصعدتُ أرتدي ثوبي للخروج، فقد وجدت أفكاري، نتيجة اهتمامي بالرجل الملثم، مرتبة حول

الطريقة التي سأخبر بها زهرة عن كذباتي. رأتني أمي أغلق أزرار ثوبي نازلا من الدرج، فقالت إن علي العودة قبل صلاة العشاء وإلا فستطلب من أبي منعي من الخروج نهائيًا.

ليس إصراري على الاعتراف لها سوى محاولة للحفاظ عليها. سعيد الذي كنت أتحدث أمامه دون الحاجة لأن أفكر بما أقول ذهب، وليس لدي الآن إلّا زهرة، سأحافظ عليها حتى لو اضطررت لأن أخسر كل شيء.

كانت السكة خالية، نقرت الزجاج ففتحت فورًا كما لو كانت تراقبني من البعيد، ابتسمت، وقالت: «كيف حالك اليوم؟».

راحت السكة تزداد ظلامًا، وهي تتحدث عن مباحثاتها مع والدها لاختيار موقع مناسب في أسواق الجليب للمحلّ، وأخبرتني أنها توصلت إلى خلطة، صباح اليوم، تضفي على اللحم طعمًا يجمع بين الملوحة والحلاوة، ستحقق نجاحًا باهرًا في السوق. اقترب وقت صلاة العشاء، فقطعتُ حماستها في الحديث، وقلت إن لدي شيئًا مهمًا أريد أن أخبرها به. تنحنحتُ وقلت: «تعلمين أنني أحبك زهرة، منذ وقعت عيناي عليك أحببتك، منذ يوم القرقيعان، لا أعرف كيف أقول لك ما لدي، لكن أعرف أنك تحبينني أيضًا». صمتُّ التفت إلى السكة وقلت: «حسنا، في بداية تعارفنا، خفت ألّا أعجبك، فقلت لك أشياء عني أحاول أن أكسب بها إعجابك، مثل، مثل أنني في الثانوية، أعلم أنني مخطئ»، وصمتُّ أرى وجهها يتغيّر، ثم تابعت أنظر إلى قدمي: «في الحقيقة أنا في الرابع المتوسط الآن، وعمري خمسة عشر، لكنني سأدخل الثانوية السنة القادمة، وبعدها الجامعة». سكتُّ ثم رفعت رأسي أنظر إلى الخيبة وهي ترخي عضلات وجهها، فيما كانت عيناها تتنقل بين عيني، حتى قالت: «وهل أنت الذي رميت الأولاد بالبندقية؟». نظرت إلى آخر السكة، وقلت أهز رأسي: «ندمت والله، كنت أحاول فقط أن أخيفهم»، وقلدت الشيخ صابر: «الإنسان يخطئ، والذي يعترف بخطئه هو إنسان يحب أن يكون طيباً، وتبت من يومها يا زهرة، وإن الله يقبل التوبة، ويحب الذي يسامح الآخرين». عدت إليها، ارتخت ملامحها

عدا زاوية فمها اليمنى، وسألتني: «و.. وهل أنت أحد الأولاد الذين يدخنون في البيت المهجور؟»، هززت رأسي وقلت: «تركت التدخين، وقررت أن أعتزل هؤلاء الأولاد»، وتلاحقت نفسي: «يا زهرة لو أنني غير صادق معك لما اعترفت لك الآن».

«بعد ماذا؟» قالت ويدها على مقبض إغلاق النافذة: «لو لم يخبرني الولد أمس لما اعترفت».

«لا ورأس أمي وأبي».

«بلى، خفتَ أنني صدّقته».

«نعم خفت، لو لم تكوني غالية عندي لما خفت، أليس كذلك؟».

«حسنا» سحبتْ النافذة لتغلقها: «اذهب الآن».

«أحبّك» قلت وفرجة الشبّاك تضيق ويداي تمسكان بقضبانه: «أحبّك ولن أتركك يا زهرة ما حييت». ولما أتمّت إغلاق النافذة قلت: «سأمرّ من هنا كل يوم بعد صلاة المغرب».

تفرّقتُ من أمام الشباك، واجتمعت عند عمود الإنارة شاعرًا أن أشياء كثيرة مني ظلت متشبثّة بالقضبان.

عدتُ إلى البيت أدفع عن عيني اقتراب الأشياء منها، بالنظر إلى السماء تارة وإلى قدمي تارة أخرى، وكان قلبي يحدثني بأن زهرة تحتاج ليومين أو ثلاثة أيام على الكثير لتسامحني.

تضطرب الشاشة ويعود جالسًا، يصمت برهة ينظر إلى الأعلى مميلا رأسه إلى جهة اليمين، ثم يعود ويكمل:

رشقني أبي ببعض التنبيهات، ونحن نتناول العشاء في الصالة، وأضافت أمي بعضاً منها وهي تصب لي كوب حليب، كلها تدعوني إلى الابتعاد عن الأماكن الخالية وتجنّب الخروج في الأوقات التي تخلو بها الشوارع، والهرب إذا ما اقترب

مني الرجل الملثم، والصراخ عاليًا ليرتبك ويسمعني الناس فيهرعون لنجدتي.
اضطجعت على فراشي وتركت الريح تهبّ في رأسي من ناحية صورة الرجل الملثم وتميل بأفكاري معها.. كيف أجده مرة أخرى أو كيف أجعله يجدني؟ وراحت صورته، في ظلام الغرفة، تبرز وتتّضح، وأحسست بأن صوته، في غياب أصوات المكيفات، يبلل أذني بنبرته السحابية.
أخذ وجه زهرة يطل، ذلك الليل، من وراء وجه الرجل الملثم ويختفي، حتى انزلقت عيناي إلى الرقاد.
تسللت في الصباح من حذر أمي وجريت إلى بيت أم غريب، انتظرتُ هناك برهة دون أن أجد شيئا، وعدتُ أجري، وجدت أمي تستعيد مع إحدى جاراتنا في الصالة سيرة مجرم كان يخطف الصغار من أمام البيوت قبل الغزو بسنوات قليلة. جارتنا تقول إنه قبض عليه وأعدم، وأمي تؤكد أنه كان ضمن عصابة عادت للظهور. عدت إلى بيت أم غريب ثلاث مرات دون أجد أحدًا، وبعد صلاة العصر بحثت هناك مرتين، وكنت أصفه لأختي كأنه مخلوق فضائي أخفى وجهه كي لا أجفل منه، وأخفيت عنهما أنني أبحث عنه الآن. وحينما أذن المغرب ذهبت إلى شباك زهرة، أجهدت نفسي هناك ذهابًا ورجوعًا، وقوفا وجلوسًا، أطحن في رحى ذهني حبوب أفكاري عن الرجل الملثم، حتى أذّن العشاء، فتوقفتُ عند الشباك مترددًا في نقره، فعدلت عن الأمر حين سمعتُ حركة وراءه، قرّبت وجهي ممسكًا القضبان، أتخيلها تسند جانبها الأيمن على الناحية الأخرى من الجدار، تحاول إقناع قلبها المجروح بأن يمنحني باسم الحب فرصة أخيرة. همست: «أنا آسف، زهرة». صمتُّ ثواني ثم رخّمت صوتي وقلت: «لن أقدر على العيش دونك». حشرت جانبي رأسي بين القضبان وسعلتُ لأكسر قلبها بسرعة، ثم رجعت خطوتين، ووقفت دقيقة أو اثنتين أنتظر، قلت لنفسي: «تحتاج إلى يوم آخر لتسامحني»، فعدت إلى البيت.
صادفت أمي تخرج ملابسنا الشتوية من حقائب في المخزن الصغير في بيت الدرج. نادت إحدى أختيّ لتضع لي العشاء، أكلت بضع لقمات، وجلست أتابع

مسلسلا أجنبيًا مضحكًا.

أخذني صقر إلى الطبيب بعدما تقيأت العَشاء، إذ جعلت حرارتي تتلاعب في إيقاد جسدي وإطفائه بغتة ودون مقدمات. وصف لي الطبيب مسكن حرارة ومضادًا حيويًا، وأوصاني بالمشروبات الساخنة فقط، وبالراحة في الفراش.

التسجيل السابع والعشرون

انتصار الهزيمة

مستندًا على وسادته في سريره، ويكتسي وجهه بطبقة رقيقة من الحزن، ينظر إلى الشاشة ثم يحول بصره إلى الكاميرا ويقول:

حدثان رئيسيان وقعا ذلك اليوم..

الأول حدث صباحًا، وهو الشك بما حصل. والثاني حدث قبل صلاة العشاء، وهو ما أخبرتني عنه أمي لما عدتُ بثياب ملوثة بالطين وعلى وجهي أثر صفعة تلقيتها أمام شبّاك زهرة.

صحوت صباح الإثنين نشيطًا، تقلبت في فراشي، أركض وراء زهرة في حقل مليء بزهور ملونة، يرش أحدنا الآخر بمطر من غيمة بيده، أمامنا شجرة عنب تخرج من أثمارها أضواء ملونة. بقيت حتى خرج أبي إلى العمل ومعه أختاي يوصلهما إلى المدرسة. أفطرت وجلست على عتبة الحديقة أسترجع صورة ارتفاع سعيد وأنا أنظر إلى غيوم أتت من جانب السماء الجنوبي. حتى اهتزت الصورة وأخذ شك منكسف يخاتلني من بعيد بحقيقة ما رأيته، هششت عليه باسترجاع المشهد، فلم يهتش. خطف البرق ومضة ثم عاد هزيم الرعد آتيًا من مكان بعيد ودوّى فوقي تمامًا. انجرفت مع سؤال: «إذا لم يصعد سعيد إلى السماء فأين ذهب؟». حدقت بلون الغيوم الرمادية وهي توشّي أطراف السماء بالرمادي الداكن. «سعيد ودّعني قبل أن يصعد، كان يعرف أن هذا سيحصل،

كأنه صعد مرة من قبل، أو كأنه نزل من هناك.. ربما سعيد ليس ابن مرزوق، لم لا يكون من سكان الفضاء؟». تذكرت اهتمامه بالأشياء ورعايته المخلوقات، استوقفتني خفته في تسلق السدرة، وقفزاته الطويلة، هذا دليل على أنه لم يكن من سكان الأرض. رغم البريق الأخّاذ لفكرة أنه جاء من السماء، إلا أنني نفضت رأسي منها، فبريق فكرة أنه إنسان وأنني رأيته يصعد إلى السماء أكثر التماعاً. «سعيد إنسان» تمتمت لنفسي «نعم، هناك أحدٌ جاء من السماء وأخذه إليها، لأن الأرض لم تعد تصلح له».

تأكّدتْ لي أهمية رؤية الرجل الملثم، سيزيدني إيمانا بما حصل، أريد أن أسمع كلمات تؤكد حقيقة رؤيتي، ولأعرف أيضًا إذا ما كانت لديه رسالة من سعيد.

هطل المطر، فطرأت علي فكرة.. لو أنني الرجل الملثم لما وجدت أفضل من هذا الوقت لتسليم صبي رسالة دون أن يراني أحد.

قلت لأمي إن سعدًا ابن جارنا متغيب هذا اليوم، وسأجلس معه في ديوانيتهم. رفضت أول الأمر، ثم ألححت عليها بأن الملل يضيّق الصدر، الفيديو الذي كان يعينني على غضاضة الصباح لم يعد يعمل. وافقت، وهزّت سبابة التهديد تقول إنها ستتصل بأمه لتتأكد أننا لم نخرج من بيتهم.

ركضت إلى بيت أم غريب، تحت المطر، جلست في الغرفة مبلولا، أطل برأسي من باب الغرفة على أرض الحوش وأعود إلى الجدران، أبعد السماء عن عيني لأحجّم شكي الذي أخذ يكبر مع كل نظرة ألقيها على السحب. مكثتُ ساعة أو أكثر قليلا، أفكّر بفرضية أنّ ما رأيته وهم، حتى توقف المطر وسمعت صوت خطوات تقترب، انقبض قلبي، أحسست بأنني أخطأت في القدوم هنا وحدي، فلو أنني جلست أمام عتبة الباب لكان آمنًا. لا أعرف ماذا سيفعله الرجل الملثم بي. راحت الخطوات تقترب وعروقي تزيد خناقها على دمي، حتى انسل بشار مبللا إلى الداخل، بلباس المدرسة، يتبعه عباس. أرخى الإحباط والشعور بزوال الخطر أعصابي. جهّزت: «حان وقت الدواء» لأقولها لهما، أخرجت نفسي من الغرفة، ارتعد بشار لدى رؤيتي، أمسك قلبه وتنهّد يقول: «بسم الله، حسبتك..

حسبتك شرطيًا». سلمّت عليهما، وكان سلام بشار فاتراً، وقد لاحظت جرحًا مندملا على شفته السفلى. «تعال ادخل» قال عباس. ألقيت عليهما: «حان وقت الدواء» وأنا أسير إلى الباب.

استهزأ بشار بي: «لا تخف، يوسف لن يأتي».

«الحمد لله» قلت أردّ على استهزائه «طمأنتني على شفتي».

ضحك عباس وقال: «بالله عليك، أين ستذهب، النهار طويل؟».

أجبته من منتصف الحوش: «إلى البيت، مريض أنا».

فقال بشار بصوت منفعل: «مريض، مريض، المسكين، دعْه يا عباس دعْه».

ما إن وصلت الباب حتى دخل كوكو، سُرّ لرؤيتي، أمسك يدي يجرني إلى الغرفة: «ما صدقنا رأيناك، تعال بس». أخبرته بأن موعد الدواء قد حان، فأقسم علي أن أجلس معهم نصف ساعة فقط، عدت معه إلى الغرفة، جلسنا يحدثونني عن ربع مصدّي، وكيف دخلوا قطعتهم ذلك اليوم، بعد صلاة المغرب، فلم يجدوا إلا ثلاثة منهم، وضربوهم ضربًا أسال الدماء من رؤوسهم وأنوفهم، وبعد ذلك لم تعد المدرسة مكاناً آمناً، فقد استشاط ربع مصدّي غضبًا وتوسعوا في الأذى؛ أخبروني بأن سالمًا النمس متغيب منذ يومين لأن مصدّي ضرب رأسه بحديدة فشقه بخمس غرز. وقال عباس، فيما بشار ينكش الفرشة بأصابعه، إن سوسة صار يعتدي على بشار كل يوم.

كان الشر يتضاعف في كلماتهم، وهم يتحدثون عن الأذى الذي يأتيهم، فقدمت لهم حلّا: «لماذا لا تخبرون إدارة المدرسة ليخلصوكم من هذا العذاب؟». تطّلعوا ببعضهم استغرابًا من: كيف أتفوّه مثل هذا الكلام السفيه! قال بشار وعلى وجهه ابتسامة الاستهجان: «أنت تعرف أننا إذا فعلنا هذا نسقط من أعين الأولاد». وأضاف عابسًا: «ثم لماذا تتحدث كأنك لست واحدًا من ربعنا.. هل أصبحت من ربع مصدّي؟».

«لا» هززت رأسي «أنا زهقت من هذه العراكات التي لا تؤدي إلّا إلى عراكات أخرى، إلى متى ونحن نستمتع بالإيلام، ضرب ضرب ضرب، أين المتعة؟». ضحك كوكو

وعباس، وظل بشار صامتا. مازحني كوكو: «قم قم، أرني أين يصل ثوبك، هل أصبحت مطوعًا؟ الشيخ صابر أثّر بك». فقلت: «لماذا لا تشتكون إلى المخفر وتتركون الشرطة تحميكم؟». انفجر ثلاثتهم بالضحك ينظرون إلى بعض، يحسبون أني أمازحهم. أخرج عباس من رقبة جواربه علبة سجائر ورمى على كل واحد منّا سيجارة. أداروا الولاعة بينهم، ولما رأوني رميت سيجارتي ضحكوا، وقال عباس يقهقه: «لقد صار مطوّعاً».

صمتُّ أنظر إلى أرض الحوش المبلول، أفكر بالشيء الذي فقدته حتى لم أعد أشعر مثلهم بأهمية الشيطنة في إضفاء المتعة. كان بشار يقول عن سر الليل كلامًا لم أنتبه لتفاصيله، عدت إليهم أتطلع بالدخان يخرج من أفواههم، وينكث أمام وجوههم خيوطا تضفي عليهم مسحة شريرة. قلت لنفسي: «لا شك أن رؤية إنسان يصعد إلى السماء تغيّر فيمن يراها كثيرًا». كأنني حصلت بتلك الرؤية عمّا كنت أبحث عنه: المجد والشهرة، مجد لن أخبر عنه أحدًا، يكفي أن أتخيل كيف سينظرون إليّ إذا عرفوا ما رأيته لأصبح رقم واحد في المنطقة. لكن.. كيف سيصدقونه إذا أخبرتهم! أنا نفسي لم أصدق تمامًا على الرغم من أنني رأيت بعيني. تذكرتُ ضحكهم عليّ يوم قلت إني كلّمت سر الليل.. في هذه سأصبح أضحوكة المنطقة بأكملها، همست في داخلي: «أين أنت أيها الرجل الملثم؟». عدت إليهم وبشار يكمل: «.. وسيارته، الزد، ملقاة في مواقف المخفر وإطاراتها الخلفية «مفشوشة»، وخدش كبير على الجانب الأيمن كله والمؤخرة كذلـ...». قمت أقول: «حان موعد الدواء».

صعدت غرفتي وبدلت ملابسي، اضطجعت على فراشي مثقلا بالشك، رحت أدعّم رؤيتي صعود سعيد بكل شيء أستطيعه، فكرت حتى بدأت عيناي تؤلمانني، وذهني يحاول أن يلتقط أنفاسه من الجري وراء الصور وتبريرها. حمدت الله أن أمي رأت الرجل الملثم، وإلا لصدّع الشك صورته أيضًا وعزاه إلى الوهم. عصرت رأسي حتى أذّن الظهر، صليت في المسجد، جمع الشيخ صابر

بنا صلاتي الظهر والعصر. سألتني أمي وأنا آكل الغداء في الصالة لماذا عيناي حمراوان؟ كذبت عليها: «الطبيب قال الدواء يفعل ذلك». رجعت إلى فراشي، اضطجعت على جنبي أبحلق بالخزانة أمامي، أفقد صورة سعيد وأعثر عليها قطعًا متناثرة فأقوم بجمعها حتى تكتمل، ثم يأتي صوتي شاكا رغمًا عني يهشّمها، فأفقدها وأعود أبحث عن قطعها من جديد.

دخل صقر الغرفة وأنا أجمع وأفقد، اضطجع يأخذ قيلولة. أذّن العصر وأنا في وضعية المومياء التي قلّدها فيصل في بيت أم غريب، أستعيد كل ذكرى لي مع سعيد. قام صقر وارتدى ثوبه وخرج دون أن أشعر به، فيما مخيلتي مركزة طاقتها على وجه سعيد الجامد في إحدى ذكرياتنا تحت سدرة حديقة جدته. وبينما كنت أستعيد صوت سعيد وهو يقول: عيب عيب، عيب عليكم، في ذلك اليوم الذي أنقذني فيه من الولد وأخيه اللذين جلداني ورفساني عند سكة جدته، سمعت جلبة من شبّاك غرفتي، كانت صيحات ما قبل العراك، تتطاير أطرافها الحادة في كل مكان. أزحت الستارة والسماء تتفرق غيومها عن أسلاك رفيعة من ضوء الشمس هنا وهناك، فرأيت الرفاق يقفون أمام بيت سعد كوكو في صف واحد، بعضهم يمسك عصياً ملونة والبعض الآخر بيده حجارة، ينظرون باتجاه الشارع الآخر، فتحت فرجة صغيرة في الشبّاك لأستمع، التقطت أذني صوت بشار يقول: «اقرعوا عليه الباب، الجبان يتمارض»، ثم تراجعوا متخلّين عن تماسك صفهم. ضرب حجر مقدمة سيارة بالقرب منهم، فقذف الذين يحملون الحجارة ما بأيديهم بالاتجاه الذي أتى منه الحجر، ثم تقهقروا بسرعة تاركين سعد كوكو وعباسًا والديك صامدين أمام ربع مصدّي الذين أحاطوهم. فبدأ العراك..

.. يعدو يوسف مصدّي وراء الذين هربوا من «ربع الموت» .. يتمكن الذين معه من الإطاحة بسعد كوكو والبقية.. نظرتُ إليهم بعين شخص غيري.. شخص لم يخض معهم في الشوارع.. شخص يمكن أن يكون أي شخص في الدنيا إلا ذاك الولد الذي يحبّ الشر.. الذي ينادونه أبا بارود.. رأيت بشارًا يسقط..

وعباس يمسك بعصا ولد بينما يقترب آخر من خلفه.. عزوز يحاول تخليص رقبته من يد سوسة.. يحبو بشار على الأرض وأسمعه يقول للولد الذي يرفع عصا خلفه بأنه ليس من ربع الموت.. أسمع صوت قرع عصا تشجّ رأس عباس.. يقشعرّ جلدي.. عزوز يعضّ يد سوسة ويتمكن من الهرب.. كوكو يغلق باب بيتهم وراءه.. ولدان يتعاونان على رفس عباس.. يخرج الجيران.. أبو صالح وحسن، وأم بدر المصرية، وبناتها خلفها..

أغلقت الشبّاك.. تركت الستارة تحجبهم.. أحاول ضبط أنفاسي.. ارتميتُ على فراشي، حنكي يصطك.. كيف يمكنهم فعل هذا كله؟

تذكرتُ تلك الأضواء التي لديها قدرة على كنس الأشياء الشريرة من الأرض، وإزالة القتل.. الأطماع.. الحروب.. الخنادق.. الفراق.. طلقات أربعة وعشرين.. الكراهية.. المشاجرات.. سكين بشار..

كيف أجعلهم يرونها لتتعقّم أرواحهم من جراثيم العدوان؟ لو أمكنني ذلك لربما تصبح الأرض مكانا جميلا يجمعني وزهرة دون شبّاك وقضبان، دون أن أكون في حاجة للتخرّج والذهاب إلى الجامعة. سيطرتُ على ارتعاشي وبقيتْ حكة لذيذة في جلدي ساعدتني على التمدّد؛ تمددت أفرغ عيني من صورة الشر التي رأيتها قبل قليل، أسكبها في بحر، بحر أزرق يشبه السماء، حتى لمّني صوت الشيخ صابر يكبر لأذان المغرب. فتحت الشبّاك مجددا، وجدت شارعنا عاديًا.

ارتديت ثوبي ومضيت إلى سكة زهرة، حازمًا أن أخبرها عما حدث لسعيد.. ستكون معي.. أحتاج إلى أن تصدقني مثلما صدقتني ساعة أخبرتها أنني ولد شرير. وسّعت برودة الهواء صدري في الطريق، رحت أنعطف من شارع إلى آخر وأرتب الكلمات.. أولاً التمهيد، ثانياً القصة كأنها حدثت لشخص لا أعرفه، ثالثاً أفاجئها بأني أنا ذلك الولد الذي شاهد ما حدث، رابعًا القسم برأسها الغالي بأنني صادق. تخيلتُ وجهها وهي تصدقني، فتسارعت قدمي إلى السكة، متناسيًا أنها متكدرة مني.

شممت عند بداية السكة رائحة سجائر، اتّسعت عيناي على سوسة ومعه ولد آخر يلتصقان كدبورين على قضبان شبّاك زهرة، وثالث كان مستندًا على جدار البيوت المقابلة يمض سيجارة، وصلني صوتها تزجرهما بأن يبتعدا أو ستنادي والدها، وصوت سوسة يقول جملة في آخرها كلمة: قُبلة. أخذني المنظر إلى باطن الأرض من ثقله على نفسي، فصرختُ أسحب نفسي بأعلى صوتي: «عيب عيب، عيب عليكم». تركتُ ساقيّ تركضان إلى الشباك كما لو أنني ألجأ إلى مكان آمن من خطر محدق. أفلت سوسة القضبان يقول: «سترين ماذا سأفعل به، تعال تعال». حاولت أن أدفعه لكنه انحرف خطوة وتعثرت بقدمه فسقطتُ على التراب المبتلّ. قام الولد الثالث ورفس رأسي، دارت السكة، ثم شعرت ببرودة يد تصفعني، ارتفعت السكة عاليًا وعادت إلى الأرض، وسمعت صراخًا حامضًا بصوت زهرة، تقول: أبي أبي. فهربوا.

جلستُ حتى ثبتت البيوت المحيطة في أماكنها، وتوقف رأسي عن اللف، وقفتُ، زهرة تمسك وجهها وتبكي، خلَتِ السكة، عرجتُ إليها مثل بطل تلقى رصاصة بدلا من حبيبته. قالت: «أنت مجنون، كانوا ثلاثة».

عدت إلى البيت بعد صلاة العشاء بقليل، وقفت أمام أحد أعمدة الإنارة، أحاول أن أزيل طبعة نعال من فوق بطني، ووجدتُ على النور الفضي أن ظهر ثوبي ملوث بالطين أيضًا، لكن رأسي كان رائقا تمامًا. هُزمت أمام زهرة هزيمة لها نتيجة النصر، كلّمتني، هذا هو المهم. وعدتها أنني لن أعود للأولاد في البيت المهجور، وأن أحافظ على دراستي، وألا أقترب من المشكلات مع أحد، وفي النهاية تواعدنا أن يكون لقاؤنا التالي بعد ثلاثة أيام حتى يكفّ الأولاد عن المجيء. قلت لها «أحبك» قبل أن تترك يداي القضبان، فسكتت برهة ثم قالت وهي تغلق الشباك بلطف: «انتبه من الأولاد السيئين في طريقك».

قلت لنفسي إنها تحتاج إلى يومين لتعود وتقول «أحبك».

دخلت البيت فاستقبلتني أمي بعينين هلعتين، فاستبقت سؤالها عن سبب

حالتي:

«كنا نلعب كرة فسقطت في الملعب، سعد أسقطني متعمدًا، زعلت علي..»

قاطعتني بصوت مضطرب:

«أين.. أين كنت، الشرطة، يريدونك في المخفر، الشرطة، ماذا فعلت، قل لي ماذا فعلت؟».

التسجيل الثامن والعشرون

بعد التحقيق

الكاميرا قريبة من وجهه، يتلمظ، ينظر إلى وجهه مليًا، يقلص حاجبيه قليلاً ثم يفردهما، ويتركهما بعد ذلك على طبيعتهما، يتحدث:

سألني أبي أثناء عودتنا من المخفر، وأنا صامت أفكر بجونكر، عن سبب بكائي في التحقيق، فقلت له إن نبرة الرجل المدني الغاضبة أرعبتني.
صمت طوال الطريق، أشاهد منطقتنا من النافذة تجري إلى الوراء كنهر. واطمأنت أمي أنه تحقيق ليس لي فيه شأن. لكنها وضعت يدها على فمها لما أخبرها أبي باختفاء سعيد، وقلت لها بسرعة: «حسبته عند أمه». فنظرت إلى أبي وقالت: «وهل أخبرتموهم عن الرجل الملثم، ربما خطفه، الملعون». قلت لها وأنا أصعد إلى غرفتي: «سعيد ضخم وليس طفلاً ليخطفه رجل ملثم».

ينشق، يبتلع ريقه، يزمّ شفتيه ثلاث ثوان، وحاجباه تعتريهما انقباضات هادئة، تنفرج شفتاه:

مر الوقت سريعًا وأنا أتجاذب الحديث مع نفسي، حتى سمعت لأول مرة نبرة صوتي تتحول إلى النبرة الحكيمة لصوت الدكتور آمون في مسلسل جريندايزر. كنت أقول بصوتي العادي محاولا إقناع نفسي بضرورة قول الحقيقة حتى

لو لم يصدقني أحد، فخرج صوت الدكتور آمون يرد عليّ بأن قول الحقيقة سيدينني، فمن سيصدق أن فتى ارتفع إلى السماء تتبعه كلبة ولم يره إلا أنا! ذكّرني كيف ضحك مني الرفاق يوم أخبرتهم أنني كلمت سر الليل: «ليس كل شيء يقال» ختمتُ بنبرتي الحكيمة.
نادتني أمي للعشاء، فتركتُ سعيدًا معلقا قبل السحابة، على الجدار، ونزلت. تعشيتُ، وعدت أكمل صعود سعيد حتى اختفى، ونمت.

يمسك عن الكلام، يلتفت يمينا، يلتقط شيئًا، يمسح أنفه
بمنديل، يتابع فيما يده ما زالت عند أنفه:

في الصباح أفطرتُ وأوصلني أبي إلى المدرسة، نزلت أمام الباب ومشيت إلى الداخل مع بعض الأولاد الذين كانوا يبدون نائمين لحد الآن.

شيء ما تبدل في الجدران، في الممرات، في المنظر العام للطابور الصباحي، شيء لا أعلم ما هو، لكنني متأكد أنه لم يكن كذلك قبل أن أرى سعيدًا يرتفع إلى السماء. قضيت الحصة الأولى أحاول أن أتابع شرح المعلم، وأبعد عن عيني قدمي سعيد وهما في طريقهما إلى السماء. سُرّ عباس لدى رؤيتي، ولاحظت في الدقائق الخمس التي بين الحصة الأولى والثانية أن فيصل المومياء يطالعني بعينين تبحثان عن فرجة للاستعداء، تركتُه وتحدثت مع عباس، وهو متكئ على طاولتي، عن أقواله في التحقيق، وعرفت منه في الفرصة أن بشارًا متغيب، ولم يعد يلتزم بالحضور منذ ترصّد له أولاد ربع مصدّي بعدما قال في الحمامات إنه سيطعن يوسف في مؤخرته.
كان الأولاد ينظرون إلى عيني مباشرة دون أن تكون في أعينهم نظرة الإذعان التي كنتُ أراها في نهاية العام الفائت وفي بداية المدرسة هذا العام. أراحني هذا التصرف، وأعطاني شعورًا بأنه يمكنني أن أكون قريبًا من الجميع. أفسحت لهم

الطريق في الممرات، وسمحتُ لمن أتصادف معه أمام الأبواب بأن يدخل قبلي، وعلى وجهي ابتسامة لم أرَ من يرد عليها بمثلها. مر الوقت في المدرسة عاديًا، خرجت ومضيت إلى البيت أتحدث مع من أجده في طريقي من أبناء شوارعنا عن خبر سعيد الذي انتشر ليلا على نطاق قطعتنا.

تنزل يده، وينشق، يصمت مبحلقا وراء الشاشة، يهز رأسه
بروية، ثم يتابع:

اصطخب شارعنا، ليس بأحداث اختفاء سعيد فقط، بل مما وجدته الشرطة مدفونا في بيت أم غريب عصر الأربعاء. إذ عثروا -أثناء بحثهم عن أثر لسعيد- على خمس جثث مدفونة تحت تربة الحوش التي كنا نمرّ عليها كل يوم دون أن نشعر أن ثمة قتلى تحتها، تركتْ رائحة كريهة ليوم كامل في الشارع. تذكرت ما قصّه عليّ سعيد في حديقة جدته، وسمعت صوتي الحكيم يقول: «وقد كذّبتُ سعيدًا حينها واستهزأت به».

قضيت صباحَي الخميس والجمعة أتردد بين عتبة بابنا وحديقة جدة سعيد، أنتظر قدوم الرجل الملثم. بتُّ بحاجة ماسة للتأكيد على حقيقة ما رأيته، لأنه كما قال لي عادل بعد ذلك:

«تظل الأشياء غير حقيقية، حتى يصبح لديها أسماء وكلمات تصفها».

كنت أحتاج إلى أحد يقول لي كلمات تصف صعود سعيد، ويسمي لي الذي رأيته، وليس هناك غير الملثم الذي نزل من هناك.

لم تجد الشرطة أثرًا لسعيد، وهذا ما أضفى أبعادًا غامضة على الحادثة. سمعت الأسباب تتقافز، من أفواه النساء في مجلس أمي ضحى الخميس، كالأرانب الهاربة، وأنا صاعد إلى غرفتي، فوقفت أصيخ السمع عند آخر عتبات الدرج. قلن أشياء كثيرة، منها أن سيارة دهسته وأخفى صاحبها جثته بالبر.. قلن إنه تعثر بلغم، في خندق ما، وانفجر به مفتتا لحمه إلى قطع صغيرة.. قلن

إن أمه أتت وأخذته بعد أن وصلها خبر موت الجدة التي كانت ترفض أن يذهب هو وأخوه إليها، وربما هو عندها الآن في بيت أهلها؛ واستعدن قصصاً عن سوء تعامل الجدة مع الجيران مؤكدات أن من لا يسلم منه الجار لا يسلم منه أحد. ودافعت أمي عن قرصة قلبها بأن الرجل الملثم ذاك وراء اختفاء سعيد.

وفي العصر أجلس وراء «الوجار» في ديوانيتنا، أستمع إلى آخر الأخبار التي يُسأل عنها أبي لأنه ابن عم رئيس المخفر، ولم يكن أبي يجيب بغير: لا جديد. تجاذب الرجال احتمالات اختفاء سعيد، أغربها كان من أحد الجيران عندما قال: «ربما قتله مرعي ليستولي على بيت العجوز، كان يسعى لذلك من قبل، وإلا لماذا أصر على أن يضع الأخوين في المصحات، أليس من أجل أن يكون البيت ورثًا له وحده؟». واستعادوا أجزاء من سيرة مرعي لمّا كان يبيع قماشاً للنساء في السوق، وأنه اقتيد أكثر من مرة للمخفر بسبب تحرشه بزبونة.

فردّ عليه رجل يهمّ بالوقوف: «مرعي رجل طيب، لم يحدث منه أذى».

مرّ يوم السبت عاديًا في المدرسة، أفسحت للأولاد الطريق في السلالم، وسمحت لآخرين بتجاوزي في طوابير الكافتيريا، تحدثت مع اثنين من أبناء صفي عن نهاية فيلم رامبو. لعبنا كرة قدم في حصة الرياضة، سجلت فيها هدفين. رأيت سوسة يخنقني بنظرة شزرة من أمام باب صفه، وفي الصف لاحظت أن فيصل المومياء ينكسر عندما تقع عيني عليه، ويتظاهر بأنه لا يراني. وفي النهاية عدت إلى البيت أتحدث مع الآخرين عن آخر الأخبار حول اختفاء سعيد. وكانوا يقولون نفس الكلام الذي سمعتُه في مجلس أبي وأمي، وحالما وصلت إلى البيت وجدت سيارة عمي علي أمام بيتنا، وكانت سيارة أبي مركونة تحت شجرة الصفصاف.

كان الاستياء باديًا على وجهيهما لمّا دخلت من باب الديوانية، قبّلت رأسيهما، فطلبا مني الجلوس، شعرت بأن هذا يتعلق بموضوع اختفاء سعيد. قال أبي إن هناك ولدًا اسمه فيصل ذكر في التحقيق يوم أمس أنه رآني أتهجّم على سعيد بسكين أريد شقّ بطنه، ولولا أنه منعني لكنت فعلت هذا. استرجعتُ

وجه المومياء اليوم في المدرسة، فأقسمتُ لهما إنني كنت أمثّل أمامه، وإنّ هذا كان اتفاقا بيني وبين بشار حتى يخاف فيصل منّا. ارتفع صوت أبي غاضبًا: «مثلما مثّلت مع ذاك الولد في المدرسة»، قال عمي يمسح جبينه: «يا ولدي إذا كنتَ فعلتَ به شيئًا سيئًا فأخبرني الآن، قد أنقذك من الإعدام». ارتجّت الديوانية تحتي.. إعدام!.. نظرت إلى وجه أبي الصامت، أفكّر كيف أقول ما حدث، سيظنان بسهولة أنني فعلت بسعيد شيئًا سيئًا كما قال عمي. لمّا رآني صامتا قال عمي لأبي: «أحضر الخيزرانة يا أبا صقر، سأجلده إلى أن يعترف». خرج أبي، فقال عمي حين صرنا وحدنا: «ماذا فعل سعيد حتى تقتله؟». توقف دمي عن الجريان.. قتل..: «أقسم بالله العظيم لم أفعل به شيئا». «الخيزرانة ستجعلك تقر». ثم تركني أرتجف حتى عاد أبي من الداخل حاسر الرأس ومعه الخيزرانة، جلد بها الهواء فأوشكت أن أقول الحقيقة لولا أن قال عمي: «لا داعي يا أبا صقر، يبدو أنه لا يعرف شيئًا». تركاني وخرجا إلى الحديقة، أتتني أمي وأخذتني إلى الداخل. رأيت أبي عند باب سيارة عمي يحدّثه ويحرك يده تجاه شارعنا، طلبتُ أمي أن أفعل ما يقولانه لي، لأن فيه مصلحتي.

يصمت ثلاث ثوان، تتنقل عيناه على شيء أمامه كأنه
يحاول ترتيب أفكاره ثم يستأنف:

أوقف أبي سيارته عصرًا في مواقف المخفر، ونزلنا، وجدت بشارًا جالسًا مع أبيه، تبادل آباؤنا الأحاديث عن مجريات التحقيق، فيما كان بشار معلقا عينيه على الجدار قبالته، دخل مع أبيه قبلنا، وبعد نصف ساعة خرجا ودخلت مع أبي. كان عمي مشغولا بتوقيع أوراق، يقف بجانبه الضابط الذي ضربني في الساحة، على كتفه نجمة، نحيف، اسمه عادل، له وجه عصفور مرهق، ومن زاوية عينه اليمنى تسيل ندبة مثل قطرة ماء إلى منتصف صدغه، لم أكن قد رأيته في التحقيق السابق.

قرأ المحقق السمين أمامنا شهادة فيصل «المومياء» في تحقيق يوم الثلاثاء، بأنني تهجّمت على سعيد بالسكين لأشقّ بطنه، ثم أخرج سكين بشار من الدرج، لوّح بها وهو يقرأ شهادة بشار بأن السكين له وأخذتها أنا منه، وأنه وجدها بعد ذلك مرمية في حوش أم غريب قرب المكان الذي وجدوا فيه فردة النعل. قلت إنني كنت أمثّل وحسب، بكيتُ، أضفتُ أنه كان بيني وبين بشار اتفاق على هذا لنخوّف الأولاد منّا، وأنني رميت السكين في الحوش لأنني خفت أن يدفعني الشيطان لأفعل بها شيئًا سيئا. عنّفني المحقق بقوة، طلب أن أعترف فورًا أين أخفيت جثة سعيد، ومن ساعدني على إخفائها، لأن لديه دليلا دامغًا، لن يكشفه إلا في المحكمة، على أنني قتلتُ سعيدًا ودفنته. هُلعت، وتدفق بكائي، تدخّل الملازم عادل يمدّ سبابته محذرًا المحقق من الكذب والتلاعب أثناء الاستجواب. توجّه لأبي يقول إنه لا يوجد دليل ولا يحزنون. هدّأهما عمي، وطلب إجراء بصمات لي، لمعرفة ما إذا كان عليّ سوابق لم تعرف لحد الآن.

كنت سأقول الحقيقة لولا أن نبرة الحكيم داخلي قالت بصوت جهوري: «ستُدين نفسك، أنت تعرف أن أحدًا لن يصدقك» فأطبقت فمي على بكاء مكتوم.

تعقّد الموضوع أكثر، حين قال عمي لأبي إنه مضطر للتحفظ عليّ في النظارة، وغدًا سيأخذني بنفسه إلى الأدلة الجنائية لإجراء البصمات، إجراء إلزامي لكل مشتبه به، وازداد بكائي لمّا رأيت وجه أبي يتقلص. كانت تلك أول مرة أراه مستاء إلى هذا الحد. وضع الملازم عادل يده على صدره وقال لأبي إنني أمانة عنده. خمّنت أنه يريد أن يتملّق عمي، ثم أخذني إلى النظارة يقول ممازحاً إن السجن للرجال. توقف قبل الاستقبال، حيث كان شرطيان يدخنان، تطلع في عينيّ وقال: «أنت بريء، هل تفهم، هذا البدين لن يهزمك، أليس كذلك؟ أعدك أنك لن تمكث هنا أكثر من ثلاثة أيام، أعدك، وسأكون معك، طوال هذه الأيام». ربّت على كتفي وتابع، فيما كانت عيناه تقلّبان ملامح وجهي:

«أنت ولد قوي، وذكي، وطيب، ستكون ضيفاً عزيزاً علينا، الآن ستدخل النظارة، هي مكان ليس نظيفا لكن لا تبالِ، في الليل سأخرجك منها وسأرتّب لك مكانا في مكتبي تنام فيه، السجن للرجال.. ابتسم الآن». لم أستطع الابتسام، كيف أنام خارج البيت، وفي نظارة؟ تخيلت وجه أمي يبكي، وراح قلبها يقرصني. تمنّيت حينها، وهو يأمر الشرطي بأن يفتح النظارة، أن للدنيا زر تقديم، فأضغط عليه لأسرّع مرور هذا الموقف.

دخلت مكانا رطبًا، له منظر نية خبيثة تجسّدت في شكل غرفة قبل أن تجد إرادة شريرة تقوم بها. قضبان حديدية تحكم إغلاق جهة كاملة، جدران مطلية بلون رمادي، كتب عليها بأقلام مختلفة عبارات ترثي الحياة، وتشكو من الظلم، وتلقي باللائمة على الحظ السيئ، في إحدى زواياه تراكمت الأغطية فوق بعضها.

فتحرك من تحت الأغطية شيء ما، فإذا برأس فتى يعدّل نظارته الطبّية المقعّرة وينظر إلي. قال لي الملازم عادل: «بالتأكيد أنت تعرف الزد الذهبي الذي عليه بيت شِعر، ذاك الذي يستعرض دائماً بسيارته في مواقف المدرسة الابتدائية، تسمّونه سر الليل»، ونظر إلى الفتى وتابع: «الذي كان يظن أن أحدًا لن يستطيع الإمساك به، هذا هو أمامك». أُغلِقت النظارة، ذهب الملازم عادل.

كان سر الليل فتى عاديًا جدًا، اسمه «تركي»، عادياً لدرجة أنني لم أنتبه له حين سألني، عن السبب الذي جاء بي إلى النظارة. جلس بجانبي وأعاد السؤال، عندها انتبهت أن صوتا ما يخرج من أنف أحدهم بجانبي ويسألني. كانت ملامحه تصلح لوجه من يريد الاعتذار. لا تلائم كل ذلك الصيت الذي نفخ الصبية اسمه فيه؛ ربما لهذا السبب ظلل سيارته. نظرت إلى السقف وأجبته بأنني متّهم بجريمة قتل، انزاح عني مبتعدا واسترادني: «وهل قتلت؟». نظرت إليه وقلت: «لا»، فقام إلى القضبان واشرأبّ يتأكد من عدم وجود أحد، ثم عاد يقول بصوت خافت: «أريد نصحك، احذر من هذا الضابط، إنه كذاب ومخادع، رأيتُه كيف أدخلك هنا، سيعاملك معاملة جيدة حتى يأخذ اعترافك

ويرميك في السجن مثلي». عاد إلى الباب وأدار رأسه ثم رجع يهمس: «الملعون، اتّهمني بأنني أروّج مخدرات، وأنا والله لا أعرف شكل المخدرات كيف يكون»، عدّل نظارته وتابع: «احذر احذر منه».

ألقى أبي عليّ نظرة أبكتني، قال عمي إنه أوصى الشرطة بي، وإن الملازم عادل بنفسه سيهتمّ بكافة أموري، تركوني وذهبوا. جلست أسمع أحاديث الشرطة، من غرفة قريبة، وأفكّر ببيتنا وفراشي.

تركتِ القضبان أثرها في عيني عندما غفوت، رأيت حلمًا لا أتذكره، كان العالم فيه محبوسًا وراء أعمدة فولاذية، صحوت على صوت الملازم عادل يخبرني بأنه أحضر وجبة من مطعم الأرنب الجائع، كان يرتدي ملابس رياضة، أخذني إلى مكتبه، حيث كانت ساعة الحائط تشير إلى السابعة ليلا، مكتبه عادي، طاولة وكرسي أمامه كرسيان بينهما طاولة شاي، وقرب الباب كانت أريكة ثلاثية المقاعد.

أكلت الشيس كله ولم أستطع إكمال الهمبورغر. سألني عن الدراسة وعن المدرسة ومتاعبها، أجبته باقتضاب ونظري ممدّد على الأرض، هدّأني يقول إن هذه إجراءات روتينية، وإنني غدًا سأذهب مع عمي لإجراء البصمات، وستخرج النتيجة بعد غد ثم أذهب إلى البيت. افتعل ضحكة حين سألته ماذا تعني كلمة روتينية؟ كان وجهه يشبه وجه دايسكي في مسلسل جريندايزر، لكنه دايسكي حزين وله شارب رفيع، لاحظت أنه يتظاهر بأنه يعاني من شيء ما. سألني عن آخر مرة رأيت بها سعيد جونكر، وأقسم إن الموضوع سيكون سرًا، ولن يعرفه أحد غيرنا. قلت له بنبرتي الحكيمة: «آخر مرة كانت قبل يومين من اختفائه».

«في أي يوم اختفى تحديدًا؟»

«يوم الجمعة».

فحاول اصطيادي: «وما أدراك أنه اختفى في ذلك اليوم بالذات؟».

أخبرته بالذي جرى ذلك اليوم، وأنني لم أجده، فسألني عن مكاني ذلك اليوم، قلت إنني كنت في البيت.

«ألم تخرج بعد أن عدت من البحث عنه؟».

«لا».

«أبوك قال إنك خرجت في وقت متأخر ليلة السبت، وعدت مبللا».

ارتجف حنكي، وتلاحقتُ أتأتئ: «كذ كنت أأمام الباب، أدخن أدخن».

ثم سألني عدّة أسئلة عن سعيد، مَنْ أهله، كم عدد إخوته، ما مستواه التعليمي؟ أجبته باقتضاب، حتى قال في النهاية: «حسنا، سأتركك تنام على هذه الأريكة إذا أردت». قلت إنني أريد النوم في النظارة، فأعادني وهو يبتسم، وهناك وجدت سر الليل يشخر في الزاوية، حمدت الله الذي أرسله ليحذّرني من هذا الضابط الخبيث، لو لم يخبرني عنه لكنت انسقت وراء أسلوبه اللطيف وأخبرته ما حصل ولأخذ القصة ضدي. راح الملازم عادل بعد ذلك يحفّني برعايته طيلة اليومين اللذين مكثتهما في المخفر، يشعرني في حديثه معي بأنني شخص مهمّ، ويبث علي أسئلته الخبيثة بين ساعة وساعة. أخذني في الدورية عصر اليوم التالي، لأوسع صدري من ضيق الجدران كما يقول. لفّ بي شوارع الفردوس العامة، ولما عدنا اشترى لي وجبة من مطعم الأرنب الجائع.

أطلق سراح سر الليل بعد أن أكلت الوجبة، وقبل أن يخرج سمعته يقول للملازم عادل جملة في بدايتها كلمة «الظلم» ثم تذبذب صوته إلى أن اتّسق ضاغطا على كلمة «القادمة». أخذني الملازم عادل إلى مكتبه، سألني عن أبناء شارعنا، وعن الأشياء التي أحبّها، وبعدها رمى حبائل أسئلته عن طبيعة علاقتي بسعيد، يريدني أن أقر، لكن صوتي الحكيم وقف له بالمرصاد يذكرني: «الحذر الحذر»، أستحضر في بالي ذلك اليوم الذي لوى فيه أذني أمام الأولاد وركلني. راح وجهه يزداد إجهادًا فيما كنت أتحدث عن سعيد، كأنه يحتمل صبرًا لا يطيقه في معاملته لي دون أن تكون هناك نتيجة. وحين أطلقوا سراحي عصر الإثنين، وجدته واقفا عند باب المخفر بملابس رياضة. سلّم على أبي مُظهرًا ملامح الطيبة، ومسح رأسي يوصيني: «أنا هنا دائمًا، إذا احتجت إلى أي شيء فتعال».

نظرت إليه من خلف زجاج سيارة أبي يلوح لي بالوداع بوجه صياد يتحسر على نفاد ذخيرته أمام صيد دسم. حمدت الله -وأبي يقول لي كلامًا عن ضرورة الابتعاد عن المشكلات- أنني أفلتُّ من ملمسه الناعم.

التسجيل التاسع والعشرون

قاتل سعيد

أمام عتبة باب الشارع، يسقط عليه ضوء أصفر من عمود الإنارة، تلتمع على جبينه حبات عرق، من خلفه باب بيتهم، بني اللون، مزيّن بقضبان طلاؤها ذهبي:

ضمّتني أمي عند الباب، وتسابق بيتنا إلى إظهار الفرح بخروجي، جلسنا في الصالة. أحضرت أختي لي المفاجأة التي أخبرتني عنها حين دخلت، وضعت الفيديو أمامي وقالت إنها صاحبة الفكرة، فهي من طلب من صقر أن يذهب به إلى الورشة. قال صقر، وأمي تناولني صحن عنب، إن الخلل كان بسيطًا، بدّلوا عدسة العرض بدقائق، وأصبح أفضل مما كان عليه. تحدثت عن النظارة، لون الجدران، الغداء، العشاء، وأنا أمضغ حبات العنب، وأخبرتهم عن اهتمام الملازم عادل بي، فحمدت أمي الله وقالت إن هذا بسبب دعائها في الليل. وبعد ذلك نهتني عن حمل السكاكين أو الذهاب إلى ذلك البيت المهجور الذي وجدوا فيه جثث ناس معذبين. استمررنا نتحدث حتى أوقفنا أذان المغرب فقمت أستحمّ، وبدلت ملابسي وخرجت إلى زهرة، مداريًا جسدي بجاكيت قديم عن أولى نفثات البرد.

يمسح جبينه بكمّه، ويميل رأسه إلى كتفه حتى يتلامسا ليمسح العرق عن فوديه:

نقرت زجاج الشباك، ففتحته زهرة. نسيت، وأنا أشاهد وجهها يبتسم، أنه يوجد مكان في العالم اسمه مخفر فيه غرفة اسمها نظارة ولقضبان بابها الحديدية أثر سيء في النفس. كانت تعلم بشأن الجثث التي وجدوها في أحد البيوت في قطعتنا، وسمعتْ عن اختفاء فتى يُعتقَد بأنه لقي حتفه. تركتُها تتحدث عن الأخبار التي سمعتها من أبيها ومن بنات الجيران، ولمّا انتهت أخبرتُها بأن الفتى الذي اختفى هو سعيد، أمسكتْ فمها وأخذ جفناها يرتعشان من الخبر، وتابعتُ سرد الأحداث مخفيًا علاقتي بما حدث، وختمتُ بأنني سمعتهم يقولون إن أمه أخذته ليعيش معها في منطقة بعيدة عنا. هدأت وحمدت الله، ثم شبكت يديها قرب صدرها وقالت وهي تقفز فرحًا إن أباها اقتنع بفكرة محل عطارة. باركت لها الخبر، وانطلقتْ تخبرني عن خطتها لتوسعة المحل. أبقيت كلمة «أحبك» تتقلب على طرف لساني، لم يكن الجو ملائمًا لخروجها، تركتها تتحدث حتى أفرغت ما لديها، ثم تواعدنا غدًا في نفس الوقت، عدت سريعًا إلى البيت أردد على نفسي عند كل منعطف أنني أحبها.

لقيت أمي في الصالة تُحدّث إحدى الجارات في التلفون أنهم حكموا لي بالبراءة.

ذهبت بالفيديو إلى الديوانية، وشغلت مسلسل جريندايزر، وسرعان ما استعادت الأشياء، مع أغنية البداية، براءتها. زال الشر من الحياة.. سعيد الآن يلعب في السماء.. عليّ الآن الاهتمام بترتيب نفسي على هذه الأرض.. الأيام القادمة ستكون كلها لزهرة..

أغلقت الفيديو عازمًا على النهوض مبكرًا، فلدي الكثير لأقوله للأولاد في المدرسة، عن سر الليل، اسمه وشكله، سأقلد صوته، وسيضحكون. سأصبح صبيًا عاديًا، سأكوّن أصدقاء عاديين.

لكن..

يتوقف عن الكلام، ثم يهز رأسه وتتباعد زاويتا فمه بذلك النوع من الابتسامات التي نواجه بها مكائد الحياة:

هنالك شيء في الحياة يمنعنا من التصرف كما يحلو لنا، نظام يأخذ ما نريده بالاتجاه المعاكس، ويعطينا الأشياء التي لا نرغب بها، نظام يقول لنا إننا لا نملك من أمرنا إلا أن نقف، في كل مرة نرى الأشياء تجري خلافا لما نريد؛ كما وقفت في ساحة المدرسة في اليوم التالي.. ونتنهّد؛ كما تنهدت وأنا أشاهد الطلاب يتولون من أمامي.. ونهمس؛ كما همست حينها: عيب عيب، عيب عليكم.

كان يوم ثلاثاء منكمشًا، يشبه وجه عباس لمّا قال لي في الفرصة ما بثّه بشار طيلة اليومين في الحمامات.

دخلت المدرسة صباحًا أريد أن أكون عاديًا بشّدة. فعلت كل الأشياء التي رأيت أن الولد العادي يفعلها.. مشيت بجانب الحائط طوال ممر الإدارة.. توقفت أمام السلالم حتى يصعد قبلي ولد كان يقلب بين يديه دفترًا.. سلمت قبل أن أدخل صفي.. وضعت كتبي على طاولتي بهدوء، ثم فركت يدي من البرد متّجهاً إلى اثنين من أولاد صفي كانا يتبادلان الحديث، وقلت لأحدهما أفتح معهما مجالا:

«أريدك أن تكون معي بالهجوم في حصة الرياضة، سرعتك تعجبني».

اضطربَ، وتلعثم الولد قبل أن يقول إنه متعب اليوم، فقلت للآخر:

«هل تريد أن تأخذ مكانه؟ أعدك بتمريرات سهلة»

اختلّ توازن لسانه، فنطق بكلمات متعثّرة بأنه لا يحب كرة القدم.

جلستُ على الكرسي بجانبهما، أحاول زجّ نفسي معهما بحديث عن اقتراب موعد الاختبارات، فقاما يقول أحدهما إن الاختبارات الأسبوع القادم، ثم ذهبا إلى الساحة الخارجية. عدت إلى طاولتي مبررًا تصرفهما بأن لديهما شأنا خاصًا لا يريدان إطلاعي عليه. (تسطع على وجهه أنوار سيارة فتنقبض أجفانه، وحاجباه) أديت في الطابور الصباحي ما يطلبه مدرس الرياضة بأمانة تامة، وعدت مع أبناء صفي نسير في صفين متلازمين. دخل عباس متأخرًا، ابتسم لدى رؤيتي ثم صرف وجهه إلى السبورة. كان انتباهي لشرح المدرس صافياً لا يشوبه أي شرود. ركزت عليه بالرغم من ملاحظتي لبعض الرؤوس تلتفت

عليّ من الطاولات التي أمامي والتي على جانبي، ولما رنّ جرس نهاية الحصة، أتى عباس وسلّمنا على بعضنا. (تذهب أنوار السيارة ويسمع صوتها تمر أمامه) تحمّد لي على السلامة، وتحدثنا بصوت خافت عمّا انتهى إليه التحقيق معي، وحين رنّ جرس بداية الحصة الثانية، رأيت فيصل المومياء يرمي وجهه بعيدًا ما إن وقعت عليه يراقبني. قلت لنفسي سأسلم عليه في الفرصة ونفتح صفحة جديدة، فهكذا يفعل الولد العادي. وحينما بدأت الفرصة كنت قد حضّرت جملة أبدأ بها معه الحوار، لكنه ترك مكانه سريعًا وغادر. انزعجت، قلت ربما خشي أن يناله أذى مني بعدما عرفت أنه وشى بي في التحقيق. خرجت مع عباس إلى الكافتيريا؛ وفي الطابور الأفعواني أمام نافذة البيع، كلما وقفت وراء ولد ترك مكانه وذهب إلى الطابور الآخر. تطلّعت بعباس، فمطّ شفتيه بالاستغراب. وصلنا إلى نافذة البيع بسرعة. اشترينا وانطلقنا إلى الزاوية. أخلى لنا ولدان المكان، وجلسنا نأكل. راح عباس يحدثني عن الجثث التي أخرجوها من تحت الحوش، ممتعضاً من أننا كنا نمشي فوقهم دون أن نعرف. تركته يصف الرائحة ورحت أفكر في الرجل الملثم الذي رأيته ينبش الأرض في الحوش، هل كان يعلم أن هنالك جثثاً؟ هل يستشعر وجود موتى؟ قد تكون لديه حاسة تسترجع اللحظات التي حدثت، ربما بكاؤه الذي توهمته، هو حقيقة، فهل رأى عذابات الجنود وطريقة قتلهم؟

قمنا إلى ممر الحمامات، رأيت في الطريق الأولاد يتجنبون النظر إلى عيني مباشرة، تذكرت أيام «أبو بارود»، حين كان يعجبني منهم هذا الانكسار والإصرار على إظهار الخضوع؛ رأيت في انكسارهم هذا، وأنا أميل مع عباس إلى الممر، أمرًا يخالف التوجه العادي الذي أريد لنفسي أن تسلكه. رفضت دخول الحمامات، قلت إنني تركت التدخين. وقفت في الممر، أتطلع في الأولاد الذين يمرون بجانبي دون أن ينظر إليّ أحدهم، وريش الاستغراب ينتفش في داخلي ريبة؛ خمّنت أن أحدًا صقل قصة البندقية من صدأ النسيان، حتى عاد بريقها من جديد.

أملت أن تذهب هذه الرهبة سريعًا منهم وأعود أفسح لهم الطريق وأسمح لهم بتجاوزي في الطابور. خرج عباس بعد قليل تفوح منه رائحة سجائر، أخبرني بأن بشارًا يدخن في الداخل، وقفنا آخر الممر ننتظره، جزمت، وهو يحدثني عن حجم سمكة اصطادها يوم الجمعة الفائت، بأن هنالك شيئا مريبًا في ابتعاد الأولاد من حولنا. قاطعت وصفه لطعم تلك السمكة، وأخبرته عما أراه منهم، فامتقع وجهه، ودار يمينا ويسارًا، أوجست منه ريبةً هو الآخر، ما دفعني لأن أقترب منه وأسأله عمّا يجري! مطّ شفتيه، وخطف خطفة من الهواء ساحباً سبّابته تحت أنفه، ثم انكمش وجهه يخبرني أن بشاراً في الفرصة الأولى من يوم الأحد، أشاع في الحمامات أنني قتلت سعيدًا لأنه قال كلامًا لم يحترمني فيه، ووصف لهم كيف طعنت بطنه في بيت أم غريب، ثم نحرته، وبعد ذلك أخفيت جثته مع أحد أبناء عمي في البر. وصف الدم الذي رآه على السكين حين وجدها مدفونة في ذلك البيت المهجور، وقال إن الشرطة عثرت على السكين وعلى نصلها دم سعيد وبصماتي على المقبض، لكن رئيس المخفر ،ابن عم أبي، أخفى كل الأدلة التي تدينني، وبرّأني من التهمة. واسترجع أمامهم يوم كدت أشق بطن سوسة، وحادثة البندقية في الساحة؛ يستدل بهما أنني اعتمدت أيضًا على عمي في إغلاق القضايا التي رفعها أهل الأولاد الذين اشتكوا عليّ، دون أن يطالني القانون، ثم أخبرهم بأنني كنت قد أسررت له عن خطتي لاستدراج يوسف مصدي وقتله، ولولا أن جونكر اعترضني ذلك اليوم لكنت قطعت أوصال مصدّي ودفنته، وقال أيضًا إنني وضعت الخطة اللازمة لقتل سوسة في الصيف القادم، لأنه تجرأ وأتى إلى شبّاك البنت التي تدخلني إلى غرفتها كل ليلة. في نهاية يوم الإثنين كان الخبر قد انتشر في المدرسة مثل لهب في أوراق جافة بعدما تأكد لدى الجميع أنني محتجز في المخفر، فهرع فيصل المومياء يطلب من عباس أن يقول لي إنه على استعداد لتغيير أقواله، بعدما بلغه من أحد الأولاد الذين كانوا يدخنون في الحمامات مع بشار أنني أقسمت أن أفقأ عينه وسأفعل..

يعطس ثلاث عطسات متتالية، يحكّ أنفه، ويعاود حديثه:

أولج البردُ نصلَه في عظامي، تركت الممر وذهبت أبحث عن الشمس يتبعني عباس يحاول تهدئتي. بدأت رؤيتي تتضح، شاهدت بعض الأولاد يعودون من حيث أتوا بخطى سريعة عند رؤيتي، التصق بعضهم بالجدار وأنا أمر من جانبه، أربكني شعور أنهم يخافون مني. وقفت في ساحة المدرسة الداخلية أرى بعضهم يتركونها وعلى وجوههم مسحة خوف ورجاء. استدرت، رأيت البعض ينظر إليّ من خلف سياج ممرات الطابق الثاني التي تدور حول الساحة، وسرعان ما أخفوا رؤوسهم عني إلى داخل الصفوف، أمسكت جبيني، تنهدتُ أقول: عيب عيب، عيب عليكم.
رضّ مزيج شعورَي الأسف والخوف الجدران على عيني، فقلت لعباس أحاول إزاحة زوايا الأشياء من أمامي: «لم أقتل سعيدًا، في الحقيقة رأيتُه يرتفع إلى السماء». تغيّر شكل عينيه، تابعتُ موجهًا نظري إلى السماء: «كان هناك أضواء في ذلك اليوم، نزلتْ من بين السحاب..»، فقاطعنا بشار يمد يده ليسلم علي: «الحمد لله على السلامة»، لم أصافحه، فقال ويدُه ممدودة: «ألا تريد أن تسلم علي؟»، فقلت وحنكي يهتز: «ما هذا الذي قلته عني؟ أنا طعنت سعيداً ونحرته، وسكينك عليها دم، وعمي أخفى الأدلة، ألا تستحي من الكذب؟». دفعته من رقبته أريد المشاجرة، فأمسكني عباس. قال بشار: «فهد أنت تعلم معزّتك عندي، والله إني قلت هذا لمصلحتك، ماذا تريدني أن أفعل، يوسف قال إنه سيضربك بالساطور، فهل تريدني أن أقف مكتوف اليدين؟». فقلت وأنا أحاول سحب يدي من عباس: «كذّاب، قلت هذا لتخوّفهم مني فتسلم أنت».

أطل مجموعة من الأولاد بنصف رؤوسهم من وراء زاوية جدار، ما إن رأوني ألتفت إليهم حتى اختفوا.

قال عباس: «الآن تصالحا، هيا مدّ يدك يا بشار» فمدّ بشار يده، سحبت يدي من عباس وتركتهما ومضيت إلى الفصل.

توسعت لي الممرات.. أخليث من أجلي السلالم.. ابتعد ثلاثة أولاد كانوا واقفين أمام باب الفصل، صمت الفصل فور دخولي، جلست على طاولتي أحاول أن أمسك نفسي عن البكاء، منتبهاً لخروج الأولاد من الفصل واحداً تلو الآخر حتى أصبح خالياً كما لو دخله وباء.. أنظر إلى السبورة وهي تتماوج، حتى انتهت الفرصة؛ فتهافت الأولاد على الفصل، وظل بعضهم واقفاً في الخارج حتى أتى المدرس. لاحظت تغيب المومياء، أخبرني عباس بعد جرس انتهاء الحصة الثالثة أنه رآه يسير باتجاه سور المدرسة الخلفي بصحبة سوسة وثلاثة من أولاد ربع مصدّي.
طوال ذلك اليوم، كنت أشعر أن في حلقي دبابيس.

يتوقف المشهد، ثم يعود إلى غرفته، جالسًا على الأريكة، تكسو وجهه طبقة حزن رقيقة، ينظر إلى الشاشة ثم يحوّل بصره إلى الكاميرا ويقول:

لم يأخذ سواد الليل كفايته من سكة زهرة عندما وقفت أمامها، لاحظت بسرعة أن على وجهي غِلالة من مشاعر سيئة، سألتْني عنها، أجبتُها بأنني مريض بسبب خروجي اليوم صباحًا دون ملابس ثقيلة، وصمتُّ أقول لها في نفسي -فيما كانت تصف المحل الذي ذهبت إليه مع أبيها صباحًا ليستأجره- بأنني أرغب في البكاء لكنني أخشى أنني إذا فعلتُ فلن أسكت أبدًا حتى يعود سعيد إلى الأرض ويراه الناس ينزل من السماء، أو أعيش معها داخل غرفتها إلى الأبد.
كانت تتحدث متحمّسة عن المحلات التي بجانبه؛ لا يوجد بينها محل عطارة، هم الوحيدون فقط. ألقت نظرة على أمها وعادت بصوتها، الذي كنت أحاول

فيه ربط الأشياء في داخلي عن التفكك، تصف الواجهتين الزجاجيين اللتين ستصفُّ عليهما أكياس خلطات الأعشاب وعبوات البهارات، واسم المحل: «زهرة للعطارة» قالته تمسك يديها بحماس: «ما رأيك بالاسم؟». باعدت بين زاويتي فمي مبتسمًا، وأجبت: «روعة».

أذّن العشاء وهي مستمرة في حديثها عن طموحها في التوسع، إذا نجح المشروع، وفتح محل آخر في أسواق الجهراء لتنافس محلات العطارة هناك، حتى توقفت عند سماعنا نداء الإقامة، وقالت تضحك: «أسرفت في الحديث، أخبرني الآن، كيف كان يومك؟». هجم علي شعور بالضيق، فتحدثت عن حصة الرياضة بالمدرسة اليوم، محاولاً فرد وجهي، قلت لها إنني وجدت اثنين من أبناء صفي ينتظرانني في الفصل قبل الطابور الصباحي يريدان أن يكونا من فريقي، قلت لهما سأفكر، وفي الفرصة ذهبت إلى الكافتيريا مع خمسة منهم، سمحت لثلاثة أولاد بتجاوزي لأنهم كانوا مرضى، تحدثت مع الأولاد عن فيلم شاهدته أمس على التلفزيون، ثم جاءت حصة الرياضة، وما إن قلت: من يريد أن يكون في فريقي؟ حتى تدافع الجميع في وجهي، اخترت من رأيته يصلح، لعبنا مباراة حماسية، وكنت أهرب منهم بعد كل هدف أسجله كي لا يتعلقوا في رقبتي، سجلت ثلاثة أهداف، ومررتُ تمريرتين سجل بهما ولد اسمه فيصل هدفين. وبعد المباراة وعدت ثلاثة أولاد بأن يكونوا مع فريقي في الحصة القادمة. رفعت كتفي وأخفضته وقلت مبتسماً: «كان هذا يومي».

صمتنا نتطلّع ببعض حتى قالت:

«ما الفيلم الذي كنتم تتحدثون عنه في الفرصة؟»، بحثت عن اسم فيلم غير رامبو، حتى طرأت علي فكرة، ابتلعتُ ريقي، وقلت: «فيلم شاهدته ليلة أمس، ونمتُ قبل أن ينتهي، عن ولد، ولد رأى صديقه يصعد إلى السماء، كانت تجذبه، تجذبه أضواء ملوّنة أتت من سحابة، لم يخبر الولد أحدًا لأنه، لأنه يعرف أن ما رآه لا يمكن أن يصدّقه فيه أحد، بعد ذلك اتُّهم الولد، اتّهموه بأنه قتل صديقه وأخفاه، فخاف الأولاد منه، حتى أصبح وحيدًا، في المدرسة، وحين أتت حصة

الرياضة، لم يكن أحد يرغب بأن يكون في فريقه»، تنحنحتُ وأدرت رأسي إلى نهاية السكة كي أبعد البكاء الذي خاتلني، ومشهد جلوسي وحيدًا خارج الملعب اليوم يستطيل في داخلي، وتابعت: «وكانت لديه حبيبة، و.. ونمت، نمت حين كان يقول لها ما حدث لصديقه»، أعدتُ وجهي لها وأضفت: «كنت أسألهم عما حدث بعدها، أريد أن أعرف هل صدَّقَتْه أم لا».

سألتني عن اسم الفيلم، قلت: «أظن اسمه: ليلة المطر».

«على القناة الثانية؟» سألت.

أجبتها: «أم بي سي».

«خسارة، فاتني، هل أخبروك ماذا حدث بعدها؟».

«للأسف، ثلاثة فقط شاهدوه، كلهم ناموا مثلي قبل النهاية، الفيلم عرض في ساعة متأخرة، وكان طويلا فعلا، لكن..»، استندت على الجدار وسألتها: «ماذا تعتقدين، هل صدَّقَتْه؟».

«إذا كانت تحبه وتثق به» هزت رأسها «بالتأكيد ستصدقه».

خفقتْ بقلبي ذبالة شمعة بـ: ربما ستصدقني زهرة. كنا ننظر إلى عيني بعض، شجعتني ابتسامتها التي تنم عن مزاج هانئ، فقلت: «وإذا قلت لك إنني أنا ذلك الولد؟». ضحكتْ: «الذي ارتفع إلى السماء؟».

«لا، الولد التي قال إنه شاهد صديقه يرتفع إلى السماء».

لم يتغير صفاء وجهها، فتابعتُ: «لنقل.. لنقل إنه حدث لي هذا، هل ستصدقينني إذا قلت لك إنني رأيت صديقي يرتفع إلى السماء؟». أمالت رأسها تقول: «بالتأكيد سأصدقك، فأنا..» التفتت إلى أمها وعادت تكمل: «فأنا أحبك، و.. وأثق بك».

لم أتمالك نفسي، كنت كعود متيبس أمام مياه تدفقت من سد انهار فجأة، التصقت بالجدار وقبضتي تشتد على القضبان، قلت: «رأيت..»، فتعثر لساني لما باغتني صوتي الحكيم يقول: «ستخسرها، صدّقني ستخسرها» ثم تابعت: «رأيت.. رأيت.. آه.. هذا في التلفزيون.. رأيته»، فضحكتْ، وانطفأت شمعة في صدري.

التسجيل الثلاثون

العزلة

على سريره، بالكاد تبين ملامح وجهه من الظلام، وصوته
يبدو فاترًا:

تغير العالم سريعاً بمرور الشهر الثاني من اختفاء سعيد، قمتُ أتحاشى جميع الأصدقاء بعد المدرسة، سعد كوكو أكثرهم، إذ لم يتوقف عن طرق بابنا، ولم تكف أمي تجيبه بأن بطني يمغصني.

تمر أربع عشرة ثانية من الصمت، وجهه لا يتحرك، ثم
ينشق أنفه ويقول:

لم تعد المدرسة مكانا مريحًا لي، ولولا رؤية زهرة كل يوم لما وجدت في نفسي طاقة على احتمال الحصص الضاغطة على أضلاعي. بتّ أشعر بأنني مريض يخشى الطلاب التقاط العدوى منه. استمر بشار يلوح بعلاقتي معه أمام الأولاد حتى يؤمّن يومه المدرسي من النكبات، مثابرًا على إثبات أنني أمتلك قلبًا يستمتع بإيلام الآخرين؛ وافترى أنني أسررت له بنيّتي أخذ ولد، لم أقل له اسمه، إلى المكان الذي أخذت سعيداً إليه، وما تظاهري بالطيبة والمسالمة هذه الأيام إلا كي أبعد الشبهات عني. وصار يبتعد عني كلما مررت بطريقه حتى لا تفلتَ مني كلمة تبيّن حقيقة علاقتي المقطوعة معه؛ وأصبح فيصل المومياء يلازمه أينما ذهب، كي يضمن سلامة عينه.

حدث وواجهت بعضًا من أولاد ربع مصدّي خلال مروري في الممرات مع عباس وفي الكافتيريا، كان الرعب من منظري -الذي كان يجسد العملية الشاقة التي أبذلها في احتمال المدرسة- يحملهم على التراجع أو التظاهر بأنهم لم ينتبهوا لي وتأجيل الكافتيريا حتى أخرج. وأذكر أنني دخلت أحد الحمامات مرة ووجدت سوسة جالسًا يدخّن ومعه ولد لا أعرفه، ما إن رآني أبحلق فيه حتى وقف يلتصق بالجدار، وقد تحوّل وجهه من شدّة الرعب إلى مادة لزجة، وتوسّل برائحة فم خبيثة: «أقسم بقبر جدي لن أدخل تلك السكة ما حييت»، فتركته ودخلت أتبول.

يُسمَع صوت تثاؤبه، ثم يتابع بحس مرتخٍ:

قال لي عباس إنه كلما قال للأولاد، في الحمامات، إن بشارًا يكذب يزداد شكّهم بأنه يحاول استدراجهم لي.
الناس لديهم استعداد غريب لتصديق حدوث الشر وعدم الاكتراث لأخبار الخير؛ الأوهام التي يفرضها الإحساس بالخطر من الشر أكثر تأثيرًا من التي تتركها الرغبة بالانتفاع من الخير، حيث يكون التصديق إجراء وقائيًا تستدعيه الغريزة لتجنب الضرر المحتمل.
لم يعد لي صديق في المدرسة غير عباس، وفي الأيام التي يتغيّب بها، تلتفّ الممرات حول رقبتي ولا أجد متنفسًا منها إلا بتسوّر المدرسة والذهاب إلى حديقة جدة سعيد، وهناك أجلس تحت ظل السدرة، ملتفًا في جاكيتي، أتأمل العصافير تتقافز بين الأغصان، قبل أن تأوي إلى الأعشاش، ثم تطير إلى السماء، إلى أن يؤذّن الظهر، فأسحب قدمي إلى زاوية المدرسة، وأنتظر موعد الخروج.

يأتي صوت تنفُّسه عميقًا من أنفه، ثم تستفيق نبرة صوته وتدفأ:

وصارت زهرة في حياتي مثل نقطة ضوء بعيدة في نفق مظلم.

قمت أسلك طريقا إلى بيتها غير المعتاد، حتى لا أواجه أحدًا من الرفاق؛ وإذا حدث وصادفت أحدهم قادمًا من بعيد، أعود من حيث أتيت وأسلك طريقا أطول، أو أختبئ وراء سيارة -إذا أمكن- حتى يمر، وأكمل طريقي. لا أريد أن أكلم أحداً منهم. صوتي الحكيم يقول لي إنهم وراء كل ما حصل بشكل أو بآخر، فلو أنهم لم يتركوا الكرة، ولم يأتوا المشكلات رغبة في إذكاء الشر فيهم، لما صارت الأشياء مدببة لدي، ولمَا صار الطريق طويلا إلى شبّاك زهرة.

وهناك، أمام وجهها الرائق، تمسّد روائح البهارات أنفاسي؛ فتقف زهرة تفرد خططها لتوسعة محل العطارة، فيرتفع حماسي أيضًا لأن أدير المحل يومًا إلى جانبها. حينها فقط تقل الزوايا في العالم وتنبسط أسارير الحياة في عيني.

صرت أقدحها كل مرة بسؤال عن المحل، وأحرص أن يكون مختلفا عن سؤال اليوم السابق: ماذا سيكون لون اسمك في اللوحة؟.. كم عدد الأدراج في المنتصف؟.. متى سيفتح في الصباح؟ فتشتعل أحاديثها وتنصبّ الحرارة منها، فتمدّ، وترفع، وتنزل، وتقصي، وتتأتى بالأشياء وتذهب بها، وعيناها تومضان؛ تتحدث عن أسرار البهارات التي لا يعرفها أحد غيرها في السوق، وخلطاتها التي ستستولي على ذائقة الزبائن بسرعة، حتى تصمت مكتفية وتسألني: «كيف كان يومك؟»، فتأتي أحاديثي مبتورة وخالية من الكلمات التي كنت أنتقيها من قبل للدلالة على نبوغي، ثم تودعني بـ«أحبك» فأودعها بـ«أحبك» ليصير الطريق إلى بيتنا مليئا بالمكائد.

يأخذ نفسا عميقا ويتنهد تنهيدة طويلة في آخرها تأوه
ويقول:

بدأت الأشياء تتفكك، ببطء، وتتهاوى تدريجيًا عن أماكنها الصحيحة، قبل رمضان بأسابيع قليلة، في ليلة قالت فيها زهرة - بعدما أرتني فاتورة مطحنة

كهربائية ستكون في المحل - بأنها من الغد ستكون مشغولة مع أبيها في مثل هذا الوقت لتجهيز المحل حتى رمضان، وستكون لقاءاتنا فقط يوم الجمعة قبل الصلاة. تلك اللحظة شعرت، وجفناي يوشكان أن يتمزقا، كم أعوّل عليها في إبقائي متماسكًا. سألتني ما بك؟ أغمضت عينيّ ثم فتحتهما أهز رأسي:

«لا أقدر»

ضحكتْ تقول: «لا تقدر على ماذا؟».

«على أسبوع دون أن أراك». أخرجت يدها ومسحت شعري:

«لن أتركك، فقط أسابيع حتى رمضان، مضطرة والله».

حاولتُ تغيير الموضوع وسألتني عن يومي، فخرج كلامي مفككا عن المدرسة. سكتُّ بسرعة وأخذتْ تقود الحديث إلى الأفلام، تابعتُ إيماءات يديها ترتفع وتنخفض، أتخيل أنها تقول لي اذهب ولا تعد مرة أخرى؛ كيف سأحتمل المدرسة؟ كيف سأقدر على الكلام؟ التفتُّ على آخر السكة لأشتت الأفكار السوداء التي غمرتني، كان من الصعب عليّ أن أعتقد بأن الحياة شيء وزهرة شيء آخر. فودّعتني، على أن نلتقي قبل صلاة الجمعة بعد خمسة أيام. شهقت: «خمسة!». فقالت بنبرة معتذرة: «أبي لا يعرف شيئا عن هذه الصنعة، سيفسد الأمر إذا تركته يديره وحده». صمتّ أقاوم انطباق صفَّي بيوت السكة على جسدي. أخرجت يدها مجددًا وخللت أصابعها شعري: «ستنقضي بسرعة صدقني»، وتركتني عرضة لنكبات الدنيا التي تتحينني دونها.

تركت الشبّاك وسرت أتصور نفسي قطرة ندى تتزحلق على زجاج نافذة خلفها شجرة يابسة.

«آه» تنهدتُ أنظر إلى ظلي وهو يدكن قرب عمود إنارة، ثم يشفّ ويطول إلى أن ينقسم إلى اثنين قرب عمود إنارة آخر يرمقني عند المنعطف، ثم يدكن. نظرت إلى السماء السوداء فوق شوارعنا، كانت قريبة جدًا تلك الليلة، خلت أنني لو رفعت يدي فوق سطح بيتنا لربما استطعت لمسها ثم همست: «إذا ذهبت زهرة عني لا أريد البقاء في الأرض».

يرتخي حسه:

حدثني صوتي الحكيم، في طريق البيت، بنبرة غير مقنعة أن انشغالها سيكون مؤقتا كما قالت، وأنني في رمضان سأراها كل ليلة ولفترات طويلة. انبرت لي روائح الطبخ من شبابيك المطابخ المطلة على الشوارع، فيما خمسة أيام ثقيلة تجر في خاطري ركام بيوت مدمّرة. تدحرجت نداءات الأمهات، وأصوات ضحك الصغار، الخارجة من البيوت لتقول لي إن كل شيء سيكون على ما يرام. «لو أن الحياة فيديو» قلت لنفسي ومثلثا زر التقديم يشيران في رأسي إلى اتجاه اليمين.. تأملت فكرة الفيديو؛ لو أنني أستطيع إعادة حياتي، لرجعت إلى اليوم الذي صعد فيه سعيد، لأقول له إنني رأيتك تصعد، فلا أحد سيصدقني سوى سعيد؛ سأنظر إلى وجهه الجامد، وربما كان سيلين قليلا من تحت زاويتَي فمه. حاولت تقليد صوته: «صادق أنت صادق، أنت فهد، صادق».

يتنحنح، ويتوقف عن الكلام قليلا، يملأ صدره هواء، ثم
يعود بصوت فاتر:

وقبل أن أدخل البيت سمعت: «تعال تعال» تهتف علي بصوت كوكو فيما كان يصوب خطواته الحافية باتجاهي من أمام باب بيتهم. أشحت بيدي أقول: «ليس لي مزاج للكلام».
«خلاص، نجلس دقيقة فقط» قال يمسك يدي، وقادني إلى الرصيف: «قل لي ماذا جرى لك، أمك تتعذر لك دائمًا، لماذا تتهرب مني، ماذا حصل، هل أخطأت عليك؟». جلس وبقيت واقفا، قلت: «لا أنا فقط.. في بطني بلاء لم أجد له دواء».
«وهل بطنك يوجعك معنا فقط؟ أعلم أنك تذهب إلى زهرة كل ليلة، هل تأكل من أعشابها؟» ضحك، وظللت صامتا. استدرك بوجه جاد: «أفيك شيء؟ أنا

صديقك، وتعلم معزتك عندي». مرّت علينا سيارة أضواؤها ساطعة، فقلت لنفسي بصوتي العادي، وأنا أصد أضواء السيارة عن عيني: «سعد صديقي، يعرفني جيدًا، وسيصدقني». فقلت:

«أقسمْ إنك لن تقول لأحد ما سأخبرك به».

كتب على يده «الله» ووضع يده الأخرى عليها وأقسم: «أقسم بالله إنني لن أخبر أحدًا».

جلست بجانبه، وحكيت له ما رأيت في بيت أم غريب، وصفتُ له الأصوات النفاثة، وألوان الأضواء التي هبطت علينا، وماذا قال لي سعيد قبل ارتفاعه، وشكل قدميه وهو يصعد، وكيف ارتفعت سعيدة بعده، ثم صوته المودع. بحت بما يجول في خاطري بأن سعيدًا كان يعلم أن هذا سيحدث، وربما كان في مكان ما في السماء قبل الغزو، فنزل مع أخيه لفترة معينة فقط، لأمر عجزت عن معرفته، ثم لما انتهت الفترة عاد مرة أخرى.

لم يصدقني سعد، كدت أرفع صوت ألمي أمامه. ووصف ما قلته بأنه مشهد في رسوم متحركة. فقمت وتركته بعد أن بدأ شعور الخذلان يرعش حنكي.

ناداني بأن أتريّث فقلت قبل أن أطأ حديقتنا وسبابتي مسددة على عينه:

«اسمعني كوكو، اسمع، لا تكلمني ولا أكلمك بعد اليوم».

حاولت إبقاء كلامه خارج البيت دون جدوى، وجدت أمي في الصالة تشرب قهوة، وأختيَّ تتابعان مسلسلا مصريًا كان أحدهم يبكي فيه أمام ضابط شرطة. ظلت كلمات كوكو تدور في صوان ذهني. أخذت الفيديو إلى الديوانية لأتخلص منها، تابعت حلقتين من مسلسل مغامرات الفضاء، أدفع اتفاق كلام كوكو مع شكي بحقيقة ما جرى. فكرت، فيما كان الغزاة في الشاشة يلتفّون حول جريندايزر «لعل الذي حدث وهم». أطاحوا جريندايزر أرضًا وراح رأس دايسكي ينزف دمًا. «لكن ما دخل سعيد حتى يكون هو الذي اختارته الأوهام». صُعِق الوحش جريندايزر بتيار كهربائي. «لو حدث هذا لغير سعيد مثلا فهل سأصدّق

أو أكذب؟» اختفت الشاشة، واستمر مشهد صعود سعيد يسطع عليها.

علا صوت أغنية البداية الحماسي، أخذت الشاشة تعود، فإذا بجريندايزر يَقسم الوحش نصفين، هتفت:

«الرجل الملثم، نعم الرجل الملثم».

في الأيام الخمسة التالية أصبح الفيديو ملجأ أهرب إليه من رعونة صوتي العادي الذي صار يطالبني بإعادة التفكير بما حدث، أخفف فيه من متابعتي لمرور الوقت للقاء زهرة، مضطجعًا على قفاي أمام التلفاز، من بعد المدرسة إلى العصر، ثم أتعهد الرجال في ديوانية أبي، حتى صلاة المغرب، فأعود أدسّ الشريط وراء الشريط، أخاطب أناسًا غير موجودين:

«انظروا كيف ستدور الكرة الآن من ركلة رياض».. «انتبهوا إلى الزاوية».. «حسناً جريندايزر».. «يوجد شيء غريب هل لاحظتموه؟».. «الغزاة سيندمون على هذا بعد قليل».

يُسمَع صوت اهتزاز في السرير، تتوشى الشاشة بدرجات من اللون الأسود، يتشكل سواد يمثل ملامح وجهه بدرجة أكبر من بقية السواد المحيط:

تركت الأشياء في المدرسة تحدث أمامي كيفما تريد، دون أن أتدخل في تقويم ما مال منها وما اعترض، خمسة أيام مرت بعشوائية.

قبل صلاة الجمعة، ذهبت إلى شباك زهرة، كدت أبكي لمّا رأيتها متألقة، لكنني ابتسمت عوضاً عن ذلك، لا أريد أن يكدّر لقاءنا شيء. قالت: «ألم أقل لك، ستمر الأيام الخمسة بسرعة؟»، وراحت تحدثني عن إنجازاتها واختياراتها التي وفرت على والدها المال والجهد، ورحت أستمع إليها وعيناي تأتيان بأفضل ما لديهما من نظر، دون أن أقاطعها، حتى بدأ المسجد القريب يخطب، فرفعتْ صوتها تكمل وصف الأرفف الخشبية التي صممتها، وشكل العبوات وأحجامها،

وتغلّبها على الباعة في مفاصلاتها في الأسعار. تحدثت حتى أقيمت الصلاة، فقالت: «أخبرني كيف قضيت الأيام الخمسة؟». ومضت بذاكرتي الأيام الخمسة على شكل ومضات: مسيري اليومي في ممرات المدرسة.. جلوسي أمام التلفاز.. تهرّب عباس مني عند جرس الفُرَصْ.. جلوسي خارج الملعب في حصة الرياضة.. طعم العنب اللاذع.. بيت أم غريب صباح أمس.. سهم زر التشغيل في الفيديو.

فقلت وسورة الفاتحة تنتشر، من مكبرات المسجد، في الجو:

«قضيتها أنتظرك».

التسجيل الحادي والثلاثون

التخلي

عليه ملابسه الداخلية البيضاء، في سريره، وأثر شفيف
للنوم يجعد زوايا عينيه بلطف، وشعر رأسه مبلل:

أمي تقول إن الدواء إذا لم يؤخذ في فترات متقاربة يقوى المرض؛ فما كان من لقاءات زهرة المتباعدة إلا أن ضاعفت إحساسي بضرورة أن تلمّني، وكذلك زادت صدع الشك في يقيني ممّا رأيته يحدث لسعيد؛ لذلك وجدت نفسي من دونها مثل طائر يتخبط في السماء وتلاحقه من بعيد طلقات عيار أربعة وعشرين.
أصبح صوتي الحكيم يحدثني أن الرجل الملثم هو السبيل الوحيد لإسكات أسئلة صوتي العادي المتكررة عن حقيقة ما رأيت.

يسكت، تهتز الشاشة فيما يعتدل في جلسته، ثم ترتكز
الكاميرا على وجهه ويكمل:

صار عباس يخرج قبلي في الفرصة مع المومياء إلى صف بشار ويذهبون ثلاثتهم إلى الكافتيريا ثم إلى الحمامات. عذرته، قلت ربما ملّ من العزلة التي وضعتُه بها، لم نعد نتحدث إلا بين الحصص أو إذا تصادفنا في الطريق إلى بيوتنا. بقيت وحدي أجوب الممرات والساحة الداخلية والخارجية، أشاهد الأولاد يكوِّنُون ثنائيات وثلاثيات، وجماعات أكبر، يمرحون هنا ويركضون هناك. أسير بجانب

الحائط حتى لا يصدمني أحدهم فتصيبني عيناه المذعورتان بالذعر فأضطر لأن أقول له: هوِّنْ عليك، فلن أقتلك.

يقوم من السرير تتحرك الأشياء في الشاشة، الخزانة،
الشباك، المكيف، ثم تهتز فتثبت على أعلى أرفف الكتب،
وبعد برهة تنزل ويطل وجهه على الأريكة:

ذهبت صباح يوم الخميس إلى بيت جدة سعيد، بعد أسبوعين التقيت زهرة فيهما بجمعتين سريعتي الانقضاء، مدفوعاً بتفكيري القسري في الرسالة التي أراد سعيد بعثها لي، جلست في حديقتهم أنتظر الرجل الملثم يأتيني برسالة. أشعلت نارًا صغيرة، في طرف الحديقة، أزيح بها البرد الذي أخذ يقرص جلدي. وسرعان ما أخذتني ألسنة النار، إلى التفكير بالمجريات التي وقعت سريعاً آخر أسبوعين، تلك التي جعلتني أُكْرِه نفسي على الذهاب إلى المدرسة؛ فقد تدرجتُ فيها بإحاطة نفسي بقضبان فولاذية، إلى أن أصبحت وحيدًا على نحو خانق، أنظر إلى الأولاد من مكان بعيد، ومن هذا المكان أمكنني فهمهم بما كان يتناسب مع قدرتي على الفهم، رأيت أنهم مجرد مخلوقات تتحدى بعضها فقط لأجل التحدي، فلا داعي لأن أعجب بتصرفاتهم التي يريدون بها إظهار تفوقهم على الغير. كنت مثلهم في أحد الأيام، أضع نفسي رهنًا لما يريد الآخرون أن يكونوا عليه.
حركت أطراف النار بعود، طرأ عليّ هتافهم ورائي: أنا.. أنا.. أنا.. شاهدت على العيدان المحترقة، جلوسي القرفصاء في حصص الرياضة، خارج الملعب، معتذرًا للمدرّس بأن معي مغصًا ولا أحتمل التعب؛ كي لا أرى أحدًا لا يريد أن يكون في فريقي.
ذهبت بذهني إلى المكان الذي تحتله زهرة بذاكرتي، أتذكر برد يوم الجمعة الفائت أمام شباكها، حين قالت إن المحل لا يترك لها فرصة الالتفات لأي شيء آخر.

«أنا لست أي شيء» همست ودفعت عوداً تدحرج إلى داخل النار، «زهرة تحبني، أنا أهم عندها من المحل».

أخرجت ذراعَيّ من ذراعَي جاكيتي وتركته معلقاً على كتفي. أضفت المزيد من الأعواد للنار، ونظرت إلى بيت أم غريب من وراء الدخان، فتذكرت جموع الأولاد الذين كنت أسعد بهم.

انتظرت حتى فقدت الأمل بنزول الملثم. أطفأت النار بدلو من صنبور الماء، ثم رميت الجمر خارج سور الحديقة -كما فعل سعيد ذات مرة حين انتهينا من شوي الحمام- وعدت إلى البيت.

استلقيت أمام الفيديو حتى أتى الليل، تمددت على فراشي أشاهد على السقف سعيدًا وسعيدة يلعبان بجانب صورة زهرة.

وفي ضحى الغد، قالت زهرة إن التجهيزات لا تريد أن تنتهي، تشير إلى أن لقاءاتنا ستكون مرة واحدة كل أسبوع؛ فكلما اشترت غرضًا اكتشفت أنها تحتاج إلى غرضين آخرين. وعددت ما أنجزته الأسبوع الفائت، حتى بدت لي من فرط حماسها الذي عجزت عن مجاراته، أنّ لقائي معها أصبح أقل أهمية من ابتكار خلطة جديدة، وأنها ربما لن تتأثر إذا لم نتقابل لأسبوعين.

يبدّل الجهاز إلى اليد الأخرى:

كان أسبوعًا مشحونًا بالأحداث، ذلك الأسبوع الأخير قبل رمضان، تركزت كلها حول علاقتي ببشار.

وما سيحدث بعدها من تداعيات هي بسبب ما جرى في ذلك الأسبوع.

بدأ بيوم سبت مريض، شعرت فيه أن المدرسة تكتّني فيه مثل صدر يوشك على السعال. مر الوقت أكثر ثقلا وكثافة منه في الأيام العادية، قضيته أشاهد السأم ينمو على الجدران، ويتسلق السبورة ويتمدد على وجوه المدرسين والطلاب،

حتى رن جرس الخروج، فخرجت بين جموع الأولاد أحاول كالعادة أن أتحاشى أكتافهم المندفعة. قبل باب الخروج رأيت بشارًا ينظر إليّ والكرب يجمع طرفَي جبينه، تظاهرت أنني أنظر إلى البعيد، وحين خرجت وجدته يمشي بجانبي دون أن يكلمني، تجاهلته، وبعد خطوات، عند المواقف، رأيت عينين عرفتهما من فوهة البندقية التي ما زال يفوح منها دخان البارود. كان يوسف مصدي ومعه مجموعة أولاد ينظرون إلينا. جاءنا عباس يهرول حتى سار بجانبي، عبرناهم بصمت حتى ابتعدنا عنهم وانعطفنا إلى قطعتنا، حالما دخلنا القطعة تنفّس بشار يقول: «أرأيت يا فهد، أرأيت النتيجة، هزمتهم بنظرة من عينك، وأنت تخاصمني لأنني خوفتهم منك؟». صمتُّ أتابع النظر أمامي، فأضاف مستهجناً: «هه.. لا تريد أن تكلمني حتى بعد أن رأيت بعينك». سألت عباسًا عن جدول الامتحانات لأُسمِع بشارًا أنني أتجاهله عمدًا، فقاطع إجابة عباس حانقاً: «أنت لست كفؤًا للجميل الذي قدمتُه لك»، وأخرج سيجارة من جيبه. اختلّ توازنٌ ما في نفسي، تركت الموجة الحارة تستحوذ على تدفّق دمي، كان حقدي عليه قد تفسّخ وصارت له رائحة كريهة، فقررت التخلص منها، رميت كتبي وأمسكت شعر ناصيته بيد، وتواليت على وجهه بالأخرى لكماً أصرخ: «شوّهتني يا ابن الكلب.. وتقول جميل هاه!»، دفعني، وسقط فوقي، فأخذت رأسه إلى بطني واستمررت ألكم جانب رأسه، وقام يلكم جانبي، وعباس يحاول أن يفصلنا عن بعض، حتى دفعته عني بعدما عضّ بطني. حملت كتبي، وقلت: «أقسم بالله لأخبرنّ الإدارة عمّا تقوله عني يا وسخ». كانت أذناه حمراوين، فقال: «انقلع، أبا أذاني المجنون».

مشيت إلى البيت أمسك مكان عضته. تغديت، وأخذت صحن عنب إلى الديوانية، شغلت الفيديو أحاول تهدئة تأججي، شاهدت نفسي أهزم الأعداء مع جريندايزر. شعرت بقية ذلك اليوم أن دخانا يتسرب إلى روحي، ويترسب فيها. أريد أن تفتح زهرة شباك صدري وتدخل هواء نقيًا إليه، لكن ما أبعد أيام الجمعة عن بعضها في حال كه....

يُطرَق الباب، يقول بصوت عالٍ: نعم. يأتي صوت خالٍ من تقاطيع الكلام، يرد: لا أعرف أين هو. ينظر إلى الباب خمس ثوانٍ صامتًا، ثم يرجع إلى الكاميرا، يعقد حاجبيه يقول:

في الغد، دخلت الحمامات في الفرصة الأولى، وجدت بشارًا وعباسًا مع مجموعة أولاد يدخّنون. اضطربوا لدى رؤيتي أدخل عليهم بوجه محتقن. قلت: «اسمعوني جيدًا». أشرت إليه وأنا أمرر نظري عليهم: «النحلة كذاب، كل ما قاله كذب، أقسم إنني لم أفعل شيئاً بسعيد». نفخ بشار دخان سيجارته صوبي، وقال: «لا تخف، القضية أغلقت، خلاص». وتابعت كلامي: «أنت كذاب، شوّهت سمعتي، ولك عين أن تمنّ علي أيضًا..»، فقاطعني ينظر إليهم ثم ضحك بصوت عالٍ: «فلماذا بِتّ في المخفر ليلتين إذن؟». تمالكت ارتباكي بسرعة وقلت: «ولماذا تركوني أخرج إذا كانوا قد وجدوا علي دليلا يا كذاب؟». مضّ سيجارته وسألني والدخان يخرج من فمه، فيما ابتسامة خبيثة تميل بوجهه جانبًا: «ماذا يقرب لك رئيس المخفر؟». دفعني الغيظ لأن أركض إليه وأصرخ: «كذاب»، لكمت رقبته، انزلقت قدمه فوق السيراميك وسقط، أمسكني عباس وجرّني إلى الباب، فيما كانت رؤوس بقية الأولاد منتصبة باتجاهي. قلت لهم ممسكاً بزاوية الباب وعباس يحاول دفعي: «لا دخل لي بالنحلة بعد اليوم، من أراده فها هو أمامكم، والله لن أتدخل».
غبت يوم الإثنين، قلت لأمي إن رأسي يؤلمني، وقضيت النهار كله أتردد بين بيتنا وحديقة جدة سعيد، أعرّض حظي لفرصة رؤية الرجل الملثم لأحصل منه على خبر عن سعيد يؤازر ذاكرتي، فلم يحالفني الحظ.
مطر غزير في صباح الثلاثاء جاءنا. وجدت خبر مشاجرتي مع بشار منتشرًا في المدرسة، قال لي عباس ونحن عائدون من حصة الرياضة: إن إضافات كثيرة زيدت عليه، أكثرها كذبًا هو أنني توجهت إليه قبل أن أخرج من الحمامات

ومررت سبابتي تحت رقبتي، بحركة سوف أقتلك.

وفي يوم الأربعاء، آخر يوم قبل عطلة اختبارات نصف السنة، تحدث أولاد صفي عن عودة سر الليل مساء أمس، وصفوا بإعجاب للذين لم يشهدوا استعراضه بالمواقف كيف كان أداؤه مذهلا. تساءلوا عن صحّة خبر إلقاء القبض عليه، وسمعتُ أحدهم يقول إن سر الليل لديه واسطة أخرجته من المخفر بنفس اليوم. في ذلك اليوم تشاجر أحد أبناء ربع مصدي مع بشار عند السلالم، قال لي عباس إنهم ينوون النيل من بشار في مواقف السيارات عند الخروج، نصحته: «اترك النحلة وحده، هم يريدونه هو ليس أنا ولا أنت».

ينظر إلى مكان قدميه، ثم يتابع:

وجدت بشاراً ينتظرني عند الباب والجموع تتدافع للخروج. تكلم عباس خلفي عن ندمه لأنه منع بشارًا من الهرب من فوق السور قبل الحصة الأخيرة. وجدناهم ملتمّين عند مواقف السيارات، في الزاوية التي على طريق بيوتنا، أمام باص. صوّبتُ عينيّ على طريقي، مستسلمًا لأي مباغتة. اقتربوا منا، فثبتُّ النظر إلى الأمام شادًا على رأسي ورقبتي، سمعت صوتاً مستهترًا يقول: «تعال تعال النحلة». ثم تسارعت الخطى حولنا وارتبك المكان بحركات متوترة، تشد وتدفع بعضها. حبس العالم نفَسه.. رأيت عباسًا يلوذ راكضًا أمامي بالسكة التي بين المدرسة والبيوت.. ارتفع صياح بشار خلفي يرجو أحدهم.. اندفع إليّ صوت أزيز عصا بالهواء.. تلاها تأوّهات.

واصلت السير، وقبل أن أنعطف من زاوية المدرسة، بلغني صوت بكاء تتقطع أطرافه.

التسجيل الثاني والثلاثون

الاضمحلال

وجهه متكدّر، الأريكة الحمراء وراءه، يعض شفتيه ويهز
رأسه بلطف كمن يشعر بألم ما يقوله، ثم يخرج صوته
متعبًا:

آخر مرة رأيت زهرة فيها كانت ليلة خميس قبل العيد بأربعة أيام. قالت: «لا أريد أن أراك بعد اليوم»، وتركت صوت إغلاق الشباك يحطم الشاشة التي كنت أنظر بها إلى العالم. فيما كان سر الليل يستعرض مهارته بالقيادة في مواقف المدرسة، في أكبر تجمهر شهدته للأولاد.

يتنحنح، ينظر إلى قدميه، ضاغطًا حاجبيه بألم:

دخل رمضان في يوم جمعة تلك السنة، استبشر الشيخ صابر في موعظة قالها في مجلس أبي عصر يوم الخميس، فيما كنت جالساً أضيف الهيل إلى دلة القهوة عند «الوجار»، بأن الجمعة يوم مبارك، ودخول شهر مبارك فيه يزيد البركة، وقال كلامًا عن ضرورة الانكباب على القرآن في هذا الشهر، وختم بحديثين عن فضل العشر الأواخر.

وكانت تلك الجمعة مباركة كما قال فعلا، إذ قضيت ثلاث ساعات متواصلة أتحدث مع زهرة، من بعد صلاة العشاء إلى العاشرة والربع. اتفقنا أن يكون

لقاؤنا بالوقت الذي تكون موجودة. ستترك شبّاكها مفتوحًا علامة على ذلك. قدرت بعد ذلك على لمّ أطرافي لمّا صرت ألتقيها كل ثلاثة أيام. نتحدث ساعتين أو ثلاثا، أفرغ فيها غضاضة ساعات انتظاري لها وأمتلئ منها قوة على الوقوف بوجه الساعات القادمة، ثم أعود إلى البيت وزاوية صدري منفرجة.

يمسد حاجبيه ويعود ينظر إلى الكاميرا:

أخرج من الاختبارات مبكرًا، في الأسبوع التالي، وأذهب إلى حديقة جدة سعيد. أجلس حتى يؤذن الظهر أو حتى تبدأ الفترة الثانية لاختباري اللغة العربية والإنجليزية.

يختفي بشار بين فترتي الاختبارات ويظهر فجأة داخل المدرسة قبل جرس البدء. أخبرني عباس بأن بشارًا يخرج من السور الخلفي بعد الاختبار ويعود منه حتى لا يواجه ربع مصدّي، ضحك وهو يضيف أنه سمع إشاعة تقول إن هروب بشار بسبب خوفه مني. تضاعف خوف الأولاد مني، لدرجة أنني إذا نظرت إلى أحدهم أثناء الاختبار يقدم لي الأجوبة التي هو متأكد من صحتها دون أن أطلب منه، أو يوجه نظرة مذعنة باتجاه المدرس أفهم منها أنه يخشى أن يتسبب في سحب ورقتي. اعتدت على عبث الخوف في الإشاعات، وتأثير الرعب في تصوير الأشياء التي لم تحدث كأنها حدثت. لم يعد يعنيني كيف ينظر الأولاد إليّ في الساحات، ولا صرت أنتبه لردود أفعالهم المضطربة إذا ما وجدوا أنفسهم يمشون في ممر أسلكه، ما دامت أن زهرة موجودة، أراها، أكلّمها، تكلمني، تضحك، فكل شيء محتمل.

كانت مثل.. مثل حلاوة العنب، تطمس مرارة الطعام الذي بعدها.

يرفع رأسه إلى الأعلى:

انسابت الأيام بسهولة، وبدأت عطلة نصف السنة. لزمت الخروج كل صباح إلى حديقة جدة سعيد، أجلس هناك إلى أن يؤذن الظهر، فأكمل الجلسة أمام باب بيتنا، قليلا، ثم أضطجع على قفاي تحت تلفزيون الديوانية أشاهد الفيديو، وأستمر حتى يؤذن المغرب، ثم أشاهد الرسوم على قناة الكويت الأولى، وبعد ذلك أنتظر أذان العشاء لأنطلق إلى الشبّاك.

واجهت الرفاق مراراً تلك الأيام، تظاهرت أنني لا أراهم صارفاً نظري إلى باب بيت أو إلى إطار سيارة حتى نتجاوز بعضنا. أصادف كوكو أحيانا جالسًا أمام عتبة بابهم، يتابعني بنظره، فيما أنا خارج أو عائد إلى البيت، ينتظرني أقول شيئًا، فلا ألتفت له.

ومرة ناداني النمس وعزوز العور، كنت متجهًا إلى سكة الجني، ولم ألتفت إليهما، فقال النمس، بعد عدة نداءات فشلت في توجيه رأسي إليه، كلامًا عرفت من حدة صوته أنه شتائم، أنسانيه وجه زهرة وحديثها عن منعطف أحداث أحد المسلسلات، ورائحة جديدة لخلطة بهارات تتضوع بيننا.

يعيد رأسه إلى الكاميرا ويتنهد:

انتصف رمضان دون أن أشعر، نبهتني إلى ذلك مجاميع الأولاد والبنات الذين رأيتهم يطوفون على أبواب البيوت بالقرقيعان، ويهتفون بالإيقاع الراقص للأغنية. تذكرت سعيدًا في طريقي إلى شبّاك زهرة، كيف كان يجأر: «قرقيعان وقرقيعان»، خففت المشي أستمع إلى مجموعة بنات يغنين أمام باب: «عطونا الله يعطيكم، ولبيت مكة يوديكم». ضحكت، كأننا طفنا الشوارع يوم أمس ومعنا أخوه سعد. إلا ذكرى لقيا زهرة تلك الليلة، كأن مئة عام بين «ما اسمك؟» التي قالتها حينذاك و«أحبك» التي قبل يوم أمس، مئة عام وشباكها الجهة الوحيدة لصدري على العالم، يفوح شذى اسمها بطيب يجعل الدنيا على شكل رائحة، مئة عام والمقصد من الحياة لديّ هو استنشاقها، مئة عام انهارت

مثل رماد سيجارة.

ظهر بشار أمامي فجأة، وكانت مجموعة البنات تهتف: «سلم ولدهم يا الله»، مر بجانبي على الرصيف المحاذي، تطلعنا ببعضنا بلا كلام، شممت معه رائحة بهارات، رائحة الخلطة الجديدة تحديدًا، ثم تركني ونظر إلى البنات، وتابعت طريقي إلى السكة.

جعل نور القمر يتدفّق إلى السكة بغزارة ويسيح إلى الأماكن المظلمة. وجدت شباك زهرة مغلِقا عينيه. مشيت إلى أن وصلت آخر السكة، وقفت أشاهد قطع الإطارات وأثرها في شارع المواقف، ثم عدت إلى البيت، ولما مررت بشباكها وجدت النور يتبرجل خلف تعتيم الزجاج، توقفت، وجلست أمام الشباك لعلها تفتحه. خمّنت، وأنا ألقي نظرة على عمود الإنارة عند رأس السكة، أنها تعتني بأمها وستفتحه ما إن تفرغ. اقتربتُ، تشبثتُ بالقضبان، ودفعتُ أذني إلى بيتها، أصخت السمع، فلم أسمع أي صوت، قلت: يمكن أن يكون أحد إخوتها الصغار.

راح نور القمر يشفّ، في الأيام التالية، وجعل الليل يدكن. ومرّ أسبوع لم تفتح زهرة شبّاكها. كنت أقترب ما إن أرى النور الداخلي يدفع ظلال زهور الجلّاد إلى الأرض، فأنقر الزجاج نقرات خفيفة، فتختفي الزهرات دون رد. تآكل فيها أطراف كل شيء، وتدجج مرأى العالم في عيني بدبابيس، كلما نظرت إلى شيء وخزني. قمت أجلس في السكة كل ليلة لأطول مدة أستطيعها، بالذات حين بدأت المساجد تقرأ في صلاة القيام، أرصد الشباك فيما الضوء يُنار ويُطفَأ دون أن يطرأ على الشباك حركة. أتساءل، في كل مرة تشع النافذة، ومفاصل أبواب صدئة تفتح في رأسي، ويدي تترك التراب ينثال من بين أصابعها: هل أخذها المحل مني؟.. هل أخبر إخوتها أباها؟.. هل سمعتُ أحداً يقول الحب حرام؟ ليس أصعب من الغياب إلا التفكير بأسبابه.

فأعود إلى البيت وللسكة في حلقي طعم عنبة فاسدة، أشغّل الفيديو، أحاول، في أغاني البدايات، إنقاذ صدري من الغرق في بحر ملتجّ من البكاء.

يسعل، يمسح أنفه بمنديل، يسكت برهة، تذهب فيها

عيناه إلى ما وراء الكاميرا، ثم تعودان، يقول:

كان خميسًا ممطرًا، اليوم الذي قررت فيه أن أطرق باب زهرة، بعدما فقدت القدرة على احتمال كي جمر الغياب وحرق لهب التفكير بأسبابه. جعل المطر يهطل من الصباح رذاذا رائقا، أغراني بأن أجلس على عتبة باب الحديقة وأسوط نفسي بالتفكير بأنني فقدت زهرة إلى الأبد حتى عزمت على مواجهة الفقد.

حالما صليت العشاء، رحت إلى بيتها، ووقفت أمام بابهم، أخذت شهيقا وطرقته، كان المطر قد توقف وترك صوت قراءة قرآن في صلاة التراويح، يحاول سحب بساط المكان من صوت لجلجة عادم سيارة يندفع من جهة مواقف المدرسة الابتدائية.

نظرت إلى السماء قبل أن أضغط الجرس، كانت مثل خامة رمادية، رجوت الله أن أراها، ثم ضغطت الزر.

كنت قد وضعت الخطة: إذا خرج أبوها أقول: «هل هذا بيت صالح محمد؟» وأعتذر على خطئي في العنوان وأذهب.. وإذا كان أحد إخوتها أقول: «أمي تستفسر عن بهاراتكم»، وأطلب منهم أن يأتوني بمن يحضّرها.. وإذا كانت هي أقول: «لم أحتمل غيابك يا زهرة»، وأرسم الابتسامة المتعبة التي تدربتُ عليها منذ صلاة المغرب. أبطأ الرد فطرقت الباب بقوة، ثم ضغطتُ الجرس، وانتظرت بضع خطوات عن الباب، حتى تفاعل تأثير طول انتظاري مع لهفتي للقياها وألقيت يدي على الباب برعونة، وكانت مواقف المدرسة تشهد صراعاً بين سيارتين على الأقل. ومع كل طرقة، أتخيل زهرة ستفتح الباب وتعتذر عن غيابها، تتلوها طرقة أقوى منها؛ إلى أن فُتِح الشباك الذي بجانب الباب وسمعت صوتها يقول: «نعم نعم، مَن مَن هناك؟».

يقبض ريقه ويصمت، ثم يتابع بنبرة تتكسر على شاطئها أمواج الحزن:

تقدمتُ، فلما رأيتها أصدرت رغماً عني صوتاً بين التنهيدة والآهة، ثم قلت: «زهرة، أين كنتِ، أنتظرك كل يو..»، أغلقت الشباك فجأة. تسمّرت مكاني أقول ربما أبوها وراءها، أو أحد إخوتها وتخشى أن يسمعني أحدثها فينكشف أمرها. التففت إلى شبّاك السكة، وجدت النور الداخلي مضاء. انسلّت يدي بسرعة بين القضبان ونقرت الزجاج، ثم نقرت أقوى، وبدأ المطر يهطل رذاذاً، ثم فُتح الشباك، فإذا بوجهها تعلوه الحيرة والخوف بشكل يخالف رقّتها:

«لا تأتِ هنا مرة أخرى» قالت بهمس حاد.

صدقتُ أن أباها في الغرفة وأنها تحاول بهذا الدفاع عن اقترابي من الشباك، ما إن هممتُ بالتراجع حتى قالت بصوت جاد:

«انتهى كل ما بيننا فهد، هل تفهم، انتهى».

عند ذلك أحاطت القضبان صدري.. إنها تقول «فهد» و.. «انتهى الذي بيننا»!.

ثبتُّ نحو الشباك مقاوماً الصدمة التي كانت تسحبني للرجوع:

«ماذا حصل، لماذا ينتهي كل الذي بيننا؟».

«فهد انتهى، أرجوك أن تنسى كل شيء، لا أريد أن أتورط معك، أرجوك فهد أرجوك».

«تتورطين بماذا؟».

«حسنا ابتعد عني فقط».

«زهرة ما الذي جرى؟».

«ابتعد».

أغلقت الشباك، فطرقتُه بقوة، حتى فتحَتْه واستبقتُها حاسمًا:

«لن أبتعد حتى تخبريني ما الذي جرى».

حاولت تغلقه فأمسكته:

«لن أتركك حتى تقولي».

«سأنادي أبي».

«ناديه».

«أقول لك من الأفضل أن تبتعد».

«سأبتعد عندما تقولين لي ما جرى».

تبدل شيء ما بوجهها كما يتبدل سطح نهر رائق ضربه تيار عاتٍ، ملأت صدرها هواء، وقالت: «فيما كنت أنتظرك قبل أيام، مرّ من هنا أحد أصدقائك، وقال لي إنه يريد أن يخبرني عن شيء، وقال.. قال لي حقيقتك».

«آه، مسوّس الأسنان، ذاك الكذاب خبيث الرائحة، وماذا قال؟».

«لا ليس هو، حلّفني برأس أمي ألا أقول اسمه، وليس مهمًا، أخبرني كل الأكاذيب التي أخبرتني بها، وأنك قاتل.. أنك قتلت سعيدًا، وبُرّئت لأن عمك رئيس المخفر أخفى كل الأدلة»، التفتتْ إلى الباب وعادت مرة أخرى بموجة غضب عارمة صبّتها تعدّ على أصابع يدها: «أخبرني عن كل شيء اعترفت لي أنت به، أتتذكر.. أنك ولد فاشل، في المتوسطة، لن تدخل الجامعة، وأنت من رميت الأولاد ببندقية، وأنك تدخن، وتجلس في البيت المهجور، كل ما قاله حقيقة أخبرتني بها، و.. يا الله، وقتلت سعيدًا.. ابتعد ابتعد الآن فهد ابتعد».

يسكت، تصعد تفاحة آدم وتنزل، وعيناه تترددان بين الكاميرا وما خلفها:

راحت صورتها تختفي لمّا تدرّعت بمشهد ارتفاع سعيد، من سهام ملامح وجهها الكارهة رؤيتي، مفكرًا بنبرتي الحكيمة: «ستنسى زهرة كل ما قيل، قد تحتاج إلى أسبوع أو أسبوعين».

وعندما طلبت أن أبعد يدي عن الشباك، قلت لها بأهدأ ما يمكن أن يكون عليه صوتي:

«مهلاً.. زهرة، سأقول لك الحقيقة.. أنا والله لم أقتل سعيدًا، رأيته يرتفع إلى السماء يا زهرة، تجذبه تلك الأضواء إليها، لو رأيتِه يا زهرة، لو رأيتِه، آه، منظر يُذهب العقل».

أمعنت النظر في عيني ووجهها يذوب: «ماذا تقول؟».
«أقول إنني رأيته يرتفع إلى السماء، بعينيّ هاتين.. ألم تقولي إنك تحبينني وتثقين بي، ألا تذكرين؟».

تعتري ملامحه انقباضات طفيفة، كما لو أنه يمنع نفسه من البكاء:

صوت إغلاق (يهز رأسه) الشباك تلك الليلة، يشبه ألم انكسار عظم.
ازداد المطر عندما وصلت حدود قطعة «ربع مصدّي»، وكان ظلام الليل تائهاً خلف الغيوم، وقفت تحت مظلة أحد البيوت قليلاً، أحاول أن أبعد صوتي الحكيم من احتمال الانتظار لأسبوعين: «يا الله أسبوعان!.. أسبوعان أمر فظيع».
لا أعرف متى بدأت البكاء، اختلطت دموعي الحارة مع برودة قطرات المطر، وقد قام رأسي بالدوار حولي، أفكر بحلّ يرضي زهرة بسرعة، انتظار أسبوعين مؤذٍ من دونها. نسيت نفسي حتى نبّهني صوت صريخ وهدير غاضب لإطارات وعادم سيارة مثقوب أنني أمام مواقف المدرسة الابتدائية، وأمامي مباشرة سيارة زد مكتوب على زجاجها الخلفي بيت شعر يقوم سائقها باستعراض مهارته في تطويع انزلاقها في منعطفات المواقف.
اتسعت عيني على مجاميع الأولاد الذين وقفوا تحت المظلات القريبة يشاهدون فنون سر الليل في السيطرة على إطلاق الطيش وكبته، تصلني بضع صيحات مشجعة من الأولاد، أثناء ما كانت الزد تتلوى في مكانها أمام منعطف، كما لو كانت تريد حفر الإسفلت، ودخان شواظ الإطارات يرتفع منها كأفاعٍ تتقيأ، وخوفي من فقد زهرة يغذي فزعي من العالم بهذا كله. تركت الرصيف ومضيت إلى السكة عبر المواقف غير آبه بصورة الحفرة التي اتسعت أمامي. ولمّا اقتربت من منتصف المواقف، قريباً من سر الليل، توقفت الزد عن الحفر، ومعه توقف

الصوت المريع للعادم، ثم رشقتني أصوات الصبية بالشتائم لإيقافي الاسترسال المتوهّج لسر الليل، يصيحون علي بأن أنقلع بأسرع ما يمكن، ربما لم يعرفوا أني فهد أبو بارود، أو فهد الذي قتل سعيدًا وخبّأ جثته في مكان عميق، وإلا لكانوا ابتلعوا ألسنتهم. أكملت أمشي فوق الرصيف لا ألوي على أحد، تقدم سر الليل نحوي، نظرت إلى زجاج الزد الداكن متخيلا نظاراته المقعرة خلف المقود ينظر. مشيت حتى وقفت تحت المظلة التي وقفتُ تحتها مع الرفاق في أول يوم عدت به بعد التحرير، أنظر إلى شبّاك زهرة يرسل إليّ نورًا فاترًا، وزهور التظليل عليه ترسم أسى بليغًا.

عدت إلى البيت مزيحًا بتذكر سعيد ذلك الحِمل الذي أخذت نهاية السكة المظلمة تلقيه على قلبي والأرصفة المبلولة بعد ذلك وأبواب البيوت الموصدة والمنعطفات والليل.

كانت تلك هي اللحظة التي سيركض بها دايسكي في حقل ورود ويصرخ باكيًا، لو كان هذا مسلسلا كارتونيا .. التي سيجثو فيها سيباستيان على ركبتيه لو كان مكاني، ويلتفت فيها ساسوكي وراءه ودمعته تلتمع على عينيه ثم يتحول إلى ريح تذهب صوب البحر، فيما تعزف أغنية البداية بإيقاع حزين.

جلست أمام بابنا قليلا دون أن أسأل نفسي عن الدمع الذي راح يخرج من عيني هل هو على زهرة، أم على نفسي، أم هو قطرات المطر؟

أشارت ساعة الحائط في صالتنا إلى العاشرة والنصف مساء. سألتني أمي أين كنت؟ أخبرتها بأنني كنت ألعب كرة، وكان جسدي المبلول يشهد بذلك.

«تريد أن تمرض ..كرة في المطر».

«المطر لا يضر مع الركض».

«أأكلت شيئا؟».

هززت رأسي بنعم.

التسجيل الثالث والثلاثون

أيام الظلام

يمضغ شيئا في فمه، يبتلع ثم يصمت، ثم يضع شيئاً في فمه
ويمضغ بتأنٍّ وعينه على ما وراء الكاميرا، يبتلع ويتلمظ، ثم
يقول:

الظلام ليس غياب النور عن المكان، الظلام شيء ليس له علاقة بالنظر، هذا ما عرفته بالأيام التالية. صرت أرى كل شيء يدخل في ظلام يفقده شكله الذي كان عليه. أتى العيد ونور الشمس يصطبغ باللون الأسود لسكة زهرة ليلا. ظلام يذهب ويأتي بعده ظلام أكثر منه حلكة، مر ذلك العيد منطفئًا من البهجة.

ارتديت فيه ثوبي الجديد وذهبت للصلاة مع أبي، ثم انشغلت في تجهيز الديوانية. عندما بدأ الرجال يتوافدون في الضحى، جاءنا سعد كوكو مع أبيه وأخيه، سلمنا على بعضنا نتظاهر بأننا على ما يرام. أجلسته بجانب حسن قرب الباب، وصببت له قهوة، حتى جهزت الوليمة مع صقر. كان ينظر إلي طوال الوقت، يريدني أن أكلمه. وبعدما أكلنا، وغسل يديه، وقف يطالعني يريد أن يقول شيئاً، فأعطيته ظهري، وخرج. تبعته، ورأيته يعد المبلغ الذي حصل عليه متّجهًا إلى ساحة المحول. خمنت: سيذهبون إلى الجزيرة الخضراء. وقفت دمعة تطل من عتبة عيني، أدركتها قبل أن تخرج بأن عدت إلى الرجال وركزت بصري على ترتيبي للدلال بجانب بعضها.

جلست أناور في رأسي ذكريات أتتني بهيئة ومضات، كلها عن أولاد يركضون

خلف تكاسٍ يفاصلون السائق على السعر، وبين أصابعهم سجائر مشتعلة.
ذهبت بعد انصراف الضيوف إلى سكة زهرة، حيث وجدت النهار فاقعًا، وكما فعلت في الأيام الأربعة الفائتة، ذهبت وجئت.. جلست وقمت.. اقتربت وابتعدت، أفكر في الرجل الملثم كحلٍّ بديل أثناء غياب زهرة لِلَمّ أجزائي؛ آملاً بأنني إذا تحدثت معه عن سعيد، وقال لي إن ما حدث حقيقة، فسأندفع لمواجهة العالم وحدي، وأقرع باب زهرة وأقول لأبيها: نادِ ابنتك لو سمحت. لأنني حينها سأكون مختلفا عن الناس كلهم، بتأكدي من أنني رأيت شيئا لم يره أحد قبلي.
أجهدت نفسي ذلك اليوم حتى رجعت البيت، أشاهد في الطريق السيارات تمر من جانبي، وفيها عوائل يتزاورون، أولاد يرتدون ثيابًا جديدة وبنات عليهن فساتين مبهرجة.

يعتدل منزاحًا إلى جنبه الأيمن، تتوتر صورته قليلاً ثم تثبت، يسكت ينظر إلى وجهه، يتغير صفاء في عينيه، يحرك لسانه داخل فمه، وعيناه مثبتتان بإصرار على الشاشة ثم يقول متحدثا إلى نفسه بنبرةٍ متعبة:

ترك انسحاب وجه زهرة نبرة صوتك العادي شرسة وذات بدايات حادّة ونهايات متمايلة، تلاحقك بأسئلة عن حقيقة رؤيتك سعيدًا يصعد إلى السماء، وتستعير جملة كوكو التي صدعك بها: هذا مسلسل رسوم متحركة. تصبح النبرة أقل حدة عندما تدخل السكة، لذلك داومت كل مساء على جلوسك قبالة شباكها، ظهرك على بيت جيرانهم، ووجهك تلقاء الشباك، تتخيل وجهها يشرق. ومر أسبوعان، على إغلاقها الشباك في وجهك، تتردد كل مساء على السكة، وجهها لم يبتسم من وراء القضبان ورائحة بهاراتها لم تتضوع، ولم تجد الرجل الملثم.
ازداد توترك سوءًا، حتى وجدت نفسك تمر بالسكة عصرًا وتجلس بها مساء،

لتحيط نفسك بنفسك.

عندما استؤنفت المدرسة في الفصل الثاني، تكاثرت القضبان الحديدية بداخلك، ليس لأن حاجتك لزهرة تتفاقم كلما اقتربت من الناس، ولا بسبب فقدان نفسك أمامهم، بل لأن شيئا لم يكن في الحسبان وقع فجأة وأضاف إلى الحياة مكائد أخرى.

ذلك أن بشارًا فاجأك بانتقاله إلى مدرسة أخرى، ودون أن يبلغ أحداً بذلك، عدا عباس الذي أخبرك، وربما كان المومياء يعرف أيضًا.

أتاك صوتك الحكيم في الفرصة الأولى، يوم الثلاثاء، وأنت جالس وحدك على مقعد ثلاثي في زاوية الساحة الداخلية، وتشاهد الأولاد يركضون وراء بعضهم أمامك ويجلسون بمجموعات صغيرة، يتحدثون عن أشياء تجعلهم يضحكون، أتاك يقول إن انتقال بشار بهذا الشكل المفاجئ ربما سيترك مجالا واسعًا لافتراء أنك قتلته، وذكّرك بالإشاعتين اللتين قالتا إنك مرّرت سبابتك تحت رقبتك في الحمامات، وإنه كان يهرب في الامتحانات خوفا منك.

قمت من الكرسي وذهبت إلى الصف وقلبك يزداد نبضه، «إشاعة جديدة» قلت في نفسك، مارًا من بين ثلاثة أولاد: «ومن دون زهرة هذه المرة».

احتدّ صوتك الحكيم يتردد متذبذبًا، حتى عطلة نهاية الأسبوع، بالذّات في حديقة جدة سعيد، وأنت تترقب ظهور الرجل الملثم، فاضطرك لأن تترك النار مشتعلة وتعود إلى البيت تشاهد الفيديو. وهناك رفعت صوت التلفاز في الديوانية على أغنية: «علّي علّي بطل فليد» تحاول توجيه الأشياء في داخلك إلى مساراتها.

صرت تتطلع في عيون الأولاد، طوال الأسبوع التالي، لتقيس ردود أفعالهم، تنبهك نبرتك الحكيمة إلى أنهم يخفون شيئا يمنعهم الخوف من إظهاره، تبحلق بهم وهم يعبرونك، ثم تلتفت وراءك تتابعهم إذا تجاوزوك، حتى صاروا ينظرون إلى الأرض أثناء مرورك، ظناً أنك تبحث في بحلقتك عن ثغرة لاستدراجهم إلى عداوتك.

جعلت تصغي لأحاديث الأولاد القريبين منك في الكافتيريا لعلك تلتقط شيئا تستطيع الرد عليه، تحاول قراءة الشفاه الهامسة، تتيه بينها وبين المضغ.. كانت الأحاديث التي تصلك عادية، وهذا ما كان يزيد شكوكك بأنهم لا يريدونك تسمع ما يتداولونه بشأن قتلك بشارًا، ما دفعك إلى المرور على صفّه بعد نهاية إحدى الفرص، لربما رأيت ما بداخل قلوب أبناء صفّه يخرج على وجوههم عندما يرونك، وجدت أنهم بردود أفعالهم العادية يتظاهرون بأن شيئا لم يحدث. لقيت أحد أبناء صفّه يسير وحده في الممر، فابتلع ريقه لمّا سألته: «أما زال اسم بشار في كشف التحضير اليومي؟» فأخبرك، وهو يرجع خطوتين، بأن المدرسين ما زالوا ينادون اسمه كل يوم ويكتبون أمامه غائب.

لم تعرف كيف تقول للأولاد إن بشارًا انتقل، ستعطيهم فرصة سهلة لقول: قتله وها هو يحاول إخفاء الجريمة.

حلت عطلة نهاية الأسبوع الثاني لتضاعف نبرة صوتك الحكيم ظنونك من أنهم يتحدثون وراءك عن جريمتك ببشار. توقف الفيديو عن إزاحة النبرة، وبقيت طوال ليلتي الخميس والجمعة تتخفف منها في سكة زهرة، ونور شباكها يضاء ويظلم دون أن تفتحه. تفكر لماذا وجودها يقلل عندك من أهمية الناس، على الرغم من أنها محاطة بالقضبان دائمًا؟

زهرة لا تخرج ولا تفعل شيئا غير الكلام، لكن.. يكفيك الإحساس بأن هناك من ينتظر رؤيتك، هذه وحده كافٍ لتعزيز الدور الذي يؤدّيه وجودك في العالم. لم يكن سيهمّك عدد الأولاد الذين سيقال إنك قتلتهم، إذا فتحت زهرة الشباك وابتسمت لك من جديد. إما وجودها، وإما يعود سعيد إلى الأرض، وتراه، تراه وحدك ينزل كما رأيته وحدك يصعد، وتعود تحدّثه كما كنت تحدثه سابقا، أو.. أو تقابل الرجل الملثم. غير هذا لن تكون قادرًا على الاستمرار في الاحتكاك مع العالم ولن تكون مهمّاً حتى عند نفسك.

أول شيء فعلته يوم السبت هو أنك طلبت من عباس، بين الحصة الأولى والثانية، أن يذهب في الفرصة إلى صفّ بشار ويخبرهم بأنه انتقل؛ وتعذّرت بـ: «ربما هم قلقون عليه».

مطّ شفتيه يقول: «يحترقون، ما دخلي بقلقهم».

فوجدت نفسك تدخل صفّ بشار أثناء الفرصة، وتقول لأحد الأولاد بلهجة رجاء: «لو سمحت، هلّا قلت لأبناء صفك إن بشار انتقل إلى مدرسة أخرى».

هز الولد رأسه بالإيجاب، فأضفت تجاهد على صنع ابتسامة: «شكرًا لك».

واستمررت تتطلع في عيون الأولاد، وترهف في الكافتيريا السمع، بل وتوسعت في عملية التقصي أن صرتَ تدخل الحمامات كل فرصة تتظاهر بأنك تريد التبوُّل، تغلق الباب وتمكث وقتا أطول مما تقتضيه الحاجة، لتسمع ماذا يقول الأولاد الذين يدخلون بعدك وهم يدخّنون، فتفاقم يقينك بأنهم يعلمون أنك تراقبهم. اشتدّت أعصابك وأخذت تتآكل، صرت تكرر كل مرة تفشل في اصطياد كلمة تؤكد شكوكك: «الملاعين، لا يريدونني حتى أن أرد عليهم».

إلى أن اتضح لك بعد يومين، أمام شبّاك زهرة المظلم، فيما كنت تلوي علبة بيبسي فارغة، تصرفات أبناء صفك الغريبة، عندما ربطتها بالإشاعة، مقارنا بينهم في بداية الفصل الأول عنهم في الفصل الثاني: «يبتعدون عني دون مبرر».. «الملاعين، بصوت خافت كي لا أسمع ما يقولون»، وتأكد لديك أنك وقعت في مكيدة يشارك فيها جميع الطلاب في المدرسة بمن فيهم عباس.

يتسع صدره، يهز رأسه متأسفًا، ينظر إلى ما وراء الكاميرا ويكمل:

التقيت ببشار في طريق عودتي، يمشي وحده عند بداية سكة الجني الذي يرقص على خطى المارّين، لمع في رأسي أن أطلب منه الحضور غدًا عند خروج المدرسة، فوقفت أمامه أريد أن أحدثه، لكنه تجاهلني ومضى يعطيني ظهره. ناديته، فلم

يرد. سرّعت الخطى عائدًا إلى شبّاك زهرة، لأفكر بهدوء بما يمكنني فعله كي أتحاشى تلك الإشاعة. وعند الشباك، في السكة المظلمة، تركت رأسي يتحرك كما يحلو له، بعيدًا عن نبرة الدكتور آمون الحكيمة، فاتخذت قرار مواجهة الجميع غدًا في الحمامات، وأن أطأ تلك الأفعى بقدمي، لن أسمح لها بالتمدد أكثر من ذلك.

أتتنا رياح باردة صباح يوم الإثنين، أحكمت سحّاب جاكيتي ودخلت الحمام أفرك يدي، وجدت أربعة أولاد يدخنون، ضبطت إيقاع أنفاسي وباغتّهم: «السلام، بشار يسلّم عليكم ويقول إنه انتقل إلى مدرسة أخرى». سكتُّ أنتظر أحدًا يتكلم، ولما رأيتهم ما زالو متكتّمين من الخوف أضفت: «ربع مصدّي آذوه فلم يستطع الاحتمال، فطلب من أبيه أن ينقله إلى..» وكذبت: «أن ينقله إلى مدرسة عمّه، ألم يخبركم أن عمّه ناظر مدرسة؟». سكتوا يبحلقون بي بطريقة غريبة، لم أستطع أن أحدد ما إذا كان سكوتهم من خوف أم من استغراب، فتسارعت أنفاسي دون إرادتي: «وسأخبر الإدارة عن الذي ألّف إشاعة أنني قتلت بشارًا، أتحسبون أنني لا أعلم بها، بل سأخبر المخفر، هل تفهمون؟». رفعت صوتي عند «تفهمون». هزّ أحدهم رأسه ورأيت آخر يبتلع ريقه. فخرجت صافقا الباب ورائي، صدمت ولدًا كان مقبلا على الحمامات، تضاعف ارتباكي، فالتففت واصطدمت بالجدار ثم عدلت وجهتي، رأيت أنني أعطيتهم مجالا لتناقل ما قلته بطرق أخرى ستنتهي ولا بد بأنني قضيت على حياة بشار.. سرعت الخُطى إلى صفي.

راقبتُ ما تبقى من أيام ذلك الأسبوع تمر ببطء، وتقديري لنفسي فيها يتراجع بسرعة إلى أماكن متأخرة عن الجميع.

صار باب المدرسة صباحًا يغلق على صدري، وليس لي شباك غير مخيلتي التي أسرح بها دائمًا، أثناء الحصص وفي الفرصة، إلى عوالم سعيد في السماء والأحاديث مع زهرة، حتى قامت الحصص تحبو عليّ إمعانًا في نزقها، لتُسلّمني عند جرس الخروج، إلى الباب، مثل عقب سيجارة مدعوك.

في آخر يوم من ذلك الأسبوع كنت أمشي مع عباس إلى البيت، أمسح بالأفق البعيد ضيق جدران صفي عن عيني، وهو يحدثني ضاحكا عن حريق أشعله النمس يوم أمس في قمامة أمام بيت في شارع فيصل المومياء، فوجدت قرار مخاصمته قد تم منذ ليلة أمس دون أن أعي، أكّدت لنفسي: «ما حاجتي بمن لا يدافع عني ولا يخبرني عن الإشاعات التي تشوهني؟». قلت له، وهو يصف الدخان الأسود الكثيف الذي ملأ الشارع: «عباس.. لا تكلمني بعد اليوم ولا أكلمك». فصمت يمضّ سيجارته، ثم هز رأسه، انتظرته يقول شيئا ثم تركته وذهبت إلى الناحية الأخرى من الشارع. ظننت حينها أنه سيتأثر ويركض ورائي ويسألني عن السبب، أو يشتمني لأنني ألقيت بصداقتنا بلا سبب، عندما التفتُّ إليه بعد عدة بيوت رأيته يسير مع ولد آخر ويتحدث بحماسه الدائم، فتمتمتُ: «هكذا أحسن».

يكتسي وجهه بتعبير مجهد، يأخذ نفسًا عميقا، ويزفره بتنهيدة، يدلك جبينه بكفه، ثم يتنهد، يتنحنح، يبتلع ريقه، يرفع رأسه للسقف، سبع ثوان، ثم يغلق عينيه:

أرى ذلك اليوم جيدًا، اليوم الذي أيقنتُ فيه أن زهرة لن تخرج وجهها من الشباك إلى الأبد. حدث في أواخر الربيع، في يوم ثلاثاء لم يكن للقمر في سمائه مكان، وكانت السكة مظلمة مثل العماء.

تركت ذهني ينتشر في السكة، ويسرح حول الشباك وعند عمود الإنارة، لما رأيت ضوء الغرفة أفشى الزهور على الأرض، جمعت نفسي على أن أنهي كل شيء الآن. أخذت حصاةً وذهبت إلى الشباك، متجاهلا صوتي الحكيم الذي كان يصرخ بي أن أتوقف، وطرقت زجاج النافذة، فانطفأ النور وسمعت إغلاق باب. واصلت الطرق بقوة كادت تكسر الزجاج، ثم قلت بصوت عال: «أعلم أنك تسمعيني، لن أذهب اليوم إلا إذا كلمتِني، كلميني فقط، وأقسم لك إنني لن

آتي إلى هنا أبدًا». واصلت الطرق: «زهرة افتحي أريد أن أخبرك بشيء، افتحي»، وراح صوت الحصاة على الزجاج يتردد بقوة في السكة، ومع كل طرقة لا تجد ردًا كان البكاء يفور في جوفي: «زهرة، لن أذهب». «زهرة، افتحي ولن آتي».. «لماذا زهرة؟».. «ماذا فعلت لك زهرة؟».. «زهرة أنا أحبك».. «زهرة».. «زهرة».

يصمت، يبتلع ريقه، يلمع في عينيه بريق ضوء بعيد، يتنحنح:

صوت الحصى على الزجاج يسبب البكاء، هذا ما استنتجته وأنا أمسح دموعي بكمي، مستنداً على الشباك. «ما السبيل إلى أن تفتح الشباك؟»، تساءلت في نفسي، «لو لم أخاصم كوكو لطلبت منه المساعدة، كان سيجد حلا، الآن أنا وحيد جدًا». تركت الحصاة تسقط، وتعلقت بالقضبان كأنني أمام سيل سيجرف كل شيء خارج السكة. كانت نبرتي العادية تقول إنني ما زلت أحتاج إلى تأكيد أنها ستتركني إلى الأبد؛ كي أقطع كل أمل يأتي بي إلى هنا، صرخت: «على الأقل قولي إنك لا تريدينني.. إلى الأبد.. فقط قولي ذلك».

لحظة ثقيلة مرّت، وأنا متشبّث بالقضبان، حتى خرج من بداية السكة رجل يعرج بسرعة مريبة، يمسك شيئا ما بيده، لم أبرح القضبان إلى أن اقترب يسير باتجاهي. منعني الظلام من رؤية تفاصيل وجهه، ولما أصبح على مقربة بضع خطوات قال بصوت غاضب: «ألا تستحيي يا صائع، تطرق شبابيك بنات الناس، يا تربية الشوارع»، أفلتُّ الشباك، فيما كان بيننا خطوتان ويده ترفع بشيء أظنه سلكا كهربائيًا، قال ويده تنزل: «بنات الناس لعبة عندك؟». لسعتْني برودة في كتفي أعقبتها حرارة ثم ألم، ثم صقيع في ساقي. دفعني فوقعتُ في منتصف السكة، ثم أتت الحرارة على قدمي وسمعته يقول: «سأكسر قدميك»، حبوت، أحسست بألم في قدمي اليمنى، تلته برودة في أصابع قدمي الأخرى ثم حرارة، توجهت إليه، أتت قدمه على أنفي، وارتطم رأسي بالجدار

الذي كنت أستند عليه طوال الليالي الفائتة، اهتزت في رأسي كل ذكرياتي.. البهارات.. المحل.. «أحبّك».. بنات خالتها.. كوكو يناديني آخر السكة.. «كيف كان يومك؟».

قال الرجل: «أقسم بالله إذا رأيتك تغازل ابنتي يا زبالة، بل إذا رأيتك تسير بالقرب من هنا، أقسم بالله، سأفصل رأسك عن رقبتك يا صائع»، رفسَ فخذي وصرخ: «انقلع الآن لا بارك الله بك». ولما قمت، أتت البرودة على ظهري، وركل مؤخرتي يقول: «قل لأهلك إنك تغازل بنات الناس». تعثرت خطواتي حتى تداركت توازني، فتسارعت حتى أول الشارع، حيث وضع عمود الإنارة إصبعه في عيني، وقفت تحته وأجهشت بالبكاء، والسكة خلفي تتحول إلى فوهة حفرة تشبه حفرة بيت أم غريب، ليس لها قاع، فقلت وأنا أتصور الأشياء تهوي فيها دون توقف: «ألعن أبوك زهرة».

نشق أنفه وتنحنح، ابتلع ريقه وتابع:

جلست على الرصيف، بين سيارتين، أشاهد مرور عجلات السيارات تذهب يمينا وشمالا في اتجاهي الشارع، أفكر: لماذا أخبرت زهرة أباها؟ هدأت لما أجبت: «لأنها لم تعد تريدني».

حاول شارعنا مواساتي تلك الليلة، بذل مجهودًا كبيرًا في التربيت علي، بإيصال رائحة طبخ شهي من أحد البيوت التي مررت عليها عائدًا في طريقي إلى البيت، وفتح أحد الأبواب عن طفل يحاول الهرب من يد أمه وعلى وجهه ضحكة صادقة خالية من التزلف إلى السعادة، ورقصت حولي أغنية سريعة الإيقاع وصلتني من نافذة مفتوحة، وصوت منبّه سيارة حسن رنّ بجانبي مسلّمًا علي، ولحنٌ ما يحاول الخروج من نوافذ الموستنج المغلقة، والسماء فوق هذا كله تهمس لي بلمعان نجومها أن الوقت قد حان لتجعل صورة زهرة في داخلك مثل قارب يبتعد في بحر أزرق صاف، والشمس وراءه توشك على الغروب، فيما

الأمواج راكدة على الشاطئ.

أحسست حينها بثقب في صدري يخرج هواء كان مضغوطًا فيه، ويخفف توتري. ربما من يقيني أنني فقدت زهرة إلى الأبد، ولم يعد هناك أمل بلقاء يضع رأس مخاوفي على كتفه ويمسح على شعرها حتى تهدأ، وبفقدانها ينتهي الخوف من فقدانها. شعرت بنوع مجهد من الارتياح؛ لم يعد هناك داع لإيذاء النفس والذهن في محاولات التقرب والاحتفاظ.

اضطجعت على فراشي أفكّر بشيء واحد فقط، أحاول أن أثبت به قدمي في الحياة: يجب أن أرى الرجل الملثّم.

التسجيل الرابع والثلاثون

الشذرات

أمام باب غرفته، شمس العصر ترمي ظلال المظلة عليه،
وجهه محمر من الحرارة، صوت هواء قوي منبعث من
ماكينة، يقول بصوت فاتر:

تركت كل شيء حولي يمضي مثل كرة دحرجتها ركلة طائشة، وركزت انتباهي على اللحظة العجائبية التي ارتفع فيها سعيد إلى السماء. تركيزي عليها يشعرني أنني ثابت على الأرض. بيتنا، المدرسة، والأولاد، شوارعنا، حديقة جدة سعيد، بيت أم غريب، مواقف السيارات، ديوانيتنا، المطر، دلال القهوة، سر الليل، الفيديو، كل هذه الأشياء أصبحت إطاراً لتلك اللحظة.

أراحني جدًا فراق زهرة، تركني لا أعبأ بشيء، وصارت ذكرى الرجل الملثم تتخاتل من حولي مثل دخان عالق تحت سقف غرفة مغلقة.

أخذتْ الأشياء تشفّ، تدريجيا وتتقلص. حتى بدأ النسيان، يحتكّ بأعماقي فوق كل شيء. لم يكن نسيانا، بل كان.. لا أعرف، كان.. ربما كان عدم انتباه مضاعفا.. تجاهلا زائد الحدّة.. إصرارًا قويًا على نكران قيمة الأشياء. وبدأت الحياة تتحول إلى لمحات.. ومضات.. هذا كل ما أذكره عن تلك الفترة.

عندما قلت إن الذكريات مثل الأشرطة للفيديو فذلك لأن الأمر حدث معي هكذا بالضبط. عشت فترة لا أذكر منها إلّا بعض المشاهد التي تحفظها ذاكرتي بصورة لقطات من شريط فيديو سيء التسجيل. ربما لأن عقلي رفع يديه عن

تفكيري تاركًا عملية الفهم تتمّ دون توجيه منطقي، داخت الأيام ولم تعد تعرف ترتيبها، الأشياء تسكن فيها وتتحرّك دون هدف، أذكر منها جلستي بجانب عتبة باب حديقتنا أنظر إلى غروب الشمس والرجال يخرجون إلى الصلاة، يغريني الشفق الأحمر على تخيل سعيد يستحمّ في نهر عذب والشمس تميل فوقه إلى غروب مبهج.. وقوفي أمام المرآة، عيناي كجمرتين ناعستين تحت لحاف رقيق من الرماد.. أمسك ولدًا من كتفه، في ممر صفوف الثاني المتوسط، أقول له بأن يخبرني عمّن كان يقصد بالمجرم، يقسم وحنكه يرتجف إنه كان يحدّث صديقه عن فيلم .. جالسا على سور حديقة جدة سعيد، تتوتر شجرة السدر خلفي بتغريد العصافير، تمرّ بي السيارات ذاهبة وعائدة بأصحابها وعوائلهم من اتجاهَي الشارع.. ينتشر أذان الظهر في السماء.. خطوط كثيرة معقّدة رسمتُها بقدمي دون أن أنتبه.. يقول صوتي بنبرته الحكيمة: «ربما لن ينزل الرجل الملثم اليوم».. ظلي طويل أمام بيت أم غريب والشمس تغيب .. عند زاوية بيت في بداية السكة، الليل يملأ كل مكان، أذان ينبعث من مكبرات المسجد القريب، فيما نور شبّاك زهرة يرمي بظلال القضبان على القاع، وظلال رأسها يذهب ويجيء من خلفه .. يسيل الليل .. أسلم على كوكو بلا خاطر في ديوانيتنا، نرتدي ثيابًا جديدة، الدلة ترتعش في يدي، أصبّ له فنجانا، يقول لي شيئا عن الذهاب معه إلى مكان ما بعد قليل، آخذ الفنجان منه دون كلام. ..أولاد يلعبون في ساحة المدرسة أمامي، يحاول بعضهم دفع الآخر على بركة ماء متجمّع من مطر البارحة، أشعر بمغص..أطالع شروق الشمس في البر، مع أبي على سيارته، واثنان من أصدقائه يخرجان بندقيتيهما ويعشّقانهما بالطلقات.. أمسح دم حمامة على يدي فيما أتحسس خروج روحها وهي تنتفض بين يدي قبل أن تجمد .. مرعي ينفخ دخان سيجارته ويسألني هل أنا الذي أوقد النيران في الحديقة؟ أهز رأسي، يطردني، أقوم من تحت ظل السدرة، وأذهب..على طاولة، أمامي ورقة امتحان، وصوت ولد ورائي يقول: «السؤال الثاني باء، والخامس جيم».. جالساً على عتبة باب الشارع، يخرج كوكو من بيتهم وعلى

رأسه ضمادة بيضاء، لا يلتفت إليّ، أظل أبحلق به حتى يختفي وراء المنعطف.. تأتي ظلال رأس زهرة على الأرض وتذهب، تصلني رائحة بهارات طرية، أنزلق بظهري على عمود الإنارة وأجلس على القاع..أتأمل نملة تمشي على ذراعي وأسمع صقر يقول لأمي في الغرفة أنه سيسافر مع صديقه، تسقط النملة على الأرض، أضع يدي لها وأتابعها تصعد من جديد.. يعاتبني أبي على رسوبي، باب الديوانية مغلق، شهادتي على الأرض..أختي تقول إنني سأنجح في السنة القادمة.. تعطيني أمي شرابًا مسكنا لألم الرأس، تقول إنه يُخرِج الهواء المتسرب داخل الجمجمة.. ثلاث نساء يمررن بجانبي، وأنا أسير إلى حديقة جدة سعيد، تهمس إحداهن: «هذا ولد أم صقر»، يلتفتن إليّ جميعهن فتسأل إحداهن: «ما له نحل هكذا؟»..ينظر إليّ مرعي وأنا جالس على سور حديقة جدة سعيد، يهز رأسه ويدخل البيت.. أركض خلف رجل في شارع، الجو يفحّ حرًا، يلتفت إليّ الرجل قبل المنعطف، أقف فجأة وأعطي دقّات قلبي وقتا تفهم فيه أنه ليس الرجل الملثم.. ألتقي ببشار وعزوز العور وأنا عائد إلى بيتنا، يسلم عزوز فلا أرد عليه، يضحك بشار ويقول كلامًا لا أسمعه، أنعطف إلى شارعنا ويكملان إلى شارع عباس.. شمس حارة جدًا في حديقة جدة سعيد.. أبحث في الحديقة عن نملة تتسلق يدي.. رطوبة تبلل أنفاسي.. أبصق عنبًا مرًا.. تدهنني أمي بزيت زيتون، وتتلو المعوّذات.. يناديني كوكو، الوقت ليلا، وأنا جالس أمام عتبة باب الشارع، أغلق الباب خلفي.. أبي يرفع حذاءً قِستُه ويقول للبائع: نريد مثل هذا المقاس .. أتشاغل في الصالة بلصق طرفي شريط فيديو مقطوع، والشعور بأن غدًا أول يوم مدرسي يضايقني.. ممر صفوف الرابع المتوسط طويل أمامي، أجد اسمي في كشف أمام أحد الفصول، أجلس على آخر طاولة جهة الباب، يغير الولد الذي بجانبي مكانه..أدخل الملعب في حصة رياضة، يخرج خمسة أولاد من الفريق الآخر معتذرين بأن الحر خانق، أتظاهر بأنني ذاهب إلى الصف، فأراهم من خلف الباب يعودون إلى الملعب..أختي تسطّر دفتري، وتحدثني عن ضرورة الترتيب إذا أردتُ أن أنجح بلا جهد، لإن المدرس يتساهل مع أخطاء الطالب

المرتّب فيعطيه درجات أكثر. أقذف كتبي، خارج سور المدرسة، ثم أرمي بنفسي، وأذهب إلى بيت أم غريب.. أصحو صباحًا، أرى العالم يبتعد عنّي.. تحت سدرة جدة سعيد أتابع نملة تتسلق يدي، تقف دورية أمامي لا أوليها اهتمامي، يقول صوت: «كيف حالك فهد؟»، أدير كفي كي لا تقع النملة، يقول الصوت: «ألم تعرفني؟ أنا عادل، الملازم عادل» تسقط النملة، أنظر إليه منزعجاً من تشتيته انتباهي، وجهه ليس كما كان آخر مرة، نحف، تنعطف ملامحه، أرى الشفقة تحوقل في وجهه، يسألني عمّا أفعله هنا، أخبره بأنني أخذت إجازة من المدرسة، يطلب مني أن آتي معه ليصطحبني إلى البيت، فأقول له إنني سأذهب وحدي.. مسندًا رأسي إلى كتبي تحت سدرة جدة سعيد، والهواء الفاتر يحيط بقدميّ العاريتين، أتخيل بيت أم غريب ينطق ويقول لي ما حدث. توقفت دورية أمام الحديقة، اشرأبّ الملازم عادل من خلف المقود، نزل لمّا رآني، اعتدلت، وضعت قدمي بحذائي، قال وهو يتجاوز السور وخيط ابتسامة يعقد على شفتيه: «أعطوك إجازة اليوم أيضًا؟».

يتسارع المشهد فأجد نفسي في مكتبه في المخفر، والباب مغلق علينا، ثم يمشي الشريط الذي يعرضني طبيعيا.

أمامي كأس عصير برتقال، يقول عادل: «من الآن نادني عادل فقط». أهز رأسي: «حاضر».

«قل لي يا فهد، لماذا تهرب كل يوم من المدرسة وتجلس في حديقة صديقك سعيد؟». أرفع كتفي: «لا مكان غيره، سيعاقبني أبي إذا عدت إلى البيت». يضيّق عينيه، ثم يحاول اصطيادي: «ألم تسمع عن أي خبر بخصوص سعيد؟». «لا». «ألم تحاول أن تبحث عنه؟». «لا». «لو كنت مكانك واختفى أحد أصدقائي لبحثت عنه في كل مكان.. إلا.. إلا إذا كنتُ أعلم أين هو مسبقا». نصمت، يخرج من مكتبه ويجلس بجانبي على الأريكة، ويتابع: «فهد، أعدك أنّ ما ستخبرني به الآن لن يعلم به أحد، أقسم على ذلك، أعرف أنك تعرف شيئاً لا تريد أن تقوله، انظر إلى وجهك كيف نحل، جئتُ بك هنا كي تخبرني، أريدك

أن تعلم أنني في صفّك.. مهما كان ما ستخبرني به، أنا معك.. منذ البداية يا فهد وأنا معك»، يتمدد صمت غليظ بيننا، أسمع صوت عقرب يدبّ من ساعة على شكل كرة قدم معلقة على الحائط، يتابع عادل بصوت هامس: «أتعلم أنني أخفيت السكين التي قالوا إنك رميتَها في بيت أم غريب؟»، تفترّ شفتاه عن ابتسامة، ويكمل: «كلنا نخطئ يا فهد، ونحتاج إلى أن يأخذ أحدنا بيد الآخر، القوانين لا تعترف بهذا»، يتوجه بعينه إلى الجدار ويتابع: «القوانين تريد منا أن نجرّ بعضنا إلى السجن وإلى حبال المشانق، لا تعترف أننا كبشر مجبولون على الزلل، إنها تركز دائمًا على الصخرة إذا سقطت، ولا تريد أن ترى الجاذبية الأرضية.. يجب أن نتسامح مع الأخطاء غير المقصودة، تفهُّمُ أسباب الأخطاء وربطها بالسياق العام للأحداث يتيح لنا التصالح مع النفس، هل تفهم ما أقوله فهد؟». أهزّ رأسي بـ: «لا». فيهون: «لا عليك، ستكبر يومًا ما وتعرف. الآن أريدك أن تفتح لي قلبك، وتخبرني عن آخر مرة رأيت بها سعيدًا».

صوت عقرب الساعة يتكتك لنصف دقيقة، أتحسس أثناءها حركة نملة في يدي، وأقول في نفسي: «ما الضير، لن يصدقني». أضع عيني بعينه: «احلف إنك لن تقول لأحد»، يحلف فيما وجهه يكشف رضاه عما أفعله، يدبّ عقرب الساعة ينقر الزمن لوهلة، فأزيحه: «رأيتُه يرتفع إلى السماء..».

يتوقف عن الكلام، تخرج الخادمة من الغرفة، تهتز الكاميرا فتظهر الأرضية السيراميكية ثم صوت إغلاق باب حديدي، وبعد ذلك تأتي الأريكة فتتحرك الصور بالشاشة سريعًا، السقف، السرير، الخزانة، ثم يعود وجهه:

أخبرت عادلا بكل ما رأيته، أطلتُ في وصف الأضواء لأنني كنت بحاجة إلى وصفها لنفسي أيضًا، ومددت حرف الفاء لأصفَ له الأصوات النفاثة. راحت عيناه تحمرّان تدريجياً، أدار وجهه يميناً وشمالاً مع نهاية الحادثة كما لو أنه

يبحث عن وعاء يفرغ فيه بطنه، ركزت عيني على الحائط، وأكملت أخبره عن الرجل الملثّم، والمرتين اللتين رأيته فيهما، أقسمت إنه نفس الصوت الذي طلب مني ألا أخبر أحداً عمّا رأيته؛ لذلك أنا أنتظر عودته دائمًا، في حديقة جدة سعيد، منذ ذلك اليوم؛ لأتسلّم رسالة سعيد. صمتَ لمّا لم يعد لدي ما أقول، فوجدتُه يبكي بلا صوت.

خرج من المكتب وتركني أمسح عيني في الحائط، شعرت بالارتياح لرؤية من يبكي من أجلي، هذا يعني أنه تأثر بكلامي، وأنه يصدّقني. عزمتُ في الفترة القصيرة التي خرج بها المضيّ وأخبره بما لديّ من أفكار حول كون سعيد ليس من سكان الأرض، أتى من السماء، ثم عاد إليها لمّا لم يعد لديه أحد، وقد تكون أمه هي من جاءت تأخذه، واستخدمت الغيوم لتخفي مركبتها الفضائية عن الناس. عاد بعد برهة وجلس على كرسي مكتبه، وجهه محتبس ومبلل. قال وهو يمسح أنفه بكلينكس: «أنا سعيد أنك أخبرتني بالحقيقة، وتأكّد يا فهد بأنني أصدّقك في كل حرف قلتَه». شعرت بأن شوارعنا تنزاح عن كاهلي، نظرت إلى قدمي أخفف تدفق بكائي، سألني: «هل أخبرت أحدًا بما قلتَه لي؟»، وسّعت صدري وهززت رأسي بالإيجاب: «سعد كوكو، لكنه استهزأ بي، قال إن..»، صمتُّ عاضًا على رغبتي بالبكاء.

«وما رأيك أنت في ما رأيتَه؟» سألني. أمسكت عن الكلام أشدّ حاجبي على البلاط. استدرك: «أعني هل لديك شكّ في أن ما رأيته ليس حقيقة.. وهم أم.. أم تخيلات». فردتُ حاجبي أهتف: «الرجل الملثم» والتفتُّ إليه: «أمي رأته أيضاً، حسبَتْه جاء يخطفني، الملثم يعرف أن شيئاً حصل تلك الليلة في بيت أم غريب، لهذا أنا أنتظره». سكتنا، أنا أشاهد قدمي وهو يدير رأس قلمه في ورقة أمامه، حتى طالعته وقطعتُ الصمت: «أنت تصدقني، صح؟». ترك القلم ونظر إلي مبتسمًا: «أكيد أصدقك، لكن أنت تعلم يا فهد أن ما رأيته.. لا أعرف كيف أقولها.. طيب.. ما رأيته لا يصدق لكن.. لكن أنا أصدّقك لأنني قلت لنفسي ما الذي يجعل ولدًا في سنك يقول مثل هذا الأمر الغريب إذا لم

يكن رأى شيئا كهذا. لا ألوم صديقك لمّا كذّبك، هذا أغرب سبب يمكن أن يقال عن اختفاء أحدهم». طالعت قدمي وقلت: «لا، هناك أغرب من ذلك». «ما هو؟». «في المدرسة يقولون إنني قتلت سعيدًا، يقولون إنني أقتل أي ولد لا يعجبني، الآن يقولون إنني قتلت بشارًا أيضًا». يجمد المكان لحظة ثم يسيل مع صوته: «ألهذا تهرب من المدرسة كل يوم؟». أطلقت حبل صدري فجرَت أنفاسي متسارعة. رأيت نملة تسير بجانب الطاولة المستطيلة أمامي. لم يكن ابتلاعي المتتالي لريقي بقادر على رد الدفق الحار للبكاء إلى أعماقي، هززتُ رأسي بالإيجاب، وبكيت.

التسجيل الخامس والثلاثون

الهدية

جالساً خلف المقود في سيارته، يلف رأسه بشماغ أحمر، يبدو أن الوقت ظهر، الجمعية الرئيسة من ورائه، تهتز الشاشة إلى الأسفل، يظهر ناقل الحركة لثانية، ثم يعود وجهه منشغلا بالنظر يمينًا وشمالا فيما ترجع السيارة إلى الوراء، أربع ثوان وتضطرب الشاشة فيظهر ناقل الحركة وأزرار التحكم بالتكييف والمسجل، فيعود وجهه من جديد، تتحرك السيارة إلى الأمام، يأتي من خلفه المخفر، يقف ثواني ثم ينظر إلى اليمين ثم يضرب منبه السيارة، ينعطف ثم يسير للأمام برويّة فتعود الجمعية للظهور، يقول:

ارتصّت أعين أولاد صفي حول علبة الهدية، بين الحصة الأولى والثانية، طلب مني ولد، وعيناه تلهثان عليها، أن أستعجل فتحها. تبددت صورة الرجل الملثم من خيالي، وقلت له حاملا نفسي على الابتسامة أن يفتحها هو، تدافعت الأيدي على فكّ الرباط، تحرك على أثرها الكرسي والطاولة التي أمامي وطاولتي، توتر الصف لحظات، حتى هدأت الحركة، وعمّ الفصل الصمت، ثم أتوني بكتاب ضخم، وضعه ولد أمامي كما لو أنه شعر بالخيبة من كون الهدية عادية. تذكرت أن عادلًا حدثني عن القراءة في لقاءاتنا التالية، وعن أشياء تفعلها

الكلمات بالعقل.
طُبع على الغلاف بكلمات كبيرة: ألف ليلة وليلة، وتحته كلمة صغيرة: للأطفال.
قلّبت صفحاته، وجدت كلمات كثيرة للغاية، أكثر مما كنت أظن، وكلامًا كُتب بقلم حبر على أول صفحة، قرأت:
الأستاذ فهد
اقرأ، وشاهد، وتمتع، وقل لنفسك كل يوم: أنا في أمسّ الحاجة لهذا اليوم، واقرأ، واقرأ، واقرأ. أريدك أن تعرف شيئا واحدًا فقط؛ أنك مميز ليس لأنك رأيت شيئا لم يره أحد من قبلك، بل لأنك الوحيد في هذا العالم الذي يكون أنت.
ملحوظة: بعد الخروج من المدرسة، ستجده في انتظارك أمام الباب.
صديقك المخلص أبدًا: عادل.

ينعطف يسارًا فيبدو مبنى بنك الخليج بجانب المخبز
ويتابع التقدم بأناة:

أُفعمتُ بالحماسة، هناك مفاجأة تنتظرني! من سيكون في انتظاري؟ جرت في رأسي توقعات كثيرة أقربها كان بشارًا، ربما سيحضره عادل حتى يراه الطلاب ويتأكدوا أن ما قيل هو افتراء. وضعت الكتاب داخل الدرج، جاءنا مدرس الرياضة، أخذنا إلى الملعب، وفيما كنّا ننزل من السلم، اقترب مني أحد الأولاد يقول: «فهد، أريدك أن تكون في فريقي»، هززت رأسي بالإيجاب.
اتّسع صدر الملعب لي، وقفت في منتصفه أنظر حولي إلى فريقي، ورحت تلقائيًا أوزع الأدوار: أنتم الثلاثة دفاع، وأنت ظهير أيمن، أنت أيسر، أنت وأنت وأنت هجوم، أنا وأنت وسط، ولمّا بدأت المباراة، شممت رائحة بهارات غريبة، تهبّ مع الهواء الآتي من قطعتنا.
أذكر أنني لم أسجل هدفاً تلك الحصة، لكنني صنعت كل الأهداف الأربعة.

وركضت مع البقية وراء الولد الذي يسجل الهدف.

يتوقف منعطفا يمينًا، يلتفت شماله، ثانيتين ثم يتقدم خارجًا إلى الشارع العام، وتُرى مواقف المخفر الخارجية قريبة من ورائه:

مر ذلك اليوم بسهولة، كان الأولاد ينظرون إليّ وأنا أسير في الممرات، مع أولاد كانوا في فريقي، دون أن يتعدوا عنّي. وقفنا في طابور الكافتيريا، وجلسنا في زاوية الصالة نأكل. التمّ أبناء صفي حولي في الفصل، تحدّثنا عن المباراة التالية، وقال أحدهم إنه يريد أن يكون في فريقي الحصة القادمة.

يصمت ناظرًا إلى يمينه، ويبطئ السرعة، يدير الشاشة على الكاميرا الخلفية، أظهر أنا أمام سيارتي، بجانب مسجد الجمعية، أمام الحفرة التي قبل الدوار، يقول:
سبحان الله يشبه.. سعيدًا.

أنظر إليه ثم أرفع يدي وأدوّر قبضتي وأصابعي مبسوطة بعلامة «ماذا هناك» يقول هامسًا ببطء: لا شيء.. أنت فقط.. فقط تشبه سعيدًا، لو.. لو أن أسنانك الأمامية متقدمة قليلا.

يبعد الكاميرا عنّي إلى المواقف ثم إلى المدرسة، فالمستوصف، ينعطف مع الدوار تعود الكاميرا لوجهه الذي ينظر إلى الأمام ويكمل:

سبحان الله..

أين كنت؟.. آه عندما رن الجرس.

عندما رنّ جرس الخروج تدافعتُ مع الأولاد في ممر الخروج أريد أن أعرف من سيكون في انتظاري، وجدت الطلاب مجتمعين أمام المواقف، ينظرون باتجاه واحد. دسست نفسي بينهم حتى رأيت سيارة سر الليل الذهبية تقف بجانب الرصيف، ومن البعيد، وراء الدوار، كانت دورية واقفة دون أن تشغل الفلشر، عرفت أن عادلًا وراء هذا، تقدمت إلى الزد الذهبي، وقفت عند الباب ورأيت انعكاسي بشكل مضحك على باب الزد والزجاج المظلل. أنزل سر الليل فرجة من النافذة وقال بصوت أنفه: «اركب». التفتُّ ورائي، وجدتُ عيون الأولاد، الذين تجمهروا بعدد كبير خلفي، تندمج ببعضها. قال صوتي الحكيم: «قد لا تصبح ولدًا عاديًا إذا ركبت». تخيّلت ماذا سيحدث في الغد، سيتحدثون عني، سيقولون إنني صديق سر الليل، ستبدأ نظرات الإعجاب تلعق وجهي، سيفسحون لي الطريق، وسيطلبون مني تجاوزهم في طابور الكافتيريا، سيكون تعاملهم معي منطلقا من أنني صديق سر الليل، وليس لأنني فهد، وستبث التصرفات المتزلّفة ألوانها الفاقعة حولي. «افتح الباب» قال سر الليل «الملازم عادل قال لي أن آخذك معي في الخروج». مسحتْ أنفي رائحة سجائر أتت من الداخل، قلت: «لا، لا أريد، لا أريد». استدرتُ إلى جمع الأولاد ووقفت معهم أنظر إلى سيارته، أغلق الزجاج وتحرك بأناة. قال ولد يقف بجانبي: «ماذا قال لك؟». نظرت إلى دورية عادل، تخيّلته يبتسم الآن، أجبت: «قال لي ابتعد من هنا». فقال آخر: «كيف كان شكله؟»، أجبته وأنا أتذكر النظارات المقعرة لما كانت تلتمع في نظارة المخفر: «لم أستطع رؤيته».

عُدت إلى البيت مع اثنين من أولاد قطعتنا، أقلّب كتاب ألف ليلة وليلة، فيما كانا يتحدثان عن سر الليل.

يبطئ السرعة، يتمايل رأسه من مطبة:

بعد أسبوعين لم أقرب بهما سكة زهرة، تبدد حنقي عليها وحل مكانه تفهّم لردّة فعلها، وذلك لأن عادلاً قال لي، ونحن في مكتبه، أن أضع نفسي مكانها وأرى ما أنا فاعل. زهرة فتاة، تخاف على نفسها، وأنا قدت نفسي إلى أماكن شبهة، بالتأكيد لن أجرّب وأصاحب ولدًا يُحتمل أنه قتل. وعلى الرغم من هذا، ظلت رائحة البهارات من ذكراها، تمسّ أنفي مع كل لحظة استمتاع.

صارت المدرسة ليّنة، بل صرت أحب الذهاب إليها لأفتح الشباك على وحدتي. استمررت أجلس في حديقة جدة سعيد، أنتظر الملثم يأتي، كل صباح في أيام العطل والأيام التي أتغيب بها عن المدرسة. كنت متأكداً أنه سيأتي لكنني قلت إنه يحتاج إلى وقت، أو ربما غيوم حتى لا تُرى مركبته ولا يترك مجيئه أثرًا له في السماء.

يتوقف وينظر إلى يساره، ثلاث ثوان فيتحرك ويستدير
مع دوار، ويكمل:

خفف كتاب ألف ليلة وليلة من أوقات جلوسي أمام التفاز. مشاهدة الكلمات تجري أمامي على الأسطر أكثر هدوءًا من الصور التي تسطع ألوانها وتؤدي الموسيقى وراءها دورًا يفوق دور الكلمات. تحدثتُ مع عادل في زياراتي اللاحقة له، أثناء مناوباته العصرية، عن هذا الموضوع. حدثني أن القراءة فعل يعطي العقل حريته في الفهم، أما الصورة فتجبره، تقيّده، تسوقه وراءها. وقال إن أثر الكتابة يفوق أثر القراءة. في القراءة نحن نستخدم الكلمات، في الكتابة نصنعها. توطدت علاقتي معه سريعًا، لولا أنني متأكد أنه من أهل الأرض لقلت إنه أتى من السماء، كان لديه استعداد سماوي ليجد عذرًا لكل خطأ، ومقدرة عجيبة على الفهم، وكان يحب أن يسامح.

أخبرني أنه يكتب كلما أحس بأن شيئا ما يؤرّقه، ويقرأ أكثر مما يكتب، لكنني لم أحب الكتابة، أشعر أن الخواء يصدع جدران رأسي عندما أكتب. علّل

عادل هذا بأنني قد أكون أحب الكلام، ونصحني بأن أسجّل صوتي وأتحدث عن الأشياء التي تزعجني ثم أستمع للتسجيل. هذا ما فعلته، أغلقت علي باب غرفتي، وصحن عنب بجانبي، ثم ضغطت على زرّي التشغيل والتسجيل معًا، في مسجّل أختي، وتحدثت في المرة الأولى عن سعيد وارتفاعه، وفي المرة الثانية عن الرجل الملثم.

يصمت، يرفع رأسه ينظر من المرآة الداخلية، ينعطف يسارًا، ثم تهتز الشاشة، ويصعد إلى ساحة ترابية، يتمايل رأسه قليلا، ويتابع:

غمرني ارتياح دافئ حينما أعدت سماع صوتي يقول ما حدث للمرة الأولى، أعدته مراتٍ كثيرة، وتوقفت كثيرًا أعيد تسجيل جملة أرى أنها تخدم الفكرة وأرجع أستمع، كأنني أصبح غيري. مع التكرار، يومًا وراء يوم، بدأت أشعر أن هناك شيئا مختفيًا في ما جرى ذلك اليوم، شيئا لا يريد الكشف عن نفسه، فواصلت التسجيل مرارًا، أعود من المدرسة، أغلق باب الغرفة وأزاول الحديث الذي فكرت به أمام المسجل، ثم أستمع مفكرًا بما قلته، حتى تعزز صوتي في داخلي، وغارت نبرتي الحكيمة، وجعلتِ الأسئلةُ تتدفق. بلغ بي الأمر أن دخلت بيت أم غريب في أحد الأيام الممطرة، وقفت في منتصف الحوش تحت المطر، مغيباً كل الأشياء من عيني، أنظر إلى المكان الذي ارتفع منه سعيد.. استعدت المشهد، حيث كانت السماء تمتصّه، ويرتفع مثل بالونة في ريح ساكنة، فبدأ الدخان ينبثّ من ذهني.
قلت لعادل إنني أشك في ما حدث ذلك اليوم لسعيد. التسجيلات ساعدتني على الوصول إلى سكة مظلمة في عقلي. طلب مني أن أؤجل الموضوع قليلا، وأن أفرّغ تفكيري الآن ووقتي لاختبارات نصف السنة.

يركن سيارته في المظلة، وينزل، تطلّ منارة المسجد، ثم تدور حديقتهم، تهتز الكاميرا فتضطرب الصور على الشاشة، فيتوقف تحت مظلة، تثبت الكاميرا على وجهه:

سيطر عليّ التفكير بالملثم، أسرح دائماً في تخيّل وجهه الذي يخفي ملامحه السماوية خلف اللثام، أتصور عينيه مثل قطرتي ماء، وفمه بقعة صغيرة، وأنفه قطرة ماء تسيل، يخرج رذاذ مطر من فمه إذا تكلم، وإذا نفخ يخرج من صدره ضباب؛ يجلس مع سعيد بين مجموعة أشجار، يأكلون كيكا ساخنا وأمامهما عنب، يضحكان على تصرفي أمام بيتنا عندما سألني عمّا رأيت في بيت أم غريب. صرت أذهب بعد الخروج من الاختبارات إلى حديقة جدة سعيد، وأترك مخيلتي هناك تستخدم كل الأشكال التي رأيتها، وكل المعلومات التي عرفتها لتصنع شكلا للمكان الذي فيه سعيد الآن. وفي كل يوم يمرّ كان يقيني يزداد بأن لحظة نزوله قد اقتربت. صرفت جل وقتي في إعداد الأسئلة التي سأطرحها عليه، وقد جعلت أول سؤالين: هل لديك دليل على أنك أتيت من سعيد؟.. كيف حال سعيد؟ انتهت الاختبارات دون أن يأتي، وازداد شعوري بأنه يقترب، فأصبحت عطلة نهاية الفصل الأول عبارة عن وقت انتظار وترقُّب. كنت أتوقع حضوره باللحظة القادمة، وعندما يخيب توقعي تدفعني الخيبة إلى التمسك باللحظة التي وراءها، فأصبحت أصحو مبكراً لأجلس في حديقة جدة سعيد إلى الظهر، ملتحفاً بفروة صقر القديمة -وقد أصبح طولها مناسبًا لي- أعد اللحظات، ثم أعود إلى البيت لأتناول الغداء وأرجع هناك حتى العصر، ثم أذهب إلى غرفتي، أربّت على رأسي بـ «غدًا سيأتي، غدًا»، أفتح كتاب ألف ليلة وليلة، وأقرأ فيه قصصًا تبعث في داخلي الأمل في حدوث أشياء لا تصدّق، وبعدها أضع الشريط في المسجل، وأتحدث.

تهتز الشاشة، تمتلئ بالسقف، والضوء الداخلي منار،

تُسمَع خريشة أكياس، تهتز الشاشة بصور سريعة لداخلية السيارة، يفتح الباب، تضطرب الشاشة بلون التراب، وتثبت قليلا على عتبة الباب، يفتحه، تعود الكاميرا إلى وجهه ومن ورائه مظلة السيارات وخلفها المسجد، يتابع واقفًا:

تمنيت ذلك الحين أن لدي كاميرا فيديو، أجلس أمامها وأسجلني وأنا أقول ما رأيته ثم أراني وأنا أتحدث عن أفكاري، وأصور الأماكن التي حدث بها ما حدث، مثلما أفعل الآن. شعرت أنني إذا شاهدتُ كل هذا فربما سيزداد شعوري بأنني أحد غيري، فأخرج من كوني أنا، وأحكم على طريقة كلامي وتعابير وجهي، من مسافة بعيدة، لربما تمكّنت من معرفة ما هو الشيء الذي خفي علي.

يتقدم، يغلق الباب، تصير الإضاءة واهية، يتحرك، تشتغل أضواء الغرفة، يرمي شماغه، يكمل:

نصحني عادل أن أترك التفكير في الرجل الملثم، وأنتبه إلى دروسي فقط، فالفصل الثاني سيبدأ غدًا، وعلي الاستعداد. لكن إحساسي بأن الملثم سيفوتني جعلني أتسلّق السور وأذهب إلى حديقة جدة سعيد، وأمكث هناك حتى أذان الظهر. لدي يقين كامل بأنه سيأتي، رغم أن عادلًا يحاول أن يشعرني بغير ذلك. في كل مناوبة عصرية آتيه بها، يحاول أن يصغّر أمر الرجل الملثم، ويقول إن من رأى شيئا بعينه لا يحتاج إلى كلام لتأكيده. لم ألتفت لمحاولاته تلك، كنت أردّ عليها في المسجل، أقول إن كون أحد هناك يؤكد لي ما رأيت لجدير بأن أنتظره طوال العمر؛ ثم إن هنالك رسالة من سعيد عليّ معرفة ماذا تحتوي.

يخطو إلى الأريكة وهو يتحدث:

زلّ لساني عند عادل مرة، في ثالث أسبوع من بداية الفصل الثاني، أخبرته بأنني أهرب من المدرسة كل يوم بعد الحصة الرابعة، لأنتظر الملثم. كانت ردة فعله مواربة، مشت عيناه على الحائط بروية، ثم قال لي بأنه اختياري وحريتي، ووضع أمامي مستقبلي الذي يمكن أن يذهب به تفكيري بالرجل الملثم إلى الهاوية. استمررت بعدها بتسلق السور، والانتظار أمام بيت أم غريب إلى أذان الظهر فالعودة للمدرسة قبل جرس الخروج.

يجلس على الأريكة، ويظهر وجهه، يتنهد:

وفي يوم إثنين..

يسكت، تبتعد عينه عن الكاميرا إلى السقف، وينبسط وجهه بابتسامة:

مازلت أستطيع الشعور بهوائه البارد، كنت جالسًا على سور بيت جدة سعيد من جهة الحديقة، فقررت أن أشعل نارًا تساعد جاكيتي على حمايتي من اندفاع الهواء البارد إلى عظامي، وفيما كنت ألتقط قطع خشب صغيرة من بقايا الجذوع، وأجمعها في زاوية الحديقة، خرج الرجل الملثم من بين سيارتين كانتا مركونتين قرب سور الحديقة، شممت رائحة مطر قوية مع الهواء البارد، فتوقفتُ أنفاسي فجأة كأنني شرقت بسحابة متكتّلة.

التسجيل السادس والثلاثون

رسالة من سعيد

يرتدي فانيلة بيضاء عليها خطوط بُنّية رفيعة بالعرض. نفس الملابس التي رأيتها عليه يوم توفي، يصمت ينظر إلى وجهه على الشاشة، وجهه منفرد، يعض شفتيه ويهز رأسه بلطف كمن يستعدّ لقول أمر مبهج، ثم بنبرة متحمسة يقول:

دخلت المخفر ألهث، بحثتُ عنه في مكتبه، فلم أجده، ولما توجهت إلى غرف الشرطة سمعتُه يناديني قادمًا من باب مواقف المخفر الداخلية، دخلتُ مكتب قبله، ورميت يدي على الأريكة أقول: رأيته، الرجل الملثم، الرجل الملثم، أقسم بالله، ولهثت حتى تمكنت من السيطرة على صدري، وقلت: أَخْبَرَني، أقسم. أقسم بالله، أخبرني أن ما رأيته حقيقة.

أسرع بي عادل في سيارته الخاصة، إلى شارع أم غريب، آخذا في طريقه المطبات بلا توقٍّ، ومندفعاً بقوة على الدوار والمنحنيات، صامتا طوال الطريق كأن يعيد حساباته من جديد، لأن الدليلين اللذين أعطانيهما الرجل الملثم قاطعان في دلالتهما أنهما من سعيد جونكر. كنت متعباً من الطريق الذي جريته بكل سرعتي إلى المخفر، فُتحت كل الشبابيك التي بداخلي وتضوعت منها رائحة بهارات ومطر.

كررت، طوال الطريق، في نفسي وأنا أمسك بـ(التابلون): «رأيته، رأيته وكلمته

أنا وحدي فقط، يا الله، وحدي فقط». وقفنا أمام حديقة جدة سعيد، وأخذ عادل يلقي رأسه في كل مكان، أعدت عليه مؤكدًا: «قلت لك، ذهب ذهب، وقال لي ستكون هذه آخر مرة آتي بها إلى الأرض». كنت أصعد إلى السماء حماسًا وأعود إلى الأرض. أضفت: «لم يرَ إنسان قبلي أحدًا من أهل السماء». رمقني عادل بنظرة حائرة، عرفتُ منها أن قلبه يتذبذب بين التصديق والشك. تابعت: «أنا لم أكن لأصدّق ما رأيت، ولولا الدليلان، والأشياء التي قالها ولا يعرفها إلا أنا وسعيد، لقلت إنني.. إنني أتوهم أو أحلم.. أتذكر؟» قلت له وهو ينظر من المرآة الداخلية إلى الشارع خلفنا: «أتذكر عندما أخبرتك أنني علّمت سعيدًا كيف يكتب اسمه، الطريقة نفسها، أليست هذه؟» وأخرجت، مرة أخرى، الورقة التي أعطانيها الرجل الملثم، تطلّع بي عادل كما لو أنه يقول: ربما أنت من كتب هذا. فقلت رافعًا الدليل الآخر: «وهذا، أليس دليلا أيضًا؟»، أفلتت عيناه وجهي وعادتا إلى البحث في الشارع. نزلت من السيارة، أخذتُ كتبي من تحت السدرة. «طيب» قال عادل وأنا أصعد: «ألا تعرف في أي اتجاه ذهب؟». «لا» أجبته أغلق الباب: «طلب مني أن أركض إلى البيت حالا دون أن أنظر ورائي لأنني سأصاب بالعمى إذا طالعته وهو يصعد. قال إن الأضواء تسلب نظر البشر، حتى إنه تعجب أن نظري سليم لحد الآن على الرغم من أنني رأيت الأضواء، وعزا هذا إلى أنني رأيت وهجها فقط، ولم أرها هي عينها، وقال.. وقال إنني ولد مميز». وقف مرعي بسيارته أمام الباب فتحركنا ببطء عائدَين إلى المخفر.

طلب عادل أن أعيد عليه ما حصل بكل تفاصيله، فقلت:

«كنت أستعدّ لإشعال النار، فإذا بشيء يتحرك من بين هاتين السيارتين»، أشرت إلى السيارتين اللتين خرج من بينهما الرجل الملثم: «انتشرت رائحة مطر، ولم أصدّق أنه الرجل الملثم، إلا حين اتجه إليّ ووقف أمام سور الحديقة».

«ما لون لثامه؟».

«شماغ أحمر، مثل الذي يرتديه أبي».

«وكيف كانت نظاراته؟».

«سوداء، مستطيلة العدسات، داكنة، أتوقع أنها تمنع الرؤية، ربما هو لا يرى مثلنا بعينيه، يرتديها ليغطي شكل عينيه الغريب».

«طيب.. أكمل».

«وقفت، كنتُ أريد الهرب، لكنني قلت في نفسي: أليس هذا من أنتظره؟ وثبتُّ مكاني»، ابتلعت ريقي ثم تابعتُ ونحن ننعطف خارجَين من شارع بيت أم غريب: «وقف خارج السور، وأشار لي بيده وبهزة من رأسه أن أقترب. دفعت نفسي صوبه. كنت أخشى أن تكون مكيدة. فقال لي بصوته الممطر ذاته: أنت فهد أليس كذلك؟ جمدت لحظة ثم هززت رأسي بالإيجاب، فتابع: سعيد يسلم عليك، ويقول لك إنه بخير، ويتمنى لك أياماً طيبة. عجزت عن النطق، إذ لم أستوعب ما يقول، فأعاد ببطء كأنه علِم أنني لم أستوعب: سعيد يبلغك سلامه.. ويقول لك إنه بخير، في مكان جميل ومريح، ويتمنى لك حياة طيبة. أخذنا نصف دقيقة تقريبًا من الصمت، ثم أضاف: ويسألك أيضاً.. أما زلت تفكر به؟ هززت رأسي وقلت: كل يوم. مسحت عيني بكم جاكيتي. فقال: هو يطلب منك ألّا تفكر به، لأنه لن يعود إلى الأرض، ويريدك أن تهتمّ بنفسك فقط، وأيضًا يشكرك على اهتمامك به طوال فترة صداقتكما. فسألته: هل تحدث عني؟ نظر إلى السماء قليلاً ثم عاد يقول: نعم، كثيرًا. مثل ماذا؟ سألته. أجاب بعد ثوان: مثل يوم القرقيعان، خرجتما أنتما ومعكما أخوه، اليوم الذي تعرفت به على زهرة. أخرج يده من جيبه بهذه الورقة، كان يرتدي قفازات سوداء جلدية كي لا أرى شكل يديه الحقيقي»، رفعت الورقة أمام عادل وتابعت: «وقال إن سعيدًا كتبها من أجلي. كما ترى»، قلت لعادل: «عندما رأيت اسم سعيد بالطريقة التي علّمته كيف يكتبه، جلست على الأرض آخذا وجهي بين ركبتيّ، وفي ذاكرتي يطلّ وجه سعيد، تحت السدرة، وهو يحاول إتقان حرف العين. جلس الملثم على السور، فاقتربت مني رائحة مطر قوية، وقال: ويريد سعيد أن يعيد لك هذه، لأنه ليس بحاجتها. وأخرج من جيبه محفظتي، محفظتي هذه»، رفعت المحفظة «أتذكر؟» قلت لعادل: «أتذكر عندما قلت لك

إنني أعطيت سعيدًا محفظتي في ثاني يوم عيد».

تلمع عيناه، ويتسارع إيقاع رمشه لثانيتين، ثم يعود لطبيعته، ويتابع:

توق عادل مطبة قبل الدوار، ولما تجاوزها نظر مستسلمًا إلى المحفظة. أعاد رأسه إلى الشارع وقال: «لا أعرف ماذا أقول لك، أنا فعلا في حيرة، اعذرني، ضع نفسك مكاني وقل لي هل تصدق أم لا؟». «لا.. لن..»، صمتُ ثانيتين، وعدتُ متحمساً: «لكنني لن أكذّب.. حسنا.. أنا نفسي كنت أشك في ما رأيته، لكن بعدما رأيت الرجل الملثم، والاسم بخط سعيد، والمحفظة، أصبح كل شيء واضحًا كأنه الشمس».

قلّبت المحفظة ونحن عائدان إلى المخفر، أستعيد بها وجه سعيد عندما نزلنا من موستنج حسن. رغبت بالبكاء والضحك في نفس الوقت. ركن عادل سيارته في المواقف، توجّه إلي يقول: «طيب.. وماذا قال لك أيضًا؟».

«قال لي ألّا أفكر بسعيد، ولا أتحدث عنه لأحد مهما كان، يريدني أن أنساه»، صمتُّ وهلة واستدركتُ: «و.. وسألته عن.. كيف مكانهم في السماء، فقال إن هذا يصعب وصفه لأن الأشياء هناك ليست مثلها هنا، و.. وطلبت منه أن يريني وجهه، فاشتدّ صوته يقول: لا لا، إذا رأيتَني فستذهب عيناك إلى الأبد. فعرفت أنه مكوّن من ضوء ساطع. و.. وهذا كل شيء. ركضت بعد ذلك إلى طريق البيت دون أن ألتفت ورائي، كما حذّرني، وجئتك أركض لأخبرك».

ألقى عادل نظره إلى البعيد وحكّ حنكه، زامّاً شفتيه على جنب، يقلّب الأمر في رأسه. فقال أخيراً، بعد أقل من دقيقة: «لا يمكنني إغفال الأدلة التي جاءك بها، لكن كما تعلم فهد، أنت قلتَها بنفسك، إنك لم تصدق حتى رأيته، أنا كذلك لن أصدق حتى أراه، أو..»، توترت أصابعه تنقر على المقود: «أو أجد دليلا يؤكد ذلك».

نزلنا من السيارة، وكان ذهني ولدًا يجري خلف عصافير، بحثا عن دليل يصدقه عادل. دخلنا إلى مكتبه فيما أذان الظهر يصلنا من مسجد الجمعية الرئيسة. قال بعدما جلسنا: «طيب.. الآن أعتقد أنه ليس هناك ما يدعوك للهروب من المدرسة». هززت رأسي نافيًا: «قال لي إنه لن يعود أبدًا».

عدت إلى البيت، تهلل وجه أمي تقول: «بشّرني، هل نجحت؟».

«لم يعطوني الشهادة حتى الآن».

«لماذا تبتسم هكذا إذن؟».

«لأنني رأيت الرجـ.. صديقا لم أره منذ سنة».

أغلقتُ باب غرفتي، وضعت الشريط، ضغطت على التسجيل. وقلت: «أهل السماء يحملون رائحة المطر، أو ربما يخبئون في جيوبهم غيمة ليختفوا بها، مكونون من ضوء ساطع، مثل ضوء البرق»، أخرجت محفظتي التي أعطيتها سعيدًا، والورقة التي عليها اسمه: «لديهم كل ما يحتاجون إليه في السماء، حتى الأوراق والأقلام، أعتقد أنهم لا يكبرون، أعمارهم ثابتة حتى يوم الدين، يحبون الخير، لأنهم أتوا لينقذوا سعيدًا من قضبان الدنيا، أنا متأكد أن سعيدًا يعرف أن هذا سيحدث، وإلا كيف وقف وودعني، ربما أمه من أهل السماء تزوجها أبوه ولم يخبر عنها أحدًا، مثل مسلسل جونكر، ولما جاء الغزو أتى أهل السماء وأخذوها معهم، لأن الأرض حينها كانت مكانا لا يصلح لها، ثم أتوا يأخذون سعيدًا، آه، ربما تركوه قليلاً لأنهم يعلمون أنني سأقابله»، بكيت أكمل: «يريدونني أن أعرف شيئا لم يعرفه أحد من قبلي».

يصمت، يرسم ابتسامة، يشاهد نفسه يبتسم، سبع ثوان، عيناه تبدوان راضيتين، تقلبان وجهه بإعجاب، ثم يغلق التسجيل.

حيرتي

واحد

بحثت في النقال عن أي تسجيلات أخرى فلم أعثر، كان هذا آخر تسجيل.. آخر يوم في حياته.. بل في آخر ساعاته كما يقول التوقيت والتاريخ، ليس سهلا أن نقع على آخر لحظات حياة شخص يقصّ فيها أول لحظاته، وأهم لحظاته.. أتعسها.. أسعدها، ثم ينقطع الحبل الذي كان يجمعها وتنفرط إلى لاشيئية الموت. شعرت أنه كان يودع الحياة، يتحدث عنها كما يتحدث عن لعبة خاضها بكل تحدياتها ومباهجها ولوعاتها وبقيت منها ذكرى تجربتها. ارتجف النقال بيدي من فكرة أنه قادر في لمسة على إعادة زمن. يا للحياة التي يستطيع نقال لوحي إعادتها على شاشته، أغلقته، أخذت أفكر.. هل يعقل أن حادثة اختفاء سعيد حقيقية؟ هل صعد فعلا إلى السماء أم.. أم ماذا جرى بالضبط؟

سرتْ برودة التكييف في أوصالي، ارتجفت، ماذا يعني لو أن هذا حدث فعلا؟ أن يصدّق ما حدث طوال هذه السنين وعلى الرغم من نضجه، أمر يحتاج إلى كتابة متأنّية وتفكير متروٍّ.. لعله، لا شعوريًا، لم يرد إعادة التفكير في حقيقة ما رأى. ترك السنين تمر من وراء ظهر الحادثة، وتتجاوزها دون أن تشير إلى إعادة النظر فيها؛ لأن هذا ربما سيدله على شيء خطأ، بنى حياته على أساس هذا الشيء، وإعادة النظر فيه تعني أن يكتشف أن خللا كبيرًا نما معه وصار جزءًا منه هو يظن أنه صحيح، اكتشاف هذا الخلل سيحدث انقلابًا بتاريخ الأشياء لديه، وسيجعل حياته فوضى، لهذا ربما رأى أن التصديق يجنّبه كارثة المعرفة. أجلتُ الكتابة للغد، قمت منقبضاً ثم تمطيت أمدّد عضلاتي من طول جلستي.

دخلت الحمام وغسلت وجهي، رأيت عينيّ حمراوين. خرجت إلى المطبخ وصوت فهد لا يزال في أذني يتحدث، بجمل عشوائية، عن سعيد. كانت عيناي تئنان، وتدمغان صدع شاشة النقال على كل شيء أنظر إليه. شربت كأس ماء بارد وعدت إلى غرفة عمي، كانت الساعة الثالثة والربع ليلا. فتحت درج المكتب وأخرجت صورة سعيد منها. أخرجت من الدرج الآخر جنسيتي.. دققت النظر.. كلانا في الصور في سن واحدة، الثامنة عشرة. سرت قشعريرة باردة في فروة رأسي حالما رأيت أن الشبه بيننا قريب جدًا، شعري أنعم وعيناه أصغر، والأسنان، أسنانه متقدمة.. هذا كل شيء.

أطفأت الأنوار، وأغمضتُ عينيّ على لون الظلام الأسود، أحاول أن أمسح به كل ما علق بمخيلتي من إيحاء الكلمات، حتى نمت نومًا سطحيًا.

اثنان

جلست في مكتبي، أنظر إلى كثافة الشمس من الشباك وأفكّر بكل ما رأيتُه أمس، فيما كان عباس جالسًا على الكرسي يتلع لوعة الذكرى وهو يشاهد التسجيلات، وصوت فهد يأتي متذبذبًا من الجهاز، يمثُلُ وصفه للشوارع والساحات والبيوت في مخيلتي شوارع وساحات وبيوتٌ تضجّ بالحياة. وأخذت ورقة وكتبت:

ساحة، شارع، بيوت.. حفرة.. أولاد.. سماء.. أنوار.. رجل ملثم.. طير طار ليس له ريش ولا منقار.. أحتاج أن أكتب عن أسماء الأشياء.. من سمّى كل هذه الأشياء هكذا، بالتأكيد لم تُجرَ دراسة في قديم الزمان لتسمية الأشياء بأسماء تختزل صفاتها وخصائصها، كما هو الحال مع فكرة العناوين التي علّمنيها عمي في أدوات التشريح، يجب أن يكون العنوان مثل النواة التي ستنبت منها الشجرة التي أريد. الأسماء أيضًا عناوين كما قلت لعمي يومًا. من كتبها إذن؟

عضّ الجوع بطني، تذكرت أنني لم آكل شيئا منذ يوم أمس، تركت القلم وقلت لعباس إنني ذاهب إلى مطعم الجمعية.

دلقت شمس الساعة التاسعة والنصف صهيرها الحار فوقي، لفح الصهد وجهي. قدت سيارتي إلى الجمعية، لولا الحرارة لذهبت على أقدامي، اشتريت شطيرتين مشكّلتَين وعصير برتقال طازجًا، أكلتهما أمام السرعة القصوى لدفع الهواء في مكيف السيارة.

رميت علبة العصير وكيس الشطيرتين في القمامة، وخرجت من مواقف الجمعية إلى المخفر. اتصلت على صقر، فلم يرد. انكشف الدوار أمامي حيث كانت الحفرة تتربص لسيارتي قبله. أردت أن آخذ الحارة الأخرى فأعادني صوت منبه سيارة ملت عليها حتى كدت أصدمها. كانت السيارة نيسان زد تصقل أشعةُ الشمس لونَها الذهبي، مثل سيارة سر الليل، يقودها شاب لطيف الملامح، يسرّح شعره إلى جنب. رفعت يدي إشارة إلى الاعتذار، رفع يده يشير إلى قبوله. خفّفت السرعة وتركته يتجاوزني لأنظر إلى زجاجه الخلفي إذا ما كان مكتوبًا عليه بيت شعر، لم أجد.. فرجّتني الحفرة واقعًا فيها. شعرت أنها تسخر مني، تلك الحفرة تسخر مني بلا شك.

طرأت على بالي الأوراق التي كتبها عمي عن المطاردة التي ذكر بها سر الليل، لم أجد حماساً لها، اصطاده في النهاية وحبسه ثم أخلى سبيله.

قضيت ما تبقّى من الوقت في أحد مقاهي الأفنيوز، أنظر إلى الناس أمامي يذهبون ويأتون، في أيديهم أجهزة نقال حديثة، ربما فيها تكنولوجيا متقدمة عن الجالاكسي إس فور، بعضهم يصوّر نفسه مع آخر، ورأيت أحدهم يصوّر فناجين القهوة والحلويات التي طلبها مع صديقه، ربما سينشرها في أحد برامج التواصل الاجتماعي، قد يكتب عليها تعليقا يصف الطعم.

عُدت إلى العمل لأجد عباسًا جالسًا وراء مكتب الاستقبال في المخفر وعلى وجهه غشاوة حزن شفيف. تبعني إلى مكتبي وأعطاني النقال. سألته: «ما رأيك بما قاله فهد؟». مسح على حنكه وهو يجلس، ثم نشق أنفه، ودعك عينيه:

«عن ارتفاع سعيد تقصد؟». «نعم». «لا أعرف.. تذكّرت أنه قال هذا لي مرة في المدرسة، ذكرها في التسجيل، كنت أظنه يمزح. يا الله.. سعيد ارتفع إلى السماء، من يستطيع تصديق هذا، لعل هذا الذي رفض كوكو إخباري به».

صمتنا أستمع لتكتكة الساعة، ثم أخذت منه نقال فهد وقلت: «اليوم الخميس، استمتع بالعطلة، الذي حدث .. حدث وانتهى، لن نستطيع تغيير شيء».

خرجتُ من المخفر تدور في رأسي عدة أفكار، بدا لي العالم معها مكونًا من أشياء متناثرة، وأن مهمة العقل هي الترتيب فقط. خففت من قوة دفع هواء مكيف سيارتي، فكرت: لماذا أقف هكذا بين التصديق والتكذيب، إذا كان عمي قد صدّق، وهو الرجل الذي يصفّي بعقله كل شيء؟ تذكرت فجأة كيس القمامة الذي وجدته في غرفة فهد. ربما أجد به معلومة تدل أفكاري إلى الرشد. اتصلت بصقر فلم يرد. حاولت أن أتذكر غير الجملة الغريبة التي قرأتها ذلك اليوم، وسمعتها في التسجيلات. لمّا تجاوزت الدوار بسلام، اتصل صقر، سلمنا على بعضنا، كان صوته يتمطى من النوم، طلبت منه:

- هناك كيس قمامة أسود بجانب الثلاجة، هلّا أحضرته لي.
- كيس قمامة، أسود، آآه نعم، ذكرته، رمته أمي في القمامة بعد دفن فهد، لماذا تريده؟

أصابتني الخيبة بخدر أثّر على صوتي. ضاعت مني فرصة ربما كانت ستفتح أمامي منفذا لحل القضية، قلت:

- لا، لا شيء.

ثم سألته:

- طيب، طيب.. ما رأيك في ما قاله عن ارتفاع سعيد؟
- والله لا أعلم، يمكن أن يكون ممسوسًا، أو يمكن وهم.
- الذي حيرني أنه يتحدث حديث من رأى بعينيه، أخوك كان يؤمن بما

يقوله.

- صحيح، صحيح.
- هل رأت أمك الرجل الملثم؟
- نعم نعم، أذكر هذا، وسألتها بعدما انتهيت من التسجيلات، أعادت عليّ القصة كما ذكرها فهد تمامًا. المهم هو أنك علمت أن لا دخل لفهد في اختفاء سعيد.

قلت في نفسي: «ليتك لم تأتني بالنقال».

- طيب طيب، أخ صقر، لا أطيل عليك، هل يمكنني أن أطلب منك أن تبحث في سيارته، تسأل والدتك، عن أي دليل آخر.. تسجيلات.. أشرطة مسجل.. أوراق.. أي شيء، ربما والدتك احتفظت بالكيس في كبتها؟
- نعم نعم.. بالتأكيد، سأفعل اليوم.
- شكراً لك.

ثلاثة

وجدتُ أختي جالسة تحدّث أمي وجدّتي عن حركات رضيعها التي تنمّ عن شقاوة، وابناها متجاوران على الأريكة يشاهدان تسجيلا يتحدث فيه فتى بلهجة سعودية. سلّمت عليهم، ودخلت غرفة عمي أداري ارتباكي بتقليب نقالي. استحممت، ثم اضطجعت أقلّب الصور في نقال فهد حتى نمت. صحوت في الرابعة عصرًا، خرجت إلى المطبخ لآكل غدائي، فجاءني عادل ابن أختي يركض: «خالي خالي، جدتي تقول إذا حليت اللغز أعطيك عشرة دنانير». «ما اللغز؟». «طيرٍ طار، ما له ريش، ولا منقار».

أحسست بروح عمي تدخل من الباب الخارجي عائدًا من العمل. صمتُّ برهة دون حراك، ثم جاء صوت جدتي ينبّهني: «إذا علَّمْته يا مجيدان فلن أعطيه

الجائزة». قلت: «سأساعده فقط»، تثاءبت وتوجهت إلى الصغير: «ركّز معي عدّول.. إذا أشعلنا نارًا فماذا يخرج منها؟». أجاب: «تخرج نار». «وماذا يخرج أيضًا؟». «ضوء». «هنالك شيء آخر، يرتفع عاليًا إلى السماء». نظر إلى أمه ورجع إلي يقول بتردد: «دخان». ابتسمت: «طيب طيب.. إذن: طير طار ليس له ريش ولا منقار هو..؟». قال: «البالونة»، ثم تمطيت وهززت رأسي، قال: «البخار»، صمتُّ أنظر إلى النقال بيده.

ما تبقى من أوراق عمي عادل

واحد

صرفتُ بقية يوم الخميس ويوم الجمعة كاملا في تدوين التسجيلات على الورق، جامعًا أطراف ذهني حول استخدام أدوات التشريح، حتى أصبح لدي ملف سميك كتبت عليه: ما رواه فهد نشوان. فرّغت نفسي يوم السبت لقراءة الحكاية بعد إفطار جيد في الصباح وكوب قهوة. أخرج إلى جدتي وأمي في الصالة بين حين وآخر، لأترك ما قرأته يتخمّر في عقلي وينبث معناه، ثم أعود وأكمل، إلى أن انتهيت ليلاً وقد لمست الفرق الهائل في نفسي بين سماع كلمات فهد وقراءتها، كأنني حوّلت الواقع إلى مادة مكّنتني من فك وتركيب الأحداث. عندما نحوّل المعاني من ألفاظ إلى كتابة تُمسك الأشياء عن التظاهر بأنها كذلك؛ فنرى، من خلالها الكينونة الشفافة للكلمة، المعنى الحقيقي أو المقصد من استشيائها. وجدتُني، لما أنهيت قراءة آخر كلمة، أميل لتصديق ما ذكره، ما الذي يمنع أن يكون ارتفاع سعيد حقيقة؟.. الجاذبية لها قوانين لا نعرفها، والسماء واسعة ولم نكتشف منها إلا ما نستطيع مشاهدته؟ تصديق عمي وتعامله الذي وصفه فهد يقول إنه كان مصدقا، والأدلة.. المحفظة، خطّ سعيد، من أين أتت؟ الأحكام القطعية يجب أن تكون بناء على دراسة، ولحد الآن لم تجرَ دراسة تقطع بأن الإنسان هو الساكن الوحيد للكون. لكن ما الدليل الملموس على أن سعيدًا ارتفع إلى السماء؟ دليل ملموس وليس كلمات لا يمكن الإمساك بها. وكيف استقبل عمي هذا الأمر بتصديق تام، واستسلم لكلام ولد يهرع عقله في سكك المراهقة وراء أي شيء يخلبه، ربما تظاهر بالتصديق ليخفف من استلاب

الملثم تفكير فهد .. لكن .. الملثم حقيقة موجودة، حدثت، ورؤية أم صقر له تقول إن في الأمر شيئاً غير مدرك.
قررت البحث في بقية أوراق عمي لعلي أجد إشارة إلى ما حدث.

اثنان

مر أسبوع ركضت أيامه السبعة سريعًا. أخذ عباس إجازة طبّية فيه. اتصلت أطمئن عليه، فقال إنها نزلة برد، يظنّ أن سببها تردده من مكان ملتهب إلى مكان بارد. وقعت في حفرة الدوار مرتين دون أن أشعر. أعدت قراءة أوراق عمي، التي فرزتها، القصص والأحداث، وحلمت بفتى ضخم اسمه سعيد يحاول أن يشرح لي كيف مات عمي عادل. قرأت ملف: «ما رواه فهد نشوان» مرتين. في كل مرة أشعر أنني أعرفه أكثر، فأفتح استوديو الصور وأتجول بين صوره، أركز نظري على صور وجهه، أتأمل ملامحه ويخيل إليّ أنها تخفي خلفها وجه صبي يجري خلف كرة، أقلص فيها عدد الأسئلة التي عجزت عن التفكير بها، لولا وجود الرجل الملثّم لقلت إن هذا كله وهم.
قضيت عطلة نهاية الأسبوع في غرفة عمي أبحث في فئات القصص والأحداث والأفكار، عن ذكر لما جرى، فلم أجد إشارة. عدت للكرتون الأخير وأخرجت ملء قبضتي أوراقا. جلست على الأرض أقرأ وأفرز. شعرت في عقلي بلذعة كهرباء.. أوراق ظلال الظلام.. كيف فاتني ربط الأحداث.. ليلة ممطرة، والوقت الذي اصطاد عمي فيه سر الليل، ربما هي الليلة التي حدث فيها ما ذكره فهد عن ارتفاع سعيد. أخذت الكرتون وكبيت الأوراق في منتصف الغرفة، التقطّتها ورقة ورقة، أعيدها في الكرتون بعد أن أمسحها ببصري بحثا عن كلمات تتصل بالموضوع، وسرعان ما وجدت ورقة فيها كلمة مطاردة.. وضعتها جانبًا، وبعد عدة أوراق بدأت الكلمات.. مخفر.. دورية.. سر الليل.. واستمررت أضع الورقة تلو

الورقة.. الرجل الملثّم.. فهد.. ورقة.. ورقة.. بيت مهجور.. سدرة.. شارعهم.. أوراق ..أوراق.. حفرة.. نظارات.. مدرسة.. قرقيعان.. محفظة..
انتهيت..
تراكم بجانبي إحدى عشرة ورقة، رتبتها، وبدأت أقرأ من الورقة العاشرة:

الورقة العاشرة:

فتقدم بسرعة حذرة، وراوغك بحركة لولبية وولج السكة، انطلقت خلفه تلوم نفسك على أنك غفلتَ عن هذا المنفذ، ولجت وراءه بسرعة قصوى، بهرجت أضواء الفلشر المطر أمامك فتزغللت عينك عند بداية السّكة، انزلقت الدورية قليلا وضرب السقفَ شيء ما، مكيف ربما، فتحرك الفلشر من مكانه، وجعلت الأضواء تدور من الأعلى إلى الأسفل. خرج من الاتجاه الآخر إلى اليمين، فانزلقت بك الدورية وخدش الجانب الأيمن زاوية بيت، فكدت تصدم عمود إنارة لولا أن الكوابح حدّت من الاندفاع وتمكنتَ من السيطرة عليها في اللحظة الأخيرة. رأيت إنارته الخلفية تغيب في أحد المنعطفات، أسرعت، إذا هزمك هذه المرة فلن تطارد أحدًا ما حييت. أوحى صوت تحرك الفلشر مع المنعطف وأضواؤه التي تضرب على الطريق أمامك بمقدمة الهزيمة. الإنسان مخلوق يخشى الهزيمة.. أنت إنسان. شعرت إذا عُدت إلى المخفر من دونه، والدورية بهذا الشكل الفاشل، فلن تكون كفؤاً لهذه الوظيفة. رأيت أضواءه الخلفية تختفي إلى شارع آخر، فضغطت بكامل السرعة حتى تدرك شأنك.. قيمتك.. رتبتك من الضياع.

الورقة الحادية عشرة:

راح مع الشارع إلى اليمين، رحتَ معه، بينكما أكثر من خمسة بيوت.. ثم صارت ثلاثة بيوت، قبل نهاية الشارع الخارج إلى شارع رئيس.. فطنت إلى أنه يريدك أن تقترب أكثر، قلت في نفسك: «لديه خدعة»، فحافظتَ على المسافة حتى يخرج

من الشارع، ففعل ذلك بسرعة جنونية؛ لو كان أحد غيره لفلتت منه السيارة إلى جدار البيت المقابل.. أبطأت، وانعطفت معه.. كانوا يقولون عبر جهاز الإرسال في الدورية كلامًا لم يلفت انتباهك.. فتح الشارع الرئيس لك المجال لاستخدام قوة ماكينة الدورية.. قلت: سأصدمه من الخلف قبل الدوار.. إلا أنه، كما لو أنه يعرف كيف تفكر، دخل منعطفا آخر يؤدي إلى ساحة ترابية.. لكن، انزلقت به سيارته وصدم الرصيف بزاوية المنعطف.. شعرت أنك طعنته.. أمسكت الكابح.. تركت الدورية تنزلق إلى الأمام حتى أبطأت، ثم أكملتَ وأخذت المنعطف.

الورقة الثانية عشرة:

رأيت الزد يرتقي الرصيف الواطئ ويعرج في ساحة ترابية.. لحقتَه.. لن تضطر إلى إطلاق الرصاص على إطاراته.. عليك فقط أن تنتظر اللحظة التي تُسقط بها سيارته عند أحد الأرصفة.. جريت خلفه بحذر وأضواء الفلشر تأتي وتذهب من الأرض إلى السماء.. وكانت سيارته تهرول كحيوان جريح يبحث عن مأوى.. عن يمينكما سارت صفوف البيوت تغلق عليه الطريق، وعن اليسار انتصبت قضبان حديدية على حوافّ الشارع الرئيس، وفي نهاية الساحة شارع منحنٍ، يصب نفسه في الشارع العام. وضع سر الليل نفسه داخل مصيدة لم يحسب لها حسابًا.. أحسست بلمعان النجمة على كتفك.. أنت كفؤ لها.. وفجأة.. دار الزد منزلقاً نصف دورة، وأصبح معك وجهًا لوجه، حسبتَه خرج عن سيطرته.. قلت في نفسك: «انهار».. خففت السرعة استعداداً لرؤيته ينزل رافعاً يديه.. كان المطر ينهمر بقوة والأضواء الأمامية وأضواء الفلشر تكثفه.. «سأدخل المخفر منتصرًا»، تمتمت ثم رأيته يقوم بشيء غريب.

الورقة الثالثة عشرة:

انطلق إلى جهة البيوت، فرأيت سكة ضيقة، يخنقها سور حديقة، فيه فرجة

قد لا تكفي لمرور سيارته.. انطلق إليها كمحاولة نجاة أخيرة.. هرعت تستبقه إليها.. لو سددت عليه المنفذ الضيق فسيرفع يديه مستسلمًا.. تسابقتما إلى السكة.. سبقك بفارق متر.. ولجها آخذا زاوية السور في باب السيارة، ثم صدمته من الخلف، فقفزت سيارته، وضرب رأسك المقود.. دار كل شيء.. أوقفت الدورية.

فتحت الباب، ورميت نفسك على الأرض.. جلستَ على ركبتك.. أخرجت مسدسك.. اختفى الزد.. خمّنت وأنت تمسك رأسك أن الضربة كانت كافية لقذفك إلى منتصف الشارع. ركضت، متجاوزا سور الحديقة، فرأيتَه يدخل بيتاً مهجوراً.. كان ضخمًا، ضخمًا جدًا، يمسك مسدسًا، مسدسًا محشوًا بطلقات قاتلة. ركضت وراءه ماداً مسدسك. زاد هطول المطر حلكة الليل.. وجدتَ باب البيت مخلوعًا، دفعته ودخلت، فوجدته أمامك.. رجلا ضخمًا.. يعكس وجهه الشرير صلافة روحه الغاضبة، و.. ويمسك مسدسًا، تكاد طلقاته تخترقك.. حدث للعالم شيء غريب؛ اضطرب وأخذ يقرّب لعينك الأشياء ويبعدها، لم يكن لديك وقت لتمسح المطر عن عينك، رميتَ نفسك على الأرض وأطلقت رصاصتين.

الورقة الرابعة عشرة:

أصبته، فسقط وطار مسدسه، ثم راح يحبو إليه، وقبل أن يمسكه أطلقت الثالثة، سمعتَ حشرجته، كنت ترتجف، في رأسك آلاف الأصوات تتضارب في بعضها. نهضت مسددًا المسدس عليه، تقدمت بحذر وإصبعك ترتعش على الزناد، والجدران تأتي وتذهب في بصرك.. رأيت جسده يهتز ويثبت ويرتعش ويثبت، والدم يسيل من تحته.. ذعرت من منظر الموت.. تراجعت خطوة تبحث عن المسدس.. تقدمت يمينا وشمالا، درت حوله، فلم تجده، وسّعتَ عينيك على شيء آخر.. كلب ينتفض محتضرًا.. رأسه مفتوح برصاصة.. كدت تقع.. تمالكت نفسك.. وعدت تبحث عن المسدس.. تمتمت: «أين ذهب؟»

فأتاك صوت صغير يقول: «إلى السماء»، انتبهت عن يمينك.. آه.. وجدت ولدًا مأخوذا بالنظر في الجثة، لم تره.. بدا لك مصعوقا.. وبسرعة خاطفة عادت للعالم أبعاده وحركته المنتظمة.. كنت توشك على السقوط من شدة ارتجافك، والصبي أمامك يمعن النظر في الجثة، المطر يهطل بقوة.. الحياة شيء بعيد المنال في تلك اللحظة.
نظرتَ إلى الجثة مرة أخرى، وجدتَ الوجه تغيّر، ليس الشرير الذي كان قبل قليل، ما الذي يجري؟.. سقطت على ركبتيك تدور مع الدوّار الذي أخذ رأسك إلى الجدران.

الورقة الخامسة عشرة:

ثم ندمت بسرعة، على كل شيء؛ ندمت على كل مطاردة قمت بها.. ندمت أنك دخلت كلية الضباط.. ندمت على تعلم إطلاق النار.. كان ندمًا فظيعًا ومباغتا مثل حرق نار لا يعطي مجالا لشعور آخر. ماذا سيخسر العالم لو تركته يستعرض في سيارته؟ ما الخطر الذي سيأتي من الاندفاع بسرعة أمام منعطفات خالية من السيارات؟ أخذ المنظر يمتصّك، يشفط طاقتك.
كانت حركة الكلب قد توقفت.. والولد الصغير مستمر في النظر إلى الجثة ووجهه منبسط على نحو مريب.. هل هو أخو سر الليل.. ابن عمه.. جاره؟
قمت تترنح إلى الخارج، التفتَّ إلى جهتي الشارع، «أين سيارته» عدت إلى الداخل، صدرك يتقطّع، ماذا حدث؟ درت على كل ما حولك، تبحث عن دليل يؤكد لك أن كل هذا يحدث الآن.. «هذا ليس سر الليل» قلت وأنت تنظر إليه من عند الباب.. دنوت تنبش الأرض عن أي أداة يمكن أن تكون عونا لك على مواجهة نفسك، ربما ليس مسدسًا.. هي سكين.. يريد أن يطعنك، أو.. أو من الممكن أنه موس، موس على الأقل؛ كان يريد بها وريدك.. قد.. آه.. زجاجة.. قارورة بيبسي.. كسرها يريدها أن تفتح حنجرتك.. سمعت الولد بجانبك يقول: «وداعًا صديقي سعيد».

الورقة السادسة عشرة:

نظرت إليه، فوجدت وجهه مشرقا، كما لو أنه لا يرى ما يجري حوله. الذي فعلتُه بعد ذلك كان بعشوائية ودون تخطيط أو فهم.. رفعت المسدس عليه تريد أن.. تريد.. آه.. الشر موجود في الإنسان كجزء طبيعي من مكوناته، هناك من ينجح بإخفائه، وهناك من يفشل ويتركه على سجيّته. عليك أن تعرف أنك كنت تواجه نوعًا من أنواع الحيل التي تتجرأ الحياة بها على الموت. لم تكن تعرف، كنت تحسب الحياة مطاردة خلف أشياء لا تنظّم، تعديل مائل. وها أنت ذا تواجه اللحظة التي يكتشف الإنسان فيها أن الخطوط المستقيمة ليست كذلك.. رفعت مسدسك تريد أن تُلحق الولد بالشاب الضخم والكلب، لكن إصبعك خرج عن طاعتك تلك اللحظة، ثم عصتك يدك وعادت تنزل المسدس. اضطربت الإيقاعات في داخلك تربكك؛ تكتكات ساعات كثيرة مختلفة ومتداخلة.

قمت بحركات مترددة، عدت إلى الوراء وتقدمت، ثم أخفيت وجهك بيدك وقلت: «لا تخبر أحدًا عمّا حصل». فقال الصبي بصوت واضحٍ خلوُّه من الخوف والحزن:

«من سيصدقني إذا قلت ما حصل؟».

صُدمت من ردّه، ماذا يعني بكلامه.. فقلت:

«طيب، عُد إلى بيتكم، الآن».

ركض بسرعة ولم يلتفت إليك، فبقيت وحدك لا تعرف ماذا ينبغي عليك فعله. تنظر إلى الشاب وإلى الكلب، ميتين، تتمنى أن تموت مثلهما أو تختفي إلى الأبد في مكان لا يعرفه أحد. توقف كل شيء عن العمل، السماء، الأرض، الأشجار، الهواء، الناس، الحياة، كلٌّ توقف عن أداء دوره، وأحسست أن عليك أن تقوم بكل هذه الأدوار.

خرجتَ بعدما تأكدت من خلو الشبابيك وأبواب البيوت المحيطة، أخذت الدورية وعدتَ إلى المخفر، كنت عاجزًا عن التفكير بصحّة ما تفعل، هل فعلاً

تريد الاعتراف بأنك قتلت شخصًا وتركته في مكان مهجور. رسم المطر على الزجاج أمامك وجه أمك. كنت مبللا مثل فحمة غمرت بالماء بعدما تجمّرت. كانت مواقف المخفر ممتلئة بالسيارات، رأيت سيارة سر الليل ملقاة في زاوية المواقف الخارجية، بدت الحماسة واضحة على شفاه الجميع. ركنت الدورية ودخلت. قابلك شرطي بوجه منتصر يقول: «أمسكناه»، ثم سألك وعيناه تستديران حولك: «ماذا حدث لك؟ كأنك تعاركت مع شيطان».

الورقة السابعة عشرة:

قلت تزيح نظراتهم : «كيف.. كيف أمسكتموه؟». أجابك شرطي آخر وأنت تسير إلى النظارة: «رأيته يخرج من أحد الشوارع فلحقته، كان يريد الهرب، لكن إطاره تمزق، فتوقف رافعًا يديه». وقفت أمام القضبان، ورأيته، سر الليل، شابّ في السابعة عشرة، يرتدي نظارات سميكة، قصير، على وجهه كلالة الخيبة. «لم نجد معه أي ممنوعات» قال الشرطي «ربما تخلص منها أثناء المطاردة». ثم وسع نظرته وسأل: «لماذا أنت مبلل هكذا؟». تركته وذهبت. كان المطر قد توقف، جلست في سيارتك تشاهد الشرطة من النوافذ الداخلية للمخفر يذهبون ويأتون. قتلت بريئًا للتو.. ثلاث طلقات.. وكنت تريد أن تقتل صبيًا.. صدرك مضغوط.. رأسك فيه ماء..

عدت إلى ذلك البيت، ركنت سيارتك في آخر الشارع الذي قبله، وانسللت بحذر، كانت جثة الشاب ممددة كما تركتها، ما إن رأيتها حتى تفجرت بالبكاء وسقطتَ بجانبها تنتحب: «أين المسدس الملعون.. أين ذهب وجهه الشرير.. أين أنا؟». فتّشته، وجدت معه محفظة خالية، وضعتَها في جيبك، نظرت إلى الكلب، فاتحًا عينيه على فراغ واسع، ثم فكرت: أين يمكنني أن أخفي الجثتين. الشاب كان ضخمًا يصعب عليك حمله، لكن الكلب سهل. دخلت مبنى البيت، تقدح ولاعتك لترى. راحت ظلال الأثاث المحطم ترقص على الجدار والأرض. تخبطت في المشي قليلا، دخلت ممراً أوصلك إلى غرفة تظنها مطبخًا، لها باب

يؤدي إلى ممر خارجي يلفّ حول البيت، خرجت.

الورقة الثامنة عشرة:

رأيتُه يشعل نارًا في حديقة جدة سعيد، جئته، تنبّه لي أول ما خطوت من بين السيارتين، توقفتُ، عند سور الحديقة، تذكرت أنني لم أخفِ قدميّ بجوارب، خشيت أن تنكشف قدماي لو تخطيت السور فيرى أنني إنسان. انقبض وجهه لحظة ثم انبسط إلا جموداً بقي يتصلّب على جبينه، كما لو كان يريد أن يبتهج ويخشى أن يحدث شيء يخيّبه، فبقيت خارج السور، أشرت له أن اقترب، أتى بخطوات متردّدة، ثقّلت صوتي: «أنت فهد أليس كذلك؟»، ثبت ثوانٍ دون حراك ثم هزّ رأسه بالإيجاب، فتابعت: «سعيد يسلم عليك، ويقول لك إنه بخير، ويتمنّى لك أياماً طيبة». صمتَ كما لو أنه لم يستوعب ما قلتُه، فأعدت عليه ببطء: «سعيد يبلغك سلامه.. ويقول لك إنه بخير، في مكان جميل ومريح، ويتمنى لك حياة طيبة». رأيت دموعاً ترتعش في عينيه، كأنه كان يعلم ما سأقول. كدت أبكي أنا أيضًا فصمتُّ حتى تمالكت نفسي وأضفت: «ويسألك أيضًا.. أما زلت تفكر به؟». هزّ رأسه وقال: «كل يوم»، مسح دموعه بكمّ جاكيته. فقلت: «طيب.. هو يطلب منك ألّا تفكر به، لأنه لن يعود إلى الأرض، ويريدك أن تهتمّ بنفسك فقط، يشكرك أيضًا على اهتمامك به طوال فترة صداقتكما». ما إن قلت ذلك حتى أخذ يشهق. سكتُّ أملأ صدري هواء لعل البكاء يعود لمكانه، ثم سألني: «هل تحدّث عني؟».

الورقة التاسعة عشرة:

خرجتْ دموعي رغمًا عني، رفعت رأسي إلى الأعلى قليلاً وعدت أقول: «نعم، كثيرًا». «مثل ماذا؟»، سألني. حاولتُ أن أتذكر شيئا من الأشياء التي كان يخبرني بها في كل مرة ألتقيه، حتى وجدت يوم القرقيعان على لساني فأجبته: «مثل يوم القرقيعان، خرجتما أنتما ومعكما أخوه، اليوم الذي تعرفتَ به على زهرة».

أخذته نوبة نشيج. لم أتمالك نفسي أكثر، قررت أن أنهي اللقاء بسرعة قبل أن ينكشف أمري. أخرجت من جيبي الورقة التي كتبتُ فيها اسم سعيد بالطريقة التي قصّها عليّ قبل أسبوعين. أخذ الورقة ولمّا رأى الاسم جلس على الأرض آخذا وجهه بين ركبتيه. صعب علي الوقوف، فجلست على السور وقلت: «ويريد سعيد أن يعيد لك هذه، لأنه ليس بحاجتها». أمسكت أنفاسي قليلا كي لا يسمع صوت بكائي، أعطيتُه المحفظة ثم طلبتُ منه ألّا يفكّر في سعيد، ولا يتحدث عنه لأحد مهما كان.

الورقة العشرون والأخيرة:

عندما هممت أن أقوم، سألني: «كيف مكانكم في السماء؟». ارتبكت، وأجبته بسرعة: «يصعب وصفه لأن الأشياء هناك ليست مثلها هنا». راح يمعن النظر في عيني ثم طلب مني أن أريه وجهي، غلظت صوتي أقول: «لا لا، إذا رأيتَني فستذهب عيناك إلى الأبد». أمرتُه بأن يركض إلى بيتهم، محذرًا أنه سيصاب بالعمى إذا التفت ورآني أرتقي إلى السماء. وقلت: «أنا متعجب أن نظرك ما زال سليمًا لحد الآن، على الرغم من أنك رأيت الأضواء تلك الليلة، ربما رأيت وهجها فقط، ولم ترَها هي عينها، لكن في كلتا الحالتين أنت ولد مميز فعلا، هيا انطلق الآن». انطلق يجري تاركا كتبه تحت الشجرة، تابعتُه حتى انعطف من آخر الشارع، فذهبتُ إلى سيارتي بخطوات سريعة، رميت لثامي في قمامة على طريقي وألحقته بالنظارات والقفازات، بدّلت في سيارتي داخل مواقف المخفر، تمنّيت أن أراه بعد كل ما فعلتُه.

لما دخلت، وجدتُه يركض في الممر المؤدي إلى غرفة الشرطة، ناديته، فجاء بفم يمتلئ كلامًا، دخل مكتبي قبلي، ورمى يديه على الأريكة وقال: «رأيته.. الرجل الملثم.. الرجل الملثم، أقسم بالله»، ولهث. تركته يلهث أنظر إليه، متظاهراً بالمفاجأة، حتى تمكّن من أنفاسه وتابع: «أخبرني، أقسم، أقسم بالله، أخبرني أن ما رأيته حقيقة، وأخبرني أن سعيدًا فرح عندهم الآن».

ثلاثة

أزّ رأسي، قرأت الأوراق مرة ثانية؛ لأتأكد أن كل حرف فيها جاد في ما يقوله، كانت الحروف متماسكة على نحو سدّ عليّ الأمل في العثور على ثغرة أبرّئ عمي فيها. عمي قتل!.. بردتُ.. نضب ريقي.. هذا خطه.. هذه كلماته.. نبرة صوته فيها.. دخان سجائره يخرج منها.. رفعت رأسي إلى صورته.. وضعتُها بين قوسين.. صورة قريبة من ذاك الوقت.. ربما بعد تخرجه ببضعة أسابيع.. آه.. قتل سعيدًا!

ارتكزتُ على ركبتيّ أريد النهوض..

هناك فجوة بين الورقة السابعة عشرة والورقة الثامنة عشرة، عدة أوراق مفقودة، لا أعلم عددها، ويبدو أنها كثيرة.

وقفتُ أنظر إلى المكتبة..

كيف تخلص عمي من الشعور بالذنب، من احتناق الضمير؟ القتل ليس خطأ عاديًا نغطيه بطبقة رقيقة من الأيام، القتل.. القتل قتل.. كيف عذر عمي نفسه؟

بدأ البرد في بطني بشكل وخزة إبرة، ثم اتسع إلى أن فاض من داخلي إلى أطرافي وارتعشت.

خرجت إلى الحديقة قبل أن تطحن الغرفة صدري. وقد صار التكييف بارداً كالثلاجة. جدتي نائمة على فراشها متغطية بلحافها الثقيل. درت في الحديقة، أفكر بكل ما قرأته. القتل أبشع اعتداء في الحياة، صحيح أن الحادث وقع بالخطأ، لكن لماذا لم يبلّغ عنه؟ هل برّأ نفسه بنفسه؟ هل قال لنفسه إنه لا بأس من قتل إنسان بالخطأ؟

تغيرت الحياة فجأة، بمجرد أن عرفت أن عمي قتل سعيداً، الليل صار أكثر ظلامًا، كما قال فهد، الظلام ليس له علاقة بغياب النور. عمي قاتل سعيد..

آه ..ما أقوى لفظ قاتل.. انفجار القاف في وجهي، وانبعاث شظاياها في الألف إلى روحي، وتصدع التاء بالارتطام الذي تحدثه، ثم اللام التي يسيل معها الوجع.

«أحتاج للراحة» قلت في نفسي: «لن أفكر الآن في شيء، سأنام وأقرأ الأوراق غدًا، وأفكر في ما حصل».

دخلت المطبخ، أسأل نفسي: ما الذي جاء بي إلى هذه القضية؟ لماذا جئت إلى هذا المخفر؟

شربت نصف كأس ماء، في رأسي علامات استفهام تهتز، في صدري غصة تتكالب.. أحتاج إلى أيام كي أستوعب ما حصل.. أسابيع.. شهور ربما، بل قد أكتب لسنة حتى أدرك الأمر.

عدت إلى سرير عمي، لم أغلق النور، اضطجعت، وركزت عيني على الأرفف، أقرأ عناوين الكتب لأزيح إلحاح الأسئلة عن ذهني: هكذا تكلم زراديشت.. الجريمة والعقاب.. الفتنة.. ديوان أبي العلاء المعري.. أفكار الأزمنة الحرب والموت.. النص والسلطة والحقيقة.. ألف ليلة وليلة.. عين الأعيان.. التفكير العلمي.. تركت العناوين تعلق في الاستدارة غير المكتملة لرؤوس علامات الاستفهام، وهربت في نوم.

سد الفجوة

واحد

صحوت وكلمات البارحة تدور في المسافة التي بين وعي ولا وعيي، في فمي طعم صدأ. مكثت في فراش عمي أطيل النظر إلى صورته، أستجوب ذكرياتي معه عن الشيء الذي دفعه ليتستر على جريمة وقعت بالخطأ، ألأجل هذا كان يطلق سراح المتهمين؟ هل كان يرى أنه يجب أن يلقي القبض على نفسه أولا؟ أم كان يتركهم يخرجون لأنه جرب أن يكون مذنبًا ولا يريد لهذا الشعور أن يأكل قلب أحد؟

جلست مع أمي وجدتي في الصالة أسري عن نفسي. سألتني أمي عن حرارتي لأنني بدوت لها مريضاً، قلت: صداع في رأسي. أكّدت جدتي أن التكييف ينفخ الرأس. قالت أمي إن أبي سيصل بعد قليل، سيقله أحد أصحابه في السفر.

أخذت منها كوب شاي، صمتنا نشاهد المعتمرين يطوفون حول الكعبة في التلفاز، فيما كان المذيع يقرأ أدعية بصوت مطمئن. فسألتهما عن المرض الذي اعترى عمي بعدما تخرج في الكلية. غطت جدتي قدميها بطرف ثوبها وقالت إن كل ما تعرفه أن البلاء أصابه في ليلة كان مطرها غزيرًا وقد قصّتها علي أكثر من مرة.

نهتني أمي عن ذكر مرضه في الكتاب. أكدت لها أنني أريد أن أعلم ما حدث وحسب. قالت جدتي إنهم حسبوا يومها أنه ما زال في العمل، حتى سمعوا شيئا يسقط في غرفته ظهرًا، فظنوا أنه مريض، حمله أبي إلى المستشفى، فقال الطبيب إنها صدمة.

فاستدركت أمي أن الخادمة أخبرتها أن ساقَي بنطلونه العسكري كانتا ملوثتين بالطين إلى الركبتين، وأطراف أكمام قميصه أيضاً، فخمّنت أنه انزلق على الأرض وابتلّ ثم دخله البرد. مكث قرابة ثلاثة أيام على سريره، لا يأكل الطعام. تمتلئ المنفضة بسجائره بسرعة، لدرجة أنه نسي مرة سيجارته تشتعل في يده فأحرقت إصبعه. أقسمت جدتي عليه أن يذهب إلى الطبيب، فخرج وعاد دون دواء. ثم أغلق عليه الغرفة، لا تُفتَح إلا ضحى، حيث يخرج ساعتين ويعود مرتبكا. بعد ذلك انتظم في العمل لمدة ثلاثة أيام، كان باديًا عليه الجهد الذي يقوم به لاحتمال العمل، وبعدها حدث الانهيار الأخير فتوقف عن الذهاب إلى العمل، ثم أخذ عقله يخفت تدريجيًا، حتى تلاشى وعيه وصار يبحلق بالجدران طيلة الوقت، ولا يرد على أحد كأنه لم يعد يرى العالم.

أخذه أبي إلى مقرئ، لم يجد به أثرًا لمسّ، فأخذه إلى طبيب نصحه بآخر في مصر. كل ما يعلمانه أن الطبيب في مصر أعطاه عقاقير، وطلب منه أن يشغل نفسه أثناء وحدته، وهذا ما قاده إلى القراءة والكتابة. كان هذا كل ما لديهما، ما نوع مرضه؟ ما العلاج الذي تلقاه؟ ما حدث بعد ذلك؟.. لا تعرفان عن هذا شيئا. فاضطررت إلى انتظار أبي يعود من السفر لأسأله عن الحالة التي ألمّت بعمي.

اثنان

عدت إلى غرفة عمي، وجلست أقرأ للمرة السادسة أوراقه العشرين. أحاول الولوج إلى الفجوة التي بين الورقة السابعة عشرة والثامنة عشرة، وأسد بمخيلتي الفراغ الذي بينهما.

قريت الصفحة السابعة عشرة، تأملت كلماتها، ركزت على كلمة غرفة، فكرة غرفة مظلمة، مكان مبلول.. تخلّق المعنى بمخيلتي، تركت الكلمات تذهب بالمشهد وحدها، بزغت أبعاد مكان.

ذهبت بالورقتين إلى الطاولة، وضعت رزمة أوراق بيضاء أمامي.

اللفظ: غرفة.. لفظ: ظلام.. أثاث محطم.. تؤدي.. ممر خارجي يلف.. صوت فهد.. بيت أم غريب..

صرت عمي، وكتبت آخر فقرة من الورقة السابعة عشرة متخيلا الأمر يحدث أمامي:

الشاب كان ضخماً يصعب عليك حمله، لكن الكلب سهل. دخلت مبنى البيت، تقدح ولاعتك لترى. راحت ظلال الأثاث المحطم تتراقص على الجدار والأرض. تخبطت في المشي قليلا، دخلت ممرًا أوصلك إلى غرفة تظنها مطبخًا، لها باب يؤدي إلى ممر خارجي يلف حول البيت، خرجت.

أكملت:

راحت الغرفة تبتعد والظلام يتكاثف، وشرر ولاعتي يقدح في ظلام، ظلال أثاث محطم يتراقص، صوت فرقعة أشياء هشّة تحت وقع أقدامي، خرجت إلى الممر بحثا عن مكان أواري فيه الجثة، مشوش العقل من البثّ القوي الذي يأتي من الإيقاع السريع لذبذبات الخوف، منحرفا تفكيري عن المضي في جادة الصواب، درت الحوش، حرقت رقاقة الولاعة المعدنية إصبعي، تركتُها تنطفئ وتحسست طريقي في الظلام. أكملت الخطو إلى أن رأيت شيئا متكومًا في منتصف الممر، اقتربت، قدحت الولاعة، اكتشفت قطع أثاث محطم، انتبهت إلى زاوية تحتها يتكاثف منها الظلام. أزحت طرف الحطام بقدمي، وجدت مصرفا، أو حفرة.. أطفأت الولاعة.. أزلت الحطام.. قدحت.. اندفع ظلام حالك من جوف الحفرة في وجهي.. جلست على ركبتي.. مددت شعلة الولاعة داخلها، رأيت الجدران الأربعة السميكة تغور أبعد مما يصله ضوء الشعلة، ينبع من جوفها ظلام مثل ماء أسود.. رفعت رأسي إلى السماء.. شاهدتها تتفكك.. عدت إلى الباب الخارجي.. التفتُّ إلى الجهتين بحرص شديد.. رجعتُ إلى الجثة.. قدحت بالولاعة ونظرتُ إلى وجهه، والدم تحته.. كان منظرًا يولد ظلامًا يحرق الضوء.. شمّرت أكمامي ورفعتُ الكلب من فروة ظهره، وجدته خفيفا..

حاذرت أن يمسني رأسه الدامي.. سرت به مسرعاً ورميته في الحفرة.. عدت إلى الشاب ورفعت قدميه إلى خاصرتي.. جررته، فتحرك جسده الضخم منسحبًا على القاع الترابية.. فلتت رجله في منتصف الحوش.. سقطت ومكثت برهة أبكي.. أخذت القدمين مرة أخرى جررته إلى داخل البيت.. علقت ذراعه في زاوية الباب.. تركت القدمين وخلصت الذراع ثم عدت أجرّه.. تحركت قطع الأثاث الصغيرة تحته، وأصدرتْ صوتا فوضويًا.. استمررت أجرّ، كأنني أجرّ نفسي لأخرجها من مهلكة.. خرجت من باب المطبخ إلى الحوش، حتى وصلت به إلى الحفرة.. انحنيت ألهث عند فوهتها فيما عيناي تقلبان الظلام في قعرها. أبعدت الحطام، وسحبته حتى أصبحت الحفرة تحت ظهره.. أخذت نظرة أخيرة إلى السماء قبل أن أخفي سرّي إلى الأبد.. تذكرت لقب سائق الزد: سر الليل.. أنا أحقّ منه الآن بهذا اللقب.. أغمضت عيني على سواد السماء المبقع باللون الرمادي للغيوم.. رجعت به ثلاث خطوات ورأسي مرتفع وعيناي ما زالتا مغمضتين، وفلتت مني القدمان، وهوى جسد لا أعرف صاحبه في حفرة عميقة.. سقطتُ على ركبتيّ وأطلقت آهة ملعونة، كتمتُها بيدي كي لا توقظ الشارعَ حرارةُ الحسرة فيها.

جلست برهة أحاول الإمساك بصدري، بعدما ركض قلبي وراء ما فعلته للتو. لم تنفك حُجُب الخوف عن تلبيس رأسي، والإحساس بالتيه يشير في داخلي إلى كل اتجاه. لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل الآن. فكرتُ أن أهرب، قد يخبر الولد أهله، ربما هذا أخوه الكبير، أو ابن عمه، أو.. لا أعرف. وقفْت مخرجًا الولاعة، قدحت فتضاعفت طبقات الظلام في الحفرة، ثم أطفأتها على ظلام يمحو الوجود، سددت الحفرة بالحطام، فقدحت بالولاعة لأتأكد أنها توقفت عن فتح فيها، كانت مطبقة، لكنني رأيت بضوء الشعلة المتراقص خطًا أسود يسير متعرجًا على الأرض، فإذا هو دم منسحب على طول المسافة من الحوش إلى باب البيت.. تبعته بالولاعة إلى الممر الداخلي.. الحوش الكبير.. ثم البقعة الكبيرة المتخثرة على الرمل مكان جثة سعيد، وبقع صغيرة تخثرت عند مكان

الكلب. تشوشت، فعدت أفتح الحفرة، ثم هرعت إلى الحوش أحمل التراب الملطخ بالدم وأكبّه داخلها. أثر الدم يمكن أن يكون دليلا أكبر من الجرح. أنهكت نفسي ذهابًا وإيابًا، ثم تأكدت بولاعتي أنه لم يبق شيء. ساويت التراب بقدمي، ثم ذهبت إلى البيت أبحث عن شيء يمكنني به مسح الدم الذي على البلاط الداخلي، وجدت قطعة قماش متبقية من وسادة ملقاة تحت النافذة. هرولت إلى الأماكن التي ترك المطر بها ماءه أغمسها فيه، ورحت أتتبع بها مسير الدم، وأزيل الأثر، ثم أعود إلى الحفرة وأعصرها، ثم أهرع بولاعتي وراء الدماء، أمرر عليها القماش حتى تتشرّبه، فأنحني عند الحفرة وأعصرها، ثم أرجع أتلمس مناقع أخرى لماء المطر في الحوش، وولاعتي مشتعلة، حتى حرقت إصبعي دون أن أشعر، غارقا في رغبتي بغسل الكرة الأرضية، إلى أن اختفت كل بقايا الدم وآثار المسح. وقفت عند الباب الخارجي، ألقيت نظرة على الشارع، وخرجت، والحفرة مسترسلة في بث ظلامها في عيني، أخذت سيارتي وهربت إلى البيت.

دخلت البيت مرتبكا، تشتعل حرارة بجسدي، رميت ملابسي واستحممت، فركت يديّ أريد التخلص من جلدهما، أتخلص منهما لو أقدر، من جسدي الذي تشرّب الدم.

أحتاج إلى ولاعة، ولاعة تنير الظلمة التي حفرت صدري.

ثلاثة

سمعت صوت جلبة في الصالة، عرفت أن أبي وصل، تركت القلم وخرجت، وجدته يفتح حقيبة أمام جدتي وأمي، يريهما أعواد بخور. طالت لحيته قليلا. قبّلت رأسه، جلست أشاركهم الإعجاب بحجم الأعواد. جلس أبي على سرير جدتي وحدّثنا عن الرطوبة في كمبوديا، والاخضرار الذي لا يترك مكاناً للتراب، والفيلة سريعة الغضب. جاهدت لإزالة تأثير أوراق عمي، شاركته وصف الجو،

وعدلت له نطق نهر الميكونج، وقلت إن فاكهة المانجو هناك تتميز بحلاوة عالية. استبقت سؤاله: متى زرت كمبوديا -الذي أطلّ من طرف ابتسامته- أقول: قرأتُ عنها استطلاعًا في مجلة العربي.
أخرج من حقيبة أخرى شالين ثقيلين لجدتي ولأمي، وقال إن الثالث لمنيرة. وخرجت يداه من حقيبة أخرى بتولة دهن عود يقول: «رائحته دافئة». وغمز بعينه: «لا تستعمله إلّا في ليلة عرسك». عدت إلى غرفة عمي، سأسأل أبي غدًا عما جرى لعمي.

أربعة

أعدت قراءة ما كتبتُه، عدّلت بعض المفردات وأضفت أخرى، أكملت مستحضرًا ما قاله فهد عن الرجل الملثم:

لم يذكر فهد وجود عمي في التحقيق الأول، ربما لم يذهب عمي للمخفر إلا بعد أحد عشر يومًا، أو ربما أكثر بقليل، عندما علم أنهم بدأوا يجرون بعض التحقيقات حول شاب مفقود.
تذكرت ما قالته جدتي عن الحالة التي كان عليها؛ أخذ يذوي ويزداد وجهه سماراً، لم يكتف بترك الطعام، بل ترك الحديث مع الجميع، اعتزل بغرفته صامتاً طوال الوقت، رفض محاولات أبي لأخذه إلى الطبيب، حتى رضي بعدما أقسمتْ عليه جدتي بأن يذهب وحده للمستوصف، فذهب صباحًا يلف رأسه بشماغ أحمر، وعاد بعد ساعة من غير علاج.
لم يذهب عمي للطبيب، بل ذهب إلى بيت أم غريب ليسكت وساوسه ويتأكد أن الظلام لا يزال يتستّر عليه. لفّ البيت ليتأكد من أن آثار الدم محيت، ولما وصل الحفرة بكى، ربما هو البكاء الذي سمعه فهد حين كان مختبئاً في الغرفة.

وقف في منتصف الحوش يبحث عن أثر للدم أو أي دليل على أنه كانت هناك جثة، ثم خرج لما تأكد من أن المطر محا الأثر.

وعندما ركب سيارته، وتحرك إلى البيت، رأى فهدًا يخرج من بيت أم غريب، وتبعه حتى عرف بيته.

أعدت تشغيل التسجيل الرابع والعشرين لأتأكد أن فهدًا قال في نهايته: «مرّت بي سيارة يمشط صاحبها شعره». ربما كان هذا عمي.

شُغل عمي بمعرفة الشاب الذي قتله؟ وهل رأى ذلك الولد شيئا؟ ما اضطره إلى أن يذهب إلى بيت فهد ذلك الضحى، وربما كان يتردد عليه قبل ذلك، ولمّا وجد فهداً جالسًا أمام الباب، تلثّم خشية أن يتذكر فهد وجهه ويخبر أهله، وسأله عمّا جرى في بيت أم غريب، ثم لما خرجت أم صقر هرب عمي، وبعد ذلك حينما حصل على فهد في المخفر، لازمه، محاولا استخراج أي معلومة تدل على أنه رأى ما حصل. لم يعلم عمي السبب الذي قاد فهدًا إلى تجاهل الأمر، وربما خمّن أنه ولد مجنون. حاول أن يُبعد أي شبهة عن فهد كي لا يقوده التحقيق إلى تذكّر ما جرى، فأخفى السكين، وأتلفَ محضر التحقيق الثاني، وقد يكون هو من طلب من عمّ فهد إنهاء التحقيق، وبعدها أخذ المشهد، مشهد قتله سعيدًا يأكل روحه، لأن حالته انهارت بسرعة، لدرجة أنه ترك العمل كما قالت جدتي، لمدة تقارب سنة، خلالها أخذه أبي إلى مصر، ثم عاد في حالة أفضل بكثير من التي ذهب عليها، وواصل عمله.

قد يكون أول شيء فعله بعد استئنافه العمل هو المرور على بيت أم غريب، وربما كان في ذلك اليوم الذي وجد فهدًا فيه مستلقيًا تحت السدرة، فتوعّكت نفسه لدى رؤية فهد، وأخذه في المرة التالية معه إلى المخفر، وحين أخبره فهد بما رآه يحدث لسعيد في بيت أم غريب، بكى عمي حين عرف سبب كتمان فهد للحقيقة.. آه..

تذكرتُ أول ورقة قرأتها يوم دلّتني جدتي على أوراقه في خزانتها، والتي تحدث بها عن الوهم، ربما تكون عن فهد.

قلّبت فئة الأحداث، ثم وجدتها في فئة الأفكار، كانت ورقة مكتوبة إلى النصف، يمكن القول إنها الأخيرة بعد عدة أوراق مفقودة. قرأت:

تحركت مخيلته بعمل وقائي، تبحث في خبراتها عن أي مشهد تدفع به الخوف والفقد، فلجأت إلى صورة شاشة التلفاز، التي كان يراها بشكل دائم، ثم أدارت داخل مخيلته مشهداً يتّفق مع ما كان يريده لسعيد، ولما كانت الكلمات التي تمسك بعقله قليلة وواهية، والصور كثيرة ومتمكّنة، استسلم عقله، وتواطأ مع الحزن في النفس والخوف، فأُرغمت حواسه على التفاعل مع ما يعطى لها دون رغبة في المقاومة، وصدّق أن الذي ترميه المخيلة حقيقة تحدث أمامه.

بعد ذلك راح يستخدم كل ما يجده لتصديق ما حدث؛ ليعزز العقل ثقته بالحواس مرة أخرى، ولو لم أقل له الذي كان يريد أن يسمعه لربما تآكلت قشرة العقل لديه، ووصل الشك لبّه، وفقدت الصور دلالاتها والكلمات معانيها.

هذا كان تفسير عمي لما حدث لفهد؛ الكلمات، الصور، العقل، المخيلة.. هذا كل ما نعرف به الحياة.

فتنة القضية

واحد

.. تك تك تك تك تك تك تك

الشعور بالذنب هو احتباس حارق، مكوّن من تفاعل عناصر الخوف والحزن، على شيء سيأتي وأمر مضى، يصهر النفس حتى يتغير شكلها. إذا تغير شكلها، فلن تصبح الأشياء التي كانت خطأ تعني أنها خطأ، ستصير أشياء ينبغي لها أن تكون صحيحة.

ربما الذي حصل مع عمي أن نفسه كانت تنصهر بقوة، في حين كانت الكلمات تشكّل لها قالبًا جديدًا تنصبُّ فيه، قالبًا يمكّنها من احتمال الاضطرام الذي تسببه ذكرى القتل، باستدعاء ذكرى إطلاق سراح متّهم، أو مساعدة مظلوم، أو الوقوف بجانب من يحتاج إلى من يقف بجانبه.

.. تك تك تك تك تك تك تك

أتاني شرطي بحادث تصادم، حوّلته إلى أحد زملائي، تركت القلم ونظرت من النافذة إلى تدفق لهيب الشمس وتابعت التفكير: الخطأ غير المتعمّد لا يعبّر عن ميول الإنسان، وليس مقياسًا لاستعداده الداخلي لفعل الشر، ولا يدل على أنه سلوك، كما لا يُحكم على من يتعثّر بحجر أنها طريقته في المشي.

.. تك تك تك تك تك تك تك

خطأ عمي ليس القتل، خطؤه الكتمان، أخفى حقيقة ينبغي عليه كرجل أمن كشفها، شاب في مقتبل المهنة، يزهو بنجمة على كتفه، لن يرمي أيامه القادمة بسبب خطأ غير متعمد. وقفت نفسُه أمام اعترافه واستجاب عقلُه لها؛ لهذا ارتجّ العالم في رأسه، وصار فوضى يحتاج ترتيبها إلى نظام آخر غير الذي كان عليه عندما كان يظن أنه طيب وحريّ بفعل الخير. يحتاج إلى لغة تكون مثل أرفف مكتبة، ترتب كلماتها عناوين الأشياء فيها، تقنع نفسه أن الذي فعله ليس خطأ، من يشعر بالذنب لأنه تعثر بحجر. ربما هذا ما فعله طبيبه، دلّه على الكتابة، ربما قال له إن مطالعة كلمات تتوهج بمعاني التسامح، وأخذ العالم بدرجة أقل من الجديّة، يمكّنها من أن تنفّس الكبت الحاصل من الشعور بالذنب.

.. تك تك تك تك تك تك تك

ما جمعتُه في كتاب الفهم والإيهام يدور حول هذا المعنى.. التوقف عن تحديد الأخطاء.. ترك العالم يمضي وحده دون تدخل لتوجيهه؛ لأن الناس مختلفون في تقبلهم وحساسيتهم، ولا أحد يستطيع إحصاء عدد التفاعلات الداخلية لرغباتهم مع التفاعلات الخارجية للمغويات.

.. تك تك تك تك تك..

أنزلت الساعة من حائط مكتبي، فقد لاحظتُ أن عملية التفكير في رأسي صارت على نفس إيقاع صوت عقاربها، أعطيتها للفرّاش، طلبت منه أن يضعها على أي حائط شرط أن يكون بعيدًا عن باب مكتبي.

اثنان

كان الظل تحت المظلات يتحرك كأن بيني وبينه مادة هلامية. تساءلت: «كيف أواجه نفسي بعد أن عرفت الحقيقة وأخفيتُها؟ إذا سكتُّ عن قول الحقيقة، فربما سيذهب عقلي، ولن أجده في التسامح. الخطأ خطأ رغم كل شيء، لن أتستر، عمي توفي قبل ستّ سنوات. صحيح أن قول الحقيقة الآن لا يقدّم ولا يؤخر، لكنها تبقى الحقيقة».

شعرت أن حرارة الجو انتقلت إلى داخلي، كما لو أن حالة الانصهار بدأت تتفاعل في نفسي.

تخيلت عمي، وأنا أستقلّ الشارع العام أمام المخفر، يخرج من هنا مسرعًا على الدورية يطارد سر الليل، ستنزلق به الدورية بالتأكيد، مثل هذا الحر يذيب الإطارات.

ظهر الدوار أمامي، حيث كانت الحفرة تتأهب قبله، لزمت الحارة الأخرى، وسرت بروية حتى تجاوزتها بسلام، شعرت بنوع كاذب من الخلاص، وأنني هزمتها دون انتصار.

طرأ علي قبل أن أميل إلى المخرج المؤدي إلى طريق بيتنا، أن أذهب إلى قطعة فهد، ربما وجدتُ شيئا يخفف عني هذا الضيق الحار في صدري، أخذت لفة كاملة على الدوار.

كانت البيوت مرصوصة على بعضها، ضيّقتها الترميمات، لم تعد هناك تلك الأحواش التي وصفها فهد، خففت السرعة أتحاشى الحفرة التي أخبرني عنها عباس، دخلت القطعة، مظلات الكيربي تحمي السيارات أمام كل بيت وتعطي منظرًا عشوائيًا. استدرت مع أول منعطف لليمين، وسرت بروية أشاهد الشوارع التي جرت فيها حكاية فهد والبيوت؛ رغم الاختلاف الذي أحدثته السنون إلا أن وصفه ما زال قائمًا. وصلت إلى مواقف مدرسة، ومن أمام مدخل المواقف صعدت إلى زقاق ترابي يفصل بين صفي بيوت، سكة شبّاك

زهرة كما يسمّيها فهد. كانت الشبابيك مغلقة، والأبواب كذلك، عدا بيتين أو ثلاثة. راعيت الحذر وأنا أطأ الحُفَر الترابية الكثيرة في الزقاق، لم يكن ممكنا أن أعرف أي بيت كان لزهرة، من المحتمل أنها تزوجت أو ربما باعوا البيت. حالة الزقاق مزرية، ربما تحوّل لسكن عزّاب. عرفت من ارتفاع صوت مروحة ماكينة السيارة أن الحرارة بدأت ترتفع أكثر، قراءة مؤشر الحرارة تقول إنها خمسون درجة. نزلت من الجهة الأخرى، واستدرت يسارًا إلى بيت جدة سعيد.

وجدت بيت الجدة رابضًا في مكانه. توقفت أمام ما كان بيت أم غريب ذات يوم، بيت من ثلاثة أدوار مكتومة، لم يعد له حوش يتنفس منه، الحفرة الآن تحت خرسانات قواعد البيت، لا سبيل إليها إلا بهدمه، هذا يحتاج إلى إذن من أكثر من جهة حكومية وتعويض مالي لصاحبه، ودليل قاطع أن فيها جثة أصبحت عظامًا. تضاعفت الشمس في السماء، فتحركتُ عائدًا إلى المخفر، تقدمت قليلا فالتفتُّ إلى حديقة جدة سعيد، وقعت عيني على شجرة السدر، الشجرة التي ذكرها فهد في التسجيلات، توقفت أنظر جانبًا إلى ميلان فروعها وتعرّج أغصانها، قلت في نفسي: هذه الشجرة شاهدت الكثير. خمّنت أن عمرها أكثر من خمسين عامًا، كانت جذورها نافرة من الأرض، ويدور حولها تراب داكن بفعل السقاء. من هذا الممر الضيق دخل عمي في ليلة ممطرة. حاولت تخيل المنظر، منظر عمي وهو يخرج بعدما أخفى في الظلمات خطيئته. عزّ علي أن أتخيله هكذا، فتحركتُ مزيحًا عني صورته، وصوت فهد، والكلمات التي كتبتُها، والتي سمعتُها والتي قرأتُها.

صورة عمي

واحد

اخترتُ صباح يوم الجمعة لردم الحفرة، كوقت تقل فيه الحركة. أستطيع أن أسكب سطل الإسمنت، بعد أن أجهزه في البيت، دون أن أسبب ربكة في المرور. كان الصباح يفتح عينيه عندما حملت سطل الإسمنت في صندوق السيارة وانطلقت. حركة السيارات هادئة، تجاوزت المخفر الناعسة إنارته الخارجية. ركنت بجانب الرصيف قبل الدوار، أمام الحفرة، شغلت منبّه التوقف. لم تكن خلفي أي سيارة. حملت السطل بضع خطوات حيث كانت الحفرة تكمن للسيارات.

كانت مثل بقعة ماء كبيرة على ثوب خشن. قدرت أن عمقها شبران ونصف. حوافها المتآكلة تنبئ بأنها تتوسّع. من حسن الحظ أنني وضعت كمية فوق التي توقعت.

علق نسيم الصباح الحلو بأذيال تيار هواء حار.

سكبت السطل داخلها حتى أفرغتُه. توقفتْ أربع سيارات ينظر سائقوها إلى ما أفعله، ثم أكملوا ببطء يلفّون رؤوسهم عليّ حتى وصلوا الدوار. عثرت على قطعة خشب متبقية من عمود كان يثبت لوحة إعلانية مغروسة بجانب الرصيف، اقتلعتها أسويّ بها وجه الإسمنت مع الشارع، شعرت أن شيئاً ما يموت في الحفرة، ربما كان فكرة الحفرة. محوت حروفها من عقلي وصورتها من مخيلتي؛ وشعرت أيضًا أنني أنتقم بهذا الفعل من كل المرات التي حاولتُ تلافيها ووقعت بها.

رَفَعَت الشمس رأسها وانتشر النهار، بحثت حولي عن شيء يصلح كعلامة حتى لا تفسد السيارات الإسمنت بمرورها عليه، عثرت على حجر كبير، فوضعتُه أمامها.

اثنان

وجدتُ أبي مضطجعًا أمام جدتي يشاهد معها طواف المعتمرين في التلفاز حول الكعبة، سلّمت، جلست أشكو: «حرّ فظيع هذه السنة». فباغتني: «أخبرتني أمك أنك تؤلف كتابًا عن عمك».

«نعم صحيح».

«بماذا ستهمّ حياته الناس؟».

«لن أكتب عنه هو، وجدتُ أوراقه عند..» توجهت إلى جدتي مبتسمًا: «عند جدتي هذه الطيبة، التي لا تخفي عني شيئا»، عدت إلى أبي: «كتاباته، تذكرها.. فيها كلام بلاغي وحكيم، وأفكار تستحق أن تكون في كتاب، قلت: حرام أن ترمى في القمامة».

«ولماذا صرت تسأل كثيرًا عن حياة عمك؟».

«لأفهم فقط ماذا حدث له حتى يكتب كل هذه الأشياء».

جلس أبي: «أخبرتك أكثر من مرة».

«أخبرتني أنه عولج، ولم تقل لي كيف كان علاجه».

«الطبيب قال له، قال له اكتب، وكتب. قال الطبيب إن الإنسان إذا عبّر عن أفكاره بالكتابة، يسيطر عليها فيفهمها أكثر. هِه، ويقول إننا إذا فهمنا الخطأ وجدنا العذر»، حوّل الكلام إلى جدتي: «علم النفس هذا كلام فارغ يا أمي، والله ما عندهم إلّا الكلام، ويأخذون مبلغًا لا يستحقونه».

«لكن عمي لم يتعافَ إلا بعد العلاج النفسي» قلت.

«هذا لأن عمك لم يكن مريضًا، كان مضغوطا من العمل، تخيّل أن تطارد المجرمين وتعرّض نفسك للخطر ولا تأخذ راحة، عادل الله يرحمه كان علاجه السفر».

«ماذا قال لكم الطبيب؟» سألته.

عاد يضطجع: «قال كلامًا سخيفا عن الوهم، الالتباس، ولم يخبرني عن بقية التفاصيل لأنها كما قال من الأسرار التي بينه وبين مريضه. كان يجلس مع عادل ساعتين يوميًا، ويجعله يكتب، ثم يطلب منه شطب كلمة وتبديلها بأخرى، وفي النهاية يقول له اقرأ ما كتبتَه كأنها لأحد غيرك، واكتب ردًا عليها. يأخذ على الجلسة مبلغًا ليس بالقليل. عادل صدق هذه الترّهات، وتحسّنت حالته، وأخذ يكتب هنا كلما أحسّ بأنه مضغوط، وأنت تريد أن تأخذ ترّهاته إلى الناس». ضحكنا، فقلت ممازحًا: «إذا كانت هذه ترّهات، فليت كل الكتب تُرّهات».

ثلاثة

استحممتُ، واضطجعت على سرير عمي، أقلّب رأسي في ما هو الحل الأمثل. أنا مقتنع أن الكشف عن الحقيقة لا يقدّم ولا يؤخر، وأعرف أن النيابة لن تأخذ الأوراق التي حملتْ اعتراف عمي بعين الاعتبار، ولن تهدم بيتاً لمجرد أن أحدهم قد يكون كتب في ورقة مفقودة أن جثة مطمورة في حفرة تحته.

صورته المبتسمة على الجدار، تقول لي اكتب حتى تصل إلى حلّ يرضيك. أدوات التشريح ستساعدك في تفكيك السياقات وعزل خيوط الفكرة.. ادفن الحفرة.. داخلك حفرة ستتوسع.. اكتب ماجد، اكتب عن كل هذا؛ ريش، صور تتخاتل، طيرٍ طار، أشياء ترتفع، من البداية، من البداية..

أربعة

كتبت كل ما عرفته، تتبعت في دهاليز رأسي الدخان الأبيض الذي نسميه حيرة. لأول مرة أجدني أكتب لأمحو.. أعرف لأجهل .. أتذكر لأتيح للنسيان فرصة تتبعي، كي تتوقف الكلمات في رأسي عن الإشارة لمعانيها.

وبعد ثلاثة أيام، خرجت من غرفة عمي ليلا، أحمل كل ما كتبته، وملفا قضية اختفاء سعيد وملف ما رواه فهد نشوان، بعد أن دمجتهما ببعضهما وخللتهما ما كتبته، محافظا على زمن وقوع الأحداث، وتوقيت اكتشافي لها وانطباعي عنها. وخرجت إلى الحديقة، والدجى منبسط فوق الأشياء، بيدي ولاعة أريد أن أصنع بهذا كله طائرًا يطير بلا ريش ولا منقار. ولما قدحت الولاعة، سكنت أتأمل لسان اللهب، أفكر بأن الحرق ليست الصفة الوحيدة للنار، لها صفات نافعة كثيرة، لكن الأذى الذي يسببه الحرق جعلها تتميز به. قربت الولاعة من الأوراق، أنارت الكلمات الغارقة في معنى لا يتخلّق إلا بفعل القراءة، فتركت الشعلة ترقص قليلا أتامل تداخل الحروف في بعضها، وانتظام الكلمات بجانب بعضها البعض، لتقول معنى مفهوما في العقل، وترسم صورة معروفة في المخيلة، عندها قلت لنفسي والرقاقة المعدنية لرأس الولاعة تتصاعد فيها الحرارة وتكويني: لماذا لا أعطي هذه القصة فرصة للخلود.